وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الخطة الوطنية للترجمة
١٣

غورا

رواية

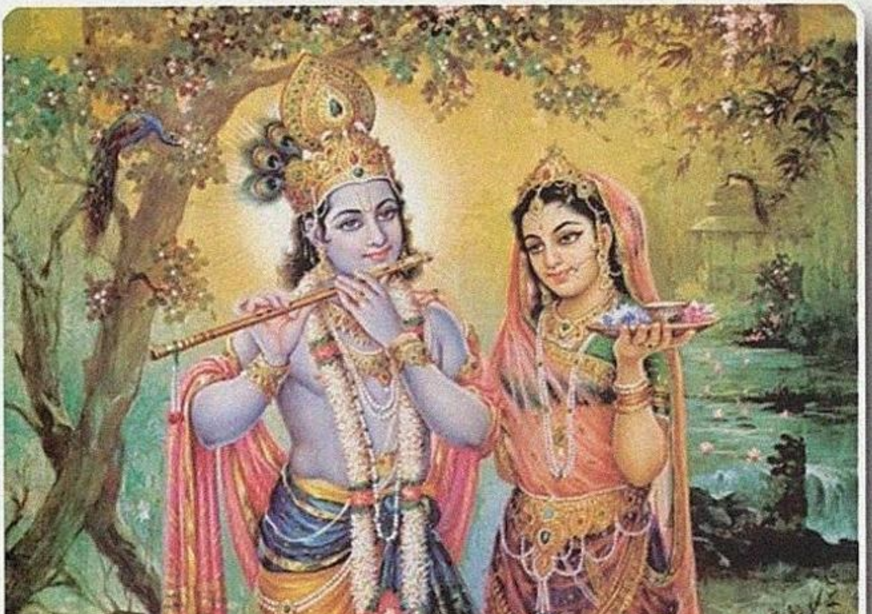

تأليف : رابندرانات طاغور
ترجمة : د. ماري شهرستان

الخطة الوطنية للترجمة
(١٣)

غـــــورا

رواية

تأليف : رابندرانات طاغور
ترجمة: د. ماري شهرستان

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٥م

غــورا

العنوان الأصلي للكتاب:

Rabindranth Tagore

GORA

غورا = GORA / تأليف رابندرانات طاغور؛ ترجمة ماري شهرستان.
- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٥م.- ٦٤٠ص؛ ٢٤ سم
(الخطة الوطنية للترجمة؛ ١٣)

١-٨٩١,٤ ط ا غ غ ٢- العنوان ٣- طاغور
٤- شهرستان ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

فيما يخصّ الكاتب

رابندرانات طاغور[1]

ولد «رابندرانات طاغور» في «كالكتّا» عام ١٨٦١، في عائلة براهمانيين مصلحين، كان والده أحد مؤسسي الحركة الدينية المسماة «براهمو - ساماج».

بدأ تأليف قصائد شعرية ونشر أول مجموعة له في سنّ السابعة عشرة. وتابع الكتابة وأسّس عام ١٩٠١ مدرسة «فيسفا - بهاراتي»، التي كرّسها للثقافة الهندية حيث أصبحت لاحقاً جامعة عام ١٩٢١.

كان قريباً من «غاندي» الذي سمّاه «المهاتما» - أي «الروح النبيلة»- غير أنّ «طاغور» ظلّ على هامش السياسة لكنه في الوقت نفسه كان ينادي بـ «وحدة المعتقد» والمساواة بين الديانات الهندية والمسيحية والإسلامية. توفي عام ١٩٤٢.

(١) الكاتبة والمترجمة مارغريت غلوز Marguerite Gloz.

مُقدِّمة

بقلم الدكتورة ماري شهرستان

«غورا» عنوان رواية الأديب الهندي الكبير «رابندرانات طاغور»(١) وهو اختصار لِاسم بطل الرواية «غورمُهان» أي «الوجه الشاحب». وتعتبر رواية «غورا» من أهمّ الروايات والقصص العديدة التي ألَّفها طاغور، والتي ليست جميعها سوى وسائل تخدم غايات ثورته على مثالب المجتمع الهندي الداخلي وتخلفه من جهة وعلى الاستعمار البريطاني المستبد من جهة أخرى. لقد كان مقتنعاً أنَّ الأدبَ ينبغي ألاّ ينفصل عن حياة الشعب لذلك توجَّه إلى الموضوعات المستمدة من شعور وآلام أبناء مجتمعه(٢).

---

(١) لقد عُرِف أيضاً بلقب «غوروديف» Gurudev.

(٢) كان طاغور يقضي معظم أوقاته في مركب (معد للسكن) يجوب نهر بادما (**نهر الغانغ**)، وكان على احتكاك مباشر مع القرويين البسطاء. ولقد شكلت الأوضاع المعيشية المتردية للفلاحين، وتخلفهم الاجتماعي والثقافي موضوعاً متكرراً في العديد من كتاباته، دون أن يخفي تعاطفه معهم. ويعود أروع ما كتب من نثر وقصص قصيرة تحديداً، إلى تلك الحقبة الثرية «معنوياً» في حياته، وهي قصص تتناول حياة البسطاء، وآمالهم وخيباتهم، بحس يجمع بين رهافة عالية في التقاط الصورة وميل إلى الفكاهة والدعابة الذكية، التي ميزت مجمل تجربته النثرية عموماً. لقد عشق طاغور **الريف البنغالي** الساحر، وعشق أكثر **نهر** «**بادما**»، الذي وهبه أفقاً رحباً لتجربته الشعرية الغنية، وأثناء تلك السنوات نشر طاغور العديد من الدواوين الشعرية لعل أميزها «سونار تاري» (**القارب الذهبي، ١٨٩٤**) إضافة إلى **مسرحيات** عدة أبرزها «تشيترا» (١٨٩٢).

ينتقد طاغور من خلال هذه الرواية التعصب الذي وقعت فيه حركة «البراهمو – ساماج»[1] والتي يبدو أنها خرجت عن المقاصد التي قامت من أجلها، فأعضاؤها يرفضون الزواج من الهندوسيين أي أنهم عادوا إلى الانعزال ورفض الآخر. لقد رفضت الطائفة زواج «لوليتا» من «بينوى»»، الهندوسي الصراطي، واعتبروه فضيحة اجتماعية كبيرة، لأنَّ هذا الزواج لن يتم وفق الشعائر والطقوس «البراهمو – ساماجية» ويُعلِمون أباها «باريش بابو» برسالة رسمية بأنهم فصلوه عن الطائفة بسبب إقامة هذا الزواج بموافقته ورعايته... وهو يجيبهم بقبول الفصل وبإصراره على إقامة العرس بموافقته وبرعايته.

هذا هو موقف طاغور الشخصي من الحركة الإصلاحية التي ساهم أجداده بتأسيسها والتي تحولت بدورها إلى طائفة مغلقة ومتعصبة. فيقول في هذا الإطار ضمن مقال له: "إنني لم أصل إلى ديني الذي أعتنقهُ عن طريق القبول المستسلم فقد ولدت في أسرة كان أفرادُها رواداً لديانة كبرى في بلادي، ولكن وفقاً لما جُبِلتُ عليه من ميول فطرية كان مستحيلاً عليَّ أن أقبل ديناً لا لشيء إلاّ لأن آبائي كانوا به يؤمنون. لقد نشأ عقلي في جو من الانطلاق والتحرر".

يعتقد طاغور أنَّ العدو الأكبر للهند موجود في الهند نفسها وذلك في الخرافات العمياء وتأليه التقاليد والعادات وفي الديانة الكاذبة والشقاء الكبير الذي يمسك بتلابيب الشعب الهندي. وقد قام بهجوم عنيف في مقال له على

---

(١) أطلق« روي» عام ١٨٢٨ حركة إصلاح ديني أصبحت مشهورة باسم «براهمو ساماج» *Brahma Samaj* دعمه بهذه الحركة «دواركانات» جد طاغور ثم أصبح والد رابندرانات، «ديبندرانات»، مشايعاً نشطاً فيها. ولتشجيع الانتماء إليها ونشرها أنشأ عام ١٨٦٣ مركزاً للتأمل حيث يمكن الإقامة فيه على أراض يمتلكها وهي تبعد حوالي ١٥٠ كم عن «كلكتّا» في موقع باسم :«سانتينيكتان» *Santiniketan* أي «مرسى السلام». المصدر: المجلة الفصلية للتربية المقارنة (باريس اليونيسكو، المكتب الدولي للتربية جزء ٢٤ رقم ٤١٣ – ١٩٩٤ صفحة ٦٣١ –٦٤٨).

النظام الطائفي في المجتمع الهندي موضحاً أنه يحطم المواطنة ويوهن الحيوية الروحية ويعطل العقد الاجتماعي وقال في ذلك: «نهضة الشعب الهندي من جديد في رأيي تعتمد مباشرة ولعلها تعتمدُ كلياً على إزالة هذه الحالة» في هذه الرواية يقرّ طاغور بأنَّ الإنسان مفطور على حب وطنه، كما يقرّ بأنَّ العمل الأسمى الوحيد هو العمل لمصلحة البلاد، ويدعو للمواطنة في وحدة المجتمع الهندي.

يبحث طاغور[1] في هذه الرواية عن هويّة الأمة الهندية وعن هوية كل شخصية. أمّا فلسفياً فيبحث عن الفروقات بين الأديان عالميّة كانت أم محليّة، ويفرّق بين التديّن وبين التعصّب الديني؛ ويحثّ على الاستمرار في البحث والتطوّر للتخلّص من التخلف[2] بقوله: «إنَّ هدف البحث الإنساني ليس سوى رؤية للـ«جديد» الذي يتألّق في قمة الـ «قديم» المشتعلة عندما يفسد ويتلف». كما يبرز التباين بين الطبقات وبين مختلف التقاليد المتنافرة الموجودة على الساحة، ويبحث في العاطفة بين الآباء والبنات، وفي الوطنية والزواج، وفي العلاقة بين الفرد والمجتمع، وبين الحاكم والمحكوم.

---

(١) قدم طاغور للتراث الإنساني أكثر من ألف قصيدة شعرية، وحوالي ٢٥ مسرحية وثمانية مجلدات قصصية واثنتي عشرة رواية، إضافة إلى عشرات الكتب والمقالات والمحاضرات في الفلسفة والدين والتربية والسياسة والقضايا الاجتماعية، والبحوث والكتب في علم اللغة. وإلى جانب الأدب اتجهت عبقرية طاغور إلى الرسم، الذي احترفه في سن متأخرة نسبياً، حيث أنتج آلاف اللوحات، كما كانت له صولات إبداعية في الموسيقا، وتحديداً تلحينه أكثر من ألفي أغنية، اثنتان منها أضحتا النشيد الوطني للهند وبنغلاديش: آمار شونار بانغلا Amar Shonar Bangla ، وجانا غانا مانا Jana Gana Mana

(٢) أسس طاغور مدرسة تجريبية في «شانتينكايتان»، حيث سعى من خلالها إلى تطبيق نظرياته الجديدة في التربية والتعليم عبر مزج التقاليد الهندية العريقة بتلك الغربية الحديثة، واستقر في مدرسته مبدئياً، التي تحولت في العام ١٩٢١ إلى جامعة «فيسفا-بهاراتيا» أو (الجامعة الهندية للتعليم العالمي).

وفي قضية المرأة، فقد عُرف عن عائلة «طاغور» أنها لعبت دوراً أساسياً في معظم التحولات الاجتماعية والثقافية التي شهدها اقليم البنغال خلال القرنين الماضيين، وعلى رأسها قضية تحرير المرأة البنغالية من أغلالها الاجتماعية، وبالتالي السماح لها بالتعلم والسفر بمفردها، وبارتداء ملابس ملائمة للخروج والقيام بأعباء العمل. وقد عزّز «طاغور» هذه الإصلاحات بمجرد عودته من رحلته إلى أوروبا من خلال سلسلة من الخطب والمقالات ومختلف الأشكال الأدبية والبحثية والفنية التي عبَّر من خلالها عن نظرته الغاضبة بخصوص وضعية المرأة في العادات الهندية الظالمة مقارناً فيها بين الاختلاط الحر ما بين الجنسين في إنكلترا، وعزلة البنغاليات اللواتي كن وقتذاك حبيسات البرقع والمنزل. وتشكّل قضية المرأة الأرملة في الهند ظاهرة اجتماعية معقدة ومؤلمة، فالأرملة وإن لم تحرق نفسها، ينبغي عليها أن تصبح بحكم الموؤدة في قسم الحريم، ممنوعة من الزواج، محاصرة من جميع الجهات، تعاني على جميع الأصعدة النفسية والاقتصادية، لأن المجتمع والقانون لا يدعمانها. وهاهم سكّان الأرياف في رواية «غورا» يرفضون موضوع زواج الأرامل عندما قام «غورا» بطرحه قائلين: «كل ذلك جميل جداً، لكننا نود أولاً أن نراكم – أنتم البراهمانيون[1] – تتبنون زواج الأرامل، بعدها سنتبناه نحن».

(١) التعبير «براهماني» مشتق من اسم «براهما»، و«براهما»: هو الإله الخالق وحامي العالم. رفيقته هي « ساراسواتي Saraswati » إلهة المعرفة. وبراهما نفسه قد خلق من تموجات الإيقاع الكوني OM. براهما هو أول عضو في الثالوث المقدس للآلهة الهندوسية العظمى. الأعضاء الآخرون هم «فيشنو» و«شيفا» وزوجته «شاكتي» التي هي طاقته. مطية «براهما» إوزّ أو إوزّ عراقيّ. لونه أحمر. وهو يذكر كثيراً في «المهابهاراتا وفي الرامايانا والبوراناً». يتدخل «براهما» فقط في قضايا الآلهة ونادراً ما يتدخل في قضايا الأموات. يعيش «براهما» في «براهمابورا» وهي مدينة تقع في جبل «ميرو Meru». «براهما» هو الفاعل في «البراهمان» «الذات الأسمى» في الديانة الهندوسية.

ويوصي «طاغور» في هذه الرواية بأنّه "ينبغي الاعتراف بالمكانة التي تستحقها المرأة وألا تبقى الفكرة نظرية ومبهمة دون تحقق فعلي، "إذ كلما أبعدنا المرأة وحرمناها دورها في حياتنا ضعفت قدرتنا كإنسان". كما يرفض الذهنية التقليدية التي تستثني الذكور من النواهي والمحظورات لأن الجنس القوي له ميزة مخالفة النظام والنواهي حتى عندما تفرضها الصراطية الهندوسية.

تدور أحداث هذه الرواية في الجزء البنغالي من الهند، في مدينة «كالكُتّا» تحديداً وفي الأوساط الثقافية منها على وجه الخصوص حيث يتم الجدل حول المجتمع الهندي وموقفه من الاستعمار البريطاني وتعسفه. ويتمحور النص بشكل أساسي حول الديانات الهندوسية والمسيحية والإسلامية، وحول الحركات الإصلاحية الدينية، وحول الروابط الاجتماعية ومعوقات التفاعل بين الطوائف والمذاهب بسبب العادات السلبية والمفاهيم الجامدة المتحجّرة، بالإضافة إلى الموضوعات السياسية.

يقدم طاغور في هذه الرواية صوراً عن الحب والصداقة عابرة الطوائف والمذاهب بكتابة رائعة وعبر شخصيات أخّاذة: إنها شخصيات تكتشف في نفسها مشاعر مركبة ومتناقضة أحياناً، ناجمة عن نقص في خبرة المعاشرة بين الطبقات المنعزلة عن بعضها بعضاً وبين مكونات الطوائف والمذاهب المتعددة والمتناحرة فيما بينها.

شخصيات الرواية وأدوارها

١- «أنانداوموا» Anandamoy، حفيدة بانديت، كبير علماء الدين في بيناريس، وزوجة «كريشنادايال».

٢- «كريشنادايال» Krichnadayal هندوسي تقليدي يعمل موظفاً إدارياً.

٣- «غورا» Gora تبنته العائلة السابقة بعد أن قُتلَ والده في حوادث شغب في «إيتاوا» Etawa ولجأت والدته إلى منزل هذه العائلة طلباً للأمان وتوفيت بعد أن وضعته، والوالدان كلاهما من أصول إرلندية. لكن غورا ظلّ جاهلاً أصوله الإرلندية هذه ولم يعرفها إلا في نهاية الرواية.

٤- «مُهيم» Mohim، ابن «كريشنادايال» من زوجته الأولى المتوفاة، أي الأخ المفترض لــ«غورا» يعمل في وزارة المالية.

٥- «بينوى» : Binoy – Bhusan Chatterji، صديق «غورا» الحميم، وهو شاب عازب ينتمي إلى الطائفة الهندوسية الصراطية التقليدية.

٦- «باريش شاندرا بهاتاشاريا» Paresh- Chandra Bhattacharya، رجل حكيم يعيش وعائلته في الحي نفسه الذي يعيش فيه «بينوى»، وهو من طائفة «البراهمو – ساماج».

٧- «بارودا» Baroda زوجة «باريش – شاندرا»، وتنتمي أيضاً إلى «البراهمو – ساماج» ومتعصبة جداً لهذا الانتماء.

٨- «لابونيا» و«لوليتا» و«ليلا»، Lila، Lolita،Labonya بنات «باريش – شاندرا» و«بارودا».

٩- «سوشاريتا» Sucharita، يتيمة تعيش منذ أن كانت في السابعة من عمرها في عهدة «باريش» و«بارودا» بناء على وصية والدها «رام بابو» الذي اعتنق عقيدة «البراهمو - ساماج» قبل وفاته.

١٠- «ساتيش» Satish شقيق «سوشاريتا» يعيش أيضاً مع شقيقته «سوشاريتا» في كنف عائلة «بهاتاشاريا».

١١- «هاران» Haran، صديق عائلة «باريش - شاندرا»، وعضو ناشط في طائفة «البراهمو - ساماج»، وعريس مفترض لـ«سوشاريتا».

١٢- «هاريموهيني» Harimohini، خالة «سوشاريتا»، أرملة، هندوسية تقليدية متعصبة، لعبت دوراً سلبياً في بذلها جهوداً لتزويج «سوشاريتا» من ابن سلفها ما دفع بالصبية إلى حسم أمرها في موضوع حبها لـ «غورا».

١٣- «كيلاش» Kailash ابن سلف «هاريموهيني»، وهو أرمل، تقترحه الخالة «هاريموهيني» عريساً هندوسياً لابنة أختها «سوشاريتا».

١٤- «آبيناش» Abinash رفيق في النضال وعريس منتقى لابنة «مُهيم».

١٥- «سودهير» Sudhir صديق عائلة «باريش بابو» يرافق بنات العائلة.

١٦- «لاشميا» Lachmiya خادمة مسيحية(١).

---

(١) أطلق على المسيحيين في الهند اسم: «مسيحيّو توما» إذ وفق التاريخ المنقول وصل الرسول «توما» عن طريق البحر إلى ساحل «المالابار» بغية نشر الفكر المسيحي تنفيذاً لوصية المسيح: «اذهبوا وبشروا جميع الأمم» وعاش في مدينة مدراس في القرن الأول الميلادي في عام ٥٢ تحديداً ودفن في هذه المدينة وأصبح قبره مكاناً مهماً للحجّاج. شكّل المسيحيون مجموعات عديدة وكنائس في جنوب الهند على الأخص في «الكيرالا» وهذا يعني أن المسيحية قد انتشرت فيها قبل أن تنتشر في اوروبا. وتتبع هذه الكنائس الطقس والشعائر واللغة السريانية أي السورية وهي لهجة آرامية، اللغة التي تكلم بها المسيح. لقد تم التحقق والمصادقة على وجود «مار توما» والتلميذ «بارتلماوس» في الهند منذ أواسط القرن الثاني بعد ان قام «بانتين الإسكندرية» برحلة إلى الهند بناء على طلب أسقف الإسكندرية «ديميتريوس» إذ كان العديد من سفراء الهند قد طلبوا منه إرسال بعثة إلى بلدهم لمعاينة الأوضاع محلياً. عاد «بانتين» ومعه نسخة من إنجيل «متى» مكتوبٌ باللغة العبرية ولم يحتوِ إلا على أقوال يسوع.

يعيش «غورا» في كنف عائلة «كريشنادايال» الهندوسية الصراطية معززاً مكرماً يلقى العناية والحنان من «أناندامويا» التي رعته كأمه، ودرس في الجامعة واكتسب ثقافة عالية قومية وعالمية، ولما كان يمتلك حساً وطنياً قوياً رافضاً للاستعمار الإنكليزي والاستكانة له، اندفع يناضل من أجل التحرر ورفع المظالم عن الشعب المقهور.

وخلال رحلة قام بها «غورا» في الأرياف، جُرِحَ شخص إنكليزي، فتمَّ إثرها اعتقال سكان البلدة جميعهم بمن فيهم الشيوخ. سُجِنَ «غورا» معهم وذاق مع المساجين جلد المستعمر للشعب وشاهد معاملته السيئة لهم فازداد يقيناً بالمضي في نضاله ضد المستعمر الغاشم. ويقول في هذا الصدد: «كل إنكليزي هو من عرق الأسياد وأية إهانة توجَّه إلى أصغر شخص من العرق الأبيض تساوي نوعاً من الثورة ضد السيادة البريطانية».

و«غورا» مواطن ثابت في مسيرته القومية وأمين لتطلعات وطنه المستقبلية فيقول في هذا الصدد: «هدفي ومرامي هو الهند مهما وُجِّه لها من انتقادات. لا أضع أي شخص فوقها لا أنت ولا أنا ولا أحد آخر. أرفض أن أقوم بأيّة حركة تبعدني عنها قيد شعرة».

وهو ذو شخصية متحكمة مستبدة، آراؤه قطعية لا يترك مجالاً لرأي الآخر، يدافع عن أفكاره بشكل مقنع ويتميز بالشجاعة والحزم، الأمر الذي جعل منه رئيس حزب ناجح، باسم :«جمعية الوطنيين الهندوسيين» يقوم فيها صديقه «بينوى» بعمل السكرتير في الجلسات التي تعقد مرة كل شهر.

وفي موضوع التعصب الديني والمذهبي والإثني يقول «غورا» : «أن تكون هندياً لا يعني أنك تنتمي إلى حزب. الهنود يشكلون أمة وأمة كبيرة لا يمكن لهويتهم أن تحدَّد بحدود دقيقة، فكما أنَّ المحيط يتميز عن الأمواج التي تكوِّنه، فالحضارة الهندوكية تتميز عن المذاهب التي فيها».

وبرأيه أنَّه لا أحد ينبغي أن يفرض سلطة مذهبه وكأنه يغمض عينيه ويتخيل أنَّ كل البشر متشابهون وأنهم خلقوا ليدخلوا في مذهبه «البراهمو -

ساماج» على سبيل المثال، هل يبغي بذلك تحويل الهند إلى نمط واحد ويعتقد أنّه يعبد الله الذي خلق البشر مختلفين وأرادهم على هذا الشكل؟ فيكون عندها قد رفض ما هو مهمّ جداً بالنسبة إلى الإنسانية في رفض خصوصيات كل أمة على حدة فتصبح حينذاك الأمة الهندية كالأمم التي لا تتحقق سعادتها إلا بغزو الأمم الأخرى ووضعها تحت نيرها وبالتالي تحوّل الأرض إلى العبودية.

كما ينتقد الأديان التي تتمسك بمعتقد مفاده أن خلاص الإنسانية لن يكون إلا عن طريق الانتماء إليها! فإما الإيمان بها أو اللعنة الأبدية...

أما «بينوى» فهو يتيم أيضاً لم يعرف أباه وفقد والدته في طفولته فتبناه عمّه في الريف ثم عاش في «كالكتّا» حياة طالب وحيد. ومنذ أن تعرّف بـ«أناندامو ا» (أم «غورا») أصبح يناديها ماما. وهو يعيش وحيداً مع الخدم لكنه يعاشر عائلة «كريشنادايال» بشكل دائم.

و«بينوى» قد أكمل دراسته الجامعية منذ زمن، وكان مجّداً في دراسته ومتفوقاً فيها، وكان يحصل على معدلات عالية ومنح دراسية. وهو دون عمل ثابت، يكتب من حين لآخر مقالات في الصحف وينظّم بعض الندوات. وهو ذكي ومرهف جداً لكنه سريع التأثر، لذلك يعتقد المجتمع أنه يعيش في ظلال صديقه المفضل «غورا» وأنّه متأثر بآرائه. وهذا الأمر ليس غريباً لقد لعبا معاً ودرسا معاً في الجامعة وحفظا نصوصهما معاً عن ظهر قلب.

حصل ذات يوم حادث مرور أمام منزل «بينوى» حيث اصطدمت عربة جياد متواضعة بعربة فاخرة (تجرها أربعة جياد)، كانت حصيلته وقوع العجوز «باريش شاندرا بهاتاشاريا» متأذياً وكان برفقة صبية حسناء «سوشاريتا»، وهذه العائلة تقطن في الشارع نفسه الذي يقطنه «بينوى»، وتنتمي إلى الحركة الدينية الإصلاحية: «براهمو- ساماج».

ساعد «بينوى» جاره الجريح «باريش بابو» وجلب له الطبيب. ولما دعوه لزيارتهم في منزلهم بدأت معرفته بهذه العائلة «البراهمو- ساماجية»، وأصبح زائراً اعتيادياً لها، وتزوج لاحقاً من ابنتها «لوليتا».

الشخصية العاقلة والوقورة في هذه الرواية تبرز في دور «باريش شاندرا بهاتاشاريا» الذي يعبّر عن رأي «رابندرانات طاغور». يعيش «باريش بابو» في اتحاد دائم مع الله ويقود ذهنه باتجاه الحق والخير والجمال. يتمتع بحرية الفكر ويحترم حرية الآخرين، يثق ثقة طبيعية بطيبة الإنسان ويصبر على أخطائه. والضمير الفردي في رأيه شأن مهمّ جداً، كذلك عدم الحكم بحسب المظاهر. إنه الأب الحنون المثالي والأمين على ثروة اليتيمين «سوشاريتّا» و«ساتيش». يبدي انفتاحاً بالتعامل مع الطوائف الأخرى بعكس زوجته «بارودا» التي قامت بتبديل اسم الفتاة التي عهد إليها بتربيتها، من «رادهاراني» إلى «سوشاريتا» لأنَّ مدلوله أقل هندوسية من اسمها الأصلي!..

أمّا «لوليتا» فقد بدت متأثرة بتربية والدها فهي عندما قرَّرت الزواج من «بينوى» الهندوسي التقليدي الصراطي وهي ابنة «البراهمو – ساماج»، رفضت أن يغير «بينوى» ديانته من أجل الزواج بها امتثالاً لرغبة والدتها ورغبة الطائفة الساماجية... فتقول لـــ «أناندامو»: «ليس من الضروري أن يقطع الإنسان علاقته بمجتمعه ومعتقداته وديانته من أجل الارتباط بكائن إنساني آخر...»

وتقول «أناندامو» في هذا الصدد: «لماذا تخلق المعتقدات الدينية جدراناً عازلة بين البشر؟ ينبغي أن يُبنى الزواج على اتحاد القلوب، فإن لم يكن لهذه الوحدة وجود، ما أهمية تلاوة النصوص المقدسة؟ يكفي أن يُقَدَّس الزواج باسم الله».

كشف «طاغور» عبر حوارات أبطاله حالة التعصب الطائفي والمذهبي المتفشي في الهند وعلى الأخص التعصب الهندوسي الذي عبَّر عنه «كريشنادايال» في الجزء الأخير من الرواية بقوله لـــ«غورا»: «لا تملك الحق بالدخول إلى قلب الديانة الهندوسية لأنَّ كل قطرة من الدم الذي في عروقك، وكل جسدك من قدميك إلى رأسك، كل ما فيكَ يرفض ذلك. لا

يمكنك فجأة أن تصبح هندوسياً، فمهما كانت رغبتك فهي غير قابلة للتحقق. ينبغي أن يستحق الإنسان ذلك على مدى حيوات عديدة سابقة لولادته....»

كانت تلك هي المفارقة الكبرى في نهاية الرواية أي رفض «كريشنادايال» اشتراك «غورا» في مراسم التطهّر الهندوسية، «غورا» الذي ربّاه وعلّمه حتى أصبح هندوسياً ورعاً أكثر من الهنود أنفسهم، لقد استبطن القيم والعادات ودافع عنها بحماسة ثم تلقى الصدمة بأنه ممنوع من العبادات والشعائر التي قدّسها منذ طفولته؟!

يحلّل «طاغور» هذه الحالة على لسان بطله «باريش بابو» بقوله: «لا يمكن الدخول في الدين الهندوسي من خارجه، إنّه ليس مجتمعاً منفتحاً على البشرية بأكملها، إنّه منفتح فقط على من جعله قدَرُهُ يولد هندوسياً».

ويقول «باريش بابو»: «توجد في الطبيعة قوانين تحمي المجموعات البشرية، لكن الذي يدحض الطبيعة لن يكون محمياً منها، المجتمع الهندوسي يحتقر ويهين الكائن البشري، لهذا السبب يصبح من الصعوبة بمكان أن نحتفظ باحترامنا لأنفسنا، ينبغي علينا ألاّ نفكر بعد اليوم في أن نختبئ خلف حجاب واقٍ، فدروب العالم مفتوحة في كلّ الاتجاهات والناس تستثمر تجمعاتنا التقليدية من كل الجوانب، لن ننجح في قطع كل علاقة مع الآخرين حتّى وإن رفعنا الجدران العازلة وبنينا السدود بشكل مجموعات من القوانين. إذا لم يستجمع المجتمع الهندوسي ما بقي له من قوى، وإذا ترك نفسه عرضة لاجتياح مرض الأوامر والنواهي والتعليمات العقيمة فإنَّ العلاقات الحتمية التي لا يمكن تجنّبها مع العالم الخارجي ستجلب له ضربة قاتلة».

ويقول «غورا» لـ «باريش بابو» في نهاية الرواية: «اجعلني تلميذك وعلمني صلوات وعبادات هذه الألوهة التي هي ملك الجميع، الهندوسي والمسلم والمسيحي والبراهمو على حدٍ سواء، تلك الألوهة التي لا تغلق أبواب معبدها بوجه أي إنسان ولا أية طبقة. ذلك الإله الذي ليس فقط إله الهندوسيين بل إله الهند بأكملها».

الفصل الأول

كان ذلك في «كالكُتّا»[1] خلال موسم الأمطار وقد أضاء نور الشمس السماء وملأ الأفق حالما تبدّدت الغيوم الصباحية. من شرفة شقّته الكائنة في الطابق الأول كان «بينوى» وحيداً يستمتع في وقت فراغه بمراقبة حركة المارّة التي لا تنقطع ذهاباً وإياباً. لقد أنهى دراساته الجامعية منذ زمن بعيد غير أنّه لم يتزوج بعد، وحتّى ذلك الحين كان لا يزال بلا عمل منتظم، يكتب بعض المقالات في الصحف وينظّم بعض الاجتماعات، إلاّ أنّ ذلك لم يكن كافياً لملء فراغ حياته، وفي هذه الصبيحة، بدا عصبيّ المزاج نتيجة لعدم التزامه بوظيفة محدَّدة.

---

(١) «كالكتّا» কলকাতা: تقع «كالكتّا» في البنغال الغربية. في الجزء الشرقي من الهند في منطقة دلتا الغانج مساحتها 18 500 ha = 185 km2. هي العاصمة القديمة لإمبراطورية الهند البريطانية والعاصمة الحالية للبنغال الغربية. تمتد هذه المدينة على الحافة اليسرى لنهر «هوغلي Hooghly»، وقد توسعت بشكل كبير على أراض سبخية (نقعية أو مستنقعات) قديمة. والمستنقعات الباقية غدت معروفة باسم مستنقعات شرق «كالكُتّا» وأعلنت منطقة طبيعية ذات أهمية عالمية. بالرغم من أنّ اسم المدينة كان يلفظ على الدوام بـ«كولكاتا او كوليكاتا» باللغة البنغالية، غير أنّ الاسم الرسمي باللغة الإنكليزية ظلّ «كالكتّا» Calcutta» حتى عام ٢٠٠١ حيث تم تغييره إلى «كولكاتا Kolkata » للتعبير عنه باللغة المحلية. مناخ هذه المدينة استوائي ذو رياح موسمية من النموذج Aw وفق تصنيف «كوبّن Köppen». يبلغ وسطي الحرارة فيها °C ٢٦،٩.

أمام المخزن المقابل لمنزله، كان هناك متسوّل[1] يُغنّي، مرتدياً ثوباً مبرقشاً، هو ثوب الموسيقيين الجوالين:

قلبـــي قفص مقفـــول   لا أدري كيف عصفور مجهول

يدخل ويخـــرج ويـــدور

لـــو استطعتُ أســـره   لربطتـــــه بحبـــل مضفـــور

حبـــل حبي المنـــدور[2]

ودّ «بينوى» أن يدعو المُغنّي المتسوّل إلى شقته كي يدوّن تلك الأغنية عن العصفور المجهول. لكن وكما يحدث أحياناً في قلب الليل عندما يفاجئنا البرد ونكون كسالى إلى أبعد حدّ ولدرجة لا نستطيع معها أن نمدّ يدنا لنتدثر بدثار إضافي، فالمتسوّل لم يُدعَ، وأغنية العصفور المجهول لم يتمّ تسجيلها. لكن اللحن فقط ظلّ يتردّد في رأس «بينوى».

خلال ذلك الوقت تماماً، حصل حادث أمام المنزل. اصطدمت عربة أجرة متواضعة بعربة فاخرة يجرّها جوادان، وتابعت هذه العربة سيرها بأقصى سرعة دون أن تولي أدنى اهتمام للعربة الصغيرة التي صدمتها في طريقها والتي بدت مقلوبة تقريباً. هرع «بينوى» إلى الشارع فرأى فتاة شابّة في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها تخرج من عربة الأجرة، بينما كان رجل متقدّم في السن يحاول أن ينزل منها بصعوبة. أسرع «بينوى» لمساعدتهما، وأمام شحوب الشيخ العجوز، سأل:

- "آمل ألاّ تكون قد تأذّيت يا سيدي؟"

- "كلاّ، لا شيء خطير".

---

(١) عازف ومغنٍ جوّال، وشاعر بطولي وغنائي.

(٢) الأغنية كما وردت في الرواية: قلبي قفص، عصفور مجهول لا أدري كيف يدخل ويخرج. لو كنت أستطيع التقاطه لربطه بحبل، حبل حبي.

ردَّ الشيخ وهو يجهد كي يبتسم، على أيّة حال غابت ابتسامته بسرعة كبيرة.

كان من الواضح أنَّ حالته ستسوء. أمسكه «بينوى» من ذراعه والتفت إلى الفتاة القلقة قائلاً:

- "منزلي هنا، تفضّلا".

بعد أن مدَّدا السيد العجوز فوق السرير، أخذت الصبيّة تجول بنظرها لترى أين يمكن لها أن تجد ماءً، أخذت إبريقاً وبلّلت وجه أبيها بشكل خفيف وأخذت تروّح له بالمروحة وهي تسأل «بينوى»:

- "هل تسمح باستدعاء طبيب؟".

ولما كان هناك طبيب يقطن في الجوار، فقد أرسل «بينوى» خادمه على الفور لاستدعائه.

وقف «بينوى» خلف الصبيّة ينظر إلى انعكاس الصورة في المرآة المعلّقة على الجدار؛ فهو ومنذ طفولته وفي بيته في «كالكتّا» كان قد كرَّس كل أوقاته للدراسة والقليل الذي يعرفه عن العالم قد نهله من الكتب، ولم يلتقِ طيلة حياته بنساء إلاّ النساء اللواتي عرفهن في محيط عائلته، لقد سحرته الصورة التي شاهدها في المرآة إذ كان يجهل فنّ التدقيق في تفاصيل القسمات الأنثويّة، لكن الرقّة المتّقدة لذلك المحيّا الطفولي الذي يحنو بكثير من العاطفة القلقة أوحى له بعالم جديد رائع، وبعد وقت بسيط فتح العجوز عينيه وهو يتنهّد، انحنت الفتاة نحوه وسألت بهمسة مرتعشة:

- "هل أنت مجروح يا أبي؟".

عندها سأل العجوز وهو يحاول الجلوس:

- "أين أنـــا؟".

فاقترب «بينوى» مسرعاً وهو يقول:

- "استرح قليلاً، سيصل الطبيب بعد دقائق".

بينما كانوا يتحدثون سمعوا خطوات الطبيب الذي دخل عليهم في الحال. فحصه للمريض لم يوحِ له بأيّة خطورة وانصرف بعد أن وصف له مقداراً ضئيلاً من الكحول مع الحليب الساخن..

عندما غادر الطبيب المكان بدا والد الفتاة وكأنَّه مضطرب وقلق، لكن ابنته التي قد حزرت السبب طمأنته وأكّدت له أنَّها سوف ترسل للطبيب أجوره مع ثمن الدواء فور وصولها إلى المنزل. ثم التفتت نحو «بينوى».

يا للعينين الرائعتين! لم يخطر ببال «بينوى» إن كانتا واسعتين أو صغيرتين، سوداويتين أو عسليتين، عينان توحيان للوهلة الأولى بالصدق، ليس فيهما أثر لخجل أو حيرة، بل مليئتان قوّة وصفاء، تجرَّأ «بينوى» بالقول وهو متضايق:

- "آه، الأجور ليست ذات قيمة، لا تقلقي... أنا سوف...".

لكن عيني الصبيّة كانتا تنظران إليه بثبات بحيث منعتاه من إكمال جملته، وأكّدتا له أنَّه ينبغي قبول المبلغ المترتّب على زيارة الطبيب. احتجَّ العجوز ليمنعهما من شراء الكحول، لكن الابنة أصرَّت قائلة: «لقد وصفه الطبيب يا أبتِ».

أجاب العجوز:

- "عند الأطباء عادة سيئة هي أنَّهم يصفون الكحول لأيّ سبب كان. كوب من الحليب سيكون كافياً للقضاء تماماً على هذا الوهن البسيط".

بعد أن شرب قليلاً من الحليب، التفت نحو «بينوى» قائلاً:

- «سوف ننصرف الآن، أخشى أن نكون قد تسببنا بإزعاجكَ كثيراً».

حاولت الشابّة أن تطلب عربة لكن أباها صاح متعجّباً:

- "لماذا نتعبُ هذا الشاب أكثر مما فعلناه حتى الآن؟ المنزل على مسافة قريبة جداً من هنا، وبإمكاني أن أصل إليه بكل بساطة سيراً على الأقـدام".

ولما احتجَّت الصبية لم يلح الأب وبدا غير متمسّك برأيه، خرج «بينوى» بنفسه ليجلب عربة أجرة.

قبل الذهاب، رغب السيد العجوز في معرفة اسم مضيفه ولما أجابه هذا الأخير:

- "بينوى بهوزان شاترجي".

ردَّ بالمقابل:

- "باريش – شاندرا بهاتّاشاريا".

مضيفاً أنَّه يقطن في الجوار، ومنزله قريب جداً من منزل «بينوى» ويحمل الرقم «٧٨» من الشارع نفسه. ثمَّ رجاه قائلاً:

- "عندما يكون لديك وقت فراغ تحبّ أن تضيعه سنكون سعداء بأن تأتي لزيارتنا".

صادقت عينا الصبيّة بصمت على الدعوة، وشعر «بينوى» برغبة في مرافقتهما على الفور، لكنه تردَّد لأنَّه لم يكن متأكِّداً تماماً بأنَّ ذلك سيكون أمراً ملائماً، عندما انطلقت العربة قامت الفتاة بتحيّة بسيطة فاجأت «بينوى» لدرجة جعلته يضطرب خجلاً ولا يردّ التحيّة بمثلها.

عند عودته إلى غرفته، لام نفسه مرّات عديدة على هذا النسيان البسيط، وأخذ يسترجع في مخيّلته كل تفاصيل سلوكه من اللحظة الأولى التي قابل فيها أصدقاءه الجدد إلى اللحظة التي غادروه فيها، وانتابه شعور جعله يعتقد أنَّ تصرفاته كانت سيئة من البداية إلى النهاية. حاول عبثاً التفكير بما كان ينبغي عليه فعله أوعدم فعله، وما كان ينبغي قوله أو عدم قوله، وبينما هو على هذه الحال وقع نظره فجأة على منديل كانت الفتاة الشابّة قد استخدمته ونسيته مرمياً على السرير، وعندما أخذه بين يديه، تذكَّر أغنية المتسوّل ولازمتها:

قلبــي قفص مقفــول   لا أدري كيف كان العصفور

يدخل ويخرج كالمجهول

مرّت الساعات وارتفعت درجات الحرارة بشدّة. وبدأ سيل من عربات الأجرة يجري باتّجاه المكاتب، لكن «بينوى» لم يتمكّن في هذا اليوم بالذات من تركيز انتباهه على عمله. منزله الصغير والمدينة البشعة من حوله تحوّلا فجأة إلى أسطورة، إلى عالم غدا فيه المستحيل واقعاً والشناعة جمالاً، وبدا فيه ما هو منيع في متناول اليد، أمّا شعلة شمس تموز المشعّة التي كانت تلتهب في رأسه وتسيل في عروقه فقد حجبت عن فكره حقارة الحياة اليومية بحجاب ضوئي مبهر.

فجأة، شاهد صبيّاً صغيراً ما بين السابعة والثامنة من عمره واقفاً في الشارع يحاول التدقيق في أرقام البيوت، ودون أن يتيقّن «بينوى» من السبب، لم يشكّ للحظة أنّ منزله كان هدف هذا البحث، فصرخ قائلاً:

- "هذا هو تماماً المنزل الذي تبحث عنه".

نزل إلى الشارع راكضاً وقاد الصبي الصغير إلى منزله، وبدأ يتفحّص - بحماسة - وجه الطفل الذي سلّمه رسالة قرأ عليها اسمه مكتوباً باللغة الإنكليزية وبخط أنثوي. فقال الصبي الصغير:

- "أرسلتني أختي لأحمل لك هذا".

لم يكن الظرف يحتوي أيّة رسالة، لا شيء فيه سوى النقود. عندما أراد الولد أن ينصرف، أصرّ «بينوى» أن يجعله يصعد إلى غرفته. كان لون بشرته أكثر سمرة من بشرة شقيقته، غير أنّ الشبه كان ملفتاً فامتلأ قلب «بينوى» بالفرح وشعر بالانجذاب نحو هذا الصبي. كان من الواضح أنّ هذا الأخير لم يكن خائفاً، وعندما دخل الغرفة أشار إلى لوحة معلّقة على الجدار وسأل:

- "من يكون هذا؟".

أجاب «بينوى»:

- "إنّها صورة لأحد أصدقائي".

فصاح الولد متعجّباً:

- "صورة صديق! من هو إذاً؟".

فقال «بينوى» ضاحكاً:

- "آه، إنّك لا تعرفه، يدعى «غورمُهان»، غير أنّي أناديه «غورا». لقد اجتزنا كل صفوفنا الدراسيّة معاً".

- "هل ما زلتما تذهبان إلى المدرسة؟".

- "لا، لقد أنهيتُ دراستي".

- "صحيح؟ قد أنهيتَ...".

لم يستطع «بينوى» مقاومة رغبته باكتساب إعجاب المبعوث الصغير فقـــال:

- "نعم، لقد أنهيتها كلّها".

نظر إليه الصبي الصغير نظرة إعجاب وتنفّس الصعداء. كان يحلم دون شكّ أن يبلغ هو أيضاً ذات يوم قمم العلم تلك. ولما سأله «بينوى» عن اسمه، أجاب:

- "ساتيش – شاندرا موكرجي".

- "موكرجي"؟

ردّد «بينوى» الإسم مندهشاً، وكأنّه أصيب بخيبة أمل.

بلمح البصر قامت علاقة حميمة بينهما وعلم «بينوى» بعدها أنّ «باريش بابو»[1] ليس أباهما الحقيقي، إنما كان قد رعاهما منذ الطفولة؛ لقد كان اسم شقيقته قبل ذلك «رادهاراني»[2]، لكن زوجة «باريش بابو» استبدلته

---

(١) بابو: لقب يطلق على أعضاء البورجوازية البنغالية وهو معادل للقب «السيد». أما عندما يلفظه الإنكليز عندها يأخذ معنى تحقيرياً نوعاً ما.

(٢) رادها أو رادهاراني: ابنة الملك الراعي التي أحبها كريشنا من بين الراعيات: شخصية من الـــ «جيتا غوفندا» وعلى الأخص في أشعار «شانديدازا».

بـ «سوشاريتّا» وهو اسم غير تقليديّ. وعندما استعدّ «ساتيش» للانصراف سأله «بينوى»:

- "هل بإمكانك العودة وحدك؟".

أجاب الصبي بنبرة تدلّ على اعتزاز مجروح:

- "أفعل ذلك دوماً".

وعندما قال له «بينوى»:

- "سأرافقك إلى المنزل".

شعر الصبي بإهانة موجَّهة لرجولته فردَّ قائلاً:

- "لماذا إذاً؟ أستطيع أن أذهب بمفردي بكلّ تأكيد".

وأخذ يروي أحداثاً سابقة ليبرهن له عن عادته بالسير وحده. لكن السبب الذي جعل «بينوى» رغم ذلك يصرُّ على مرافقته كي يوصله إلى باب منزله، كان أبعد مما يمكن للصبيّ الصغير أن يفهمه. وعندما عرض عليه «ساتيش» الدخول، رفض «بينوى» بشدة قائلاً:

- "لا، ليس الآن، سأعود في يوم آخر".

عندما عاد إلى المنزل، أخذ «بينوى» الظرف ثانية قرأه وأعاد قراءة العنوان بدقّة كبيرة حتى صار يعرف عن ظهر قلب كل علامة وكل خطّ ثم وضعه بمحتواه في صندوق وأقفله بعناية، فهو بالتأكيد لن يستخدم هذه النقود أبداً، حتى عند الحاجة الملّحة.

الفصل الثاني

كانت السماء ثقيلة ومنخفضة ومحمّلة بالرطوبة في مساءٍ قاتم من مساءات موسم الأمطار. وكانت مدينة «كالكتّا»، تجثم تحت الغيوم الكامدة المتثاقلة الهاربة بصمتٍ من فوقها، جامدة دون حراك أشبه بكلبٍ كبير حزين قد تكوَّر سانداً رأسه على ذيله. لم تتوقف زخات المطر عن الهطول منذ البارحة، بحيث ملأت الشوارع بالطين، لكنها لم تكن عنيفة لغسلها منه. توقّف المطر في الساعة الرابعة من بعد الظهر، لكن الغيوم بقيت تهدّد المدينة بمزيد من السيول.

في غمرة هذا النور الكئيب، حيث البقاء في المنزل والمجازفة في الخروج منه أمران لا يبهجان النفس، كان هناك شابّان في مقتبل العمر يجلسان على مقاعد[1] مصنوعة من خشب الصفصاف، على الشرفة التي كانت بمثابة سطح لمنزل مؤلف من ثلاثة طوابق، كان الصديقان يلعبان معاً في هذه الشرفة في طفولتهما كلّما عادا من المدرسة، وفيها حفظا نصوصهما عن ظهر قلب قبل الامتحانات وهما يمشيان فيها طولاً وعرضاً، ذهاباً وإياباً مرتعدين، وحين كانت الحرارة تشتدّ كان من عادتهما تناول العشاء في تلك الشرفة عند عودتهما من الجامعة، وكانا يتناقشان في أغلب الأحيان حتى الساعة الثانية صباحاً، ليستيقظا مذعورين عند بزوغ الشمس ويدركا أنّهما قد

(١) مقاعد لا ظهر لها ولا ذراعين.

ناما على حصيرة القصب. وبعد أن أتمّا دراساتهما الجامعية، بدأا يعقدان - على هذه الشرفة - جلسات «جمعية المواطنين الهندوس» التي كان أحدهما رئيسها والثاني سكرتيرها. الرئيس يدعى «غورمُهان» غير أنَّ أصدقاءه ومعارفه كانوا ينادونه بـــ «غورا». كان طوله الفارع يميّزه عن الآخرين لأول وهلة، وكان أحد أساتذة الكليّة يسميه «جبل الثلج»، لأن بشرته بيضاء بشكل فظيع، دون أي أثر لصباغ. كان طوله ستة أقدام تقريباً، وكان ذا بنية قوية وقبضتاه أشبه بقوائم نمر، أما رنّة صوته فقد كانت عميقة وخشنة لدرجة تجعلك تقفز بمجرّد سماعها وهو يسأل: «من هناك؟» كان وجهه يبدو كبيراً بدون فائدة، ومليئاً بالطاقة والحيوية إلى أبعد حدود، أما ذقنه وفكّاه فتخالهما مزاليج ضخمة لحصن منيع. عملياً لم يكن لديه حواجب وكانت جبهته تمتد دون بروز حتى أذنيه أمّا أنفه فيتقدّم مستقيماً كالحسام فوق شفاهه الرقيقة والمنقبضة، عيناه صغيرتان لكنهما ثاقبتان وكأنّهما تصوّبان مثل حد السهم باتجاه هدف خفيّ وبعيد، لكنهما تستطيعان في لحظة واحدة الاتجاه نحو هدف قريب ثمَّ تدركانه. بالتأكيد لم يكن «غورمُهان» جميلاً، غير أنّه لا يمكن تجاهل حضوره، وكانت شخصيته تُثبتُ وجودها في أي مجتمع يدخله.

أمّا صديقه «بينوى» فقد كان متواضعاً مثله مثل الغالبية العظمى من البنغاليين المثقفين ومن عائلة كريمة. طبيعته الحسّاسة وذكاؤه الحادّ اجتمعا ليضفيا على تعابير محيّاه ميّزة خاصة به. لقد كان يحصّل في الجامعة علامات باهرة، ويحصل على منح دراسية على الدوام، لم يكن بإمكان «غورا» منافسته في هذا المضمار لأنّه لم يكن يتمتع بذلك الميل للدراسة، فهو لا يستوعب الأفكار بالسرعة نفسها التي كان يستوعب بها «بينوى»، إذ لم تكن له تلك الذاكرة القوية، وكان «بينوى» يدرّب «غورا» معه خلال كل الامتحانات كداعم مخلص.

في تلك الأمسية النديّة من شهر آب، حصلت مناقشة استغرقت الصديقين. صرّح فيها «غورا» قائلاً:

- "دعني أقلْ لك: عندما نقد «آبيناش» البراهمو في تلك السهرة فقد أظهر بكل بساطة أنَّه يمتلك ذهناً سليماً وطبيعياً، فلماذا ثارت أعصابك ضده بهذه الطريقة؟".

ردَّ «بينوى» قائلاً:

- "إنك تدهشني! اعتقدت بشكل بدهي أنَّ أسلوبه في الكلام كان مهيناً".

- "إذا كنتَ تفكِّر بهذا الشكل فأنتَ هو المخطئ بكل تأكيد. لا تستطيع أن تنتظر من المجتمع أن ينظر بهدوء إلى هؤلاء الخونة الذين هم جزء منه والذين يحاولون تهديمه بتصرفهم وفق رغبتهم، ولا أن يبدي حيالهم تسامحاً واعتدالاً. فالمجتمع، وبشكل طبيعي، يسيء الظن في هؤلاء الناس ويعتبر سلوكياتهم منحرفة حتى لو كانوا يتصرفون دون نيّة سيئة، فهو وإن اعتبر شرّاً ما قضاءً وقدراً بينما هم يدعونه خيراً، فليس ذلك إلاّ واحدة من العقوبات التي ينبغي أن تصيب من يتحدّونه عمداً".

فقال «بينوى»:

- "ربّما يكون ذلك شأناً طبيعياً، لكن لا يمكنني قبول أن يكون مثل هذا الموقف عادلاً لأنَّه طبيعي".

فقاطعه «غورا» قائلاً:

- "آه! تباً للعدالة! قد يوجد في العالم بعض الأفراد العادلين فعلاً، لكن كل الآخرين في الحقيقة مشغوفون بكل ما هو طبيعي وعادي. وإلاّ لَما كان هناك وسيلة للعمل ولا حتى للعيش. إذا أراد بعضهم التظاهر بالفضيلة عندما يعتبرون أنفسهم وكأنَّهم «براهمويون»، فينبغي عليهم أن يكونوا مستعدين لتحمّل الهمّ والغمّ عندما يرون أنفسهم مُهمّشين ومُهانين. أن تحسب أنَّ منافسيك سيصفّقون وأنت تتبختر متعجرفاً كالطاوس، هذا أمر يحمل الكثير من الغرور، لو كان الموضوع على هذا الشكل لأصبح العالم محزِناً يدعو للرثاء".

- "ليس لدي اعتراض على إدانة وشتم مذهب أو حزب، لكن عندما يتم اللجوء إلى مهاجمات شخصية"...

- "ريد أن أهاجم الأفراد، وأنتَ نفسكَ، الشخصية النبيلة، ألم تنتقدهم بطريقة شخصية؟".

أقرَّ «بينوى» قائلاً:

- "بلى، فعلتُ، وإنّي غالباً ما أخشى ذلك وأخجل منه بعمق".

صاح «غورا» متعجّباً وبإثارة مفاجئة:

- "لا يا «بينوى»، هيهات، هذا مستحيل".

ظلَّ «بينوى» صامتاً لبرهة من الزمن، وفي النهاية سأل قائلاً:

- "هيّا، لا بأس، ماذا يجري هنا؟ ممَّ تخاف؟".

- "أرى بوضوح أنَّك على أهبة الاستعداد للالتزام بالضعف".

عندها صاح «بينوى» غاضباً:

- "الضعف، حقاً! أنتَ تعلم جيداً أنَّه بإمكاني الذهاب لزيارتهم فوراً لو أردتُ ذلك حتى إنَّهم قد دعوني، ومع ذلك ترى بأنّني لا أذهب إليهم".

- "نعم، أرى ذلك. ولكن يبدو أنّك لا تنسى للحظة واحدة امتناعك عن الأمر. لقد أصبح التفكير فيهم شغلك الشاغل فأنتَ تردّد باستمرار: "لن أذهب إليهم، لن أذهب إليهم». الأفضل يا عزيزي أن تذهب إليهم وننتهي من هذه الحكاية".

- "هل تنصحني جدّياً أن أذهب إليهم؟".

ضرب «غورا» ركبته بقبضته وهو يجيب قائلاً:

- "كلّا، لا أنصحك بذلك. وأراهن أنَّك في اليوم الذي ستذهب فيه إليهم ستنحاز بالكامل إلى طائفتهم، في ذلك اليوم نفسه، ستجلس حول طاولتهم

وستنخرط في مذهبهم، وبسرعة ستصبح واحداً منهم وستُعرَف كواعظ مناضل في «البراهمو – ساماج»[1].

فسأل «بينوى» وهو يبتسم:

- "حبّذا. وماذا بعد؟"

عندها انطلق «غورا» يقول بمرارة:

- "وماذا تريد أكثر من ذلك؟ إن كنت تريد أن تموت، فمُتْ إذاً! أنت ابن أحد البراهمانيين، ستذهب إلى ركام الجثث مثل بقرة تنفق، وسوف نُهمِل كل عاداتنا ومبادئنا مثل طيّار كسرَت بوصلته، ستضلّ سبيلك وستتوصّل إلى فكرة أنَّ جرّ السفينة إلى الميناء معتقَد باطل يعبِّر عن عدم تسامح، وستكون أفضل طريقة للملاحة برأيك وبكل بساطة أن نتهاون ونترك الأمور عفوية حسبما تأخذنا إليها الريح. لكنّي لست صبوراً لدرجة تمكّنني من الاستمرار بالمحاجة معك. وأقول لك ببساطة: اِذهب إليهم وأسرع باتخاذ هذا القرار

(١) لمحة عن طائفة «البراهمو – ساماج»:حركة دينية تؤمن بالالوهة، تم تأسيسها عام ١٨٣٠. استوحت أفكارها من مكونات هندوسية عامة ومن الديانتين المسيحية والإسلام. غير أنّها لم تتبنَّ فكرة الوحي العجائبي ولا فكرة الايمان بسلطة معصومة عن الخطأ. المبدأ هو الايمان بـــ «الكائن اللامتناهي» ماهيته الحكمة والحب، وهو متأصل في الإنسان وفي العالم، يرفع من شأنّهم ويسمو بهم إليه. يعرّفونه بالعبارة المقتبسة من الـــ"Upanishads": هو واحد أحد، لا شيء مثله، لكنه يتخذ ألف شكل بقصد ألف غاية. الإنسان حر وينبغي أن يحب الله ويصلي له، وجوهر الحياة الروحية هو محاولة التقرب من الله والاتحاد معه. الاهتمامات الاجتماعية التي توليها حركة «البراهمو – ساماج» أهمية كبرى هي: الاخوة والاخلاق وأعمال الاحسان ومحبة البشر، وتحسين وضع المرأة وإلغاء نظام الطبقات المغلقة، غير أنّه في هذه الأمور الأخيرة يتعارض مع الهندوسية التقليدية. تم تأسيس البراهمو – ساماج من قبل «رام موهون روي»، ثم تم تطويرها من قبل ماهارشي ديفندرانات طاغور، والد الشاعر رابندرانات ومن قبل كيشوب شاندرا سن.

الخطير إن تطلّب الأمر ذلك! وكفَّ عن إثارة أعصابنا بهذا التردّد الذي يؤدّي إلى حافة جهنّم".

قهقه «بينوى» وقال:

- "المريض الذي يهمله الطبيب لا يموت بالضرورة. لا أشعر بأيّة إشارة تنبئ بأنّ نهايتي قريبة".

- ضحك «غورا» هازئاً وأجاب:

- - "حقاً؟"

- "كلّا"

- "ألا تشعر أنّ نبضك يضعف؟"

- "إطلاقاً، بل لا يزال ينبض بقوة".

- ألا يخيّل لك لو أنّ يداً جميلة من خارج الطبقة الاجتماعية قدَّمت لك الطعام، فستكون تلك وليمة جديرة بالآلهة؟"

فقال «بينوى» وقد احمرّ وجهه:

- "كفى يا «غورا». اُصمت".

فاحتجَّ «غورا» سائلاً:

- "ممَّ تحمرّ خجلاً؟ اليد الجميلة التي أتحدّث عنها ليست من تلك الزهور التي تختبئ أمام أشعة الشمس، تلك السيدة الجميلة تسمح لكل الناس بمصافحتها أما أنتَ، فبمجرّد القيام بتلميح بسيط أو بإشارة إلى تلك اليد الطاهرة جداً، فإنَّ ذلك يخدشك ويزعجك، إنّ حالتك ميؤوس منها يا عزيزي!"

- "اِسمع يا «غورا»، أنا أحترم «المرأة»، وفي كتبنا المقدّسة..."

- لا تذكر الكتب المقدّسة بهدف إيجاد سند لشعور تحسّ به. هذا لا يدعى اِحتراماً بل يسمّى باسم آخر، قد تغضب أكثر عندما تسمعني وأنا أستخدمه".

- "إنك تؤكد ذلك دون أيّة حجّة".

فقال «غورا» مصراً:

- "تعلّمنا الكتب المقدّسة أنّ المرأة تستحق الاحترام لأنّها ضياء العائلة. الأفضل ألاّ نصفها بالاحترام الذي يوليه لها الإنكليز لأنّها تلهب قلب الرجال".

فسأل «بينوى»:

- "هل من العدل أن ندين بهذا الشكل إحساساً نبيلاً جداً لأنّ هذا الإحساس قد يكون فاسداً أحياناً؟"

أجاب «غورا» وقد نفد صبره:

- " يا «بينو»، الآن وقد فقدتَ بشكل واضح كفاءة الحكم بنفسك، فأنتَ بحاجة لأن أرشدكَ، أؤكّد لك ذلك، كلّ المبالغات التي نجدها في الكتب الإنكليزية في موضوع النساء ليس لها أساس إلاّ الشهوة، المرأة جديرة باحترامنا وبعشقنا لها حتى العبادة كأمٍّ وكزوجة مخلصة، والذين ينزلونها عن هذه المرتبة لمدح مفاتنها يهينونها. وما يجعلك ترفرف كالفراشة حول منزل «باريش بابو» هو بكل بساطة ما يسمّونه بالإنكليزي حبّ، لكن بحقّ السماء، لا تقلّد الإنكليز ولا تتخيّل أنّ هذا الجنس من الحبّ هو نوع من العبادة، وغاية تليق بكَ".

قفز «بينوى» كالمهر تحت السوط وصاح قائلاً:

- "كفى كفى! لقد ذهبتَ بعيداً جداً يا «غورا».

ردّ «غورا» قائلاً:

- "بعيداً جداً؟ فأنا لم أصل بعد إلى النقطة الأساسية، بكل بساطة في موضوع العلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة، شهوتنا تضلّل رشدنا، لذلك ينبغي علينا أن نجمّلها ونكسوها بالشاعرية".

فقال «بينوى»:

- "إذا كانت الشهوة تلوّث فكرتنا عن العلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة فهل الأجانب هم الوحيدون الملامون؟ أليست الشهوة نفسها هي التي

تدفع بكتّاب علم الأخلاق إلى المبالغة في حدّتها كي يعظوا الناس بأنَّ المرأة شرّ ينبغي اجتنابه؟ نجد هنا مظهرين متعاكسين للموقف العقلي نفسه لكن بشكلين مختلفين، فإنْ أنتَ انتقدتَ أحدهما لا يمكن لك أنْ تعذر الآخر".

أجاب «غورا» مبتسماً:

- "أجد أنّي قد استخففت بك، وضعك ليس ميؤوساً منه كما كنت أخشى، طالما أنَّ عقلك قادر على الفلسفة وحبّ الحكمة، بإمكانك أن تعشق دون خوف، إلاّ أنَّه ينبغي أن تستدرك الأمور مبكّراً، هذه هي أمنية أصدقائك الحقيقيين".

فردَّ «بينوى» موضّحاً هدفه:

- "لقد أصبحتَ مجنوناً يا عزيزي، ما شأني بالحبّ؟ وكي أطمئن بالك، أعترف بأنّني، بما شاهدتُ وسمعتُ من «باريش بابو» وعائلته، بتُّ أكِن لهم احتراماً كبيراً، ولهذا السبب دون شكّ أصبح عندي فضول لأعرف كيف تكون حياتهم العائلية".

فقال «غورا»:

-لنقل إنك فضولي إن أردت، لكن من المستحسن لك أن تحذر من هذا الفضول. أي ضرر سيحصل إن ظلّت أبحاثك كعالِم في المذهب الطبيعي غير مكتملة؟ هناك أمر واحد مؤكّد: هم ينتمون إلى جنس الكواسر، وإذا قادتك أبحاثك لتكون قريباً منهم فإنَّكَ حينها ستفقد آخر ما بقيَ من هندوسيتك".

اعترض «بينوى» قائلاً:

- إنَّ فيكَ عيباً كبيراً يا «غورا»، إنَّك تعتبرُ نفسك الوحيد الذي وهبه الله القوة والخُلق، وكل الآخرين ليسوا بالنسبة إليك سوى مخلوقات ضعيفة ورخوة".

يبدو أنَّ هذه الملاحظة التي تحمل فكرة جديدة قد صدمت «غورا» بعنف، فصاح يقول وهو يكز ظهر «بينوى» وكزة مبتهجة:

- "ما تقوله صحيح، وفي منتهى الصحّة، وهو أحد أكبر عيوبي".

تأوه «بينوى» متحسّراً:

- "يا إلهي! فيك أيضاً عيب أكبر يا «غورا»، وهو عجزك الكامل عن تقدير شدّة الصدمة التي يمكن أن يتحملها عمود فقري طبيعي".

في هذه الأثناء، ظهر من أعلى الدرج الأخ غير الشقيق لــ«غورا»، يدعى «مُهيم» وهو سمين، أخذ ينادي لاهثاً: «غورا».

غادر «غورا» مقعده على الفور ووقف باحترام ليجيب:

- "نعم، ماذا تبغي؟"

فقال «مُهيم»:

- "جئتُ أرى إن كانت العاصفة قد اندلعت على سطح دارنا تحديداً، ما الذي يثيرك اليوم بهذه الشدّة؟ يخيّل للمرء أنّك دحرتَ الإنكليز ورميتهم في المحيط الهندي، فزوجة أخيك مستلقية في الطابق السفلي ومصابة بصداع شديد وزمجرتك القويّة سبّبت لها آلاماً مبرحة".

ثم غادرهما «مُهيم» ونزل عائداً إلى الطابق السفلي.

الفصل الثالث

في اللحظة التي اِستعد فيها «غورا» و«بينوى» لمغادرة الشرفة، وصلت أمّ «غورا»، فحيّاها «بينوى» باحترام منحنياً ليلمس قدمها.

عند معاينة «آناندامو ا» للمرّة الأولى يخيّل لنا أنّها تحت الأربعين من عمرها، قسمات وجهها دقيقة جداً تبدو وكأنّها منحوتة بيد فنان وبعناية كبيرة، قوامها أهيف رغم أنّها لم تكن فارعة الطول، وجهُها يشعّ ذكاءً حاداً. ليس لبشرتها السمراء أيّة علاقة مع بشرة «غورا» ومع ذلك لا يمكن لأحد أن يشكَّ في أنّها ليست والدة «غورا». تبدو نحيلة لكن جسمها جميل ومتناسب، ولا يمكن لأحد أن ينتبه لشعرها الذي بدأ يميل إلى اللون الرمادي، ولمّا كانت ترتدي صدّاراً[1] مع الساري[2]، كان ذلك يُذهِل كل الذين يعرفونها.

---

(١) صدّار: رداء نسائي يغطّي القسم الأعلى من الجسم.

(٢) الساري: جزء أساسي من اللباس النسائي في الهند كلها. يتألف من قطعة قماش طولها حوالي خمسة أمتار وعرضها متر واحد، يدثر به القوام بشكل يغطّي الجزء الأسفل من الجسد حتى القدمين، ثم يرفع على الكتف اليمنى ويغطي الرأس عند النساء المتزوجات ثم يتدلّى ذيل على الكتف اليسرى. يصنع الساري بأقمشة وألوان متنوعة وغالباً ما يكون على أطرافه شريط مقصّب بالذهب. يترافق تقليدياً بياقة تلبس فوق الصدر. الصدار الذي يغطي الجزء الأسفل من الصدر هو تحديث اقتبِسَ من اللباس الغربي وكان قليل الانتشار في الفترة التي يتحدّث عنها طاغور..

في الفترة التي نتحدث عنها، تبنّت بعض النساء العصريات عادة ارتداء هذا اللباس، لكن سيّدات المدرسة القديمة كنَّ يتجنبنَ لبس هذا الصدّار، إذ يرين فيه تقليعة خاصة بالمسيحيين.

كان «بابو كريشنادايال» زوجها يشغل وظيفة في الإدارة العامة، وقد عاشت «آناندامو» معه بعيداً عن البنغال منذ صباها ولمدة طويلة، كما أنّها لم تكن تعتبر أنَّ تغطية الجسد بشكل مناسب أمر معيب أو مثير للضحك، ورغم الاهتمام الذي كانت توليه لكل الواجبات المنزلية، من تنظيف الأرض جيداً أو الغسيل أو الخياطة أو الرتق، أو إجراء الحسابات، ورغم كل الاهتمام الفعّال الذي كانت تبديه تجاه كلّ الأقرباء والجيران، لم يكن ليبدو أنَّ لديها أشغالاً كثيرة تزيد عن اللزوم.

قالت «آناندامو» وهي تردّ السلام لـــ«بينوى»:

- "عندما يصل إلينا صوت «غورا» إلى الطابق السفلي، يمكننا عندها التأكّد أنَّ «بينوى» قد أتى. لقد كان البيت هادئاً كثيراً هذه الأيام لدرجة بتُّ أتساءل فيها عمّا يكون قد حدث لابني. لماذا لم نرك منذ فترة طويلة؟ هل كنتَ مريضاً؟"

- "لا، أجاب «بينوى» بشيء من التردّد، لا، يا أمّي، لم أكن مريضاً، لكن كان المطر يهطل بشدّة".

فقاطعه "«غورا» قائلاً:

- "كانت تمطر، وعندما ينتهي موسم الأمطار، سيتذرّع بالشمس، إذا اتّهمنا عناصر الطبيعة فهي غير قادرة على الدفاع عن نفسها، لكن السبب الحقيقي يعرفه ضميره".

عندها احتجَّ «بينوى» قائلاً:

- "إنَّك تقول ترّهات يا «غورا».

وإذا بـــ«آناندامو» تسوّي الموضوع بقولها:

- "نعم يا صغيري، لا ينبغي لـــ«غورا» أن يطرح الأمور بهذا الشكل. لأمزجتنا تقلباتها، فهي مرحّبة أحياناً وحزينة أحياناً أخرى، لا يكون الإنسان مرتاحاً وجاهزاً على الدوام، ينبغي ألاّ نلوم الناس. هيّا «بينوى»، تعال إلى غرفتي لتأكل شيئاً لذيذاً، لقد هيّأتُ لك الحلوى التي تحبّها".

هزّ «غورا» رأسه بعنف وقال:

- "لا، لا، يا أمّي، أرجوكِ، لا يمكنني قبول فكرة أن يأكل «بينوى» في غرفتكِ.

ردّت «آناندامو ا» على الفور:

- "لا تكن غبياً، أنا لا أطلب منك أنت بالذات أن تأتي وتأكل عندي، أمّا بالنسبة إلى أبيكَ فقد غدا تقليدياً لدرجة لن يقبل فيها شيئاً تمَّ طهيه بغير يديَّ، لكن «بينو» هو طفلي الصغير العزيز على قلبي، ليس متعصّباً مثلك، وأنتَ تريد منعه بالقوة من أن يتصرّف كما يحلو له".

أجاب «غورا»:

- "نعم يا أمّي، هذا صحيح، أريد منعه. لأنّه من المستحيل أن نأكل في غرفتكِ طالما أنكِ تحتفظين بخادمة مسيحية مثل «لاشمي»".

فصاحت «آناندامو ا» بنبرة حزينة ومتعجّبة:

- "وأسفاه يا حبيبي، كيف يمكنك أن تقول مثل هذه الأمور؟ ألم تكن تأكل من[1] المطهوّ بيديها على الدوام؟ أليست هي التي اِعتنت بك منذ

---

(١) الطعام: الهندوسي من الطبقة العليا، وعلى الأخص البراهمان، لا يستطيع تناول غذاء قد لمسته أو أعدّته يد رجل أو امرأة من طبقة أدنى فهي غير طاهرة. وأكثر ما تكون هذه القاعدة صارمة في ما يتعلق بالماء على وجه الخصوص الذي ينبغي أن يُغرَف من بئر أو نهر غير ملوّث وبأياد طاهرة. هناك بعض البراهمان يكسبون قوتهم من غَرْف المياه ومن طهي الأطعمة للعائلات الغنية، وذلك دون أن تهبط مرتبة طبقتهم أو ينتقص منها.

طفولتكَ؟ منذ فترة قريبة كنتَ لا تأكل سوى الطعام المشبع بالـ«شوتني»[1] الذي كانت تحضّره بنفسها. وهل يمكن لي أن أنسى طيلة حياتي أنَّ عنايتها المتفانية قد أنقذت حياتك عندما أُصبتَ بالجدري؟"

فقال «غورا» وقد نفد صبره:

- "اصرفيها إذاً وأعطيها نفقة، اشترِ لها قطعة أرض وابنِ لها منزلاً صغيراً، المهمّ ألاّ نحتفظ بها عندنا يا أمّاه".

فأجابته «آناندامويا»:

- "هل تتخيّل يا «غورا» أنَّ كل الديون يمكن تسديدها بالمال؟ فهي لا تريد ذهباً ولا أرضاً، إنّها تريد فقط أن تعيش بقربكَ أنتَ أو تموت".

عندها قال «غورا» مستسلماً:

- "احتفظي بها إذاً، لكن ينبغي ألاّ يأكل «بينوى» في غرفتكِ، نواهي الكتب المقدّسة ينبغي أن تُنفَّذ حرفياً، إنني أتعجّب يا أمّي أنّكِ ابنة فقيه من كبار الفقهاء الهندوس وتولين قليلاً من الاحترام لنواهي التقليد. في الحقيقة...."

ردّت «آناندامويا» وهي تبتسم:

- "يا لك من أحمق صغير يا «غورا»، كانت والدتك منذ زمن بعيد تتقيّد بكل هذه الوصايا وبدقّة عالية لكن كل ذلك لم يكن ليمرّ دون دموع غزيرة. أين كنتَ حينها؟ كنتُ كل يوم أعبد رمزَ «سيفا» المصنوع بيديّ أنا، وكان والدك يأتي لينتزعها مني بعنف، كنتُ في تلك الفترة أشعرُ بالندم وتبكيت الضمير إن أنا أكلتُ الأرز المُعَدّ من قبل براهمانية عادية، وفي ذلك الزمن لم

(١) «الشوتني»: صلصة مركّزة تحتوي السكر والخلّ في آنٍ معاً وتتألف من هريسة بندورة أو مانغا، مبهّرة بشدّة، وهي تكون عادة مرفقة أو مكوّنة للعديد من الأطباق، طبق الأرزّ بشكل خاص.

يكن هناك سكك حديد ولا قطارات، وعندما كنتُ أسافر بعربة يجرّها البقر، أو على ظهر الجمل، أو بالهودج، كان ينبغي عليّ أن أصوم أياماً طويلةً. كان أبوك قد حظي برضا رؤسائه الإنكليز لأنَّه لم يبدِ تمسكاً بالتقاليد الدينية حيث كانت زوجته ترافقه في كل أسفاره، وقد كان هذا وراء تقدّمه وحصوله على وظائف ثابتة في المراكز الإدارية الكبيرة عوضاً عن التنقّلات المستمرَّة. ولكن رغم كل هذه الميّزات، إياكَ أن تصدّق أنَّه كان من السهل عليه ثنيي عن عاداتي التقليديّة، أمّا الآن وقد تقدّمتْ به السن وتقاعد وأصبح يقتصد مالياً، فقد غدا متديّناً ومتعصّباً بشكل مفاجئ، بينما أنا لا أستطيع أن أتبعه في تطوراته. إنَّ تقاليد مئة جيل من أجدادي انتُزِعَت مني تقليداً تلو الآخر، فهل تعتقد أنَّه من الممكن الآن أن أعيدَ غرسها وتطويرها ثانية بناءً على طلب أحدهم؟"

أجاب «غورا»:

- "حسناً، حسناً، دعينا لا نتحدث عن أجدادكِ فهم لا يحتجّون، لكن بالتأكيد ينبغي عليكِ أن تقبلي بعض النظم مراعاة لنا، وحتى لو أنَّكِ توقفتِ عن احترام الكتب المقدّسة فلا يمكنك نسيان حقوق المحبّة.

سألت «آناندامويا» بفتور:

- "هل أنتَ بحاجة للإصرار على هذه الحقوق عندي؟ ألا تعرفها جيداً؟ أيّ فرح يمكنني أن أعيشه عندما تتناقض أفعالي بما يخصّ زوجي وابني؟ ألا تدرك أنَّني منذ اليوم الأول الذي احتضنتكَ فيه بين ذراعيّ، نبذتُ كل هذه الأعراف؟ عندما تحمل طفلاً على صدرك يولد في نفسك يقين أنَّه لا وجود لإنسان يولد معَدّاً لطبقة اجتماعية دون أخرى. واعتباراً من ذلك اليوم الذي احتضنتك فيه بين ذراعيّ أدركتُ أنَّ عليّ ألاّ أشعر بالاحتقار تجاه إنسان آخر لأنَّه من طبقة دنيا أو لأنَّه مسيحي، وإلاّ فإنّ الله سينتزعك مني، وصرتُ أردّدُ في صلواتي وأطلب من الله أن تبقى بين ذراعيّ فقط كالنور في بيتي، وقرَّرتُ أن أتناول الماء من يدَيْ أي إنسان في العالم".

- بعد كلام «آناندموا» هذا، اجتاح نفسَ «بينوى» قلقٌ كبير فوجّه نظره سريعاً إلى وجه «آناندامو ا» ووجه «غورا». لكنه ما لبث أن طرد من أفكاره قبس ظلّ من شكّ.

وبدا «غورا» متحيّراً أيضاً، وقال لها:

- "أنا لا أفهم حججكِ يا أمّي، لا يعاني الأولاد إنْ هم عاشوا وكبروا في بيوت تلتزم بالقوانين الدينيّة، من الذي أدخل في عقلكِ أنَّ الله قد أعفاكِ بشكل خاص من مراعاتها؟

فأجابت «آناندامو ا»:

- "الذي عهد بك إليّ ألهمني أيضاً هذه الفكرة. كيف لي أن أقاومها؟ لم يكن لذلك علاقة بي. آه يا أحمقي الصغير العزيز على قلبي، لا أدري إن كان ينبغي عليّ أن أضحك أو أبكي من جنونك! لكن لا بأس، ما باليد حيلة، ليس مسموحاً لــ«بينوى» أن يأكل في غرفتي، هل هذه آخر صرعة لديك إذاً؟".

فقال «غورا» وهو يضحك:

- "سيدخلها بسرعة كالسهم إن هو وجد الوسيلة، فالشهيّة لا تنقصه مطلقاً، لكنّي أعترض على ذلك يا أمّي لأنّه ابن براهمانيين، لذلك ينبغي عليه ألاّ ينسى واجباته من أجل بعض الحلوى، عليه أن يقوم بالكثير من التضحيات وممارسة ضبط النفس كي يصبح جديراً بهذه السلالة النبيلة. أستحلفك يا أمّاه بغبار قدميك الغاليتين ألاّ تغضبي مني".

فصاحت «آناندامو ا» متعجّبة:

- "كيف تفكّر بهذه الطريقة! لماذا أغضب؟ فأنتَ لا تعرف شيئاً لذلك دعني أقُلْ لك ما أنت فاعله هنا، ما يشكّل أكبر قلق لي هو أنّي نشأتُك بهذه الطريقة.... ومهما يكن من أمر، لا يمكنني قبول ما تسمّيه أنتَ واجباً، ومع ذلك، إن أردتَ ألاّ تأكل في غرفتي، يكفيني أن أراكَ بقربي صباح مساء، لا

تحزن يا عزيزي «بينوى»، أنتَ شديد الحساسية، لأنك تعتقد أنّني قد جُرحت، لكنّي لست كذلك حقاً، فلا تقلق، سوف أدعوك في يوم آخر وسوف أستدعي براهمانيّة أصيلة كي تهيئ لك وجبتك، أمّا فيما يخصّني فأنا شخصيّاً أنوي الاستمرار بتناول الماء من يدَيْ «لاشمي».

وعلى ذلك، فارقتهما ونزلت إلى الطابق السفلي.

ظلّ «بينوى» دون حراك فترة من الزمن ثم التفت وقال ببطء:

- "ألم تذهب بعيداً نوعاً ما يا «غورا»؟"

- "من ذهب بعيداً؟"

- "أنتَ".

فقال «غورا» مغالياً:

- "لم أذهب بعيداً ولا حتّى قيد شعرة. فبرأيي، على كل واحد منّا أن يبقى ضمن الحدود الأكثر صرامة، لأننا بمجرد أن نتهاون قيد أنملة، لا نعرف حينها إلى أي مدى يمكن أن نصل.

فاحتجّ «بينوى» قائلاً:

- "إنّها أمّك"

أجاب «غورا»:

- "أعرف من هي أمّي، لست بحاجة لأن تذكّرني، من ذا الذي يملك أمّاً تساوي أمّي؟ فإذا تركتُ نفسي لتنجرَّ مرة واحدة إلى عدم احترام التقليد فقد أتوقّف يوماً ما عن احترام أمّي. اسمع يا «بينوى»: ما أريد قوله، هو أنّ القلب شأن جيد لكنه ليس الأفضل".

بعد توقّف قصير، جازف «بينوى» وقال:

- "لاحظ يا «غورا»، لقد أقلقتني أحاديث أمّك بشكل غريب في هذا اليوم، لقد خُيّلَ لي أنَّ في سريرتها فكرة خفيّة لا تستطيع البوح بها وتعاني منها".

فقال «غورا» بنفاد صبرٍ:

- "أواه يا «بينوى»، لقد أطلقتَ العنان لمخيّلتك زيادة عن اللزوم، هذا ليس بالأمر الجيّد وهو هدر لوقتك".

ردَّ «بينوى» بقوله:

- "أنتَ لا تكترث أبداً بما يدور حولك، فالشيء الذي لا تفهمه ترفضه على أنَّه محض وهم وخيال، وأنا أؤكد لك في كثير من الأحيان أنّي قد لاحظتُ والدتك مهمومة بسرّ يثقل كاهلها، وأنَّها تحمل فكرة خفيّة لا تنسجم مع حياتها الطبيعيّة، ما يجعل هذه الحياة مؤلمةً. ينبغي عليك يا «غورا» أن تصغي أكثر لأحاديثها".

فأجاب «غورا»:

- "أولي انتباهي لما هو مسموع، وإذا كنتُ لا أحاول أن أذهب أبعد من ذلك فلأنني أخشى أن أخطئ بتقديري للأمور".

الفصل الرابع

عندما يتعلق الموضوع بالآراء فقط، يمكننا قبول أفكار مجرّدة لكن عندما نسقط تلك الآراء على أشخاص معيّنين فلن تحتفظ بالمصداقيّة نفسها. هكذا كانت حالة «بينوى» الذي يخضع لقيادة عاطفته، فهو عندما يؤيّد مبدأً أثناء المناقشة، فإنّ الاعتبارات الإنسانية هي التي ترجّح وتنتصر عند التطبيق، لاسيما أنّه من الصعوبة بمكان أن نميّز إلى أي مدى كان «بينوى» يقبل المبادىء التي كان «غورا» يبشّر بها من أجل قيمتها ذاتها، وإلى أي حدّ كان يقبلها بدافع من صداقته العظيمة له.

بينما كان «بينوى» في طريق العودة من بيت «غورا»، في تلك الأمسية الماطرة، وبينما كان يمشي ببطء في الشوارع المليئة بالطين، شبّ صراع في داخله بين حقوق النظرية وبين عواطفه الشخصية. عندما كان «غورا» يدافع عن فكرة مفادها أنّه لا بد من البقاء باستمرار في حالة تيقّظ ومراقبة كل ما له علاقة بالطعام والطبقة الاجتماعية لإنقاذ المجتمع من الاعتداءات المكشوفة أو الخفيّة في عصرهم ذاك، كان «بينوى» يوافق دون مقاومة، حتى إنّه دافع عن المبدأ بحماسة ضد المعارضين وكان دليله في ذلك: إنّ فرض الحراسة المستمرّة من كل الجوانب عند أصغر طريق أو درب أو باب أو نافذة أو حتى شق في جدار يؤدي إلى داخل حصن مُهاجَم من جميع الجهات، لا يدلّ على عدم تسامحٍ، لكن معارضة «غورا» الأكل في غرفة «آناندامو ا» بسبب النواهي الدينية التقليدية جرحته بقسوة.

لم يعرف «بينوى» أباه، كما أنّه فقد والدته منذ الطفولة. كان له عمٌّ في الريف، لكنه عاش في «كالكتّا» في وقت مبكر جداً حياة طالب وحيد، ومنذ اليوم الذي تعرّف فيه إلى «آنانداموا» أصبح يناديها أمّي. كان غالباً ما يذهب إلى غرفتها يضايقها كي تحضّر له وجباته المفضّلة، لقد عبَّر أكثر من مرّة عن غيرته من «غورا» متهماً أمّه بتفضيله والاهتمام به خلال تقديم الطعام. كان «بينوى» يعرف جيداً أنّها كانت تقلق إن بقيَ يومين أو ثلاثة دون زيارتها، وأنّها كانت تهلّل فرحاً عندما تراه يثني على حلوياتها؛ والآن، وباسم المجتمع، يمنعونه من تناول الطعام معها! هل سيكون بإمكانها تحمّل ذلك، وهل سيكون بإمكانه التسامح حيال هذا الأمر؟ لقد قالت وهي تبتسم: "سوف أمتنع الآن عن ملامسة غذائكما عندما أدعوكما، وسوف أستحضر براهماني موثوق ليعدّ وجباتكما".

عندما وصل «بينوى» إلى منزله أخذ يفكّر في عمق الجرح الذي يمكن أن تشعر به «آناندامو ا».

كانت غرفته الوحيدة مظلمة وغير مرتبة، ففي جميع زواياها تجد كتباً وأوراقاً مرميّة. أشعل «بينوى» عود كبريت وأضاء القنديل الملوّث بآثار أصابع الخادم المتروكة عليه، والغطاء الأبيض الذي كان يغطي مكتبه كان مبقعاً بالدهن والحبر. عندما دخل إلى هذه الغرفة، شعر أنّه يكاد يختنق. العزلة، وغياب أيّ كائن بشري وأيّ حبّ إنساني، أغرقاه في الإحباط، فقد بدت له الواجبات، كتحرير بلاده وحماية المجتمع شيئاً مبهماً واصطناعياً، أمّا «العصفور المجهول» الذي دخل القفص وطار في صباح تموزي مشرق وجميل، فقد بدا له أكثر واقعية، غير أنّ «بينوى» قد قرَّر ألاّ يرهق تفكيره بهذا العصفور المجهول، ولتهدئة روحه حاول أن يستحضر في مخيلته غرفة «آناندموا» التي طرده منها «غورا».

كانت أرض الغرفة بترابها المرصوص فائقة النظافة، وكان في إحدى الجهات سرير ناعم الملمس مغطّى بغطاء أبيض كجناح الإوزّ، وإلى جانبه قنديل مضاء يقبع على منضدة خفيضة. وهذه هي «آناندامو ا» منكبّة على عملها تطرّز بخيطان متنوّعة الألوان غطاءً مزركشاً، بينما تتربع الخادمة «لاشمي» عند قدميها تثرثر بلهجة بنغالية طريفة. كانت «آناندامو ا» تلجأ دوماً إلى العمل في تطريز هذا الغطاء عندما تكون مهمومة بينما يركّز «بينوى» نظره على صورة وجهها الهادىء المنغمس في المهمّة، وكان يقول في نفسه: "فليكن حنان هذا الوجه المنير حافظاً لي من كل هفوة، فليكن لي رمزاً للوطن وليحفظني ثابتاً على درب الواجب"، في تفكيره كان يدعوها «أُمّاً» وكان يعيد لنفسه ويكرّر: "لا توجد كتب مقدّسة تقنعني بأنّ الطعام الذي أتلقاه من يدكِ ليس مناسباً لي".

في صمت غرفته المظلمة كانت التكتكة المنتظمة للساعة الكبيرة هي وحدها التي تُسمَعُ، شعر «بينوى» أنّ بقاءه هنا أمر غير محتملٍ بالنسبة إليه، وكانت إحدى الزواحف تلتقط الحشرات على الجدار بالقرب من القنديل. ظلّ «بينوى» يرقبها لفترة ثم نهض وأخذ مظلّته وخرج، غير أنّه لم يكن قد قرَّرَ إلى أين يذهب! في البدء كان في نيته دون شكّ العودة إلى «آناندامو ا» لكنه تذكّر فجأة أنّه يوم أحد فقرَّرَ أن يذهب ليسمع خطبة «كيشوب بابو» التي يلقيها في طائفة «البراهمو – ساماج». وكان يعرف أنّ الخطبة ستكون في خواتيمها في تلك الساعة إلاّ أنّ هذه الفكرة لم تعدّل من قراره. عندما وصل كان المجموع قد تفرّق، وبينما كان واقفاً تحت مظلّته في زاوية الطريق، رأى «باريش بابو» يخرج ومحيّاه يشعّ بالكثير من الرفق والصفاء، يرافقه أربعة أو خمسة أشخاص من عائلته، لكن عيني «بينوى» أمعنتا النظر فقط في وجه إحداهنّ الطفولي الذي لمع للحظة عند المرور تحت ضياء فانوس، ثم سُمِعَ صوت عجلات وغابت المجموعة مثل فقاعة في محيط من الظلمة.

في هذه الأمسية لم يحاول «بينوى» العودة إلى منزل «غورا» بل عاد إلى منزله هائماً مع أفكاره المبلبلة. وعندما خرج بعد ظهر اليوم التالي وجد أنّه بعد دورة طويلة قد وصل فعلياً إلى بيت «غورا»، وكانت ظلمة المساء قد حلّت غائمة وقاتمة، وعندما دخل كان «غورا» قد أشعل مصباحه للتوّ وجلس للكتابة، رفع ناظريه عن أوراقه وقال:

- "حسن يا «بينوى» من أيّة جهة تعصف الريح اليوم؟

ودون أن ينتبه لهذه الكلمات، قال «بينوى»:

- "أريد أن أطرح عليك سؤالاً يا «غورا»، قل لي هل الهند فعلاً حقيقيّة بالنسبة إليكَ؟ هل تراها بوضوح؟ إنّ الهند تسكن أفكاركَ ليل نهار، لكن كيف تتصوّرها؟"

توقّف «غورا» للحظة عن الكتابة ونظر إلى «بينوى» بحِدّة، ثم وضع ريشته واستند إلى كرسيّه وبدأ يشرح:

- "مثل قبطان السفينة يبحر وسط المحيط ويحتفظ بذاكرته عندما يعمل وعندما يستريح، وفي أي ميناء يرسو وفي كل وقت، الهند هي التي تشغل فكري".

وتابع «بينوى» يسأل:

- "وأين هي هندك؟"

أجاب «غورا» متعجّباً واضعاً يده على قلبه:

- "في الاتجاه الذي تدور فيه ليل نهار إبرة البوصلة التي أملكها هنا، طبعاً في هذا المكان وليس في تاريخ الهند الذي تحبّه والذي هو لــ«مارشمان».

- "هل هناك مرسى تشير إليه إبرة بوصلتك بشكل خاص؟"

ردَّ «غورا» بيقين راسخ قوي:

- "نعم هناك مرسى، قد أتقاعس عن القيام بواجباتي، قد أموت غرقاً، لكن هذا المرسى لمستقبل كبير لن يزول أبداً، هنا، تسود الهند التي أتخيّلها

تحكم بكل عظمتها قويّة بالغنى والعلم والدين. هل تزعم أنّ الهند بهذه الصورة ليس لها وجود؟ ألا يوجد إذاً سوى ذلك المظهر الخدّاع لمدينتك «كالكتّا» بمكاتبها وبمحكمة استئنافها وثآليل الآجرّ والإسمنت فيها؟ تبّاً!"

ثم صمتَ ونظر بإمعان إلى «بينوى» الذي ظلّ صامتاً، تائهاً في أفكاره. ثم تابع حديثه قائلاً:

- "هنا، في هذا المكان حيث كنا نقرأ وندرس وحيث كنا نبحث عن وظيفة ونعمل جاهدين من الساعة العاشرة حتى الخامسة بشكل غير معقول، هل من المقبول – بذريعة ما نسميها «الهند» هذا المخلوق الخدعة، صنيعة الشيطان – أن يوقِّر ثلاثمئة وخمسون مليون نسمة يسكنونها هذا الزيف وأن يسكروا وينتشوا لفكرة أنّ عالم الخيانة هذا هو عالم الحقيقة؟ ومهما يكن من مجهود نقوم به، كيف نمضي حياتنا في هذا الوهم؟ لهذا السبب، سنموت رويداً رويداً من الجوع، في حين أنّ الهند الحقيقيّة الغنيّة والسخيّة موجودة، وإذا استندنا إليها لن نستهلك طاقة حياتنا بعمل عقلنا أو بعمل قلبنا، لننسَ كل شيء، العلم في الكتب، والإجازات الدراسيّة غير المفيدة، وإغراءات المهن اليدويّة والمستعبِدة، ولنترك إغواءات هذه الدنيا التافهة، أدعوك لنقود سفينتنا باتجاه المرسى، فإذا كان قدَرُنا الغرق والموت فليكن، فأنا على أي حال لا أستطيع أن أنسى صورة الهند الحقيقية والكاملة، ذلك لأنّها حيوية جداً بالنسبة إلينا أو بالنسبة إليّ على الأقل".

فسأل «بينوى»:

- "أليس كل ذلك شطح لتخيّلاتك، أين الحقيقة؟

عندها أرعد «غورا» مجلجلاً:

- "تلكَ هي الحقيقة بالتأكيد".

- "وماذا عن الذين لا يستطيعون أن يروا الأشياء كما تراها أنتَ؟"

تابع «غورا» وهو يضغط قبضته بشدّة:

- "سنجعلهم يرونها كذلك، تلك هي مهمتنا، والناس غير القادرين على إدراك الصورة الأصيلة للحقيقة، سوف يقبلون أي شبح آخر، إذا نحن رفعنا أمام كل العيون لوحة الهند الطاهرة فسيدخلها الناس، عندها لن يبقى الموضوع مقتصراً على التسوّل من باب إلى باب للحصول على صدقات بسيطة، فالناس حينها سيهرعون لتقديم حياتهم".

- "أرني إذاً تلك الصورة أو أرسلني لأنضمَّ إلى تلك الحشود العمياء".

- "حاول أن تتصوّرها وتدركها وحدك، لو كنتَ تؤمن فقط لوجدتَ الفرح في شظف ورعكَ. مواطنو هذه الأيام لا يؤمنون بالحقيقة، لذلك لا يمكنهم أن يتطلّبوا كثيراً لا من أنفسهم ولا من الآخرين. ولو أنَّ «إله النجاح» شخصياً قدّم لهم من أفضاله، فلن تكون لديهم الشجاعة بأن يطلبوا منه أكثر من شعار مذهَّب لخادم المندوب السامي، هذا ما أعتقده حقاً، لأنّهم بلا دين وبالتالي بلا رجاء".

قال «بينوى» محتجّاً:

- "الناس مختلفو الطبيعة يا «غورا»، أنتَ عندك إيمان وتجد سنداً في قوّتك الذاتيّة، غير أنّك غير قادر حقاً على فهم ذهنيّة الآخرين بشكل صحيح، وأقول لك بكل بساطة أعطني مهمّة، أيّاً كانت، ودعني أعمل ليل نهار، فبغير ذلك لا أشعر بأنّني أدركتُ هدفاً ملموساً إلاّ عندما أكون معكَ، لكن حالما أفترق عنك لا أجد شيئاً أتمسك به".

ردَّ «غورا» قائلاً:

- "أنتَ تتحدّث عن العمل، واجبنا الأوحد في الوقت الراهن هو أن نُدخلَ ثقتنا الصلبة ببلدنا وبكل ما هو فيه بين المشكّكين. سُمُّ العبودية سيطر على عقولنا جرّاء عادة تمكنتْ منّا وهي خجلنا من وطننا؛ لو أنَّ كل واحد منّا على سبيل المثال يحارب سيطرة هذا السُمّ سنجد بسرعة كبيرة مجالاً يليق بعملنا، كل ما نحاول فعله حالياً هو نقل ما يعلّمنا إيّاه كتاب التاريخ عن أعمال

الآخرين؛ هل يمكننا حقاً أن نكرّس ذكاءنا وقلبنا للقيام بمهمّة التقليد والاقتباس هذه؟ بتصرّفنا بهذه الطريقة سنُكسَر ونصبح على شفير الانحطاط والانحلال".

بينما كان «غورا» يتكلّم دخل «مُهيم» الغرفة بخطى بطيئة والنرجيلة بيده وكان يبدو خاملاً، فهو في مثل هذه الساعة وعندما يعود من المكتب يأخذ عادة وجبة خفيفة ثم يجلس أمام بابه يمضغ البيتيل[١] ويدخّن، يأتي إليه أصدقاؤه من الجوار الواحد تلو الآخر ثم ينسحبون ويدخلون إلى الغرفة للعب الورق. عند دخوله، وقف «غورا» فقال «مُهيم» وهو يدخّن النرجيلة:

- "قل لي، طالما أنك مهتمٌّ بإنقاذ الهند بهذه الحماسة الكبيرة، أودّ لو أنّك تنقذ أخاكَ".

نظر إليه «غورا» نظرة تساؤل، لكن «مُهيم» تابع كلامه:

- "الأوروبي الجديد الذي عُيّن مسؤولاً في مكتبنا هو شخصية خبيثة شرّيرة. وجهه ككلب أقطَم[٢] يُطلِق علينا لقب قِرَدة مشاغبين ونحن الأسياد الملقّبون بالـ«بابو». إذا فقد أحدنا والدته، لا يسمح له بالتغيّب مدّعياً أنّه يكذب، لا يقبض أي موظف بنغالي مرتّبه كاملاً في نهاية الشهر لأن كلّ واحد منهم مثقل بالغرامات، لقد نشرَتْ الصحف حديثاً رسالة مغْفَلة تتحدث عن ذلك المسؤول في هذا الموضوع وهو يريد أن يتّهمني بها، زد على ذلك أنّه يخطئ كثيراً فهو يهدّدني بالفصل إلاّ إذا كتبتُ باسمي وتوقيعي نفياً قوياً لما ورد في الصحف حول هذا الموضوع؛ أنتَ و«بينوى» كلاكما، جوهرتان لامعتان في جامعتنا، ينبغي أن تساعداني في إعداد رسالة جيّدة مرصّعة بتعابير مثل «عدالة كاملة» و«عطف لا ينضب» و«كياسة لطيفة» ... إلخ.

---

(١) بيتيل: "شجرة صغيرة لجوزها وأوراقها طعم مفلفل وتوفر العنصر الرئيسي في تهيئة صلصة خاصة تسمى الـ"بان Pan". إن مضغ البيتيل شائع في الهند وفي الهند – الصينية، وهو يضفي على اللعاب لوناً أحمر مميّزاً.

(٢) أقطم: كلب مبطّط الأنف يدعى باللغة الفرنسية بولدوغ Bouledogue.

ظلَّ «غورا» صامتاً، لكن «بينوى» أخذ يضحك وسأل:

- «دادا»[1]، هل بالإمكان تحميل عدد كبير من الأكاذيب في جملة واحدة؟"

ردَّ «مُهيم» قائلاً:

- "ينبغي أن تعامل الناس وفق طبيعتهم، أملكُ تجربة طويلة مع هؤلاء الأوروبيين ولا أتفاجأ بأيّ شيء يصدر عنهم، طريقتهم في جمع الأضاليل تفوق الوصف، لا شيء يوقفهم إن دفعتهم الضرورة، إن صدرت كذبة ما عن أحدهم عندها تتجمّع الزمرة كلّها وتنبح بصوت واحد كما تفعل مجموعة بنات آوى، فهم ليسوا مثلنا نحن الذين نعتبر وشايتنا ضد مواطنينا على أنّها نعمة، وكوننا أكيدين أنّ خداعهم ليس خطيئة في حال لم يكتشفوا ذلك".

انفجر «مُهيم» ضاحكاً ضحكة رنّانة وطويلة بعد هذه الكلمات الأخيرة ولم يستطع «بينوى» أن يمتنع عن الابتسام.

وتابع «مُهيم» يقول:

- "تأملون بأن تُخجلوهم عندما تواجهونهم بالحقيقة؟ لو أنَّ الله القادر على كل شيء لم يعطكم عقلاً بهذا الشكل لما وقع البلد في العبودية. هل ستبدآن بفهم أنَّ الوحش الكبير الكائن عبر المحيطات لا يخفي وجهه عندما تباغته متلبساً وهو يرتكب جريمته الفظيعة في التحطيم؟ بل على العكس فهو يستلّ سيفه ضدكم بكل الثقة التي توحيها البراءة، أليس ذلك صحيحاً؟

أجاب «بينوى»:

- "الواقع، نعم".

أكمل «مُهيم» قائلاً:

---

(١) «دادا»، و«ديدي»، يخاطَب بها الأخ البكر (أو الأخت البكر)، تسمية تدل على الاحترام أو الحنان.

- "بالنتيجة، إذا تملّقناهم ولاطفناهم نكون قد أضفنا نقطة زيت معصور إلى طاحونة الكذب، وإذا قلنا لهم: "يا للرجال الأفاضل، القدّيسين العظيمين، ترأفوا بنا وارموا لنا بصدقة من خرجكم وهي ليست أكثر من فتات، عندها قد يمكننا استعادة جزء من إرثنا، وسيكون باستطاعتنا في الوقت نفسه أن نتجنب مخاطر نشوب الحرب بيننا وبينهم. إذا فكّرتم في ذلك بعمق تكون تلك هي الوطنيّة الحقيقيّة، لكن «غورا» يغضب مني، وهو منذ أن أصبح تقليدياً اتخذ عادة أن يبدي احتراماً كبيراً تجاهي كأخ كبير، لكن أقوالي تبدو اليوم بالنسبة إليه وكأنّها لا تصدر عن أخٍ كبير! ما الذي بإمكاني فعله يا أخي؟ ينبغي أن أتحدّث بصراحة حتى في موضوع الزيف، مهما يكن من أمر، سوف تكتب لي تلك الرسالة يا «بينوى». انتظر قليلاً، سوف أجلب لك ملخّص الملاحظات التي دوّنتها في هذا الموضوع".

خرج «مُهيم» وهو يدخّن نرجيلته.

التفت «غورا» نحو «بينوى» وقال له:

- "«بينو»، اذهب إلى غرفته وحاول من فضلك تهدئته بينما أنتهي من الكتابة".

الفصل الخامس

قرعت «آنانداموا» باب مصلّى زوجها وهي تسأل "هل تسمعني؟" لا تخفْ لن أدخل، أودُ أن أتحدَّث إليكَ عندما تنتهي من صلواتك، الآن وقد أصبح لديك «ناسكان» جديدان[1] فلن أراك مطلقاً ولفترة غير قصيرة أعرف ذلك تماماً، لهذا السبب أناديك فلا تنسَ أن تأتي إليَّ لدقيقة واحدة عندما تنتهي.

أنهت هذه الكلمات وعادت إلى أشغالها المنزلية.

كان «كريشنادايال بابو» رجلاً ذا بشرة سمراء لم يكن طويلاً إنما مائلاً إلى السمنة، كانت عيناه الواسعتان السِمة الملفتة في محيّاه، أمّا باقي وجهه فكان مختفياً تقريباً خلف لحية وشاربين كثيفين رماديين. كان يرتدي لباساً من الحرير الداكن ليبدو مظهره مميّزاً أسوة بلباس المتزهدين، وكان ينتعلُ قبقاباً خشبياً أمّا طاسته فمن النحاس. كان الصلع قد داهم القسم الأمامي من رأسه لكنه يحتفظ بشعره الطويل ويلفّه جديلة في قبة رأسه. في الماضي عندما كان بعيداً عن «كالكُتّا» بحكم وظيفته وبرفقة جنود فيلقه، كان يسمح لنفسه بأكل اللحوم المحرَّمة وشرب الخمر، إذ في تلك الفترة، كان يعتبر الخروج عن العادة سخريةً أو شتماً للكهنة وللمتنسكين ولكلّ الرجال الذين يمتهنون الدين، علامة ودليلاً على الشجاعة الأخلاقية. أمّا الآن على العكس من ذلك، فقد أصبح يضاعف ممارسات العبادة والكثير الكثير من القوانين والقواعد الدينية،

---

(١) سانيازي Sannyasi: شخصية مقدسة، ناسك أو شحاذ متسول.

وأصبح عندما يشاهد ناسكاً يهرع ليجلس عند قدميه آملاً أن يتعلّم ويدخل في شكل جديد من الممارسة الدينية، وصار يبحث أيضاً عن الطرق الخفيّة التي تؤدي إلى الخلاص بحماسة دون حدود، وعن طريقة سريّة تتيح اكتساب قدرات روحيّة - صوفية. أمّا بعد أن حضر حديثاً دروساً في تقنية العقيدة الصوفية «تانترا»(١) باجتهاد ومثابرة، فقد اكتشف ناسكاً بوذياً أثار أفكاره من جديد وزرع فيها القلق.

عندما ماتت زوجته الأولى أثناء الوضع كان عمره ثمانية وعشرين عاماً. لم يحتمل رؤية طفله الذي قتل والدته، فعهد بالطفل إلى حميه، ولما أصبح في حالة يأس وزهد، سافر باتجاه الغرب، وبعد ستة أشهر تزوّج من «آنانداموا» اليتيمة وهي حفيدة أكبر عالم ديني في مدينة «بيناريس»، ثمّ حصل على وظيفة في مكتب الإدارة في مدينة تقع على نهر الغانج الأعلى وعرف كيف يكسب رضا رؤسائه؛ عند موت جدّ زوجته، أخذها لتعيش معه نظراً لعدم وجود معيل أو وصيّ آخر.

في هذه الأثناء اندلعت ثورة الـ«سيبيّي»، فتدبَّر أمره كي لا تضيع فرصته في إنقاذ حياة بعض الإنكليز من ذوي الوظائف العليا، فكوفئ بهبات وبالحصول على منحة وهي قطعة أرض، وبعد نهاية الثورة(٢) بقليل قدّم استقالته وعاد إلى «بيناريس» مع «غورا» الذي كان حينها حديث الولادة، وعندما أصبح هذا الطفل بعمر خمس سنوات استقرَّ «كرشنادايال» في «كالكُتّا»، واستعاد ابنه البكر «مُهيم» من عند شقيق زوجته المتوفاة وبدأ

---

(١) التانترا Tantrisme: عقيدة صوفية تعود أصولها إلى التراث وليس إلى كتب الـ"فيدا" المقدّسة، وهي غالباً ما تتحول إلى ممارسات سحرية.

(٢) التمرّد: ثورة المجموعات الأهلية للسكان الاصليين (سيبيّي- Cipayes) ضد الإنكليز عام ١٨٥٧. ترافقت الثورة بمذابح في المدن الرئيسية وفي وادي الغانج. تركت هذه الثورة ذكريات فظيعة.

بتربيته، والآن دخل «مُهيم» إلى وزارة المالية حيث يعمل بالحماسة التي شهدناه بها وقد دخلها بفضل حماية ودعم مديري أبيه القدامى.

منذ طفولته، لعب «غورا» دور القائد بين صبية الجيران وفي المدرسة. كانت تسليته الأساسية تعذيب معلّميه وإغضابهم، وأصبح لاحقاً يقود جوقات الطلّاب الذين كانوا ينشدون الأناشيد القومية وصار يلقي محاضرات باللغة الإنكليزية وغدا قائداً معترفاً به لمجموعة من الشباب الثوريين، وعندما خرج هذا الكتكوت من نطاق نادي الطلّاب كما يخرج الكتكوت من البيضة وبدأ يفرض وجوده في المجال العام وفي تجمعات البالغين، وجد «كريشنادايال» في ذلك تسلية كبيرة له.

اكتسب «غورا» شهرة خارج بيته ولكن لم يكن أحد في العائلة يأخذه على محمل الجدّ. أمّا «مُهيم» فلأنّه موظّف كان يشعر أنّه مضطر أن يكبح «غورا» الذي كان يسخر منه ويسمّيه «مدّعي الوطنية»، وكانت الأمور بينهما تصل أحياناً إلى الاشتباك بالأيدي؛ أمّا «آناندموا» فكانت قلقة جداً في سريرتها من العداء الجهادي الذي يبديه «غورا» تجاه كل ما هو إنكليزي، وكانت تحاول تهدئته بكل الوسائل لكن دون فائدة؛ في الواقع كان «غورا» يُسرُّ عندما تتوفّر له الفرصة في الشارع ليتشاجر مع أحد الإنكليز، وفي الوقت نفسه كان منجذباً جداً إلى حركة «البراهمو – ساماج»، مفتوناً ببلاغة مبشّريها وعلى الأخص «كيشوب شاندرا سن»[1].

في هذه الفترة بالذات انقلبَ «كريشنادايال» فجأة إلى التقليدية الصارمة لدرجة كان يبدو معها مغتاظاً جداً لمجرّد دخول «غورا» إلى غرفته. لقد تدبّر الأمر ليخصّص جزءًا من المنزل لاستخدامه الشخصي، وأطلق عليه اسم الصومعة، ووصلت به الأمور إلى كتابة هذه التسمية على لافتة معلّقة. ثارت نفس «غورا» ضدّ هذه الطريقة بالتصرّف، وكان يردّد قائلاً: "لا أستطيع قبول

(١) "كيشوب شاندرا سن": مصلح ديني وأحد مؤسّسي البراهمو – ساماج، وهو داعية بليغ.

مثل هذا الجنون إذ لا يمكنني تحمله بكلّ بساطة "، وكان على وشك قطع كل علاقاته بأبيه لو لا تدخّل «أناندامو ا» في نطاق الممكن لتصلح فيما بينهما.

عندما كانت الفرصة تتوفّر لـــ«غورا» كان يناقش علماء الدين البراهمانيين بحرارة عندما كانوا يجتمعون حول أبيه، لكن من جهة أخرى لا يمكن أبداً التحدّث عن مناقشات تلك الأحاديث التي كانت تشبه الصفعات، فالغالبية العظمى من هؤلاء العلماء لم يكونوا على معرفة وتبحّر عميقين إنما كانت معرفتهم بسيطة ولكنهم كانوا جشعين وقابلين للرشوة بشكل وحشي، غير أنّهم كانوا غير قادرين على الوقوف في وجه «غورا» الذي كان يرهبهم بهجماته القاسية، إلاّ أنّ أحدهم أوحى للشاب بوجوب احترامه احتراماً كبيراً، فقد استدعى «كريشنادايال» هذا العالِم المحترَم من أجل تفسير فلسفة «الفيدانتا»[١]. في البدء أراد «غورا» أن يعامله برعونته المعتادة لكنه سرعان ما سكن ورمى سلاحه، وما اكتشفه «غورا» في هذا الفقيه اللاهوتي أنّه لم يكن فقط ذا علم عميق بل كان أيضاً ذا عقل وفكر منفتحين بشكل مذهل. لم يتخيّل «غورا» في حياته أنّ رجلاً لم يدرس سوى اللغة السنسكريتية وفقهها وتاريخها وتراثها، يتمتّع بكل هذا الذكاء الواسع والحاد، كانت شخصيته تشعّ قوةً وصفاءً كما تشعّ صبراً وعمقاً ثابتين لدرجة كان «غورا» يشعر بالخجلِ في حضور هذا الفقيه، وأراد أن يدرس معه فلسفة الـــ«فيدانتا»، وبما أنّه لا يعرف دراسة الأمور بشكل مجتزأ، فقد انغمس باندفاع في دراسة كل هذه التأمّلات.

شاءت الصدف أن يتزامن هذا الشغف مع افتتاح مجادلة في الصحف أثارها مبشّر إنكليزي كان يهاجم الديانة والمجتمع الهندوسيّين وكان يدعو

(١) "الفيدانتا": مجموعة الـــ"أوبانيشاد" (تأملات صوفيّة وماورائية) والتي يأتي ترتيبها بعد الـــ"فيدا" وتشكّل القاعدة الفلسفية التقليدية للهند التاريخية. من خصائص هذا الفكر في الـــ"فيدانتا": اللّا- ثنوية الماورائية والميل إلى رفض القيمة الإيجابية للعالم وللحياة ضمن العالم.

للمساجلة. تحمّس «غورا» على الفور، فهو على الرغم من عادته الظهور بكل جهوزيّته عندما تتوفّر له الفرصة للطعن بمنافسيه الهندوس بتقبيح التعاليم الأخلاقية والعادات الشعبية في آنٍ معاً، ولكن ما أغضبه أن يبدي أجنبي عدم احترامه لمجتمع بلده، وهكذا انقضَّ على الفرصة واضطلع بالدفاع، إذ لم يكن يقبل أدنى نقد ولا حتى أصغر جزء من أقل لوم موجّه إلى وطنه، وبعد تبادل رسائل عديدة، أنهى ناشر الصحيفة المناظرة.

كانت المناظرة ساخنة جداً استفزّت «غورا» فقرَّرَ أن يكتب باللغة الإنكليزية كتاباً عن تاريخ الهندوسية وأخذ يبذل جهده بكل حماسة لجمع الحجج التي توفّرها الكتب المقدّسة أو العقلانية لمصلحة التفوّق والسمّو دون عوج بالديانة والمجتمع الهندوسي: "في بلدنا ينبغي علينا أن نرفض المثول أمام محكمة أجنبية ونرفض حكمها الذي تصدره وفق قانون أجنبي، كما أنّه من غير المفيد أن نزهو أو أن نُذَلّ بمقارنات دنيئة ومستمرة مع نماذجٍ أجنبية، ينبغي علينا ألاّ نشعر بالخجل أمام الآخر أو أمام أنفسنا عندما نفكّر ببلد منشئنا الذي ولدنا فيه، سواء أكان الموضوع يتعلّق بتقاليده أو بإيمانه أو بكتبه المقدَّسة، واجبنا هو أن ننقذه من الشتائم وأن ننهض بأعبائه ودعمه بكل ما أوتينا من قوة وبكل أنفتنا وإبائنا".

ولمّا كان «غورا» مشبعاً بهذه الأفكار فقد أخذ يقوم بالغسول الشعائري في نهر الغانج وأخذ يمارس طقوس العبادة صباح مساء بانتظام مبدياً اهتماماً دقيقاً بعلاقاته وبأطعمته حتى إنّه جعل خصلة الشعر الـ«تيكي»[1] تنمو في قمة رأسه، وكان يذهب كل صباح ليمسح الغبار عن أقدام[2] أبويه. أمّا بالنسبة إلى «مُهيم»، فلم يكن «غورا» يتوانى سابقاً عن وصفه بالغباء وعدم الأهلية،

(١) التيكي: خصلة شعر صغيرة يتركها البراهمانيون التقليديون تنمو في قمة الرأس.

(٢) أخذ غبار القدمين: هي القيام بفروض التحية والاحترام بالانحناء بشدّة حتى لمس قدميّ الذي نحترمه أو نكرّمه وثم برفع اليدين باتجاه الجبين.

لكنه الآن عندما يدخل «مُهيم» الغرفة يقف «غورا» ويحيّيه بالتحيّة الواجبة تجاه الأخ الأكبر؛ لم يكن «مُهيم» يوفّر سخريته من هذا الانقلاب لكن «غورا» لم يكن يجيب أبداً.

نظّم «غورا» من حوله حزباً حقيقياً من الشباب المفعم بالحماسة وذلك عن طريق الكلام والقدوة الحسنة. يبدو أنّ تعاليمه قد حرّرتهم من العناء الذي كانوا يشعرون به في ضمائرهم في التوفيق بين المحرّضات المتناقضة. كان يقول لهم بتوجّه منفتح: "لم نعد بحاجة للبحث عن حجج، لا يهم أن نكون جيّدين أو سيّئين، متحضرّين أو برابرة، المهمّ أن نكون أنفسنا". غير أنّ «كريشنادايال» وبشكل غير متوقّع لم يكن يبدي رضاً عن هذا التحول المفاجىء عند «غورا» وعلى العكس من ذلك استدعاه ذات يوم ليقول له:

- "اِسمع يا اِبني، الكتب المقدّسة الهندوسية صعبة وتكتنفها الأسرار وليس من الممكن لأيّ كان أن يسبر أسس الديانة التي وضعها الحكماء «الريشي»(١) ويستحسن عدم الخوض فيها دون فهم كامل لها، فذهنكَ ليس ناضجاً بالقدر الكافي وخصوصاً أنّك تلقيّت تربية إنكليزية، اندفاعك الأول الذي أخذك باتجاه «البراهمو – ساماج» كان أكثر توافقاً مع بنيتك الذهنية، ذلك الاِندفاع لم يزعجني بل على العكس من ذلك كنتُ راضياً عنه كل الرضا، لكن المسار الذي تسلكه الآن ليس مسارك البتّة وأخشى ألاّ يفيد في شيء".

فاحتجّ «غورا» مجيباً:

- "ماذا تقول يا أبي؟ ألستُ هندوسياً؟ فإذا لم أستطع اليوم فهم المعنى العميق للهندوسية سأتمكن من ذلك في المستقبل، وحتّى لو أنّي لا أفهم أبداً كل المعنى، لكن هذه الدرب هي الوحيدة التي يمكن أن تناسبني، الأهلية التي اكتسبتها خلال ولاداتي الهندوسية السابقة جعلتني أولد ضمن عائلة براهمانية،

---

(١) الريشي: الحكماء والعرّافون الذين بالالهام الربّاني قد سمعوا ونقلوا إلى العالم الكلام الأزلي للـ"فيدا". يتميّز الريشي أيضاً عن باقي البشر وعن الآلهة ، لقد قدّسهم التراث.

وهكذا وبالولادات المتعاقبة داخل العقيدة والمجتمع الهندوسي، سأبلغ في النهاية هدفي، وإذا أخطأتُ وابتعدتُ عن الطريق الذي ينبغي عليّ اتباعه، فلن يكلّفني ذلك سوى عناء العودة".

في هذه الأثناء هزَّ «كريشنادايال» رأسه وقال:

- "لكن يا ولدي لا يكفي أن يُعلِن الإنسان أنَّه هندوسيّ ليصبح كذلك، إنَّه من السهل أن يصبح المرء مسلماً، وأيّ كان يمكنه أن يصبح مسيحياً أمّا هندوسياً! يا إلهي! إنَّها قضية أخرى".

فأجاب «غورا» :

- "بالتأكيد، لكن طالما أنّي هندوسي بالولادة، فأنا على أي حال قد اجتزت العتبة، يكفيني أن أحتفظ بالصراط المستقيم كي أتطوّر رويداً رويداً".

فردَّ «كريشنادايال» قائلاً:

- "أخشى يا ولدي ألاّ أتمكن من إقناعكَ بالبرهان، ما تقوله صحيح من ناحية محدَّدة: الديانة التي تنتمي إليها بموجب ما عندك من «كارما»[1] ستعود إليها عاجلاً أم آجلاً ولا أحد يستطيع شيئاً حيال ذلك، فلتكن مشيئة الله! فنحن لسنا أكثر من أدواتٍ لله، ألسنا كذلك؟"

كان لـ«كريشنادايال» أسلوب خاص به ألا وهو القبول بذراعين مفتوحتين عقيدة الـ«كارما» كما التوكّل على إرادة الله، والانتماء إلى السماوي وعبادة الألوهية، حتّى إنَّه لم يكن يشعر بضرورة التوفيق بين المتناقضات.

(١) «الكارما»: النشاط الفيزيائي والفيزيولوجي الخاص بكل إنسان، قدَر الفرد بما هو نتيجة لأفعاله التي قام بها في حياة سابقة.

الفصل السادس

بعد أن اِستحمَّ «كريشنادايال» وانتهى من وجبة طعامه تذكَّر صلاة زوجته، فدخل إلى غرفتها وكان ذلك للمرّة الأولى منذ أيام طويلة. مدَّد حصيرته القصبية الخاصة به وجلس أرضاً بشكل مستقيم تماماً كما لو أنَّه يريد أن يعزل نفسه عما يحيط به، اِفتتحت «آناندامو ا» الحديث:

- "بينما أنتَ تسعى لنيل القداسة لم تعد تبالي بالأمور المنزلية، أمّا أنا فأكاد أموت من القلق بشأن «غورا» .

- لماذا؟ ممَّ تخشين؟

أجابت «آناندامو ا»:

- "لا يمكنني التعبير عنه تماماً، لكني أعتقد أنَّه لو اِستمرَّ «غورا» مهووساً بالهندوسية على هذا المنوال، فسيفقد التوازن وسوف تقع الكارثة بالتأكيد. لقد نصحتكَ بألاّ تخوِّله حق اِكتساب «الخيط المقدَّس»[١]، لكنك لم تكن لتهتمّ وتدقِّق في تلك الفترة كما تفعل اليوم وكنتَ تقول: "أيّة أهمية يمكن أن تكون لقطعة خيط لا تزيد ولا تنقص؟" أمّا الآن فالموضوع يبدو متعلِّقاً بأمور أخرى غير الخيط. أين ستقرِّر إيقافه؟

دمدم «كرِيشنادايال» متذمِّراً:

---

(١) الخيط المقدَّس: علامة مميّزة لطبقة البراهمانيين يتم حملها بشكل مائل على الصدر وعلى الظهر ومن الكتف إلى كامل الجسد.

- "طبعاً إنّك توجّهين اللّوم كلّه لي أنا، ألا يقع الخطأ الأولي عليكِ أنتِ؟ أنتِ التي ألححتِ كي نحتفظ به، في تلك الفترة أنا أيضاً كنت غير واعٍ ولم أكن أفهم شيئاً في أمور الدين، كما أنّي لم أكن أتصوّر أنّني سأتصرّف اليوم بهذه الطريقة".

- قل ما تشاء، لكني لن أقبل أبداً أنني قمتُ بفعل لاديني في ذلك الحين. أنتَ تذكر أنني فعلتُ المستحيل لأنجب طفلاً لي، ونفّذتُ كل ما نُصِحتُ به، كم من الصلوات المقدّسة تلوتُ (المانترا[١])! وكم تعويذة حملتُ! وذات يوم حلمتُ أنّني أقدّم قرباناً لله من سلّة ورود بيضاء: بعد فترة غابت الورود ورأيتُ مكانها طفلاً صغيراً بلون الورد الأبيض نفسه، لا يمكنني التعبير عما شعرتُ به عندما رأيته، امتلأت عيناي بالدموع وهممتُ بحمله وأردتُ ضمّه إلى صدري لكني عندها استيقظتُ، وبعد عشرة أيام تماماً حصلتُ على «غورا» الهبة التي أرسلها الله لي، كيف كان يمكن لي أن أتنازل عنه؟ لقد حملته في أحشائي خلال حياة سابقة بدون شكّ، وتحمّلتُ من أجله آلاماً كبيرة، لهذا السبب بالتأكيد، يناديني اليوم يا أمّي. تذكّرْ في أيّة ظروف خطيرة وصل إلينا «غورا»، كان الوقت منتصف الليل وكان كل ما حولنا دماء ومذابح، أتت تلك السيدة الإنكليزية تطلب اللجوء إلى منزلنا وماتت في تلك الليلة بالذات بعد أن وضعتْ طفلها، لم يكن لهذا الطفل أن يعيش لو لم أعتنِ به، أنتَ لم تكن لتهتمّ به وكنتَ ستودعه عند أحد الكهنة (البادرة)[٢]، لماذا كنتُ سأتنازل عنه لأحد الكهنة؟ طفل صغير لم يكن ليعني شيئاً للكاهن! هل هو من أنقذ حياته؟ هل تلك الطريقة في الحصول على طفل أقل سرّية وغموضاً مما لو حملتُ به أنا شخصياً؟ تستطيع أن تقول ما تريد لن أتنازل عنه أبداً إلاّ إذا استعاده الذي وهبني إيّاه".

---

(١) مانترا: عبارات مقدّسة، وأسلوب في السلوك.

(٢) بادره: اسم يطلق على الكهنة والمبشرين المسيحيين في الهند.

- لا أدري، ردَّ «كريشنادايال». في كل الأحوال، تصرّفي كما يحلو لك مع «غورا» ابنك، لم أحاول في حياتي أن أتدخّل في هذا الموضوع، كان عليّ أن أقلِّده الحبل المقدَّس لأنني كنت أقدّمه للناس على أنَّه ابننا، قوانين المجتمع تفرض ذلك غير أنَّه تبقى هناك مسألتان ينبغي حلُّهما، لـ«مُهيم» الحق بكل ما أملك شرعاً و...

قاطعته «آناندامو ا» وقالت:

- "من يطلب منك أن توزّع أملاكك؟ تستطيع أن توصي لـ«مُهيم» بكل ما تملك ولن يطلب «غورا» منها سنتيماً واحداً. إنَّه رجل حديث ابن عصره أنهى دراسته ويمكنه أن يكسب عيشه فلماذا يطمع في مال الآخر؟ أمّا بالنسبة إليّ فيكفيني أن يكون هنا ولا يلزمني أكثر من ذلك".

اعترض «كريشنادايال» وقال:

- "كلّا، لا أنوي تركه دون شيء بالمطلق، الأرض التي مُنِحَتْ لي من قبل الحكومة... ينبغي أن تدرّ الآن دخلاً يبلغ ألف روبية سنوياً، أرى أنَّ مسألة زواجه هي أكثر مسألة شائكة، ما حدث في الماضي أمر لا يُناقَش، غضبتِ أم لم تغضبي لا يمكنني أن أذهب أبعد من ذلك وأُدخله بالزواج ضمن عائلة براهمانية طبقاً للشعائر الهندوسية".

- "إنك تتخيّل أنني بلا ضمير لأنّي أختلف عنك ولا أنضح البيت بماء الغانج، لماذا أُزوّجه من عائلة براهمانية؟ لماذا أغضب من هذا الموضوع؟"

- "لكنك أنتِ نفسك ابنة براهمانيين".

- "هذا ليس مهمّاً. لقد توقفتُ عن التباهي بطبقتي الاجتماعية منذ زمن بعيد. هيّا! عندما تزوَّج «مُهيم»، أثار أقرباؤنا صعوبات كبيرة بسبب عاداتي غير التقليدية، فاكتفيتُ بالبقاء على الحياد دون كلمة احتجاج، وكانوا جميعهم مستعدّين أن يزعموا بأنني مسيحية أو أي شيء آخر، تقبّلتُ كل ما كانوا يروونه عني دون أن أغضب وكنتُ أجيب بكل بساطة: حسن، والمسيحيون أليسوا بشراً؟ فإذا

كنتم وحدكم مختارين عند الله فلماذا جعلكم تزحفون في الغبار أولاً أمام «الباتان»[١] ثم أمام المغول الكبار، وفي الوقت الحاضر أمام المسيحيين؟"

أجاب «كريشنادايال» وقد نفد صبره:

- "آه! إنَّها قصة معقّدة، أنتِ امرأة ولن يكون باستطاعتكِ أن تفهمي، هناك واقع اسمه المجتمع ومن المستحيل تجاهله، وعلى أي حال بإمكانكِ فهم ذلك".

فقالت «آناندامو ا»:

- " لن أبلبل تفكيري في هذا الموضوع فأنا على أيّة حال أفهم أنّي إذا كنتُ قد ربيّتُ «غورا» كابني، وأقوم في الوقت الحاضر بتطبيق التقليد، فإنّي لا أكون بذلك قد أهنتُ المجتمع فقط بل قد أهنتُ ضميري الشخصي أيضاً، واحتراماً لضميري فقد تجنبتُ أن أخفيَ أي شيء، لقد أظهرتُ دوماً أنني لا أمارس الشعائر وتحمّلتُ بصبر كلّ الإهانات التي وجّهت إليّ بسبب هذا الموقف، في حين أنّني قد أخفيتُ الواقع الأساسي ولا أزال أخشى أن يعاقبني الله. اسمع، مهما يحدث أعتقد أنّه علينا أن نعترف لـــ«غورا» بكل شيء".

اضطرب «كريشنادايال» كثيراً من هذا الاحتمال وصاح متعجّباً:

- "لا،لا! لن يحدث ذلك طالما بقيتُ على قيد الحياة، أنتِ تعرفين «غورا»، إذا علم ذلك يوماً ما فلا يمكننا حينها التنبؤ بما يمكن أن يفعله وبالتالي سيكون المجتمع بأكمله ضدنا، وفوق ذلك قد تخلق لنا الحكومة مشكلات: صحيح أنّ والد «غورا» قد قُتِلَ أثناء التمرّد وأنّنا رأينا والدته وهي تموت، لكن بعد أن استتبَّ الأمن كان علينا إعلام السلطات بهذا الأمر، فإن أعلنا ذلك الآن وتعرّضنا لصعوبات فقد تثار فضيحة جرّاء نشاطي الديني ولا أعرف أيّة مصيبة أخرى قد تصيبني".

---

(١) الباتان: غزاة مسلمون أتوا من أفغانستان وسيطروا على الهند في القرن السادس عشر.

ظلّت «آناندامو ا» صامتة، وبعد توقّف، استعاد «كريشنادايال» الكلام وقال:

- "فيما يخصّ زواج «غورا» عندي فكرة، «باريش بهاتاشاريا» كان زميلي في الجامعة، وقد تقاعد منذ فترة بسيطة، لقد كان مفتشاً في التعليم ثم انسحب وأصبح يعيش في «كالكُتّا»، إنّه براهمو مئة في المئة وقد سمعتُ من يقول إنّ لديه عدّة بنات للزواج، ربّما يقع في هوى إحداهن بعد بضع زيارات، لكن لو نستطيع فقط أن نوجّهه نحو هذه العائلة، وبعد ذلك يمكننا ترك مسار الأحداث بين يدَيْ آلهة الحب".

قالت «آناندامو ا» متعجّبة:

- "كيف! «غورا» يواظب عند براهمو! لقد تحوّلت الأمور بالنسبة إليه".

وفي غمرة حديثها دخل «غورا» نفسه الغرفة منادياً بصوت جهوري: "أمّي!" لكنه عندما شاهد أباه جالساً في الغرفة تفاجأ وتوقّف، تقدّمت «آناندامو ا» نحوه والحنان يشعُّ من كل تصرفاتها وسألته:

- "ما الأمر يا ولدي ماذا ترغب؟"

- "لا شيء، الموضوع يمكن إرجاؤه".

وتراجع «غورا» باتجاه الباب لكن «كريشنادايال» استوقفه قائلاً:

- "ابقَ هنا قليلاً يا «غورا» أريد أن أتحدّث إليك، وصل أحد أصدقائي مؤخراً إلى «كالكُتّا» وهو براهمو ويقطن بالقرب من شارع "بيدون".

فسأله «غورا» :

- "هل هو «باريش بابو»؟

فأجابه «كريشنادايال» مستغرباً:

- "كيف عرفته؟"

فردَّ «غورا» شارحاً:

- "لقد سمعتُ عنه من «بينوى» الذي يسكن بالقرب من منزله".

فتابع «كريشنادايال» كلامه وقال:

- "حسن، أودُّ منك أن تقوم بزيارة له وأن تستعلم عن أخباره".

تردَّد «غورا» للحظة وبدا أنَّه يفكِّرُ في شيء ما ثم خلُص إلى القول:

- "حسناً، سأذهب إليه غداً صباحاً في وقت مبكر".

ذُهلت «آناندامُوا» من هذه الموافقة السريعة من قبل «غورا»، غير أنَّه أضاف سريعاً:

- "كلّا، لقد نسيت، فأنا لا أستطيع الذهاب إليه غداً".

فسأله «كريشنادايال»:

- "لمَ لا؟"

- "ينبغي أن أذهب إلى «تريبني» غداً".

- إلى «تريبني»؟

فأخذ «غورا» يشرح:

- "لإقامة احتفال الغسول الشعائري من أجل كسوف الشمس".

فقالت «آناندامُوا»:

- "إنك تدهشني، ألا يوجد عندك الغانج في «كالكُتّا» وبإمكانك الاستحمام فيه دون أن تتكبَّد عناء السفر إلى «تريبني»؟ إنك تبالغ في التزامك".

غادر «غورا» الغرفة دون أن يجيب. السبب الذي دعاه إلى أن يقرّر الاستحمام في «تريبني» هو أنَّه ستكون هناك حشود من الحجّاج، و«غورا» ينتهز كل المناسبات كفرص للتحرّر من كراهيته وأحكامه السلفية، وكي يشعر باتّحاده مع أبناء بلده، وكي يتمكن من أن يقول لهم من كلّ قلبه: "أنا لكم وأنتم لي".

الفصل السابع

عندما استيقظ «بينوى» في الصباح رأى نور الفجر ينبعث نقياً كابتسامة طفل وليد، وكانت بعض الغيوم البيضاء تتموّج باسترخاء في كبد السماء. وبينما هو واقف تحت الشرفة يستحضر الذكرى السعيدة لذاك الصباح قريب العهد والشبيه بصباح هذا اليوم، لمح «بينوى» «باريش بابو» يسير في الشارع ماسكاً عكّازه بيدٍ و«ساتيش» باليد الأخرى. صفّق «ساتيش» بيديه في اللحظة التي لمح فيها «بينوى» وأخذ يصرخ:"«بينوى بابو!» رفع «باريش بابو» ناظريه إلى «بينوى» الذي نزل الدرج مسرعاً وانضمَّ إليهما وهما يدخلان منزله. اندفع «ساتيش» نحوه وسأله:

- "«بينوى بابو» لماذا لم تأتِ لترانا؟ لقد وعدتَ بذلك".

ربَّت «بينوى» على كتف الصبي الصغير بحنان وهو يبتسم له، وضع «باريش بابو» عكّازه مقابل الطاولة وجلس ثم قال:

- "لا أدري ماذا كنا سنفعل لولاك في ذلك اليوم، لقد كنتَ لطيفاً جداً معنا".

فقال «بينوى»:

- "أواه! هذا لم يكن شيئاً مهمّاً، أرجوك، لا تكبّد نفسك عناء التحدّث عنه".

ثم سأل «ساتيش» مستعلماً:

- "قل لي «بينوى بابو» أليس لديك كلب؟"

أجابه «بينوى» مبتسماً:

- "كلب؟ كلّا، ليس لدي كلب".

فأصرَّ «ساتيش» بسؤاله:

- "لمَ لا؟"

- "صدقني، لم يخطر ببالي قط أن أقتنيَ واحداً".

وتدخَّل «باريش بابو» بقوله وكأنَّه أراد نجدته:

- "يبدو أنَّ «ساتيش» زاركَ في ذاك اليوم نفسه وأتمنى ألاّ يكون قد أزعجكَ، فهو يتكلم كثيراً، وقد أسمته أخته السيد الثرثار".

فقال «بينوى»:

- "أنا أيضاً بإمكانيَ أن أثرثر عندما أبدأ المشاركة في الحديث، وقد تفاهمنا جيّداً أليس كذلك يا «ساتيش بابو»؟"

تابع «ساتيش» تحقيقاته وأسئلته وكان «بينوى» يجيبه، أمّا «باريش بابو» فقد كان كلامه قليلاً جداً، اِكتفى بالمشاركة بكلمة واحدة في سياق الحديث من وقتٍ لآخر وكان يرفقها بابتسامة فرحة وصافية، وعندما حان وقت الذهاب قال:

- "رقم منزلنا ٧٨، ليس عليك سوى محاذاة الشارع بشكل مستقيم، المنزل يقع على اليسار".

قاطعه «ساتيش» قائلاً:

- "إنّه يعرفه جيداً، لقد رافقني في المرّة السابقة حتّى أوصلني إلى باب البيت".

ليس هناك أي سبب للانزعاج، ومع ذلك شعر «بينوى» بعارض خجل كما لو أنّ أحداً قد داهمه متلبساً بجنحة فاضحة جرّاء إفشاء السرّ. فقال السيّد العجوز:

- "أنتَ تعرف بيتنا إذاً، إن أردتَ يوماً...

ردَّ «بينوى» متلعثماً:

- "أجل، بالتأكيد، لو أنا....

فقال «باريش بابو» وهو ينهض:

- "نحن جيران قريبون، ينبغي أن يعيش الإنسان في مدينة كبيرة كمدينة «كالكتّا» لتجعله يسير جنباً إلى جنب مع الناس دون أن يتعارفوا".

رافق «بينوى» ضيوفه حتى أوصلهم إلى الباب وظلَّ ينظر إليهم لفترة، كان «باريش بابو» يمشي بخطىً بطيئة مستنداً إلى عكّازه، وكان «ساتيش» إلى جانبه يثرثر دون توقف.

أخذ «بينوى» يفكِّر: "أنا لم أصادف في حياتي رجلاً مسناً مثل «باريش بابو»، أودُّ لو أمسح غبار قدميه، و«ساتيش» يا له من صبيّ لذيذ! عندما يصبح كبيراً سيكون رجلاً حقاً، فهو صريح وذكي في آن معاً".

مهما كان الشيخ والصبي الصغير جذابين، ربما لم تكن صفاتهما دافعاً كافياً لهذا الانفجار المفاجئ من الاحترام والمحبّة، غير أنَّ حالة «بينوى» واستعداداته لا تتطلّب معرفة أوسع من ذلك.

قال في نفسه: "الآن ينبغي أن أذهب إلى منزل «باريش بابو» إن أنا أردتُ ألاّ أظهر بمظهر البدائي"، لكن كل ما ملأ به «غورا» رأسه عن الهند وعن حزبه كان يؤنّبه: "حذار! ينبغي ألاّ تذهب إليهم".

كان «بينوى» في كلّ فعل من أفعال حياته يخضع لموانع صاغها مشايعو تلك الصورة للهند، ورغم الشكوك التي كانت تحاصره أحياناً كان يستمرّ بالطاعة، أمّا الآن فقد استفاقت فيه روح التمرّد إلى حدٍّ كبير بدأت معه تلك الهند تبدو له اليوم مجسّدة «السلبية».

دخل الخادم ليعْلِمه بأن وجبة الغداء جاهزة، لكن «بينوى» لم يكن قد استحمَّ بعد لقد تجاوز الوقت الثانية عشرة ظهراً، وبحركة متعمّدة من رأسه صرف الخادم قائلاً:

- " لن أتغدّى هنا، يمكنك الانصراف". أمسك بمظلته وخرج حتّى دون أن يأخذ شاله. ذهب فوراً إلى منزل «غورا» . كان يعرف أنَّ «غورا» يذهب كل يومٍ ظهراً إلى مكتب جمعيّته المسماة «جمعية الوطنيين الهندوس» حيث كان يمضي فترة ما بعد الظهر في كتابة رسائل موجَّهة لحضّ واستنهاض أعضاء حزبه في كل أنحاء البنغال. وكان من عادة المعجبين به التجمّع هنا مستعدّين لسماعه، وكان مساعدوه المخلصون يشعرون بأنّهم مكرَّمون لأنّه يسمح لهم بخدمته. كان «غورا» غائباً كما توقّع «بينوى» فهرع إلى داخل المنزل وفاجأ من في الغرفة بدخوله، كانت «آناندامو ا» قد بدأت بتناول طعام الغداء لتوّها وكانت «لاشمي» إلى جانبها تروّح لها بالمروحة، عند ذلك صرخت «آناندامو ا» وقد باغتتها المفاجأة:

- ما الذي حصل يا «بينوى»؟

فقال «بينوى» وهو يجلس مقابلها:

- "أنا جائع يا أمّي، أعطني شيئاً آكله".

فبدت «آناندامو ا» مغتاظة:

- "يا لسوء الحظ! لقد انصرف الطبّاخ البراهماني للتوّ، و...

فصاح «بينوى» متعجّباً:

- "هل تعتقدين أنّني أتيتُ أبحثُ عن وجبة تقليديّة؟ لو كان الأمر كذلك لكنتُ اكتفيتُ بطبّاخي الخاص أليس كذلك؟ لكنّي أريد أن أشاركِ طعامكِ أنتِ يا أمّي. هلّا أعطيتني كوباً من الماء يا «لاشمي» لو سمحتِ؟"

شرب «بينوى» الماء جرعة واحدة، وقدَّمت له «آناندامو ا» الطعام برقّة وعناية من الوجبة المعدّة لها شخصياً، ثمَّ جلبت له طبقاً آخر التهمه «بينوى» وكأنَّه كان صائماً من أيام عديدة.

لقد تحرَّرت «آناندامو ا» من همٍّ كبير، ولما رآها «بينوى» سعيدة شعر هو أيضاً براحة كبيرة.

وبعد ذلك، بينما كان عطر زهور الكيّا[1] يملأ الغرفة جلست «آناندامو ا» تخيط، فتمدَّد «بينوى» عند قدميها سانداً رأسه على ذراعها ناسياً باقي العالم، وأخذ يثرثر معها مثلما كان يفعل في الأيام الخوالي.

---

(١) الكيّا: زهور طويلة، عطرة جداً، تنمو في الربيع في السهب على شجرة شوكية.

الفصل الثامن

عندما حطَّم ذاك الحاجز الأول اجتاحت قلب «بينوى» موجة جديدة من التمرّد، وعندما غادر منزل «آناندامِوا» كادت قدماه تلامسان الأرض بخفّة كبيرة حتى خُيِّلَ له أنَّه يطير، تمنى لو يعلن لجميع الذين يصادفهم السرّ الذي أثار في نفسه الكثير من الشكوك والحيرة منذ بضعة أيام.

وفي الوقت الذي وصل فيه إلى الرقم ٧٨ قابل «باريش بابو» الذي كان آتياً من الجهة المقابلة، فقال له:

- "ادخل، ادخل، إني مسرور لرؤيتك «بينوى بابو»".

وأدخله إلى مكتبه المطلّ على الشارع. كان في الغرفة طاولة صغيرة ومقعد ذو مسند خشبي وكرسيان من الخيزران المجدول، وعلى أحد الجدران يتدلّى رسم ملوّن يمثّل رأس المسيح، وعلى جدار آخر صورة لـ«كيشوب شاندرا سن»، وعلى الطاولة تقبع رزمة من الصحف المطوية بعناية والمضغوطة بثقّالة ورق من رصاص. في إحدى الزوايا مكتبة صغيرة تحمل كتباً مرصوفة بشكل جيّد، وفي أعلى المكتبة كرة مغطاة بمنديل. جلس «بينوى» وبدأ قلبه يخفق عندما تذكّر الشخصية التي يمكن أن تدخل من الباب.

في هذه الأثناء أخذ «باريش بابو» يشرح:

- "كل يوم اِثنين، سوف تعطي اِبنتي «سوشاريتّا» درساً لاِبنة أحد أصدقائي، ولما كان لديهم اِبن بعمر «ساتيش» فقد رافق الصغير أخته، لقد عدتُ للتوّ بعد أن أوصلتُهم ولو أنّي تأخّرتُ لكنت ضيّعتُ فرصة لقائك".

بهذا الخبر شعر «بينوى» بالاِرتياح وفي الوقت نفسه بإحساس خفيف من الخيبة، غير أنَّ الحديث مع «باريش بابو» كان سهلاً، وخلال المقابلة أسرَّ له «بينوى» بكلّ ما يتعلّق به: لقد كان يتيماً وعمّه وعمّته كانا يسكنان الريف، وكان يحرث لهما الأرض، وقد أمضى دراساته مع اِثنين من أبناء عمّه، وأصبح البكر منهما محامياً في القضاء ومات الأصغر بمرض الكوليرا. كان عمّه يودّ لو أنَّه دخل القضاء ليحصل على منصب قاضٍ لكنه لم يكن يشعر بأي اِستعداد ليصبح قاضياً، وكان يضيّع وقته باِهتمامات غير مفيدة. مرّت ساعة منذ بدء الحديث، وبما أنَّ إطالة الزيارة دون سبب واضح قد تكون غير مناسبة فقد نهض «بينوى» وهو يقول:

- "آسف لأني لم أقابل صديقي «ساتيش»، أرجو أن تخبره أنّي قد أتيت لو سمحت؟"

أجاب «باريش بابو»:

- "انتظر قليلاً وسوف تراه. هما في طريق العودة وسيصلان بين لحظة وأخرى".

شعر «بينوى» بنوع من الخجل الخفيف لأنَّه أبدى هذه الملاحظة البسيطة. لو أنَّ «باريش بابو» أصرَّ قليلاً لبقي «بينوى» جالساً لكن مضيفه لم يكن من عادته إطلاق كلمات دون مبرِّر ولا الضغط على الناس ضدّ إرادتهم الواضحة، وجب إذاً الاِستئذان والاِكتفاء بالمجاملة: "سيكون من دواعي سروري أن أراك عندما تسمح لك الظروف بزيارتنا ثانية".

لا شيء ملحّ يدعو «بينوى» للعودة إلى بيته، إنَّه دون شك يكتب في الصحف والجميع يمتدحون لغته الإنكليزية لكنّه، منذ بضعة أيام، لم يعد يستطيع

التركيز بشكل كاف كي يقوم بعمله، وعندما يجلس إلى الطاولة يبدأ خياله يهيم على غير هدى. توجّه «بينوى» بالاتجاه المعاكس لطريق سكنه دون سبب خاص وبعد أن سار بضع خطوات سمع صوتاً صبيانياً حاداً يصرخ:

- "«بينوى بابو»! «بينوى بابو»! رفع «بينوى» ناظريه فرأى «ساتيش» يومئ له من خلال ستار على باب العربة، لمح «بينوى» سارياً وكمّاً أبيض لصدّار يسمح بتخمين من هي الشخصية الأخرى الجالسة في العربة، آداب المعاشرة البنغالية لا تسمح لـ«بينوى» بالنظر داخل العربة، لكن«ساتيش» سرعان ما قفز من العربة إلى الأرض وأمسك صديقه بيده مترجّياً:

- "تعال إلى البيت «بينوى بابو»".

فردَّ «بينوى» شارحاً:

- لقد غادرته للتو"

فألحَّ «ساتيش» مترجياً:

- "لكنّي لم أكن موجوداً هناك، ينبغي أن تعود".

لم يتجرأ «بينوى» على المقاومة ودخل «ساتيش» المنزل مع سجينه وهو يصرخ:

- "لقد أعدتُ «بينوى بابو» يا أبي".

خرج السيد العجوز من غرفته وابتسم قائلاً:

- "لقد وقعتَ في يدين قويتين يا «بينوى بابو»، ولن يكون من السهل عليك التملّص منهما. نادِ أختكَ يا «ساتيش»".

ظلَّ «بينوى» في مكانه، قلبه يخفق وأنفاسه تتلاحق، ما جعل «باريش بابو» يلحظ ذلك ويقول:

- "لقد ضاق نفَسكَ: «ساتيش» شيطان حقيقي".

عندما أدخل «ساتيش» شقيقته إلى الغرفة كان أول انطباع لــ«بينوى» هو رائحة عطر رهيف، ثم سمع «باريش بابو» يقول:

- " قد أتى «بينوى بابو» ليرانا، أنتِ تذكرينه طبعاً يا «رادها»".

ولمّا رفع «بينوى» عينيه بحياء شاهد «سوشاريتّا» التي حيّته وجلست على كرسي مواجه له، وبدوره لم يتوانَ عن واجب الانحناء.

فقالت «سوشاريتّا»:

- "أجل، لقد مرَّ «بينوى بابو» بالقرب من عربتنا، وما أن لمحه «ساتيش» حتى قفز خارج العربة واحتجزه، قد تكون لديك بعض الأشغال «بينوى بابو» أرجو أن لا يكون قد عطّل مشاريعكَ".

لم يكن «بينوى» يجرؤ على التخيّل بأنَّ «سوشاريتّا» توجّه له الكلام شخصياً واضطرب جداً لأن بديهته سمحت له بهذه الإجابة فقط:

- "لا،لا لم يكن لديَّ ما أفعله، إنّه لم يزعجني أبداً".

شدَّ «ساتيش» ثياب شقيقته وهو يقول:

- " أعطيني المفتاح يا ديدي، أريد أن يرى «بينوى بابو» علبة الموسيقا التي عندنا".

استغرقت «سوشاريتّا» في الضحك وقالت:

- "كيف! الآن! أصدقاء السيّد الثرثار لا ينعمون بالراحة ولا حتى بدقيقة واحدة، في البدء ينبغي عليهم أن يستمعوا إلى علبة الموسيقا دون أن يذكروا شيئاً عن أحوالهم ومحنهم، ينبغي عليّ أن أنذرك يا «بينوى بابو»: إن طغيان صديقك الصغير ليس له حدود، لا أدري ماذا ستفعلُ لتستطيع تحمّله".

شعر «بينوى» أنّه غير قادر على الاطلاق أن يجيب «سوشاريتّا» بما يناسب أسلوبها الطبيعي جداً، فقام بمجهود فائق ليخفي انزعاجه لكنه توصّل إلى نطق بعض الجمل المتقطعة:

- "لا،لا أبداً...أرجوكِ... هذا الأمر يسلّيني كثيراً..."

أخذ «ساتيش» المفتاح الذي أعطته إياه شقيقته وجلب علبة الموسيقا، وكانت صندوقاً زجاجياً مزخرفاً وفي داخله باخرة صغيرة راسية على أمواج من الحرير، وعند تشغيل الصندوق تصدر موسيقا فيتأرجح المركب وفق إيقاعها. كان «ساتيش» يلقي نظرات منتشية بين الباخرة وبين «بينوى» ثم يعود فينظر إلى الباخرة الصغيرة ولم يكن باستطاعته أن يكبح تأثره، بفضل الطفل اِستطاع «بينوى» أن يسيطر على اِرتباكه، ورويداً رويداً تجرأ على النظر إلى «سوشاريتا» وهو يتحدّث إليها، بعد وقت قصير أتت «ليلا» وهي إحدى بنات «باريش بابو» لتقول لهم:

- "تودُّ أمّي أن تصعدوا جميعكم إلى الشرفة".

الفصل التاسع

في الأعلى، وعلى الشرفة التي تطلُّ على الرواق كانت هناك طاولة مغطّاة بغطاء أبيض ومحاطة ببعض الكراسي. وعلى الجانب الخارجي للدرابزين كان هناك صفٌ كبير من المزروعات في أحواض، وعند الإنحناء تُشاهَد على طول الشارع أوراق أشجار «السيريش»[1] تلمع تحت المطر.

لم تكن الشمس قد غابت بعد وكانت أشعتها المائلة تنتشر بحياء على زاوية الشرفة. عندما صعد «باريش بابو» مع «بينوى» لم يكن أحد قد وصل بعد إلاّ «ساتيش» ومعه كلب صغير لونه أبيض وأسود ذو وبر كثيف، وكانوا يسمونه «كودِي الصغير». أخبرهم «ساتيش» عن كل حيله، إذ كان باستطاعته أن يحيّي بقوائمه وأن يحني رأسه إلى الأرض وأن يطلب الحلوى؛ نسب «ساتيش» لنفسه كل هذه الخصائص، «كودي» نفسه لم يكن يطلب أيّ مكافأة، الحلوى وحدها كانت بالنسبة إليه أفضل مكافأة.

بين الفينة والأخرى كانت تصل إلى الشرفة – من الغرفة المجاورة – أصواتٌ أنثوية خفيفة تتخلّلها قهقهات ضحك تختلط أحياناً بصوت رجل، هذا التيار الفرِح أيقظ في ذهن «بينوى» عاطفة رقيقة مبهمة مشوبة بغيرة خفيفة، فهو لم يسمع في حياته همسات فرحة لصبايا ضمن عائلته، وهذه الموسيقا تبدو له الآن قريبة جداً مع أنّها ظلت منيعة بالنسبة إليه. أضاع المسكين «بينوى» رشده ولم يعد بإمكانه أن يولي الإنتباه المطلوب لثرثرة «ساتيش».

(١) سيريش Sirish: شجر كبير له أزهار بيضاء تشبه كرات الثلج (في الغرب).

وأخيراً ظهرت زوجة «باريش بابو» برفقة بناتها الثلاث ومعهنّ شاب تربطه بهم قرابة بعيدة. كانت زوجته تدعى «بارودا»، لم تكن لتبدو شابّة مع أنّها كانت قد تزيّنت بعناية، لقد عاشت حياتها السابقة بشكل بسيط جداً وفجأة بدأت تهتم بالمستوى الاجتماعي للأسرة وتقيم علاقاتٍ مع المجتمع الأكثر تقدّماً، لهذا السبب كان حرير ساريها يلمع بشدة أمّا صوت كعب حذائها فقد كان يرنّ بقوة، وكانت تعير انتباهاً كبيراً للتمييز بين من هو براهمو وبين من هو ليس كذلك، كما أنّها استعاضت عن اسم الصبيّة «رادهاني» التقليدي البحت باسم «سوشاريتّا».

كانت البكر من بناتها تدعى «لابونيا» وهي سمينة مزاجها فرِح واجتماعي وتعشق الثرثرة، وجهها مستدير وعيناها واسعتان وبشرتها الملساء سمراء داكنة، ربما لم تكن مهتمَّة بزينتها لكنها كانت تأتمر بأمر والدتها في هذا المجال بشكل صارم، وهي تكره الكعب العالي غير أنّها كانت مجبرة على انتعاله عندما تخرج إلى المجتمع بعد الظهر، وكانت والدتها تزيّن عينيها وشفتيها بنفسها، وبما أنّها كانت ضخمة فالصدّار المشدود بشكل محكم كان يضايقها، وعند الخروج من غرفة الزينة هاربة من يدَيْ والدتها كانت تبدو ككرة قطن تخرج من المكبس. الابنة الثانية تدعى «لوليتّا» وهي على نقيض أختها الكبيرة، فهي أطول منها وأكثر سمرة، نحيلة جداً ولم تكن لتطيع سوى نفسها، وكان من عادتها التزام الصمت غير أنّها تبدي قدرة على إطلاق ملاحظات لاذعة، وكانت والدتها في قرارة نفسها ترتجف أمامها وتتجنّب إغضابها.

البنت الصغرى بينهن تدعى «ليلا» وهي في العاشرة من عمرها، شخصيتها صبيانية حقّة، وهي على الدوام في حالة شجار أو قتال مع «ساتيش»، وأحد الموضوعات الرئيسية المتنازع عليها هي ملكية الكلب «كودي»، ولو تمّت استشارة الكلب لم يكن ليختار كسيّد له أي واحد من الأطفال حتّى لو كان يبدي تفضيلاً بسيطاً نحو «ساتيش» إذ كانت صرامته محتملة أكثر من مداعبات «ليلا» الخانقة.

عندما ظهرت السيدة «بارودا» على الشرفة، نهض «بينوى» وحيّاها بانحناء شديد، قدَّمه «باريش بابو» قائلاً:

- "هذا هو الصديق الذي كنا في منزله في ذاك اليوم...."

فصاحت «بارودا» مع فيض من الإعجاب:

- "آواه! كم كنتَ طيباً، نحن شاكرون جميلك".

عند التعبير عن الشكران والإقرار بالامتنان لم يستطع «بينوى» إيجاد الجواب المناسب من شدّة الخجل الذي انتابه، ثمَّ عرّفوه بالشاب الذي كان يرافق الفتيات، ويدعى «سودهير» وهو لا يزال في مرحلة تحضير الإجازة الجامعية. كان يبدو لطيفاً، بشرته فاتحة اللون، وله شاربان خفيفان ونظّارة، بدا مضطرباً قليلاً ولم يكن باستطاعته الركون في مكانه للحظة واحدة، وكان بمزاحه المستمر يسلّي الصبايا اللواتي كنَّ يرفضنه لكن لم يكن باستطاعتهنَّ الاستغناء عنه باعتباره «سوديرهم». كان جاهزاً على الدوام للقيام بمشترياتهن ولمرافقتهنَّ إلى السيرك أو إلى حديقة الحيوانات؛ كانت ألفة «سودهير» ومزاحه مع الفتيات يعبّر عن براءة ولا يحمل أيّ قصد خفي، وكان ذلك حدثاً غير مسبوق في حياة «بينوى» الاجتماعية، وهذا ما حرّك شعوره وأثّر فيه بشكل خاص. كان أول انطباع له إدانة هذه الطريقة في التصرّف، لكن هذه الإدانة سرعان ما امتزجت بمسحة من الغيرة.

لبدء الحديث والدخول في الموضوع قالت «بارودا»:

- "يبدو لي أنّني لمحتك مرّة أو مرّتين في مراكز «البراهمو – ساماج»".

شعر «بينوى» وكأنّه قد فوجئ متلبّساً بجنحة فاضحة عندما اعترف كمن يقدّم أعذاراً دون فائدة، أنّه كان يذهب إلى هناك ليسمع عظة، وتابعت «بارودا» تسأل:

- "أعتقد أنّك تتابع دروسك في الجامعة؟"

- "لا، لقد أنهيتُ دراستي الجامعية".

- "وفي أيّة مرحلة أنتَ الآن؟"

- تخرّجتُ وأحمل الإجازة الجامعية".

كان من الواضح أنّ هذا الجواب أوحى لــ«بارودا» باحترامٍ يستحقه هذا الشاب الذي يبدو أصغر من عمره، فتنهدت والتفتت نحو «باريش بابو» لتقول:

- "لو ظلّ ابننا «مانو» على قيد الحياة، لأصبح هو أيضاً مجازاً جامعياً".

لقد مات ابنهم البكر بعمر تسع سنوات، وعندما كانت السيدة «بارودا» تسمع أحدهم يتحدّث عن شاب قد نجح في امتحاناته أو حصل على وظيفة مرموقة، أو ألّف كتاباً جيداً كان يخطر ببالها على الفور ابنها وتقول: إنّه لو عاش لكان فعل مثلهم. غير أنّها بعد أن فقدته بدأت تعتقد أنّ من واجبها تعريف المجتمع بفضائل بناتها الثلاث، فهي لم تفوّت فرصة لتُعلِمَ «بينوى» عن ميلهن للدرس، ولم تخفِ عنه ما كانت مدرّسة اللغة الإنكليزية تقوله عن ذكائهنّ ومواهبهنّ المميّزة، لقد تمّ اختيار «لابونيا» من بين جميع الطالبات لتقدّم لأعيان المدينة أكاليل الياسمين عند توزيع الجوائز في مدرسة البنات بوجود الحاكم وزوجته، وحظيَ «بينوى» بفرصة سماع العبارات التي امتدحتها بها زوجة الحاكم، وفي نهاية حديثها طلبت من «لابونيا» قائلة:

- "اذهبي يـــا حبيبتي واجلبي النسيج المطرَّز الذي نلتِ عليـــه الجائزة بجدارة".

كان وجه الببغاء المطرَّز بالصوف منذ زمن بعيد مألوفاً لدى الأهل والأصدقاء، لقد تم إنجازه بألف مجهود وعدّة أشهر بمساعدة المربّية المستمرّة ولم تكن حصة «لابونيا» الشخصية في العمل ذات أهميّة تُذكر، ومع ذلك فقد كان الاحتفال الذي يُقام لعرضه أمام كلّ زائر جديد أمراً ملزماً، حاول

«باريش بابو» في البدء أن يعترض لكنه تراجع عن ذلك لأنَّه أدرك أنَّ احتجاجاته ستذهب سدىً.

بينما كان «بينوى» منشغلاً في التعبير وإظهار الدهشة والإعجاب اللازمين بهذا العمل الفني، دخل خادم يحمل رسالة إلى «باريش بابو»، وعندما أنهى قراءتها أشرق وجهه بالسرور وأمر الخادم قائلاً:

- "فليصعد هذا السيّد إلينا".

سألت «بارودا»:

- "من هو؟"

- "إنَّه ابن صديقي القديم «كريشنادايال» قد أتى ليراني".

فجأة توقَّف قلب «بينوى» عن الخفقان وشحب لونه، جلس وشبك يديه كما لو أنَّه كان يتهيأ للصمود ضدّ هجوم ما، لم يكن يشكّ أبداً بأن «غورا» سوف يُصدَمُ سلباً بالسلوكيّة المتبعة في هذه العائلة، ومن ثم سوف يدين أعضاءها ويحمّلهم المسؤولية، لكن «بينوى» كان مستعداً للدفاع عنهم.

الفصل العاشر

هيّأت «سوشاريتّا» طعاماً خفيفاً على صينية وضعتها في الرواق، ثم سلّمت الصينية لأحد الخدم كي يتناول منها الجميع وعادت إلى الشرفة وجلست. عندما وصل الخادم كان «غورا» قد تبعه، ذُهِلَ الجميع من طوله الفارع وسحنته البيضاء الفاتحة، وكان يحمل علامة طبقته مرسومة على جبينه من آجرّ الغانج، ويرتدي الــ«دهوتي»[1] المصنوع من خيوط ثخينة، ومعه سترة مشدودة بشرائط وفق التقليعة القديمة، أمّا خفّه فهو نموذج ريفي يظهر منه إبهام قدمه. دخل «غورا» وكأنّه تجسيد للثورة ضدّ الحداثة، حتى «بينوى» نفسه لم يشاهده في حياته يعرض لباساً مثيراً ومتحدّياً بهذا الشكل.

في الحقيقة كان «غورا» قد أُفعِمَ بثورة غاضبة من مجريات الأمور وكان لهذه الثورة سبب خاص، لقد ذهب عشية ذلك اليوم في رحلة على باخرة لحضور احتفال شعائر الغسول في «تريبيني»، وخلال الوقوف في محطّات الرحلة صعدت على متن الباخرة مسافرات ضمن مجموعات من الحجّاج يرافقهنّ رجل أو رجلان، اضطررن إلى استخدام الأكواع وإلى التدافع من أجل إيجاد مكان لهنّ، الأمر الذي سبَّب انزلاق بعضهنّ على لوح يستعمل كمعبر، ووقعن بسبب أقدامهنّ المليئة بالطين، بينما وجدت أُخريات

---

(١) الدهوتي: قطعة أساسية من اللّباس الذكوري، من قماش أبيض معقود حول الورك ومثني حول الساقين ويرفع أحياناً كالوزرة. يتمّم هذا الزيّ وشاح أو شال يُحمل على الكتف أو يتصالب عند الصدر.

أنفسهن وقد دُفِعنَ إلى المياه من قبل بحّارة، العديدات من اللواتي توصلنَ إلى إيجاد مكان أضعنَ رفيقاتهنَّ وسط الزحام، وفوق هذا كله كان المطر يهطل، وبين الحين والآخر كانت الزخات تبلّلهنَّ، وكان الجسر الذي أُجبرنَ على الجلوس فوقه مغطىً بوحل لزج مدبق. كان نوع من اليأس المنهك يرتسم على وجوه هؤلاء التعيسات، وكان في أعينهنَّ قلق يدعو للرثاء، لم يكنَّ يجهلنَ وضعهنَّ كمخلوقات ضعيفة وتافهة لذلك لم ينتظرنَ أيّة بادرة نجدة لا من القبطان ولا من طاقم رجال السفينة، وكان الخجل والخشية سمتين لأدنى حركة يقمنَ بها، «غورا» وحده جهد لمساعدتهنَّ في ضيقهنّ.

على متن هذه السفينة كان رجل إنكليزي وبابو بنغالي ذو مظهر حداثي يدخّنان السيجار ويتحدّثان ويستمتعان بالمشهد وهما مستندان إلى درابزين الجسر في الدرجة الأولى، وأمام موقف محزن لإحدى الحاجّات، كان الرجل الإنكليزي يقهقه ضاحكاً أحياناً ويتبعه البنغالي في ضحكه الصاخب، وعندما عبّرا مرّتين أو ثلاث مرّات عن هذا الفرح لم يستطع «غورا» تحمّل المزيد ، صعد إلى الجسر الأعلى وصرخ بصوت مرعد:

- "كفى، ألا تخجلان؟"

اكتفى الرجل الإنكليزي بالنظر بقساوة إلى «غورا» وأخذ يتفحّصه من قدميه إلى رأسه، أمّا الرجل البنغالي فتنازل وأجاب مستهزئاً:

- "خجل؟ أجل، إنّي أخجل من غباء هذه المخلوقات عديمة الأهميّة".

فقال «غورا» ووجهه يتوقّد ناراً:

- "هناك بشر أفظاظ أسوأ بكثير من جاهلات بائسات، وهم الرجال الذين ليست لهم قلوب".

غضب البنغالي وأجاب مسرعاً وبحدّة:

- "اِذهب من هنا، ليس لك الحق بالصعود إلى الدرجة الأولى".

فأجاب «غورا»:

- "بالتأكيد لا، مكاني ليس مع شخص من أمثالك بل مع الحجّاج المتواضعين، مع ذلك أنصحكَ ألاّ تجبرني على الصعود مرة أخرى إلى درجتك الأولى".

ونزل راكضاً باتجاه الجسر السفلي.

بعد هذا الحادث تمدّد الإنكليزي من جديد فوق مقعده المريح الخاص بهذا الجسر سانداً قدميه إلى درابزين السفينة واستغرق في قراءة رواية، أمّا رفيقه البنغالي فقد حاول مرّتين أو ثلاث مرّات أن يعيد مجرى الحديث لكنه فشل، عندها نادى النادل وطلب وجبة دجاج مشوي كي يُظهِرَ تماماً أنّه يتميّز عن جميع مواطنيه، لكن النادل لم يكن بإمكانه أن يقدّم سوى الخبز والشاي والزبدة ما جعل الـ«بابو» يصيح بالإنكليزية متعجّباً:

- "يا للفضيحة ألا نجد سوى القليل القليل من وسائل الراحة على متن هذه السفينة!"

ولكن رفيقه لم يعرف شيئاً عن هذا العرض، وبعد قليل طارت الصحيفة من يد الإنكليزي فقفز البنغالي من مقعده المريح كي يلتقطها ويعيدها إلى صاحبها ولم يحصل مقابل ذلك على كلمة شكر واحدة. عند النزول في «شاندرناغور» اقترب الإنكليزي من «غورا» لمخاطبته وهو يرفع قبّعته بشكل خفيف قائلاً:

- "أعتذرُ عن سلوكي إنني خجل". ثم أسرع بالنزول.

إنّ ما كان يثير غضب «غورا» هو الشعور بالإهانة جرّاء مشاهدة أحد مواطنيه، وهو رجل مثقف، قادراً على الانضمام إلى أجنبي كي يلهو ويسخر من الحالة البائسة لشعبه هو وليضحك من التعساء متّخذاً موقفاً متعالياً. أهل بلده يتعرّضون للنقد ولكل أشكال الشتائم والسفاهات، لقد اعتادوا على أن يعتبروا معاملتهم كالماشية من قبَل مواطنيهم الميسورين أمراً لا مفرَّ منه،

وتوصّلوا لنتيجة مفادها أنّ موقفهم هذا طبيعي وشرعي. كان «غورا» يرى سبب هذا الخضوع في الجهل العميق الذي كان يتغلغل في كل أنحاء البلاد، ومجرّد التفكير فيه كان يحطّم قلبه، لكن الجرح الأعمق بالنسبة إليه، هو أن يرى مواطنيه الأكثر تعلّماً يفضّلون التباهي بامتيازاتهم عوضاً عن أن يتحمّلوا بأنفسهم عبء هذا العار وهذه الإهانة المستمرّة. لهذا السبب أبرز «غورا» العلامة المرسومة على جبهته بآجرّ نهر الغانج وارتدى ذلك اللباس الريفي المثير عند زيارته لعائلة البراهمو التي أرسله إليها والده، لأنّه كان راغباً في إبداء احتقاره للقوانين التافهة والحرفية التي يتبعها المواطنون الأكثر ثقافة في هذا البلد.

قال «بينوى» في نفسه: "يا إلهي! إنّ «غورا» على أهبة الخوض في حرب!". كاد يغمى عليه لمجرّد التفكير ما يمكن لـ«غورا» أن يقوله أو يفعله وهو على هذا المزاج، وشعر بضرورة تركيز قواه اِستعداداً لمعركة محتملة.

بينما كانت السيدة «بارودا» تتحدّث إلى «بينوى» اِكتفى «ساتيش» بالقفز فوق الدرابزين في زاوية من الشرفة، ولكن هذه التسلية فقدت سحرها بالنسبة إليه عندما شاهد «غورا»، فهرع بلطف إلى جانب «بينوى». تمتم سائلاً وهو يلتهم الزائر بعينيه:

- "هذا هو صديقك؟"

- "نعم" أجاب «بينوى».

تجاهل «غورا» وجود «بينوى» بعد أن رمقه بنظرة سريعة. حيّا «باريش بابو» باِحترام دون أن يبدي أي حرج أو انزعاج واتّخذ له كرسياً ثمّ اِبتعد قليلاً عن الطاولة وجلس، أمّا بالنسبة إلى السيدات فالآداب الاِجتماعية التقليدية تقضي بألاّ يصدر عنه أيّة إشارة تدلّ على أنّه انتبه لحضورهنّ. قرّرت السيدة «بارودا» أن تبعد بناتها عن هذا الوغد عندما عرّفها به زوجها على أنّه اِبن أحد أصدقائه القدامى، وعلى هذا الأساس اِلتفت «غورا» نحوها واِنحنى.

كانت «سوشاريتّا» قد سمعت «بينوى» يتحدّث عن «غورا» لكنها لم تدرك أنّ هذا الزائر هو تحديداً «غورا» ولأول وهلة شعرت تجاهه بالنفور لأنّها لم تكن معتادة ولا تمتلك الصبر الكافي لتحمّل أشخاصٍ متقفين ويبدون تقليدية صارمة في الوقت نفسه.

بدأ «باريش بابو» يطرح أسئلة حول صديق الطفولة «كريشنادايال» ويعيد ذكريات دراستهما الجامعية:

- " كنّا أسوأ عدو للتقاليد يمكن تصوره بين طلاب تلك الحقبة، لم نكن نولي التقاليد أدنى احترام، كنا نرى أنّ واجبنا الحقيقي هو أن نأكل الأطعمة الممنوعة، كم من الأمسيات أمضيناها ونحن نتناول وجبة عشاء غير تقليدية في مطعم للمسلمين قرب الكلّية، وكنّا بعدها نبقى نناقش إصلاح المجتمع الهندوسي حتّى منتصف الليل".

فقاطعته «بارودا» سائلة:

- "وما هي أفكار صديقكَ اليوم؟"

أجاب «غورا»:

- "الآن، هو يتبع العادات التقليدية بدقّة وحزم".

سألت «بارودا» مستنكرة وقد ثارت غيظاً:

- ألا يخجل؟

فردّ «غورا» ضاحكاً:

- "الخجل علامة لشخصية ضعيفة، هناك أشخاص يخجلون حتى من التعرّف على آبائهم الحقيقيين".

- "ألم يكن براهمو؟"

فأجاب «غورا»:

- "أنا نفسي كنتُ براهمو".

فسألت السيدة:

- "والآن هل تؤمن بإله له شكل محدَّد؟"

- لا أؤمنُ باحتقار الأشكال المحدَّدة دون سبب، ألا يكفي التحدّث عنها بازدراء كي نجرِّدها من كل قيمة؟ من استطاع أن يدخل إلى سرِّها ويكتشفه؟"

عندها قاطعه «باريش بابو» بهدوء:

- "لكن الشكل يفرض حدوداً للألوهة".

فأجاب «غورا» مصرّاً على رأيه:

- "لا شيء يمكن أن يتجلّى دون أن يفرض حدوداً، حتى اللامنتهي اتخذ شكلًا كي يتجلّى، وإلاّ كيف أُوحيَ به ؟ الذي لا يوحى به لا يمكن له أن يصل إلى الكمال؛ اللامنتهي يتحقّق في الشكل كما يكتمل الفكر في الكلمة".

فصاحت «بارودا» متعجِّبة وهي تهزّ رأسها غير مصدِّقة:

- "هل تزعم أنَّ إلهاً محدّداً مسجوناً داخل شكل هو أكثر كمالاً من «المطلق» دونما شكل وحدود؟"

فردَّ «غورا» قائلاً:

- "لا يهمّ ما أزعمه، شكل العالم غير مرتبط بأقوالي، لو أنَّ المجرَّد عن الشكل كان حقاً الكمال بذاته، لما وجد الشكل مكاناً له في الخليقة".

تمنّت «سوشاريتّا» بحدّة لو أنّ أحدهم يظهر مقدرة على تحدّي هذا الشاب الوقح ويفحمه في المناقشة، وانزعجت لرؤية «بينوى» قابعاً بكل هدوء على كرسيه دون أن ينبس ببنت شفة، حتى إنَّ العنف المنبعث من نبرة «غورا» استفزّ الصبيّة ودفعها لتوجّه له جواباً ساحقاً، لكن الخادم دخل حاملاً معه إبريق ماء مغلي ما اضطر «سوشاريتّا» إلى الانشغال في تهيئة الشاي، أمّا «بينوى» فكان يوجّه إليها نظرة استفهام بين الفينة والأخرى.

بالرغم من أنّه لا يوجد فرق كبير بين «غورا» و«بينوى» يخصّ الديانة، اغتمَّ «بينوى» وحزن كثيراً لأن «غورا» قد أتى إلى هذا البيت البراهمو دون دعوة، وأبدى تجاهه عداءً عنيداً، لكن ضبط النفس الهادئ والرعاية العطوفة وصفاء «باريش بابو» وسموّ فكره الذي كان يعلو على حجج الفريقين ملأ «بينوى» إعجاباً وخاصة عندما قارنه بالموقف العدواني لـــ«غورا»، فكان يفكّر في قرارة نفسه: "الآراء ليست مهمّة، السلام الداخلي وحده هو الواقع الذي له قيمة، ما أهمية الوزن النسبي لحُجّة أو لأخرى؟ التجربة الشخصية هي التي لها الأهمية الكبرى".

خلال المناقشة، كان «باريش بابو» يغمض عينيه أحياناً ليستغرق متأمّلاً في أعماق نفسه، كان معتاداً على هذا الأمر وكان «بينوى» مفتوناً يراقب الطمأنينة التي كانت تشعّ من قسمات وجهه عندما كان يستغرق في التفكير والتأمّل. شعر «بينوى» بخيبة أمل كبيرة لرؤية «غورا» لا يبدي احتراماً عفوياً تجاه هذا الرجل الجليل، احتراماً لو شعر به لكبح مبالغات أقواله.

عندما انتهت «سوشاريتا» من صبّ الشاي التفتت نحو «باريش بابو» وكأنّها تسأل إلى أي ضيف ينبغي عليها تقديم الشاي أولاً، نظرت السيدة «بارودا» إلى «غورا» وهتفت متعجّبة:

- "أنتَ، أعتقد أنك لن تشرب الشاي أليس كذلك؟"

- "كلّا" أجاب «غورا» بشكل قاطع.

فسألت «بارودا» مصرّة:

- "لماذا؟ هل تخشى أن تفقد طبقتك؟"

- "أجل" أجاب «غورا».

- "أنت تؤمن بالطبقة إذاً؟

- "هل أنا الذي أسّستُ الطبقة حتى يكون بإمكاني ألاّ أؤمن بها؟ طالما ينبغي عليّ إطاعة المجتمع، ينبغي عليّ إطاعة الطبقة أيضاً".

- "هل أنتَ ملزم بالطاعة التامّة تجاه المجتمع؟"

- "عدم إطاعة المجتمع يعني تدميره".

- وما السوء في تدميره؟"

- يمكنكِ أيضاً أن تسألي أي سوء قد يحصل لو قطعنا بمنشار اللوح الذي نحن جالسون عليه؟"

فقاطعت «سوشاريتّا» الحديث وقد جُرِحَت:

- "ماذا تفيد هذه المناقشة الفارغة يا أمّي؟ إنّه لا يريد أن يأكل معنا، هذا كل شيء".

حدَّق «غورا» بـ«سوشاريتّا» بينما راحت هي تنظر إلى «بينوى» وسألته وهي متردّدة:

- "وأنتَ...؟"

لم يشرب «بينوى» الشاي في حياته، ومنذ زمن بعيد امتنع عن الخبز والحلوى المصنوعة عند غير الهندوس، لكنه في هذا اليوم شعر أنَّ عليه أن يشرب ويأكل ما يُقدَّمُ إليه، فرفع ناظريه بجهد ليقول:

- "بالتأكيد".

ثم ألقى نظرة باتجاه «غورا» الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة وتهكّميّة، شرب «بينوى» الشاي بشجاعة مع أنَّه وجده مرّاً وسيّئ المذاق.

قالت «بارودا» في نفسها: "يا له من شاب لطيف «بينوى» هذا" لكنها لم تعبّر عن رأيها، بل أعارت «بينوى» كل اهتمامها أدارت ظهرها لـ«غورا»، ولمّا لاحظ «باريش بابو» هذا الموقف، نقل كرسيه بلطف نحو «غورا» وأخذ يتحدّث معه بصوت منخفض، تمَّ بعدها الإعلان عن زائر آخر، فاستقبله الجميع ونادوه باسم «بانو بابو» أمّا الاسم الحقيقي للقادم الجديد فكان: «هاران شاندرا ناغ».

كان قد أُشتُهرَ في دائرة أصدقائه ومعارفه بأنَّه ذكي ومثقّف بشكل لافت وكان هناك شبه اعتقاد أنَّه قد يتزوج «سوشاريتّا» غير أنَّه لم يكن قد حصل أي شيء متّفق عليه بشكل واضح، لكن لم يكن هناك شك أنَّه ميّال للفكرة، وكانت أخواتها تضايقنها في هذا الموضوع. كان «هاران» يعلّم في مدرسة، لكن السيدة «بارودا» لم تكن تقيم وزناً لمدرّس بسيط، وكانت لا تخفي عن «هاران» بأنَّه ينبغي عليه ألاّ يتجرّأ ويطلب يد بنت من بناتها، أصهرة أحلامها ينبغي أن يكونوا فرساناً مجتهدين، طموحهم هو كرسي في القضاء.

وعندما قدَّمت «سوشاريتّا» كوباً من الشاي إلى «هاران»، نظرت إليها «لابونيا» من بعيد نظرة ذات مغزى وابتسمت لها وهي تضغط على شفتيها، لم يغفل «بينوى» عن هذه الحركة إذ إنَّه في هذه الفترة القصيرة من الوقت اكتسبت رؤيته لبعض الأمور عمقاً استثنائيّاً وسرعة غير عادية، كان «بينوى» يرى أنَّه من الظلم أن يكون هذان الشابّان «هاران» و«سودهير» مقرّبين من العائلة بشكل حميم ويسبّبان إشارات ذكية بين بنات العائلة. من جهة أخرى، كان وصول «هاران» إلى المسرح بالنسبة إلى «سوشاريتّا» بريق أمل، فقد تمنّت لو أنَّ هذا البطل الجديد الذي يقدّم نفسه بأفكاره يتوصّل إلى دحر الزائر المتكبّر كي تتلذّذ بالانتقام. رغم أنَّ آراء «هاران» في المناقشة وتقديم الحجج كانت تزعجها عادة، لكنها في هذا اليوم بالذات استقبلت هذا المناضل المغرم بالبلاغة ووفّرت له بكرم أسلحة على شكل شاي وحلويات، وبدأ «باريش بابو» بالتعريف:

- "أقدّمُ إليكَ صديقنا... يا «بانو بابو»".

لكن «هاران» قاطعه قائلاً:

- "آه! أعرفه جيداً، لقد كان سابقاً عضواً متحمّساً عندنا في «البراهمو – ساماج»".

ثم أدار «هاران» رأسه بالاتجاه المعاكس لــ«غورا» وانشغل بشرب كوب الشاي.

في ذلك الزمن كان اثنان فقط أو ثلاثة من البنغاليين قد خضعوا لإمتحانات عليا للدخول في الإدارة العامة، ووصف «سودهير» الاستقبال الذي تمَّ لأحدهم عند عودته من إنكلترا، فقاطعه «هاران» بفظاظة وقال:

- "ما أهميّة ذلك؟ باستطاعة البنغاليين النجاح بامتحاناتهم لكنهم غير قادرين على أن يكونوا إداريين".

ولأنَّه يريد أن يبرهن أنَّه لا يوجد بنغالي واحد باستطاعته أن يدير كانتوناً، فقد أخذ يستخدم كل مواهبه لفضح العيوب والمثالب المتنوعة للطبع البنغالي. احمرَّ وجه «غورا» بشكل واضح خلال هذه الخطبة المسهبة، ومع أنَّه حاول قدر الإمكان تخفيف هديره القوي لكنه انفجر في نهاية الخطبة وقال:

- "إذا كان هذا رأيك الصادق ألا تخجل من الجلوس بكل هدوء وراحة بال حول هذه الطاولة وتقضم الخبز المطلي بالزبدة؟"

فسأله «هاران» وهو يرفع حاجبيه من المفاجأة:

- "ماذا تريدني أن أفعل؟"

- " حاول أن تزيل عيوب البنغاليين هذه أو اذهب واشنق نفسك، ألا تتألّم عندما تعلن أن أمّتنا ستظلّ على الدوام عاجزة عن تحقيق أي أمرٍ كان؟ أستغرب ألا تغصّ ويبقى خبزك المطلي بالزبدة عالقاً في حلقومك؟".

فردَّ «هاران» سائلاً:

- "ألا ينبغي الاعتراف بالحقيقة؟"

فأجابه «غورا» بحرارة:

- "اعذرني، لو كنتَ تؤمن حقاً بما قلته للتوّ، لا يمكنك أن تخطب بإطناب وبهذا القدر من الطلاقة، أنت تعلم أنَّه خطأ، لذلك أنتَ تتحدّث عنه بهدوء، دعني أقُلْ لك يا «هاران بابو» صحيح أنَّ الكذب خطيئة، والنميمة خطيئة أفظع، لكن لا يوجد على الإطلاق خطيئة أخطر من افتراء الإهانة ضدّ مواطنيك".

أخذ «هاران» يرتجف من شدّة الغضب المتصاعد، لكن «غورا» أضاف يقول:

- "هل تتصوّر أنّك الفرد الوحيد ذو المكانة العالية في أمّتنا؟ وأنّك الوحيد المؤهل للانفجار ضدّها وإدانتها، وأننا نحن باسم أجدادنا ينبغي علينا أن نتحمّل اتّهاماتك بصبر؟"

تجاه هذا الكلام أصبح من المستحيل على «هاران» أن يتنازل عن موقفه وأخذ يتابع مرافعته مصرّاً على رأيه السابق والذي لا رجوع عنه، فأخذ يذكر العديد من العادات السيئة والمشؤومة في المجتمع البنغالي مؤكّداً أنّها طالما استمرّت لن يكون هناك أيّ أمل لهذا الشعب. فقال «غورا» بأسلوب محقّر:

- "إنّك تنتقد تلك العادات وتقول إنّها مشؤومة لأنك رأيتها تُنتقَد في كتب الإنكليز، أنتَ لم تعرفها شخصياً قبل ذلك، عندما تدين العادات الإنكليزية الشائنة بهذا القدر من السخط والنقمة، عندها يكون لك الحق في الكلام".

عمل «باريش بابو» ما بوسعه لتغيير موضوع المناقشة، ولكن لم يكن هناك أيّة وسيلة لإيقاف «هاران» الذي غضب غضباً شديداً. في هذه الأثناء كانت الشمس تميل نحو المغيب وكانت السماء تتوهّج بأشعتها التي كانت تتسلّل عبر الغيوم، ورغم المجادلة والخلاف العنيف، امتلأ قلب «بينوى» بموسيقا لطيفة، أما «باريش بابو» فقد حانت ساعة تأمّلاته المسائية، لذلك غادر الشرفة ونزل إلى الحديقة حيث جلس تحت شجرة الـ«شامباك»[1]. شعرت «بارودا» بنفور شديد تجاه «غورا» كما أنَّ «هاران» لم يكن من الأشخاص المفضّلين لديها لذلك لم يعد بمقدورها تحمّل جدلهم أكثر من ذلك، فالتفتت نحو «بينوى» وهي تقول:

- "تعال «بينوى بابو» لندخل".

---

(١) شامباك: شجر كبير يحمل في قمته باقة من الزهور الصفراء لها عطر نافذ (ثاقب) "يُحدِثُ ابتسامة لطيفة" وفق الأشعار الشعبية.

لم يستطع «بينوى» أن يفعل شيئاً سوى أن يتبعها طائعاً إلى داخل البيت ليثبت لها أنّه شعر بالحظوة الخاصة التي أبدتها تجاهه وكان سعيداً بها، بعد ذلك أمرت بناتها بمرافقتهما، بينما خرج "ساتيش» مع كلبه وقد استوعب أنّه من غير المفيد له انتظار نهاية النزاع، انتهزت «بارودا» الفرصة التي توفّرت لتظهر لـــ«بينوى» مزايا بناتها وجدارتهنّ، فالتفتت نحو «لابونيا» وطلبت منها:

- "اجلبي كراس مختاراتك الأدبية يا حبيبتي كي يراه «بينوى بابو».

كانت «لابونيا» معتادة على عرض كراس مختاراتها الأدبية أمام كل الزائرين الجدد فكانت تنتظر هذا الطلب، وكانت في الواقع تشعر بالخيبة خلال مناقشة الآخرين. عندما فتح «بينوى» كراس مختاراتها الأدبية قرأ فيه قصائد شعر إنكليزية لـــ«مور»[1] ولـــ«لونغفيللو»[2]، كانت الحروف الأولى وعناوين القصائد بكتابة مزخرفة، وكان للكتابة طابع مميّز، فأبدى «بينوى» إعجاباً صادقاً، فالقدرة على نسخ شعر إنكليزي بهذه الأناقة كانت تُعتَبَرُ تمايزاً فريداً بالنسبة إلى فتاة بهذا العمر. لقد تصرّف «بينوى» حسب الأصول، وعندما انتهى التفتت السيدة «بارودا» نحو ابنتها الثانية وقالت:

- "حبيبتي «لوليتّا» إلقاؤك لـــ..."

لكن «لوليتّا» ردّت بحزم:

- "لا يا أمّي، إنّي فعلاً لا أستطيع... لا أتذكّر ذلك جيداً".

واستدارت نحو النافذة وأخذت تنظر نحو الخارج.

شرحت «بارودا» لـــ«بينوى» أنَّ «لوليتّا» في الواقع لم تنسَ، غير أنّها متواضعة جداً لدرجة تمنعها من أن تظهر مزاياها، فهي منذ طفولتها كانت تتّخذ هذا الموقف، وأخذت هذه الأمّ تذكر أمثلة عن معارف «لوليتّا» الفريدة

---

(١) «Moore».

(٢) « Longfellow»

والرائعة، وأضافت أنّها كانت شجاعة جداً في طفولتها إذ لم تكن لتبكي عندما تصابُ بأيّ جرح، وأنّها كأبيها تماماً في هذه الأمور.

وأخيراً جاء دور «ليلا»، رجتها الوالدة أن تلقي بعضاً مما تحفظه فبدأت تهمهم بغباء، ثمّ انطلقت كالآلة وأفرغت مقطوعتها بلا توقف:

- "توهَّجي توهَّجي يا نجمة صغيرة"..

ودون أن تصدر عنها أيّة إشارة تدلّ على أنّها كانت تفهم المعنى. أما «لوليتا» فغادرت الغرفة لعلمها أنّ الفقرة التالية من البرنامج تحتوي على غناء.

وصلت المجادلة في الخارج إلى ذروتها، اِستبعد «هاران» اِستخدام الحجج في الشكل والظاهر وأطلق العنان للغة أكثر عنفاً، بينما بدت «سوشاريتّا» خجِلة ومجروحة من عدم الاِحتفاظ بالهدوء والوقار، فأيّدت موقف «غورا» ووقفت إلى جانبه، غير أنّ موقفها لم يحدّ من ثورة «هاران» ولم يضعف عدم ضبط النفس عنده.

أمست السماء أكثر ظلمة بسبب الغيوم الكثيفة المحمّلة بالأمطار، وكان صراخ البائعين الجوّالين الذين كانوا يبيعون شرائط الياسمين للزخرفة يُسمَعُ من الشارع، وبدأت أوراق الأشجار المحيطة بالطريق تتلامع مع حبّات المطر، وعندما اِجتاح الظلام سطح البركة المجاورة عاد «بينوى» إلى الشرفة ليستأذن بالرحيل فقال «باريش بابو» لـــ«غورا»:

- "عد لزيارتنا متى شئت، كان «كريشنادايال» كأخ بالنسبة إليّ وإن اختلفت آراؤنا اليوم ولم نعد نرى بعضنا كما لم نعد نتراسل أبداً، لكن صداقة الطفولة تبقى جزءاً متمّماً للحمنا ودمنا، أشعر أنّني قريب جداً منك بسبب علاقاتي القديمة مع أبيك".

كان فعل الصوت الهادئ والعطوف لـــ«باريش بابو» كفعل الجمال الساحر الذي أُضفيَ على تعليلات «غورا» وبراهينه المحتدمة، كانت تحيته لهذا الرجل الشيخ عند الوصول مجرّدة من الاِحترام ولكنه اِنحنى باِحترام

صادق عند المغادرة، لم يبدِ أيّة حركة تدلّ على أنّه إنتبه لوجود «سوشاريتّا» لأنّ أدنى دليل على ذلك سيظهره في موقع الفظاظة المطلقة، أمّا «بينوى» فبعد أن حيّا «باريش بابو» بانحناءة قوية إلى الأسفل قدّم التحيّة لــ«سوشاريتّا» أيضاً، ثم أسرع خلف «غورا» وكأنّه قد خجل من حركته. دخل «هاران» إلى الشقة وأخذ يقلّب في صفحات كتاب أناشيد للبراهمو وجده على الطاولة، وحالما غادر الضيفان عاد بسرعة إلى الشرفة وقال لــ«باريش بابو»:

- "يا سيدي العزيز! لماذا تعرّف بناتك الصبايا بأيّ كان؟"

لكن «سوشاريتّا» التي كانت في أعلى درجات الانزعاج لم تستطع إخفاء مشاعرها فقالت بتعجب:

- "لو كان أبي يفكّر كما تفكّر أنتَ لما كنّا عرفناك أبداً".

شرح لها «هاران» وجهة نظره قائلاً:

- "من المستحسن الاكتفاء بعلاقات مع أناس ينتمون إلى عالمكم".

ضحك «باريش بابو» وقال:

- "هل تريد أن تعيدنا إلى نظام «الزنانا»(١) بتقليص علاقاتنا وجعلها محدودة مع مجموعتنا فقط؟ لكن في رأيي على الفتيات أن يقابلن أشخاصاً يجاهرون بكلّ أنواع الآراء حتى لا يبقين في جمود فكري، لماذا علينا أن نتجنّب ذلك؟"

ردّ «هاران»:

- "لم أقل أبداً إنّه ينبغي عليهن ألاّ يقابلن أشخاصاً يحملون آراءً متنوعة، لكن هذين الصبيّين لا يعرفان حتى كيف ينبغي التصرّف مع النساء".

فاعترض «باريش بابو» وقال:

- "كلاّ! كلاّ! ما تعتبره أنتَ عدم دراية بالآداب الاجتماعية ليس سوى حياء ولن يشفيا منه أبداً إلاّ إذا اندمجا في مجتمع النساء".

---

(١) زنانا: جزء من المنزل مخصص للنساء في نظام البردة Purdah (الحرملك).

الفصل الحادي عشر

تمنّى «هاران» يومها أن يحجّم «غورا» فعلاً وأن يرفع راية النصر أمام أعين «سوشاريتّا» التي كانت في البدء تشاطره الأمل نفسه، غير أنّ الأمور دارت بشكل مختلف وما حصل كان عكس الأماني، لم تكن «سوشاريتّا» قادرة على قبول الأفكار الاجتماعية والدينيّة التي يطرحها «غورا»، لكنها بدأت تشاركه شعوره عفوياً بإحترام الأمّة التي هي أمّتها كما شعرت بالتعاطف والمشاركة الوجدانية مع مواطنيها، مع أنّها لم تخض قط نقاشاً حول وضع بلدها، لكنها عندما سمعت «غورا» وقد انفجر لمشاهدة الإذلال والإهانات الموجَّهة ضد الشعب احتجّت بعقلها وقلبها، إذ لم تتح لها في حياتها فرصة سماع التعبير عن الإيمان بالوطن بمثل هذه القوة والصلابة.

عندما عاد «هاران» إلى الموضوع هاجم «بينوى» و«غورا» بشكل حقود في غيابهما ونعتهما بالخشونة والفظاظة وقلّة اللّياقة والأدب، وهنا عارضت «سوشاريتّا» هذه الوضاعة ووجدت نفسها تدافع عنهما.

لم تهدأ مشاعر الثورة التي سببها «غورا» في نفسها، لأن الأسلوب العدواني والمتكبّر الذي كان يتعامل وفقه صدمها قليلاً حتى بعد انصرافه، فقد أدركت تماماً أنّ التصنّع الذي كان يقوم به في تبنّي مواقف تقليدية كان نوعاً من التحدّي تنقصه طبيعة القناعة العفوية، وأنّ إيمانه لم يكن كافياً ليرضيه ولهذا السبب تقلّد هذا الموقف المترافق بالغضب والغطرسة وتعمّد جرح الآخرين. وفي تلك الليلة، وخلال كل مشاغلها، سواء أكانت تتعشى أم كانت

تروي قصصاً لـ«ليلا»، احتفظت «سوشاريتّا» في سريرتها بألم أصمّ اختبأ في أعماق كيانها وظلّ يؤلمها دون توقف. لا يمكن للإنسان أن يستخرج شوكة إلاّ إذا عرف أين غُرِسَتْ.

ظلّت «سوشاريتّا» جالسة وحدها في الشرفة محاولة اكتشاف مكمن الوجع، حاولت وهي جالسة في الظلام الرطب أن تُهدّئ من حرارة قلبها غير الإرادية لكن دون جدوى، العبء العاصف الذي كان يرهقها جعلها تشعر بميل للبكاء، ومع ذلك لم تكن الدموع لتأتيَ.

من العبث التصوّر أنّ «سوشاريتّا» كانت تشعر بالبلبلة لأن شاباً مجهولاً جاء إليهم يحمل على جبينه علامة الطبقة كتحدٍ ولم يُهزَم خلال المناقشة ولم يُذَلّ في كبريائه، كان ذهن الصبيّة يطرد هذا التفسير وكأنّه دون قيمة، وفجأة احمرّ وجهها من الخجل عندما ظهر لها في نهاية المطاف السبب الحقيقي لضيقها، لقد ظلّت جالسة أمام هذا الشاب مدة ساعتين أو ثلاث ساعات ودافعت عنه بين الحين والآخر ضدّ منافسيه دون أن يعيرها أيّ انتباه أو حتى أن يشعر بوجودها عندما انسحب وغادر، لقد تبيّن لها بوضوح وبلا ريب أنّ عدم الاكتراث هذا هو الأمر الذي جرحها بهذا العمق.

«بينوى» هو الآخر أبدى ارتباكاً طبيعياً كالذي يظهر عند غير المعتادين على المجتمع الأنثوي، لكن هذا الارتباك لم يكن أكثر من عرَض لنقص الجرأة الناجم عن التواضع، الأمر الذي لا نجد له أثراً عند «غورا».

لماذا لم تتمكن «سوشاريتّا» من قبول لامبالاة «غورا» المزعجة أو طردها من أفكارها باحتقار؟ كادت تموت إذلالاً وهي تفكّر أنّه بالرغم من غياب الاهتمام بها لم تكن مسيطرة تماماً على نفسها كي تمتنع عن المشاركة في النقاش، في حين أنّها عندما كشفت بحدّة سوء نيّة في حجة «هاران»، رفع «غورا» عينيه نحوها، ولم يكن في تلك النظرة أيّ أثر للخجل بالتأكيد! بل كان فيها ما تصعب قراءته؟ هل حكم عليها بأنّها جريئة جداً وراغبة في

إظهار مزاياها فانطلقت في جدل بين الرجال دون أن تكون مدعوّة إليه؟ لكن ما أهميّة ما يفكّر فيه؟ لا شيء البتّة، ومع ذلك لم يخلُ الموضوع من الألم في نهاية المطاف، لقد حاربت ضدّ نفسها كي تتوصّل إلى نسيان الحادثة وإلى محوها من ذاكرتها لكن جهودها ذهبت سدىً. عندها شعرت أنّها مغتاظة من «غورا» وعملت ما بوسعها لتشعر باحتقار ساحق ضدّه كصبيٍ متكبّرٍ واهمٍ وغير واقعي. رغم كل شيء كانت تشعر بالإذلال وكأنّها تجلد نفسها عندما تتذكّر النظرة الحازمة والواثقة لهذا الرجل العملاق ذي الصوت الراعد لكنها لم تكن لتفلح في الحفاظ على طمأنينتها ورباطة جأشها لأنّها كانت تشعر في قرارة نفسها أنّها صغيرة أمامه.

اضطربت «سوشاريتّا» جرّاء هذه المشاعر المتناقضة فظلّت مستيقظة إلى وقت متأخّر من الليل. كان كل واحد قد دخل غرفته، لقد أُطفئت القناديل وعندما سمعت إغلاق الباب الرئيسي المؤدي إلى الشارع عرفت حينها أنّ الخدم قد أنهوا يوم عملهم وذهبوا للنوم. في هذه الأثناء ظهرت «لوليتّا» بقميص النوم ودون أن تقول شيئاً خرجت إلى الشرفة واستندت إلى الدرابزين، ابتسمت «سوشاريتّا» لأنّها أدركت أنّ «لوليتّا» غاضبة، كانت «سوشاريتّا» قد وعدتها بمشاركتها الفراش في تلك الليلة ونسيت وعدها تماماً، لكن الاعتراف بالنسيان لم يكن الوسيلة الناجعة لتهدئة «لوليتا» المُهانة: الخطيئة الأساسية هي في النسيان، و«لوليتّا» لم تكن تلك الفتاة التي تتذكّر بوعد، لقد قرّرت أن تظلّ في سريرها هادئة دون أن تبدي أيّ أسف، لكن بما أنّ الوقت يمرّ فقد غدت خيبتها أكثر حدّة وأصبحت غير قادرة على التحمّل أكثر من ذلك فنهضت دون أن تقول شيئاً، لتظهر فقط أنّها لم تكن نائمة، قامت «سوشاريتّا» من كرسيّها واقتربت من أختها بلطف وقبّلتها قائلة:

- "حبيبتي «لوليتّا» لا تغضبي مني".

ابتعدت «لوليتّا» وهي تتمتم:

- "أغضب؟ لماذا أغضب؟ ابقي جالسة".

أمسكتها «سوشاريتّا» من يدها لمراضاتها وقالت:

- "تعالي يا حبيبتي لنذهب إلى النوم".

لكن «لوليتّا» ظلّت جامدة دون حراك، في النهاية، جذبتها «سوشاريتّا» نحو غرفة النوم، عندها فقط سألت «لوليتّا» بصوت مختنق:

- "لماذا بقيتِ إلى هذا الوقت المتأخِّر؟ هل تعلمين أنّ الساعة هي الحادية عشرة ليلاً؟ لقد سمعت دقّات الساعة وأظنّ أنّ النعاس قد غلبك الآن ولن تستطيعي الثرثرة".

- "سامحيني يا حبيبتي".

قالت «سوشاريتّا» ذلك وهي تحضنها بين ذراعيها. تلاشى غضب «لوليتّا» عندما تمَّ الاعتراف بالخطيئة كما أصبحت أكثر لطفاً وهي تسأل:

- "بمن كنتِ تفكرين يا «ديدي» وأنتِ جالسة وحدكِ كل تلك المدة الطويلة؟ في «هاران»؟

عندها صرخت «سوشاريتّا» وهي تقوم بحركة لوم:

- "أواه! هلا تصمتين!"

لم تكن «لوليتّا» تطيق «هاران»، حتى إنَّها لا تريد إغاظة «سوشاريتّا» بهذا الموضوع كما تفعل أخواتها، مجرّد الفكرة أنَّ «هاران» يريد الزواج من «سوشاريتّا» كان يثير غضبها. وبعد مرور فترة من الصمت استعادت «لوليتّا» الكلام قائلة:

- "يا له من رجل خفيف الروح وجذّاب «بينوى بابو»! أليس كذلك يا «ديدي»؟".

هنا لا يمكننا الجزم إن كان هذا السؤال موجَّهاً لسبر ما في ذهن «سوشاريتّا».

- " أجل حبيبتي، يبدو «بينوى بابو» لطيفاً جداً".

غير أنَّ هذا الجواب لم يكن ليوافق ما كانت تتوقعه «لوليتّا»، فتابعت تقول:

- "قولي ما تشائين يا «ديدي» لكن «غورمُهان بابو» هذا لا يُطاق فعلاً، يا للون البشرة البشع، ويا للقسمات القاسية! ويا له من مدّعٍ رهيب! ما هو الانطباع الذي تركه لديكِ؟"

أجابت «سوشاريتّا»:

- "لا يناسب ذوقي لأنَّه تقليدي إلى أبعد حد".

فصاحت «لوليتّا» متعجّبة:

- "كلاّ، كلاّ، لم أقصد هذه الناحية، هيّا، عمُّنا تقليدي أيضاً لكن الأمر مختلف...لا أعرف كيف أشرح ما أفكّر به".

فقالت «سوشاريتّا» وهي تضحك:

- "أجل، في الواقع الأمر مختلف جداً".

وحين تذكَّرت جبين «غورا» الأبيض العالي والذي يحمل علامة الطبقة تجدَّد انزعاجها. ألم يكن الموضوع بالنسبة إلى «غورا» التأكيد بالخط العريض: "أنا مختلف عنكم"، لا شيء منتظر سوى هزيمة هذه الكبرياء وهذا التحدّي للتلطيف من حدّة ثورة «سوشاريتّا»، توقّفت الفتاتان شيئاً فشيئاً عن الكلام واستغرقتا في النوم.

استيقظت «سوشاريتّا» حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل وسمعت هدير المطر ينهمر مدراراً، لقد انطفأ المصباح المُشتعِل في زاوية الغرفة، وكان البرق يلمع بين الفينة والأخرى عبر الناموسية. في ظلمة الليل وصمته، ومع زخّات المطر المستمرّة التي ملأت مسامعها، شعرت «سوشاريتّا» بحزن يملأ قلبها، استدارت في الفراش آملة العودة إلى النوم

ثانية وهي تنظر بغيرة إلى وجه «لوليتّا» المستغرقة في سباتها، لكن النوم لم يجد طريقه إليها، نهضت وهي منزعجة وذهبت باتجاه باب الشرفة وفتحته ثم بقيت في الشرفة تراقب هطول المطر الذي كان يتدفق مرتدّاً عند أدنى هبوب هواء، وهنا عادت إلى مخيلتها كل أحداث السهرة، حادثة تلو الأخرى. كان وجه «غورا» يلمع ملتهباً بالإثارة ومنوّراً بأشعة شمس المغيب، كل البراهين التي سمعتْها ونسيتْها عادت الآن إلى الذاكرة محمولة بصوت قوي وعميق. دوّت أقوال الشاب من جديد في أذنيها مؤثِّرة في نفسها: "من تسمّونهم أمّيّين هم الذين أقف إلى جانبهم، وما تسمّونه خرافة هو إيماني، طالما لا تكِنون الحبّ لبلدكم ولا تدافعون عن شعبكم الخاص فلن أقبل من قبلكم أيّة كلمة قدح بالوطن الأمّ".

وكان «هاران» قد ردَّ قائلاً: "كيف يمكن لمثل هذا الموقف أن يساهم في إصلاح البلد؟"

بالمقابل قال «غورا» مزمجراً: "الإصلاح! يمكنه الانتظار، الحبّ والاحترام أهمّ من الإصلاح، الإصلاح سيحصل تلقائياً عندما نصبح شعباً موحداً، بسياسة التفرقة والتشرذم تفتّتون البلد إلى مئة جزء، في الحقيقة، بذريعة أنَّ لدينا الخرافة تقومون أنتم غير المؤمنين بالخرافة وتتصنّعون التعالي والازدراء، آمل أن تظلّ رغبتي ثابتة في ألاّ أنفصل عن الآخرين حتى في سبيل اكتساب التفوق. إذا نحن شكّلنا ذات يوم أمّة موحّدة، وهذا ما ينبغي أن ينتج عن ممارساتنا التقليدية، عندها يصبح القرار بيد البلد وإلهه".

ردَّ «هاران» بعكس الحجة: "لكن كل هذه الممارسات والعادات هي التي تمنع البلد تحديداً من الاتحاد".

وردَّ «غورا» قائلاً: "إذا كنت تعتقد أنّه من الضروري اقتلاع كل الممارسات والعادات السيئة قبل أن يتّحد البلد، عندها ينبغي عليك أن تبدأ باستنفاد المياه في كل مرّة تريد فيها أن تجتاز المحيط، انبذ كبرياءك وكرهك

من أعماق قلبك واقترب من الجميع بتواضع صادق وسيتغلب حبّك على كل المثالب وكل الآلام. لكل مجتمع عيوبه ونقاط ضعفه، لكن طالما بقي الناس متّحدين مع بعضهم البعض، فهم يصبحون أقوياء ويتمكّنون من إزالة كل السموم. مصادر التفكّك تبقى كامنة في الجوّ لكنها تظلّ عاجزة عن الفعل عندما تجري الحياة، الأموات وحدهم يتلفون؛ اسمح لي أن أؤكّد أنّنا لن نخضع لمحاولات إصلاح تأتي من الخارج، سواء أتت بطرقكم أم بوساطة المبشرين الأجانب".

فسأل «هاران»:

- "لمَ لا؟"

- "لأنّه يمكن القبول بأن يتم إصلاحنا من قبل أهلنا، بينما لو أرادت الشرطة القيام به فالغضب الذي سينتج عن تدخّلها أكبر بكثير من التحسّن والإصلاح، لأن الخضوع لدروسها لا يمكن إلاّ أن يذلّ أنفتنا، اعترف أولاً بالأخوّة معنا وبعد ذلك اقترح إصلاحنا، وإلاّ فحتّى الرأي الحصيف من جهتكم سيسبّب الأذى والألم فقط ".

وهكذا تذكّرت «سوشاريتّا» كل التفاصيل في أقوال «غورا» وكلّما استعادتها كان الألم يتفاقم في قلبها. وأخيراً أنهكت، فعادت لتنام ويداها فوق عينيها محاولة أن تطرد من رأسها هذه الأفكار التي تمنعها من النوم، لكن وجهها وأذنيها كانت تلتهب حرارة وكانت الأفكار تغلي وتتصارع في دماغها.

الفصل الثاني عشر

غادر كلّ من «بينوى» و«غورا» منزل «باريش بابو» ولا يزالان في طريقهما، فقال «بينوى»:

- "حبّذا لو نخفّفُ سرعتنا يا عزيزي «غورا»، ساقاك أطول من ساقيّ وإذا لم تخفّف من مشيتك فسألهث وأنا أحاول اللحاق بك".

أجابه «غورا» بلهجة متجهّمة:

- "أودُّ أن أتنزّه وحدي هذا المساء، إذ عليَّ أن أفكّر".

وتابع سيره بالإيقاع نفسه.

شعر «بينوى» بجرح عميق في قلبه، فبتمرّده على «غورا» يكون قد قطع العادة، تمنّى لو أنَّ «غورا» لامه على ذلك لشعر حينها بالارتياح، ولو هبّت عاصفة بينهما فقد تطهّر الجوّ الذي كان يُثقل سماء صداقتهما الطويلة ولاستطاع «بينوى» أن يتنفّس بحريّة أكثر.

لم يشعر «بينوى» أنَّ «غورا» قد خطّأه عندما غادره في ثورة غضبه، فلأوّل مرّة منذ أن تعارفا يحصل صراع حقيقي يفصلهما عن بعضهما بعضاً، شعر «بينوى» بالاكتئاب وهو يسير قدماً في هذا الليل المحزن الماطر حيث كان الرعد يزمجر من وراء السحب الداكنة الحبلى التي ترسل زوابعها بين الفينة والأخرى، بدا الوجود فجأة وكأنّه يخرج عن مساره الاعتيادي متخذاً اتجاهاً جديداً. في ظلمة الليل، كان «غورا» قد ذهب في اتجاه، أمّا «بينوى» فقد مضى في الاتجاه الآخر.

وفي صبيحة اليوم التالي كان «بينوى» أقلَّ ضيقاً عندما استيقظ. لقد شعر أنّه في الليلة الفائتة قد غرق في القلق دون فائدة، أمّا الآن فلم يعد يبدو له أيّ تعارض بين صداقته لـ«غورا» وعلاقاته مع «باريش بابو»، حتى إنّه ابتسم عندما فكّر في التعاسة التي لازمته ليلة الأمس، رمى شاله على كتفيه وخرج بخطى سريعة سائراً باتجاه منزل «غورا»؛ كان «غورا» جالساً في الطابق السفلي يقرأ، لقد لمح «بينوى» في الشارع لكن عينيه لم ترتفعا عن أوراقه بعد وصوله، سحب «بينوى» الصحيفة من أمامه دون أن ينبس ببنت شفة، فقال «غورا»:

- "أعتقد أنّك ترتكب غلطة، أنا «غورمُهان»، هندوسي متطيّر.

فردَّ «بينوى» قائلاً:

- "ربما كنتَ أنتَ من يرتكب الغلط؟ أنا «بينوى بهوزان» الصديق المتطيّر لهذا الـ«غورمُهان» نفسه".

- "لكن «غورمُهان» إنسان غير قابل للإصلاح ولا يعتذر أبداً عن تطيراته أمام أيّ شخص كان".

- "«بينوى» أيضاً هو كذلك، لكنه لا يزعم إجبار الآخرين على تقبّل تطيراته".

بعد فترة من الزمن خاض الصديقان في مناقشة حامية الوطيس ولم يخفَ عن الجيران أنَّ «غورا» و«بينوى» قد اجتمعا متوافقين، وأخيراً سأله «غورا»:

- "ما الذي دفعكَ كي تخفي أمر زياراتك إلى «باريش بابو»؟

فقال «بينوى» وهو يبتّسم:

- "لا يوجد أيّة حاجة لذلك، أخفيتها بكل بساطة لأنّني لم أكن قد زرته بعد، لقد دخلتُ منزله البارحة فقط لأول مرّة".

ردَّ «غورا» هازئاً:

- "ما يذهلني أنَّك تجد الوسيلة للدخول إلى عالمهم ببساطة لكني أشكّ في أنَّك ستستطيع أيضاً إيجاد سبيل للخروج".

فقال «بينوى»:

- "ربّما، تكون المشكلة في بُنيتي النفسية فهي لا تمنحني الجرأة على إيجاد وسيلة سهلة للانفصال عن شخص أشعر تجاهه بالانجذاب والاحترام، وأنتَ نفسكَ عندكَ الدليل على أنّي مجبول على تلك الطبيعة".

- "سوف تتابع زياراتكَ إليهم إذاً؟"

- "لماذا تعتبرني الوحيد القادر على الذهاب والمجيء؟ أنتَ أيضاً موهوب بالحركة ولست مسمَّراً في الديكور على ما أعتقد".

فقال «غورا»:

- "أنا، أستطيع الذهاب لكني أعود، بينما الإشارات التي ألحظها فيك لا يبدو مطلقاً أنَّها تتحدث عن عودة. كيف وجدت الشاي؟"

- "مرّاً".

- "لماذا إذاً...؟"

- " لو أنّي رفضته لبدا لي الأمر أكثر مرارة".

- "هل تكفي اللباقة لإنقاذ المجتمع؟"

- "ليس دوماً، لكن اسمع يا «غورا» عندما تكون مشاعرنا في صراع مع القوانين التي تحكم المجتمع..."

فقد «غورا» صبره وردَّ مقاطعاً كلام «بينوى» وهو يزمجر:

- "العواطف! لأنَّك لا تقيم للمجتمع وزنه المطلوب فأنتَ تدخل مشاعرك في صراع معه في كل آن وفي كل أمر، لو أنّك تعي فقط خطورة وعمق الأضرار التي تصيب مصلحة المجتمع لخجلتَ من عاطفيّتك في هذا الموضوع. إن أنتَ أسأتَ ولو قليلاً إلى بنات "باريش بابو» فهذا سيمزّق قلبكَ، ولكن عندما أراك تؤذي المجتمع كلّه بذريعة تافهة فهذا يكسر قلبي أنا".

فقال «بينوى» بلهجة اللائم:

- "حقاً، «غورا»، إن كانت أذية المجتمع في شرب كوب من الشاي، عندها أستطيع أن أقول لك إنَّ ضربات من هذا النوع قد تصبح صحيّة للبلد، وإذا حاولنا أن نحميه من مثل هذه التجارب نكون قد ساهمنا في إضعافه وتخنيثه".

أجاب «غورا» محتجّاً:

- "يا سيدي العزيز، أعرف كل قائمة هذه الحجج، لاتتعامل معي على أنّي بريء، فالمسألة المطروحة في الحالة الراهنة مختلفة تماماً، عندما يرفض طفل مريض أن يبتلع الدواء الموصوف له، فإنَّ الأمّ المعافاة تشرب قليلاً من الدواء لتواسي الطفل بفكرة أنَّهما سواسية في المرض. الموضوع ليس في المعالجة الطبّية بل هو في الحبّ، عندما يغيب الحبّ فإنَّ الحنان المتبادل بين الأمّ والطفل قد يتزعزع مهما كانت سلوكية الأمّ عقلانية وقد لا يتمّ بلوغ التأثير المراد، أنا لا أهاجم كأس الشاي الذي شربته، لكن ما لا أحتمله أنّك بذلك تكون غير مخلص تجاه بلدنا، كان حرياً بك أن ترفض الشاي حتى لو جرحت بنات «باريش بابو»، ففي وضع الوطن الراهن، يكون واجبنا الأول نحوه هو الانتماء إليه بالروح، عندما نتمّم هذا الواجب، تظلّ مسألة أن نعرف إن نحن سنشرب الشاي أم لا مسألة يمكن حلّها في كلمتين".

ردّ «بينوى»:

- "إذاً أرى أنَّه ينبغي أن يمرَّ وقت طويل قبل أن أشرب كوب الشاي الثاني!"

- "كلاّ، ليس هناك من سبب كي يمرَّ وقت طويل، لماذا تصرّ يا «بينوى» على التعلّق بي؟ آن الأوان بالنسبة إليك كي تتركني وتترك في الوقت نفسه كل ما لا يعجبك في المجتمع الهندوسي، وإلاّ ستسيء إلى بنات «باريش بابو»".

في هذه الأثناء دخل «آبيناش» الغرفة. و«آبيناش» هذا كان تلميذاً لـ«غورا» وكان يحلّلُ كل ما يسمع من تعاليم «غورا» في عقله ويحوّله بأسلوب كلامه ليبسّطه ويجعله في متناول الجميع ثمَّ يجتهد لنشره في محيطه؛ فالذين لم يكونوا قادرين على فهم «غورا» كانوا يشعرون بأنّهم يفهمون «آبيناش» تماماً وكانوا يمتدحون خطاباته. كان «آبيناش» شديد الغيرة من «بينوى» وعندما كانت الفرصة تتاح له كان يقارن نفسه به باستعمال حجج شديدة الغباء الأمر الذي لم يكن «بينوى» ليصبر عليه فكان يقاطعه، عندها كان «غورا» يستعيد المجادلة ويدخل بنفسه إلى الحلبة، وكان «آبيناش» يتبجَّح بأن الأفكار التي يعرضها «غورا» هي أفكاره. عندما أيقن «بينوى» أنَّ مجيء «آبيناش» قد يعيق أيّة فرصة للمصالحة مع «غورا» صعد لمقابلة «آناندامو ا» التي كانت جالسة أمام خزانة المؤونة تقشِّر الخضار. فقالت له:

- "كنتُ أسمع صوتك خلال كل ذلك الوقت الطويل، لقد أتيتَ باكراً جداً هل تناولتَ غداءكَ قبل أن تأتي؟"

لو كانت هذه الدعوة في أيّ يوم آخر لأجاب بلا، ولكان جلس وأكل بلذّة وشهيّة في كرم ضيافة «آناندامو ا»، لكنه أجاب:

- "شكراً يا أمّي، لقد تناولتُ الغداء قبل أن أخرج من البيت".

في هذا اليوم لم يكن يريد أن يوفِّر لـ«غورا» ذريعة جديدة للغضب، إذ هو يعرف أنَّ صديقه لم يسامحه تماماً بعد، وكان شعوره بالاستبعاد يضايقه.

جلس وأخرج سكيناً من جيبه وبدأ يساعد «آناندامو ا» بتقشير البطاطا، وبعد حوالي ربع ساعة نزل ثانية فرأى أنَّ «غورا» و«آبيناش» قد خرجا معاً، فظلَّ جالساً بهدوء في غرفة «غورا»، أخذ صحيفة واستعرض بنظرة خاطفة عمود الإعلانات، ثم تنهّد بعمق وغادر المنزل.

وبعد أن تناول غداءه في منزله فكّر بعصبيّة إن كان بالإمكان الذهاب لمقابلة «غورا»، فهو لم يتردّد طوال حياته في التواضع أمام صديقه، وحتّى لو لم تكن المسألة بالنسبة إليه في كبريائه وعزّة نفسه فعليه أن يضع في حسابه شرف الصداقة.

كان يشعر تماماً أنّ صراحته المخلصة تجاه «غورا» تأذّت بسبب تلك الحميمية الجديدة مع «باريش بابو»، فكان يتوقّع تهكّمات وانتقادات من قبل «غورا»، لكن أن يُهجَر بهذا الشكل، ذلك أمر أكثر مما كان يتخيّله. بعد أن خطا بضع خطوات خارج منزله عاد إليه إذ لم يكن يريد أن يغامر بنفسه من جديد عند «غورا»، خشية من إهانة أخرى لصداقتهما.

الفصل الثالث عشر

مرَّت عدة أيام على هذه الوتيرة، وذات يوم جلس «بينوى» بعد الظهر ليكتب رسالة لـــ«غورا»، ولمّا لم يحرز أيّ تقدّم في ما همَّ به، عزا فشله إلى ريشته التي كانت مقلَّمة بشكل سيّئ، لذلك أمضى وقتاً طويلاً وهو ينعِّم ذروتها بالسكين، وبينما كان منشغلاً سمع صوتاً يناديه من الأسفل، فرمى الريشة على الطاولة وأخذ يجري وهو يصرخ:

- "اصعد يا دادا «مُهيم».

صعد «مُهيم» وجلس بكل أريحية على سرير «بينوى»، وبعد أن أحصى أثاث الغرفة قال:

- "اِسمع يا «بينوى»، الموضوع ليس في أنّي أجهل عنوانك ولا أنّي لا أهتمُ بأمورك، لكن في عُرفكم أنتم شباب الجيل الجديد لا توجد أيّة فرصة لإيجاد الـــ«بان»[1] أو أي شيء ندخّنه إلاّ لسبب خاصّ..."

توقَّف «مُهيم» للحظة عن الكلام عندما رأى «بينوى» ساهماً ثم تابع:

---

(1) «بان Pan» نوع من مضغات التبغ تُعلك في الهند وفي الشرق الأقصى، أما تهيئتها فتتم بأخذ ورقة من شجرة نخلة البيتيل أي شجرة جوز الأريك الذي يستخرج منه الكاشو، يُدَقّ الجوز ويُهرَس ثم يضاف إليه قليل من الكلس والبهارات ويُلَف داخل الورقة التي تطوى وتُغلَق بحبّات كبش قرنفل، يُرش مسحوق الذهب والفضة على الـــ«بان» في الأعياد.

- "إذا كنت تنوي الخروج لشراء نرجيلة فأرجوك أن ترأف بحالي، يمكنني أن أغفر لك لعدم تقديم التبغ لي، لكنّي لن أستطيع مقاومة نرجيلة جديدة تقدَّم إليّ من يد مبتدئ غِرّ، يد عديمة المهارة".

تناول «مُهيم» مروحة وجدها قريبة منه وبعد أن تهوَّى لفترة قصيرة دخل في موضوع القضيّة التي ساقته إلى هنا:

- "الواقع أنني أتيت لأراك في هذا الوقت مضحيًا بقيلولتي ليوم الأحد لأن لديّ دافعاً وأودُّ أن تقدّمَ لي خدمة".

سأله «بينوى»:

- "ما هي هذه الخدمة؟"

- "عدني أولاً أنّك ستنفذّها وبعد ذلك سأتكلّم عنها".

- "بالتأكيد إن كان الأمر يتعلّق بي".

- "الأمر يتعلّق بك وحدك، وليس عليكَ إلاّ أن تقول نعم".

فسأله «بينوى»:

- "لماذا أنتَ مُحرَج لهذه الدرجة اليوم؟ أنتَ تعرف جيداً أنّني أتعامل معكَ وكأنّني واحد من عائلتكم، فإذا كنتُ أستطيع مساعدتك فسأقوم بذلك طبعاً".

أخرج «مُهيم» من جيبه حفنة من أوراق الـ«بان»، وبعد أن قدَّم منها لـ«بينوى» أدخل ما تبقّى في فمه وأخذ يمضغ ويشرح في آنٍ معاً:

- "أنتَ تعرف ابنتي «سازي»، ليست بشعة فهي من هذه الناحية لا تشبه أباها أبداً، إنّها تكبر وينبغي عليّ أن أتدبّر أمري لتزويجها، تمرّ عليّ أحياناً ليالٍ بأكملها أظلّ فيها أرقاً وأنا أفكّر أنّها قد تقع بين أيادٍ غير صالحة".

فقال له «بينوى» مشجعاً:

- "لماذا أنتَ قلق بهذا الشكل؟ لا يزال أمامك متسع كبير من الوقت كي تزوّجها".

فأجابه «مُهيم» وهو يتنهد:

- "لو كان لديك ابنة لفهمتَ قلقي، السنون تمضي وهي تتقدَّم في السن، وطالب الزواج لن يتقدّم من نفسه، لذلك ومع مرور الزمن بدأتُ أقلق، لكن إن أنتَ أعطيتني أملاً، فلا فرق عندي، أستطيع أن أنتظر طبعاً".

شعر «بينوى» بانزعاج شديد وقال متذمِّراً:

- "آسف جداً لكنّي لا أعرف الكثير من الناس في «كالكُتّا»، في الواقع يمكننا القول إنّي لا أعرف عمليّاً سوى عائلتكم، مع ذلك سأحاول البحث".

-في كل الأحوال أنتَ تعرف أيّ نوع من البنات هي «سازي»، هي..."

فقال «بينوى» ضاحكاً:

- "بالتأكيد، هيّا، إنّي أعرفها مُذ كانت طفلة، إنّها فتاة جميلة".

- إذاً لست مضطراً أن تبحث بعيداً يا ولدي، إني أقدّمها لكَ".

أشرق وجه «مُهيم» بعد أن قدَّم حجّته المفحمة، لكن في هذه المرّة صاح «بينوى» متخوّفاً فعلاً:

- "ماذا؟"

- اعذرني إن كنتُ مزعجاً وتطفّلتُ، إنَّ طبقة عائلتك هي بالتأكيد أعلى من طبقة عائلتنا، لكن ما من شكّ أنّكَ بتربيتك الحديثة لا ينبغي أن يشكّل هذا الموضوع أيّة عقبة أمامكَ".

ردَّ «بينوى» متعجّباً:

- "لا،لا! ليست المسألة في العائلة، لكن فكِّر كم هي فتيّة..."

فاحتجَّ «مُهيم» وقال:

- "ماذا تريد أن تقول؟ «سازي» في سنّ الزواج تماماً، بنات الهند لسن كالبنات الأوروبيات ينبغي ألاّ نتحدّى عاداتنا القومية".

لم يكن «مُهيم» الرجل الذي يحرِّر ضحيّته بهذه السرعة، و«بينوى» المحصور بين مخالبه شعر بالعجز عن المقاومة أو الاعتراض على ما قاله، فقال في نهاية المطاف:

- "حسناً، لا داعيَ للعجلة فلنعطِ لأنفسنا مهلة للتفكير في الموضوع".

- "لا داعيَ للعجلة افعل كما تشتهي، إياك أن تعتقد أنّي جئتُ لأعيّن اليوم السعيد حالاً".

- "ينبغي أن أستشير من بقي لي من أقارب".

فقاطعه «مُهيم» موافقاً:

- "طبعاً، ينبغي استشارتهم بالتأكيد، وطالما بقي عمّك على قيد الحياة فلن نتصرَّف ضد إرادته".

غادر وهو يغترف من جيبه مجدّداً ما بقي من الـ«بان» معتبراً القضيّة وكأنَّها قد حُسِمَت.

قبل بضعة أشهر كانت «آناندامو» قد نوَّهت بشكل غير واضح إلى أنَّ «بينوى» قد يتزوّج «سازي» لكن «بينوى» لم ينتبه لذلك، رغم أنَّ هذا الزواج لا يبدو له اليوم مغرياً لكن الفكرة دخلت عقله هذه المرّة، فصار يفكِّر في نفسه، لو حصل هذا الزواج فهو في هذه الحالة سيدخل حقيقة ضمن عائلة «غورا» ولن يستطيع أحد طرده منها. لقد كان دائماً يعتبر أنَّ العادة الإنكليزية غريبة بنظرتها للزواج على أنَّه قضية مشاعر؛ وبالنسبة إليه في الواقع لا يوجد شيء مستحيل يعيق زواجه من «سازي»، إنَّ عرض «مُهيم» قد منحه حالياً نوعاً من المتعة لأنَّه أعطاه الذريعة ليذهب ويستشير «غورا»، وهو يأمل ولو قليلاً أن يُصرَّ «غورا» ويلحّ عليه كي يقبل، لقد كان واثقاً أنَّه إذا لم يبدِ تعجّلاً فإن «مُهيم» سيرجو «غورا» كي يتدخَّل. هذه الأفكار والاستنتاجات طردت شيئاً فشيئاً كآبة «بينوى» فذهب مسرعاً ليراه.

كان لا يزال في جوار منزله عندما سمع «ساتيش» يناديه، عاد إلى منزله مع الصبيّ الصغير الذي أخرج من جيبه صرّة مغلّفة بمنديله، فقال «ساتيش»:

- "احزر ماذا يوجد في الداخل؟"

أخذ «بينوى» يذكر كل أنواع الأشياء المستحيلة: كلب صغير، جمجمة، ولم يحصل من «ساتيش» إلاّ على جواب بالنفي، في النهاية فتح «ساتيش» الصرّة فظهرت فاكهة سوداء وسأل:

- "ما هذه الفاكهة؟"

حاول «بينوى» أن يحزر ويقدّم بعض الفرضيات لكن عندما أعلن عن عجزه أخذ «ساتيش» يشرح له بأنّ له عمّة تقطن في «رانغون» قد أرسلت إلى العائلة طرداً من هذه الفاكهة، وأنّ أمّه تهديها لـ«بينوى».

كان من النادر إيجاد «جوز الجندم» الآتي من بورما في «كالكتّا»، أخذ «بينوى» يخضّها ويضغطها ثم انتهى إلى السؤال:

- "كيف تؤكل هذه الفاكهة يا «ساتيش بابو»؟"

أخذ «ساتيش» يقهقه ضاحكاً من جهل «بينوى»:

- "هيّا! لا تحاول أن تعضّها، ينبغي أولاً أن تفتحها بالسكّين كي تستطيع أن تأكل اللبّ".

قبل خمس دقائق كان «ساتيش» يسلّي أخواته بمحاولات فاشلة وهو يعضُّ القشرة القاسية، أمّا الآن فهو يستمتع بنسيان خيبته وهو يهزأ من «بينوى». بعد أن تبادل هذان الصديقان المتفاوتان في العمر بعضَ الطرائف، أعلن «ساتيش»:

- "«بينوى بابو» تقول أمّي: إن كان لديك وقت فراغ فينبغي أن ترافقني إلى منزلنا لأنّ اليوم عيد ميلاد «ليلا»".

- "آسف لا أستطيع المجيء، لأنّني ذاهب إلى مكان آخر".

- "لكن إلى أين؟"

- "إلى منزل صديقي".

- "كيف! إلى الصديق الذي رأيته؟"

- "نعم".

لم يستطع «ساتيش» أن يفهم كيف يمنعُ هذا السبب «بينوى» من زيارتهم وأنّه سيذهب إلى صديق لا يطيقه «ساتيش»؛ مجرّد التفكير في أنّ «بينوى» رغب في رؤية مثل ذاك الصديق، صدمه، لقد بدا له هذا الصديق أقسى من معلمه في المدرسة وتوقّع منه أن يُعجَب بعلبة الموسيقا، لكن ذلك لم يكن مجالاً للبحث بالنسبة إلى «غورا»، أصرَّ «ساتيش» قائلاً:

- "كلاّ، «بينوى بابو» ينبغي أن تأتيَ معي إلى منزلنا".

بعد مهلة قصيرة نسبياً إستسلم «بينوى»، فرغم الصراع في ميوله، ورغم الإعتراضات التي تحضر في ذهنه، أمسك أخيراً بيد غالبه وذهب معه؛ لم يستطع «بينوى» قمع شعوره بالمتعة بأنّه قد تمَّ إختياره بشكل إستثنائي ليشاركهم بفاكهة «بورما» الثمينة، ولا أن يتجاهل الدعوة إلى لقاء حميمي أكبر مما تتضمّنه هذه الهديّة.

عندما إقتربا من منزل «باريش بابو» لمح «بينوى» «هاران» يخرج منه برفقة أشخاص لا يعرفهم، ربّما قد تمّت دعوتهم إلى حفلة الإستقبال بمناسبة عيد ميلاد «ليلا»؛ غير أنَّ «هاران» توارى ويبدو أنّه لم يرَه. عند الدخول، سمع «بينوى» قهقهات ضحك وتحرّكات سريعة: كان «سودهير» قد استولى على مفتاح الدرج حيث تخبّئ «لابونيا» كرّاس مختاراتها الأدبية؛ من بين القصائد الشعرية المختارة من قبل هذه الشابّة الطامحة إلى المجد الأدبي، كان هناك ما يثير السخرية الخفيفة، فصار «سودهير» يهدّد بقراءتها أمام كل الحضور. وعندما ظهر «بينوى» في ساحة المعركة كان الصراع بين

الفريقين في أوجه، وحالما رآه أتباع «لابونيا» تواروا عن الأنظار بلمح البصر وركض «ساتيش» خلفهم كي يستمتع هو أيضاً.

بعد قليل دخلت «سوشاريتّا» الغرفة وقالت: "أمّي ترجوكم أن تنتظروا قليلاً ستأتي حالاً، لقد خرج أبي لزيارة صديق ولن يتأخّر في العودة"؛ أخذت «سوشاريتّا» تحدّث «بينوى» عن «غورا» كي يشعر براحة أكثر، فقالت وهي تضحك:

- "أتخيّل أنّه لن يعود إلى بيتنا مطلقاً".

فسأل «بينوى»:

- "ما الذي جعلك تعتقدين ذلك؟"

أجابت «سوشاريتّا» شارحة:

- "لقد صُدِمَ بالتأكيد لرؤيتنا ونحن فتيات شابّات نظهر أمام زائرين ذكور، ربّما لا يحترم سوى النساء اللواتي يكرّسن أنفسهنّ بالكامل لواجباتهنّ المنزلية".

وجد «بينوى» صعوبة في الردّ على هذه الملاحظة، كان يفضّل أن يناقض كلامها، لكن كيف يكون بإمكانه التأكيد على شيء يعرفه مغلوطاً؟ فقال:

- "أعتقد أنّ وجهة نظر «غورا» في هذا الموضوع هي أنّ البنات الشابّات ينبغي أن يركّزن كل أفكارهنّ على مهمّاتهنّ المنزلية وإلاّ فهنّ غير مخلصات لها".

ردّت «سوشاريتّا» قائلة:

- "إذاً أليس حرياً بالرجال والنساء أن يعيشوا منفصلين تماماً كما تنفصلُ واجباتهم؟ إذا دخل الرجال إلى البيت فهل يتأثّر واجبهم تجاه العالم الخارجي؟ هل تتّفق مع وجهة نظر صديقك؟"

كان «بينوى» حتى الآن متفقاً مع «غورا» في ما يخصّ القوانين التي تحكم سلوكيّة النساء في المجتمع، وحتى إنّه كان قد كتب مقالات في الصحف

تعبّر عن رأيه بهذا الخصوص، أمّا الآن فلم يعد باستطاعته قبول مثل هذا الرأي. فقال مقترحاً:

- "ألا تعتقدين أننا فعلاً عبيد العادة في موضوع من هذا النوع؟ أولاً نحن ننزعج لرؤية النساء خارج المنزل لأننا غير معتادين على هذا المشهد ولذلك نحاول تبرير انطباعنا زاعمين أنّ ذلك غير ملائم ومزعج؛ السبب العميق هو التقليد والحجج ليست إلاّ ذريعة".

استمرّت «سوشاريتّا» في الحديث عن «غورا» بفضل أسئلتها واقتراحاتها، وتحدَّث «بينوى» ببلاغة صادقة عن كل ما يتعلّق بصديقه، لم يسبق له في الماضي أن عرض شروحاته وأمثلته بهذا الأسلوب المقنع، ربّما لم يكن باستطاعة «غورا» أن يشرح مبادئه الشخصيّة بهذا الوضوح وبهذه الروعة. كان «بينوى» ممتلئاً فرحاً وغبطةً يشعّان من وجهه بدافع قويّ من صفاء ذهنه وقدرته الإستثنائية على التعبير، وتابع يقول:

- "الكتاب المقدَّس يوصي بأن يعرف الإنسان نفسه لأن معرفة النفس تعني التحرّر، وأستطيع أن أؤكِّدَ لكِ أنَّ صديقي «غورا» يجسّد معرفة الهند بنفسها، من المستحيل تصوّره كرجل عادي، فبينما يكون ذهن كل واحد منا منجذباً لإتجاهات متنوعة يسترعي إنتباهه حادث تافه، أو تغريه السلع المستحدثة، يبقى «غورا» الرجل الوحيد الذي يقاوم اللهو والذي يذكِّرُ بصوت مرتفع بالـ«مانترا»(١): «اعرف نفسك».

كان من الممكن أن تستمر المحادثة إلى ما لانهاية بما أنَّ «سوشاريتّا» كانت تستمع بإصغاء شديد ولكن، سُمِعَ فجأة صوت «ساتيش» الحادّ من الغرفة المجاورة وهو ينشد:

"لا تقولـــوا لـــي بحـــزن أنَّ الحياة ليست إلاّ حلماً عبثياً"

---

(١) «مانترا»: عبارات مقدَّسة، واسلوب في السلوك.

لا تُتاحُ الفرصة أبداً للمسكين «ساتيش» أن يعرض معارفه أمام الزائرين، بل كان يُفرَض في أغلب الأحيان على الضيوف المنزعجين والمتضايقين واجب سماع «ليلا» وهي تتلو قصائد إنكليزية، ولم تحاول «بارودا» أبداً أن تسمح لـ«ساتيش» بإلقاء قصيدة ما رغم المنافسة التي كانت بين الطفلين؛ بالنسبة إلى «ساتيش» كان أعظم فرح في حياته عندما يجد الفرصة المناسبة ليذلَّ «ليلا»، وكانت «ليلا» ليلة أمس قد امتُحِنَت أمام «بينوى» أمّا «ساتيش» فلم تتمّ دعوته، وبالتالي لم يتمكّن من إثبات تفوّقه، ولو حاول لقاموا بإهانته، لذلك قام في هذا اليوم بإلقاء ما يعرف في الغرفة المجاورة كما لو أنّه يستظهر لنفسه، ولم تستطع «سوشاريتّا» إلاّ أن تضحك. في هذه الأثناء دخلت «ليلا» إلى الغرفة كالإعصار تهزّ جدائلها وجرت مسرعة نحو «سوشاريتّا» وهمست ببضع كلمات في أذنها، لقد دقّت الساعة الرابعة.

عندما أتى «بينوى» إلى منزل «باريش بابو» كان قد قرَّرَ أن يغادره في وقت مبكر ليذهب إلى «غورا»، وكلّما تحدَّث عن صديقه ازدادت رغبته في رؤيته، ولمّا ذكّرته دقات الساعة نهض بسرعة، فسألته «سوشاريتّا»:

- "هل أنتَ مضطرّ للمغادرة في هذا الوقت المبكر؟ لقد حضّرت الوالدة الشاي ألا يمكنك البقاء قليلاً؟"

بالنسبة إلى «بينوى» لم يكن ذلك سؤالاً بل أمراً فعاد وجلس من جديد؛ دخلت «لابونيا» بدورها مرتدية ثوباً جميلاً من الحرير لتعلن بأنَّ الشاي قد جهز وأنَّ والدتها ترجوهما أن يصعدا إلى الشرفة.

بينما كان «بينوى» يشرب الشاي، أرادت «بارودا» تسليته فأخذت تروي له السيرة الذاتية الكاملة لكلّ بنت من بناتها؛ جاءت «لوليتا» بـ«سوشاريتّا» وظلّت «لابونيا» وحدها جالسة حانية رأسها على حياكتها؛ لقد امتدح أحدهم في المرّات السابقة حركة أصابعها اللطيفة عندما كانت تحيك، ومنذئذٍ اتخذت عادة الحياكة بسبب أو بدون سبب عند وجود ضيوف.

عاد «باريش بابو» تماماً قبل حلول الليل، ولمّا كان يوم أحد فقد اقترح على العائلة الذهاب إلى مقرّ الـ«براهمو – ساماج»؛ التفتت السيدة «بارودا» نحو «بينوى» وقالت له بأنّ من دواعي سرورهم أن يصطحبوه معهم إلى هناك، لم يتجرأ «بينوى» على الاعتراض، فركبوا موزّعين بين عربتين صغيرتين مغلقتين[1] يجرّ كل واحدة منهما حصان، وذهبوا إلى الـ«ساماج». عند الانتهاء، وفي أثناء الصعود إلى العربة، ارتعشت «سوشاريتّا» وقالت متعجّبة:

- "عجباً! ها هو «غورمُهان بابو»!"

ما من شكّ أنّ «غورا» قد لمح المجموعة لكنه توارى كما لو أنّه لم يلحظ شيئاً.

شعر «بينوى» بالحرج لانعدام اللياقة الاجتماعية عند صديقه لكنه فهم على الفور سبب هذا الانكفاء السريع، كان «غورا» قد لاحظه بين الآخرين، وفجأة انطفأت شعلة السعادة التي أضاءت قلبه طوال النهار، وقرأت «سوشاريتّا» أفكار «بينوى» وحزرت السبب، ما أثار في نفسها سخطاً وغيظاً أنّ «غورا» تمكّن من إدانة صديق كـ«بينوى» بهذا القدر من القسوة، وأمّا الأقسى من ذلك فهو السبب المرتكز على حكمه المسبق ضد الـ«براهمو». فتمنّت أكثر من أيّ وقت مضى تحطيم «غورا» بأيّة وسيلة كانت.

(١) Gharry – الغاري: عربة صغيرة مغلقة يجرها حصان واحد.

الفصل الرابع عشر

عندما جلس «غورا» لتناول طعام الغداء، حاولت «آناندامو ا» أن تطرح الموضوع الذي يشغل بالها فافتتحت الحديث قائلة:

- "لقد أتى «بينوى» إلى هنا هذا الصباح، ألم ترَه؟"

أجاب «غورا» باقتضاب ودون أن يرفع عينيه عن صحنه:

- "أجل رأيته".

استعادت «آناندامو ا» الكلام بعد فترة صمت طويلة وقالت:

- "لقد اقترحت عليه أن يبقى هنا لكنه ذهب وكان يبدو مشغول البال"، ثم أضافت:"إنّه قلق ومهموم أنا متأكِّدة من ذلك، لم أره في حياتي بهذه الحالة، مزاجه لم يعجبني أبداً".

لكن «غورا» لم يعر هذه الكلمات أي انتباه، وتابع طعامه دون أن يقول لها كلمة؛ ولأن «آناندامو ا» تحبّه كثيراً كانت تخشاه قليلاً وأصبحت تتردّد في الإلحاح على موضوع لا يركن فيه إليها وحده ليكشف ما في قلبه، لو كانت الظروف مختلفة لتركت الأمور معلّقة لكن «بينوى» أقلقها في هذا اليوم بالذات لدرجة كبيرة فتابعت حديثها:

- "اسمع يا «غورا» لا تغضب مني إن قلتُ ما أفكّر فيه، لقد خلق الله البشر أجناساً متنوّعة ولم يقدّر لهم أن يتّبعوا جميعهم المسالك نفسها؛ «بينوى» يحبّك من كل قلبه، وهو مستعد للتسامح مع أي شيء يصدر عنك، لكن لا فائدة تُرجى من مجهودك لتجبره على التفكير بطريقتك".

- "أضيفي لي قليلاً من الحليب يا أمّي".

كان ذلك الجواب الوحيد والمقتضب لــ«غورا» وتوقّفت بعده المحادثة.

بعد أن تناولت غداءها جلست «آنانداموا» في سريرها لتخيط وهي مستغرقة في التفكير، بينما اِستلقت «لاشمي» على الأرض لتستغرقَ في قيلولتها المعتادة بعد أن حاولت بدون جدوى أن تُدخل «آناندامو ا» في مناقشة حول الفجور الفاضح لإحدى الخادمات.

أمضى «غورا» مدّة طويلة في كتابة رسائله، كان متأكّداً أنّ «بينوى» قد لاحظ انزعاجه ولكنه لم يكن يتخيّل أنّه لن يأتيَ للمصالحة، وأثناء عمله أخذ ينصت لعلّه يسمع خطوات «بينوى»، لكن النهار انقضى و«بينوى» لم يأتِ؛ وعندما قرّر «غورا» التوقّف عن الكتابة تماماً، دخل «مُهيم» الغرفة واسترخى على مقعد وتحدّث فوراً في صلب الموضوع:

- "هل فكّرتَ في زواج «سازي»؟

وبما أنّ «غورا» لم يولِ هذا الموضوع أدنى اِهتمام، فلم يستطع إلاّ أن يلتزَم الصمت كمن يشعر بالذنب؛ عندئذ حاول «مُهيم» أن يقنعه بواجباته كعمّ وأخذ يتكلم بإسهاب عن أسعار الخطّاب المرتفعة وعن سوق الزواج وعن صعوبة توفير المهر المطلوب في الوضع الراهن للعائلة؛ وبعد أن حاصر «غورا» تماماً وأرغمه على الاِعتراف بأنّه لم يجد مخرجاً، أراحه «مُهيم» باقتراحه اِسم «بينوى» كحلّ لهذه المسألة. لم يكن ضرورياً أن يلجأ «مُهيم» إلى هذه المواربات في الكلام، لكن مهما تعدّدت مزاعمه أمام أخيه فهو في قرارة نفسه يخشاه نوعاً ما.

لم يكن «غورا» يحلم أبداً أنّ اِسم «بينوى» يمكن أن يُذكر في مثل هذا الموضوع، خصوصاً أنّ كليهما كانا قد قرّرا بألاّ يتزوّجا ليكرّسا كل حبّهما لخدمة وطنهما، واِكتفى بالإجابة:

- "لكن هل سيقبل «بينوى» أن يتزوّج؟"

فانفجر «مُهيم» قائلاً:

- "يا لك من هندوسي! بالرغم من كل إشارات الطبقة وكل خصل الشعر التي تبرزها في قمة رأسك إلاّ أنّ تربيتك الإنكليزية قد تغلغلت فيك حتى وصلت إلى مخّكَ ونقّي عظامكَ؛ لكنكَ تعلم أنّ الكتابات المقدّسة توصي بزواج كل أبناء البراهمانيين".

لم يكن «مُهيم» كغيره من الشباب الجدد يجهل العادات التقليدية غير أنّه لم يكن ينوّه بالكتب المقدّسة في كل أمر؛ وكان الاستعراض في مطاعم الفنادق في رأيه أمراً عبثياً ولم يكن يؤمن بأنّه من الضروري لعامّة الناس أن يستشهدوا دوماً بالنصوص المقدّسة مثلما كان «غورا» يحبّ أن يفعل؛ لكنه كان يعتقد أنّه ينبغي عليه أن يجاري بيئته في تصرّفها، وهكذا لم يهمل استحضار بعض النصوص المقدّسة في علاقاته الحاليّة مع «غورا».

لو أنّ هذا الاقتراح كان قد طُرِحَ قبل يومين فقط لما كان «غورا» ليعيره أي انتباه، لكنّه في هذا اليوم بالذات لم يبدُ له أنّه غير جدير بالاهتمام لأنّه في جميع الأحوال وفّر له العذر ليذهب على الفور ويقابل «بينوى»، وخلُصَ إلى أنّه سيذهب مهما حدث، قائلاً:

- "حسن، سوف أكون على بيّنة من رأي «بينوى» في هذا الموضوع".

أجابه «مُهيم»:

- "لا تكلّف نفسك في التنقيب والتحرّي، سوف يفكّر تماماً كما تقول له أن يفكّر، إنْ تدعم مشروعي بكلمة واحدة منك سيكون ذلك كافياً، وهكذا يمكننا اعتبار القضية محسومة".

في ذلك المساء نفسه ذهب «غورا» إلى شقة «بينوى» ودخل باندفاع ليفاجئ من في الغرفة، فوجدها خالية، استدعى الخادم وعلم منه بأنّ «بينوى» هو عند «باريش بابو»؛ فامتلأ قلبه بدفق مسموم من الحقد ضد «باريش بابو»

وعائلته وكل الـ«براهمو – ساماج»، واستولت هذه الثورة على كل كيانه، فهرع إلى منزل «باريش بابو» وفي نيّته أن يقول ما يفكّر به بفظاظة ليجعل الجوّ خانقاً على جميع سكّان البيت وعلى «بينوى» أيضاً؛ ولكنّه عندما وصل إلى المنزل علم أنّ الجميع قد ذهبوا إلى «الساماج» لتأدية فرض المساء، فتردّد متسائلاً إن كان «بينوى» برفقتهم، ربّما ذهب إلى منزلي أنا؟ استطاع «غورا» بصعوبة بالغة أن يضبط أعصابه بعد أن نفد صبره، وباندفاعه المعتاد هرع إلى «البراهمو – ساماج»، وعندما وصل إلى الباب شاهد «بينوى» يركب في العربة خلف السيدة «بارودا». هكذا إذاً، لم يتردّد هذا الشاب في أن يركب في وسط الشارع وبلا حياء برفقة زمرة من البنات الشابّات الغريبات، يا له من مجنون! بهذه السرعة وبهذه السهولة وقع في الفخ! ومنذ ذلك الوقت فقدت الصداقة كل سحرها. هرب «غورا» مسرعاً كالريح بينما بقي «بينوى» صامتاً في ظلام العربة ينظر من النافذة.

لقد أثّرت العظة في السيدة «بارودا» فلم يتجرّأ على قطع تأمّلها.

الفصل الخامس عشر

عندما عاد «غورا» إلى منزله صعد مباشرة إلى الشرفة وأخذ يذرعها طولاً وعرضاً.

بعد فترة ظَهَرَ «مُهيم» وهو يلهث وقال متذمّراً:

- "لِمَ يبنون ثلاثـــة طوابق إنّه لشيء مزعج؟ فالآلهة التي تسكن السماء لن تسمح للمخلوقات الأرضية بأن تدعي الإرتفاع إلى هـــذا الحدّ! هل قابلتَ «بينوى»؟"

دون أن يردّ مباشرة على السؤال قال "غورا» :

- "زواج «سازي» من «بينوى» مستحيل".

- "لماذا؟ هل رفض «بينوى»؟"

- "أنا هو من يرفض".

عندها صرخ «مُهيم» وهو يرفع ذراعيه مذهولاً:

- "أيّة نزوة جديدة تخطر ببالك؟ هل لي أن أعرف لماذا؟

-لقد أدركتُ أنّه من المحال بقاء «بينوى» لمدة طويلة في المذهب التقليدي، ولا يصحّ إدخاله في عائلتنا".

فسارعَ «مُهيم» إلى الكلام قائلاً:

- "عجباً! لقد رأيتُ في حياتي العديد من المتعصبين المتزمتين في التقوى، لكنك غلبتهم جميعاً، لا بل سوف تتغلّب على فقهاء مدينة «بيناريس»، فهم

يكتفون بأن نحترم التقاليد، أمّا أنتَ فتريد أن تكفل المذهب التقليدي للمستقبل؛ ذات يوم ستفرض التطهر على الناس لأنَّك تحلم أنَّهم قد أصبحوا مسيحيين!"

وأخذا يتبادلان بعض الكلمات ثم أضاف «مُهيم» قائلاً:

- "مع ذلك لا أستطيع أن أقدِّمَ الصغيرة للزواج من أول وغد غير متعلِّم أصادفه، والأشخاص المتعلِّمون يوشكون حتماً على تجاوز قوانين الكتابات المقدَّسة في بعض الأحيان؛ يمكنك أن تلومهم على ذلك أو أن تسخر منهم في هذا المجال، لكن لماذا نعاقب ابنتي المسكينة بمنعها من الزواج؟ يا لهذه الشخصية التي أصبحتَ تحملها، أنتَ تقلب الأمور رأساً على عقب".

نزل «مُهيم» وذهب مباشرة إلى «آناندامو ا» وقال لها:

- "ينبغي عليكِ يا أمّي أن تكبحي عنان ابنكِ «غورا» وأن توجّهيه".

- "ما هو الموضوع يا ترى؟ ماذا فعل؟"

فاستفاض «مُهيم» شارحاً لها:

- "عملياً كنت قد حسمتُ موضوع زواج «بينوى» من ابنتي «سازي» وجعلتُ «غورا» يتقبَّل المشروع، والآن اختلف هواه وتبيّن له أنَّ «بينوى» ليس هندوسياً صالحاً، ويزعم أنَّ عنده رؤى لا تتوافق بتفاصيلها مع رؤى المشرّعين الدينيين القدامى، والآن ها هو «غورا» يغيّر رأيه وأنتِ تعرفين ماذا يعني ذلك عندما يتعلّق الأمر به، فعدا المشرّعين القدامى أنتِ الشخص الوحيد في العالم الذي يحترم «غورا» رأيه، فلو تكرّمتِ وتكلّمتِ فسأكون مطمئناً على مستقبل ابنتي كما أنَّه من المستحيل إيجاد عريس أفضل منه لها".

روى «مُهيم» بالتفصيل ما جرى منذ قليل في اللقاء بينه وبين «غورا». فتأثّرت «آناندامو ا» كثيراً لإحساسها بأن الخلاف بين «بينوى» و«غورا» قد تفاقم لدرجة كبيرة ما يشكِّل هوّة حقيقية بين الشابّين. صعدت «آناندامو ا» لتقابل «غورا» الذي أتعبه ذرع الشرفة جيئة وذهاباً.

كان في غرفته يقرأ وقد جلس على كرسي مادّاً قدميه على كرسي آخر، وعندما أخذت كرسياً وجلست قربه وضع قدميه على الأرض وانتصب وبدأ ينظر إليها وجهاً لوجه. بدأت «آناندامو ا» بالحديث قائلة:

- "«غورا» يا حبيبي، اِسمعني ولا تغضب من «بينوى» فأنتما بنظري كشقيقين تماماً ولا أطيق فكرة خلاف بينكما".

فقال «غورا» :

- "إذا كان صديقي يرفض صداقتي ويريد أن يذهب في طريقه، فلن أهدر وقتي للّحاق به".

- "أنا أجهل سبب خلافكما يا حبيبي، لكن ما قيمة صداقتكَ إن كنتَ تستطيع تخيّل أنّ «بينوى» يريد قطع الروابط التي تجمعكما؟"

- أنتِ تعلمين يا أمّي أنني أريد أن أتّبع الصراط المستقيم. إذا أراد أحدهم أن يركب سفينتين في آنٍ معاً فسأرجوه أن يسحب ساقه من جانبي، ولا يهمّ من الذي سيتضايق في هذه القضيّة".

لكن «آناندامو ا» أخذت تعلّل:

- "لكن مهما حدث، ما الذي حصل؟ لقد قام بزيارة إلى عائلة براهمو، هل هذه هي جريمته؟"

- "إنّها قصة طويلة يا أمّي".

- فلتكن طويلة قدر ما تشاء، عندي كلمة أودُّ أن أضيفها: أنت تفتخر بوفائك وتزعم أنّك لا تترك أبداً صداقاتك، إذاً لماذا لا تتمسك بـــ«بينوى»؟ لو أنّ «آبيناش» أراد أن ينسحب من حزبك هل تتركه يفعلها بسهولة؟ هل يبدو لكَ الاحتفاظ بـــ«بينوى» دون أهمية لأنّه صديق مخلص تحديداً؟"

ظلّ «غورا» صامتاً غارقاً في التفكير لأن كلمات «آناندامو ا» أثارت عقله.

خلال كل تلك الفترة الماضية كان «غورا» يعتقد أنّه يضحّي بالصداقة من أجل الواجب؛ أمّا الآن فقد تبيّن له أنّ الموضوع هو عكس ما ظنّ: كان

مستعداً أن يفرض أقسى عقوبة على «بينوى» بسبب عاطفة صادقة، لأنه لم يخضع لكل متطلبات صداقته؛ لقد استوجبت قوّة هذه الصداقة أن ينقاد «بينوى» لإرادة «غورا» أمّا «غورا» فكان يقاسي لأن الموضوع لم يتمّ بهذه الصورة. عندما أدركت «آناندامو ا» أنَّ أقوالها أُخذت بعين الاعتبار، نهضت لتغادر دون أن تضيف كلمة. لكن «غورا» قفز من كرسيه وأمسك بشاله المعلّق على حمّالة المعاطف، فسألته «آناندامو ا»:"هل ستخرج؟"

- "سأذهب إلى «بينوى».
- "ألا تريد أن تتعشّى أولاً؟"
- سأجلب «بينوى» ونتعشى معاً".

قامت «آناندامو ا» لتنزل ثم توقفت وهي تسمع صوت خطوات تصعد الدرج:

- "ها هو «بينوى».

وحالا ظهر «بينوى».

امتلأت عينا «آناندامو ا» بالدموع عند رؤيته وقالت له بحنان:

- "آمل ألاّ تكون قد تعشّيتَ يا ولدي «بينوى».
- "لا يا أمّي".
- "ستتعشّى هنا إذاً".

التفت «بينوى» نحو «غورا» فقال «غورا» :

- " أنت محظوظ يا «بينوى» كنتُ ذاهباً إليكَ".

شعرت «آناندامو ا» بارتياح كبير وهي تخرج من الغرفة لتترك الصديقين مع بعضهما؛ وبعد أن جلسا لم يتجرأ أيّ منهما على مقاربة الموضوع الذي يسيطر على تفكيرهما، بدأ «غورا» بتناول موضوعات تافهة سائلاً:

- "هل تعرّفت على عريف الرياضة الجديد الذي عُيّن للصبيان؟ إنّه مدهش".

وتابعا الجلسة على هذا المنوال إلى أن حان موعد العشاء. عندما اقتربا منها أدركت «آنانداموا» من لهجة محادثتهما أنّ السحابة التي كانت تباعد بينهما لم تتبدّد بعد؛ وبعد أن انتهى العشاء اقترحت على «بينوى»:

- "بما أنّ الوقت قد تأخّر ينبغي أن تقضي الليل هنا، سأعلم من في بيتك".

ألقى «بينوى» نظرة متسائلة نحو «غورا» وأجاب:

- "تقول الحكمة السنسكريتية: إنّ من يتعشّى ينبغي عليه أن يتصرّف بشكل ملكيّ، لن أذرع الطرقات هذا المساء بل سأنام هنا".

حينئذ صعد الصديقان إلى الشرفة المكشوفة وجلسا على حصيرة القصب الممدودة في الزاوية.

كان ضياء القمر الخريفي يملأ السماء، مرّت أمام القمر غيمة بيضاء خفيفة كتعويذة تجلب النعاس ثم تموّجت وهي تبتعد؛ كانت صفوف من الأسطحة متباينة الارتفاع تمتد في كل الاتجاهات لتعانق الأفق تفرّقها هنا وهناك ذرا أشجار كثيفة مكوّنةً سيمفونيةً صامتة من ظلال وأنوار؛ دقّت ساعة الكنيسة المجاورة الحادية عشرة، سكت باعة البوظة، وخمدت حركة المرور؛ لا شيء يزعج الهدوء في الزقاق الذي يحاذي البيت سوى عواء كلب من وقت لآخر أو صدمات حوافر أحصنة الجار على الحاجز الخشبي الذي يغلق الإصطبل.

ظلّ الصديقان مدة طويلة دون أن يتكلّما. بدا «بينوى» في البدء متردّداً ثم أخذته عاطفته في نهاية الأمر واسترسل معبّراً عن أفكاره كلّها:

- "إنني حزين وقد ضاق صدري يا «غورا» لدرجة لا أستطيع فيها أن أتمالك نفسي، إنّي أعلم أنّك لا تهتم بالأفكار التي تشغلني، لكنني سأظل قلقاً طالما أنّي لم أُسرّ لك بكل شيء، إنّي لا أعرف إن كان اندفاعي الذي لا يقاوم

نزواتي جيّداً أم سيّئاً لكن الأمر الذي لا أشكّ فيه هو أنّه يفرض نفسه عليّ؛ لقد قرأتُ كثيراً عن هذا الموضوع، وإلى الآن كنتُ أعتقد أنّني أعرف عنه كل ما يمكن معرفته، تماماً كما نتصوّر معرفة متعة السباحة عندما ننظر إلى صورة بركة، أمّا اليوم وقد أصبحتُ في وسط الماء فلا أجد الموضوع بهذه السهولـــة".

بعد هذه المقدّمة أخذ «بينوى» يشرح لــ«غورا» التجربة العجيبة التي بلبلت حياته، ثمّ صرَّح له أنّه يشعر الآن وكأنّه هائم ليلاً نهاراً، وأنّ السماء تغمره بكلّيته من أعلى ناصية رأسه إلى أخمص قدميه، وأنّه قد امتلأ رقّة وعذوبة مثل خليّة نحل مليئة بالعسل في الربيع؛ إنّ كل شيء يبدو له قريباً وكأنّه قد اكتسب معنى جديداً؛ فهو لم يكن يفكّر يوماً أنّه سيحبّ الطبيعة بأكملها وأنّ السماء بهذه الروعة، وأنّ الضياء باهر، حتى نهر المارّة المجهولين في طول الطرقات وعرضها غدا بالنسبة إليه واقعاً عميقاً؛ وأصبح يتوق إلى تقديم خدمات لجميع الذين يقابلهم، ويريد أن يصبح كالشمس بحيث يخصّصُ كلّ قوّته في الخدمة الأزليّة للكون.

من الأسلوب الذي عبّر «بينوى» به لا يمكن الاستدلال على أنّ هناك شخصاً معيناً في ذهنه، وكأنّه كان متحيّراً في ذكر اسم ما أو حتى في الإيحاء إلى أنّ هناك اسماً يشير إليه؛ ربما شعر بالندم لأنّه تكلّم، لقد مارس حرية غير مقبولة وارتكب إهانة تقريباً، لكن الإغراء كان قويّاً جداً بالنسبة إليه في مثل تلك الليلة وهو جالس قرب صديقه تحت القبّة الزرقاء الصامتة. يا لوجهها الجميل! يا للعاطفة الرقيقة في قسماتها، تلك العاطفة التي توحي بدفق الحياة! يا للذكاء المشعّ، يا للعمق الذي لا يُسبَر والذي يُقرأ على جبينها! يا لبريق عينيها عندما تبتسم وهي تبوح بأفكارها الحميمة أو تخفيها أحياناً كسرٌ لا يوصف في حمى جفنيها المُسدلين في ظلّ رموشها. أما يداها فتبدوان وكأنّهما موهوبتان بالكلام، بسحر حركتهما المعبّرة عن قيامها بواجباتها بكلّ

حنان. شعر «بينوى» أنَّ هذه الرؤية تفعم حياته وشبابه، وأنَّ موجات كبيرة من الفرح تهزُّ صدره بينما الصورة الحبيبة تنعش قلبه.

أيّة معجزة لهذا الامتياز في معرفة السعادة التي ليس لأغلبية الناس في هذا العالم فكرة عنها إلى أن يحين قدَرُهم! هل هو بعض من الجنون؟ هل ينبغي علينا أن نتوقّع الندامة؟ في جميع الأحوال قد فات الأوان لتقديم العلاج. إذا أوصله التيار الذي يجرفه إلى الشاطىء فذلك أفضل، ولكن إذا جرفه المدّ أو أغرقه فلا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً حياله، ربّما كان لا يرغب في أن يُنقَذ كما لو أنَّ قدره الحقيقي هو أن يستسلم ليُقتَلَعَ من روابط التقليد والعادة.

كان «غورا» يستمع إليه بصمت. كثيرة هي الأمسيات في ضوء القمر حيث كانا يجلسان معاً في الليل الصافي، وكانا يدخلان في مناقشات متنوعة جداً حول الأدب والناس وخير المجتمع، وحول مشاريعهما المستقبلية، لكنهما لم يخوضا أبداً في مثل هذه المادة الحميمة. خلال حياته كلّها، لم يجد «غورا» نفسه في مواجهة بوح مباشر، كهذا ولم يسمع أبداً مُسارّة أضاعت سرّ القلب الإنساني بطريقة حيوية وعميقة. لقد كان على الدوام ينظر باحتقار إلى هذه المشاعر وكأنّها هذيان شاعري؛ غير أنَّ الاتصال اليوم كان مباشراً جداً، لدرجة لم يستطع معها أن يغمض عينيه أكثر من ذلك؛ بالإضافة إليه، فقد بلبل عقله عنف الإثارة، أمّا افتتان صديقه فقد بعث في كيانه مشاعر ملتهبة أضاعت قلبه هو، رُفِعَ الحجاب عن مناطق من أحاسيسه كانت مجهولة حتّى اليوم، أمّا سحر ضوء القمر الخريفي الذي كان يغمرهما فقد أنار في داخله جذوراً كانت غامضة حتّئذ.

لم ينتبها إلى أنَّ القمر نزل من خلف الأسطحة وأنَّ بارقة خفيّة أشبه بابتسامة ترتسم على وجه طفل نائم قد اجتاحت سماء الشرق؛ وعندما خفَّ الثقل الذي كان يضغط على عقل «بينوى» في نهاية الأمر، شعر بشيء من الخجل، فتوقّف عن الكلام ثم تابع بسرعة:

-"ما حصل لي مؤخّراً قد يبدو لك تافهاً، وربّما قد يؤدي بك إلى احتقاري، لكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ لم أخفِ في حياتي سرّاً عنك وقد أفرغتُ الآن ما في قلبي، سواء فهمتني أم لم تفهمني".

أجاب «غورا» :

-"يا عزيزي «بينوى»، لا يمكنني القول بكلّ صراحة إنّي أفهم ما ترويه لي وأنتَ نفسك لم تكن لتفهمه قبل بضعة أيام، حتى إنّني لا أستطيع أن أنكر أنَّ هذه الأمور في الواقع تبدو لي في منتهى التفاهة رغم أنَّ الغبطة والمشاعر الاستثنائية التي توحي بها في هذه الحياة عظيمة الاتّساع والغنى؛ لكن، ربّما لا يكون الأمر كذلك فعلاً وأنا أبغي أن أقبله تماماً، هذا النوع من الشعور بدا لي منحطّاً وفارغاً لأنّني لم أجرّب قوته وعمقه، غير أنّه من الآن فصاعداً أصبح من المستحيل بالنسبة إليّ أن أرفض أو ألاّ أعترفَ بقيمة ما تحسُّه بهذه القوّة؛ في الواقع، إذا كانت أهمية الحقائق البعيدة عن مجال نشاط الفرد لا تبدو ضعيفة بالنسبة إليه، فلا أحد يمكنه أن يتمّم مهمّته على أكمل وجه، وإنَّ الله لم يُوقِع الإنسان في الغموض والحيرة عندما جعل كل شيء يتراءى له متساوي الوضوح؛ ينبغي علينا نحن بأنفسنا أن نحدّد المجال الذي نريد أن نركّز انتباهنا عليه ثم نهمل باقي ما تبقّى، وإلاّ سنصبح عاجزين عن إيجاد الحقيقة؛ لا أستطيع أن أعبد الهيكل الذي ظهرت لك فيه صورة الحقيقة وإلاّ قد أفقد المعنى الحميمي لحياتي الخاصة، ينبغي علينا أن نختار".

عندها صاح «بينوى» قائلاً:

-"فهمت، إمّا خيار «بينوى» أو خيار «غورا» ، أنا على درب الاغتناء وأنت على درب الزهد ونكران الذات".

فقاطعه «غورا» وقد نفد صبره:

-"يا «بينوى» لا تسخر، إنّي أعي تماماً أنك الآن في مواجهة واقع أساسي لا يمكننا حياله أن نغشّ؛ ينبغي عليك أن تكرّس نفسك له إن أردتَ أن

تحصل عليه كاملاً وإلاّ لا يمكن الوصول إليه؛ إنّ أمنية قلبي العليا هي أن أتوصّل ذات يوم إلى يقين راسخ ومتّقد كيقينك، فأنت حتى اليوم لم تكن تعرف الحبّ إلاّ من خلال الكتب، وكذلك الأمر بالنسبة إليَّ فأنا لا أملك سوى معرفة مأخوذة عن الكتب لما هو حقيقة حبّ الوطن؛ والآن وقد خُضتَ التجربة المباشرة فقد أصبحتَ تُدركُ كم يختلف الواقع عما كنت تقرأه. إنّه ينشد احتضان العالم كله، ولن تجد أيّة زاوية تلجأ إليها للهروب منه؛ كذلك الأمر عندما يصبح حبّي للوطن ذات يوم مسيطراً وصريحاً، عندها لا يمكنني أن أفلت منه إلى أيّ مكان، سيمتصّ قواي وحياتي ودمي حتى نقيّ عظامي وسمائي وضيائي وكل كياني؛ كم ستصبح رائعة وجميلة ومنيرة ومسلّماً بها تلك الصورة الحقيقية لبلادي! يا له من ثوران وعنف في الفرح والألم اللذين ستوحي بهما لي، جارفةً الحياة والموت في سيلها الذي لا يُقهر! لقد حضرتني الرؤية وأنا أصغي إليك، هذه التجربة التي فرضتْ نفسها عليك غمرتني أنا أيضاً بحداثتها، لا أعرف إن كنتُ سأستطيع يوماً ما أن أفهم ما تحسّ به، أعتقد أنّي أستشعر ما تطمح إليه نفسي من خلال إحساسي بشعور مسبق".

قام «غورا» عن الحصيرة وأخذ يطوف الشرفة طولاً وعرضاً وهو مستمرّ في حديثه. بدا الفجر الذي بزغ في الشرق وكأنّه يحمل إليه رسالة فتأثّر في أعماق روحه كما لو أنّه سمع تلاوة احتفالية للعبارات المقدّسة من الكتب الهندوسية الأربعة في صومعة قديمة من الغابات الهندية. بقي لبرهة جامداً لا يتحرّك وكان كل جسده يرتعش جرّاء إحساس انتابه بأنّ عنق اللوتس الذي ينبثق من دماغه جاهز لأن يتفتح ويصبح زهرة مشعّة تملأ تويجاتها السماء. في نشوة هذا الجمال الفائق تلاشى كيانه وضميره وقواه، وعندما عاد إلى وعيه، قال فجأة:

-"حتى هذا الحبّ الذي تشعر به يا «بينوى» ينبغي أن تصعّده وتتجاوزه، أقولها لك، لا يمكنك التوقّف هنا، سأريك ذات يوم عظمة وحقيقة

هذه «القدرة اللامتناهية» التي تناديني من سلطتها التي لا تُقهر ولا تُقاوم؛ اليوم أنا سعيد وأعرف أنّي لن أتركك أبداً بين أياد أقلّ قيمة".

نهض «بينوى» واقترب من «غورا» ووقف بجانبه فضمّه «غورا» إلى صدره بحماسة خارقة وهو يصيح فرحاً:

- " نحن أخوان، متّحدان حتى الموت، لقد أصبحنا واحداً ولن يستطيع أحد أن يفرّقنا أو يضع عائقاً فيما بيننا".

هزّ انفعال «غورا» الصاخب بنبضاته قلب «بينوى»، ودون أن يتكلم استسلم كلياً لسطوة صديقه ونفوذه الأدبي؛ وبصمت، أخذ الاثنان يذرعان الشرفة ذهاباً وإياباً بينما كانت السماء تضيء بشدّة من ناحية الشرق؛ استعاد «غورا» الكلام قائلاً:

- "يا أخي، الآلهة التي أعبدها لا تعرض نفسها عليّ محاطة بالجمال، إني أكتشفها في الفقر والجوع وفي الألم والذلّ، وليس في المكان الذي يُقام فيه احتفال لشعائر العبادة بين الأناشيد والزهور بل في التضحية بالحياة والدم؛ بالنسبة إليّ، إنه لفرح عميق ولا يوجد أي عنصر مستحب بإمكانه أن يجذبني بكل بساطة ، هنا، المؤمن ينبغي عليه أن يُجمّع كلّ قواه ويكون جاهزاً للتفاني الأقصى؛ لا يوجد أي رقّة أو لطافة تفتن في الشهادة الواجب تأديتها. إنها يقظة شرسة وعنيدة، طاغية ورهيبة تهزّ أوتار الكائن بقسوة لدرجة تتقطّع فيها كل نوطات سلّم الأنغام وهي ترسل صداها. مجرّد التفكير فيها يكفيني ليقفز قلبي من مكانه، الفرح الذي يتسرب إليّ هو حقاً الفرح الرجولي، إنها رقصة «سيفا»، الرقصة الكونية التي تخلق وتدمّر، إنّ هدف البحث الإنساني ليس سوى رؤية للـ«جديد» الذي يتألّق في قمة الـ«قديم» المشتعلة عندما يفسد ويتلف؛ عندما أتجرّد عن هذه السماء المدماة، ألمح مستقبلاً مشرقاً متحرّراً من كل قيد، إنّي أتبيّنه في هذا الفجر الذي يظهر اليوم، انتبه: بإمكانك أن تسمع النبضات في صدري".

وأمسك «غورا» يد «بينوى» ووضعها على قلبه. فقال «بينوى» وهو متأثّر بعمق:

- "يا أخي «غورا»، سأكون رفيقك إلى النهاية، لكن أستحلفك لا تدعني أتردّد أبداً، كالقدر العنيف نفسه، ينبغي عليك ألاّ تتوقف عن تدريبي بشكل ضارٍ، نحن الاثنان نسير في الطريق نفسه لكن قوانا غير متساوية".

- طبائعنا مختلفة هذا صحيح، لكن الفرح الفائق سيأتي ويمزجها معاً، الحبّ الذي سيوحّدنا أكبر من الحب الذي يجمعنا الآن مع بعضنا، إن لم يصبح هذا الحبّ السامي الحقيقة الأساسية لكل واحد منا، سنوشك أن نقع في النزاع والسقوط في كل خطوة. مع ذلك سيأتي يوم، عندما نكون قد نسينا كل ما يفصلنا عن بعضنا بعضاً، ونكون قد نسينا حتى صداقتنا نفسها، سنجد أنفسنا واقفين الواحد بجانب الآخر، راسخين لا نتزعزع، في فورة لا متناهية من الزهد. في هذا الورع الصارم، ستبلغ صداقتنا كمالها النهائي".

ضغط «بينوى» على يد «غورا» وهو يجيب:

- "هل يمكن أن يحصل ذلك؟"

تابع «غورا» حديثه:

- "غير أنَّه إلى أن يحين ذلك الوقت سوف أجعلك تتألّم كثيراً، سيكون عليك أن تتحمّل طغياني لأنَّه لا يصحّ أن نعتبر صداقتنا بحدّ ذاتها هدفاً؛ ينبغي علينا ألاّ نشوّهها ونحن نجهد لحفظها مهما كان الثمن؛ إن كان على صداقتنا أن تزول في مصلحة شعور أسمى، فنحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً حيال ذلك، أمّا إذا نجت واستمرّت عندها ستكون حقاً كاملة".

ارتعش كلاهما عند سماع صوت خطوات من خلفهما، التفتا فشاهدا «آناندامو ا»، أمسكت بيد كل واحد منهما وقادتهما باتّجاه غرفة النوم وهي تقول:

- "هيّا، هلمّا إلى السرير".

- كلاّ يا أمّي، إنَّه من المستحيل أن ننام الآن".

- "آه! بل هو ممكن".

بعد هذه الإجابة قامت وأجبرت الصديقين على التمدّد ثم أغلقت باب الغرفة وجلست بالقرب من المخدّة وأخذت تروح لهما بالمروحة. فقال «بينوى»:

- "باستطاعتك أن تروّحي قدر ما تشائين يا أمّي، لن يأتي النعاس الآن".

- "آه! حقاً؟، سنرى، في جميع الأحوال، إن بقيتُ هنا فلن تستطيعا أن تتابعا حديثكما".

عندما استغرقا كلاهما في النوم، خرجت «آناندامو ا» من الغرفة بهدوء دون أن تحدث جلبة، وفي منتصف السلّم صادفت «مُهيم» الذي كان صاعداً، فأوصته قائلة:

- "ليس الآن، لقد ظلاّ مستيقظين طوال الليل، لقد أجبرتُهما على النوم منذ قليل".

فقال «مُهيم»:

- "يا إلهي! هذه هي الصداقة بعينها هل تعرفين إن ناقشا مسألة الزواج أم لا؟"

- لا، لا أعلم شيئاً".

أخذ «مُهيم» يفكّر بصوتٍ عالٍ ويقول:

- "ربّما قد اتّخذا القرار، متى سيستيقظان إذاً؟ ". إنْ لم يحصل الزواج في الحال قد تحصل عراقيل...

فقالت «آناندامو ا» وهي تضحك:

- "دعهما ينامان فلن يؤدي ذلك إلى عراقيل، سيستيقظان بالتأكيد خلال النهار".

الفصل السادس عشر

السيدة «بارودا» تسأل زوجها:

- "ألم تقرّر تزويج «سوشاريتّا» بعد؟"

لامس «باريش بابو» لحيته وبمزاجه المعتدل سأل مستفهماً بصوت هادئ:

- "من هو الخطيب؟"

- فردّت زوجته تقول:

- "هيّا! إنّه أمر مفروغ منه فهي ستتزوّج «هاران»، كلّنا نظنّ ذلك على أيّة حال و«سوشاريتّا» نفسها تعرفه".

غامر «باريش بابو» وقال بجرأة:

- "لستُ متأكداً أنّها تميل إليه".

صاحت زوجته مذهولة:

- "عجباً! يا لها من جملة لا أستطيع تحمّلها، كيف! لقد عاملنا هذه الصغيرة دائماً كابنة لنا، لماذا تتخذ الآن موقفاً متكبّراً؟ إذا رغب رجل مثقف ومتديّن مثل «هاران بابو» أن يتزوجها، هل يحقّ لها أن تعامل هذا الشعور بهذه الوقاحة؟ تستطيع أن تقول ما تريد، إنّ ابنتنا «لابونيا» أجمل منها ومع ذلك فهي لن ترفض أبداً أحداً نودُ أن نراها تتزوجه، أؤكّد لك ذلك. إذا استمررْتَ في تشجيع غرور «سوشاريتّا»، فسيكون من الصعوبة بمكان إيجاد عريس لها".

لم يكن «باريش بابو» يناقش زوجته أبداً وعلى الأخصّ عندما يتعلق الموضوع بـــ«سوشاريتّا»، لذلك لزم الصمت.

عندما توفيت والدة «سوشاريتّا» وهي تضع «ساتيش»، لم تكن الصغيرة سوى في السنة السابعة من عمرها، أمّا والدها فقد اعتنق خلال ترمله «البراهمو – ساماج»، وكي يهرب من اضطهاد جيرانه، لجأ إلى «داكّا». وخلال عمله في بريد تلك المدينة ربطته بـــ«باريش بابو» صداقة حميمة، وقد توثّقت هذه الصداقة وأصبحت «سوشاريتّا» تبدي تجاه «باريش بابو» الحنان نفسه الذي كانت تبديه لوالدها، وعندما مات «رام بابو» فجأة، تاركاً لولديه كل ما يملك ومعيّناً «باريش بابو» كوصي عليهما أتى اليتيمان حينئذ ليعيشا ضمن عائلة الوصي.

يعرف القارئ آنفاً أيّ مؤيّد حماسي للـــ«براهمو – ساماج» كان «هاران»، فهو يشارك في جميع نشاطات «الساماج»، ويخدم بصفته أستاذاً في مدرسة المساء، ويعمل ناشراً في الصحيفة، وسكرتيراً في مدرسة البنات؛ الحقيقة أنّه كان يظهِرُ لامبالاة بالتعب الذي يعانيه، كل واحد كان يتوقّع أن يشغل هذا الشاب منصباً رفيعاً في الحركة، وكان قد اكتسب أيضاً شهرة خارج «الساماج» بفضل تلامذته لإتقانه اللغة الإنكليزية ولمعلوماته الفلسفية، وهكذا حظيت كفاءاته باحترام خاص من «سوشاريتّا» إذ كانت تحترم جميع البراهمو المتميّزين. عندما أتت من «داكّا» إلى «كالكتّا» كانت متلهّفة للتعرّف به، في الواقع، لم تقتصر المسألة على تعرّفها بهذه الشخصية الشهيرة، فـــ«هاران» أيضاً لم يتأخّر في إظهار إعجابه وتفضيله لها، لكنه لم يعلن بشكل واضح أنّه مغرم بها إنما كان يعمل مخلصاً وبشكل خاص ليقوّم أخطاء «سوشاريتّا» وليصلح عيوبها، وليزيد نشاطها، وكان يسعى إلى تحسينها، لقد كان هدفه من ذلك أن يجعل هذه المرأة الشابّة جديرة فعلاً بأن تصبح يوماً ما رفيقتـــه.

بالنسبة إلى «سوشاريتّا»، عندما أدركت أنّها قد استمالت قلب رجل بارز ومتميّز جداً، لم تستطع أن تتمالك نفسها وأخذت تشعر بالزهو الممزوج بالاحترام تجاهه؛ ولمّا كان الرأي العام قد رشّحها للزواج من «هاران»، فقد قبلت «سوشاريتّا» الفكرة أيضاً وكأنّها أمر مقرَّر، وأصبح اهتمامها الرئيسي التوصّل بالدرس والسلوك إلى إنسانة جديرة بالرجل الذي كرَّس حياته للـ«براهمو – ساماج». مع أنّه حتّى الآن لم تُتخذ أيّة خطوة باتّجاه السلطات المعنية بالقرار؛ كان أفق ذلك الزواج يبدو لها كقلعة من الخوف والرعب والمسؤولية، زواج يتطلب جهداً دقيقاً ومثابراً وليس مسرحاً لحياة سعيدة، ولم يكن يبدو لها كقضية عائلية بل مجرّد حدث تاريخي؛ لو تمَّ هذا الزواج في غمرة هذه الظروف، لاعتبره الجميع وعلى الأخصّ أسرة العروس حظاً سعيداً.

كان «هاران» – مع الأسف – قد خلص إلى اعتبار قدَره من الأهمية بمكان إلى حدٍّ رأى فيه أنَّ زواجاً مبنياً على الانجذاب المتبادل فقط هو أمر لا يليق بكرامته، لم يكن يشعر بأنّه جاهز لاتّخاذ قرار بهذا المستوى قبل أن يكون قد تفحَّص الموضوع من جميع وجهات النظر وتأكّد إلى أي مدى قد يستفيد «البراهمو – ساماج» من ذلك. لهذا الغرض بدأ يختبر «سوشاريتّا»؛ ولكن، عندما يَمتحِن شخص إنساناً آخر يتعرّض هو نفسه لأن يوضع تحت الاختبار. لا ننسى أنّه عندما ألف «هاران» هذا البيت وأصبح معروفاً أكثر من ذي قبل، لم تعد هذه العائلة ترى فيه ذلك الرجل الجديد بالاحترام والضليع بالعلوم الإنكليزية والحكمة الماورائية التي يبدو أنّها تجسّد كل المعارف المفيدة للـ«براهمو – ساماج». ولا ننسى في النهاية أنّه رجل، وبذلك لم يعد موضوعاً للقبول أو النفور. إنّه لأمر مذهل، فالشخصية التي أثارت إعجاب «سوشاريتّا» من بعيد انتهت بالتأثير السلبي عندما توطدت العلاقات أكثر من ذي قبل. الأسلوب الذي ادّعى فيه «هاران» أنّه الحارس والراعي الوصي على كل ما في «البراهمو – ساماج» من حق وخير وجمال

أضفى على شخصيته أبعاداً مضحكة وحقيرة تُلمس عند الاحتكاك به. العلاقة الطبيعية للإنسان مع الحقيقة هي الحبّ والإخلاص، لأن الإنسان الطبيعي يشعر بالتواضع على هذا الصعيد؛ أمّا من يُظهر نفسه متكبّراً وواثقاً من نفسه فهو يكشف بوضوح عن ضآلته الحقيقية.

في هذا المجال، لا يمكن لـ«سوشاريتّا» إلاّ أن تلاحظ الاختلاف بين «باريش بابو» وبين «هاران». من ينظر إلى وجه «باريش بابو» الصافي، يبدو له نبل الحقيقة التي يستغرق في تأمّلها ظاهراً بوضوح. أمّا «هاران» فالأمر بالنسبة إليه معكوس تماماً لأن شخصيته البراهموية العدوانية والمدّعية كانت تبعد كل ما عداها إلى الظلّ وتتفاخر بطريقة كريهة بكل ما تقول وبكلّ ما تفعل.

لم يكن «هاران» يتردّد حتى في مهاجمة آراء «باريش بابو» لشدّة هوسه بمفهومه الخاص لمصلحة «البراهمو – ساماج»، وكانت «سوشاريتّا» عندها تتشنج مثل حيّة جريحة. في تلك الحقبة لم يكن الناس الذين تلقوا تعليماً إنكليزياً في البنغال قد درسوا «البهاغافات جيتا»[1]، لكن «باريش بابو» كان يقرأ مقاطع منها لـ«سوشاريتّا» مراراً كما كان قد قرأ لها الـ«مهابهاراتا»[2] بأكملها. كان «هاران» يرفض هذه القراءة وكان يودّ منع تلك الكتب من كل مراكز البراهمو، حتى إنّه هو نفسه لم يكن يقرؤها أبداً حرصاً منه على الامتناع عن كل الأدبيات التي يبجّلها التقليديون، الكتاب الوحيد الذي كان

(١) البهاغافات جيتا أو نشيد السعيد (الطوباوي) (كريشنا) Bhagavat Gita ou Chant du Bienheureux (Krishna): فصل طويل أخلاقي منفصل عن "المهابهاراتا". عقيدة روحانية غامضة من وجهة نظر لاهوتية، لكنها مشبعة بشعور إنساني كبير.

(٢) مهابهاراتا: إحدى الملحمتين القوميتين في الهند، الأخرى هي الـ"رامايانا". لقد تمّ إنجاز هذه الأعمال الهائلة (إذ تحوي المهابهاراتا على حوالي ١٠٠٠٠٠ مقطع) خلال القرون الأولى من عصرنا وقد كتبت باللغة السنسكريتية.

يحتفظ به ويؤيده من بين الكتب المقدّسة لكل الديانات، كان كتاب «التوراة»؛ ولأن «باريش بابو» لم يكن يميّز أبداً بين براهمو وغير براهمو في مجال دراسة الكتب المقدّسة وفي مجالات أخرى فلم تكن تلك الأمور تبدو حيوية بالنسبة إليه، ولكن هذا الموضوع أمسى سبباً مستمراً للانزعاج، فـ«سوشاريتّا» لم تكن تحتمل فكرة أن يرتكب أي شخص وقاحة في نقد «باريش بابو»، حتى لو كان ذلك في السرّ، فهذا التكبّر من قبل «هاران» كان ينقص من قيمته في نظرها.

كانت «سوشاريتّا» تشعر بأنّها تشمئز أكثر فأكثر من عنف مذهبية «هاران»، ومن جفاء أسلوبه وضيق تفكيره، في هذه الأثناء لم تكن احتمالية زواجهما قد طُرِحت بعد لا من قِبله ولا من قِبلها. في مجتمع ديني، يأخذ الآخرون وبشكل تدريجي بتقييم الإنسان الذي يقدّر نفسه عالياً جداً بالقيمة التي يعزوها لنفسه.

لم يكن «باريش بابو» يناقش ادعاءات «هاران» أبداً وطالما أنّ كل واحد يعتبر هذا الشاب أحد الدعائم المستقبلية للـ«براهمو – ساماج»، فقد كان «باريش بابو» يعطي لهذا الأفق موافقته الضمنية، وأكثر من ذلك، كان يطرح على نفسه السؤال لمعرفة ما إذا كانت «سوشاريتّا» جديرة بمثل هذا الزوج، لكن لم يخطر بباله أن يتساءل إلى أي مدى كان «هاران» يعجب «سوشاريتّا»؛ لا أحد كان يهتمّ باستشارة رأيها في هذا الموضوع، حتى هي نفسها اعتادت على تجاهل ميولها الشخصية؛ لو أنّ «هاران» يناسبه أن يعلن عن جهوزيته للزواج منها فمن البديهي أن يكون دورها في الموافقة على هذا الزواج واجباً أساسياً مثلها مثل باقي أعضاء «البراهمو – ساماج».

كان الموضوع قد وصل إلى هذا الحدّ عندما سمع «باريش بابو» الكلام الحادّ الذي وجهته «سوشاريتّا» إلى «هاران» بقصد الدفاع عن «غورا»، فبدأ يتحرّى إنْ كانت تشعر بالاحترام تجاه زوج المستقبل الذي كان يُعتَقد أنّه

مكتسَب ثابت؛ ربما كان هناك سبب غامض للخلاف بدأت بوادره تظهر، وعندما عادت «بارودا» للبحث في زواج «سوشاريتّا»، لم يبدِ «باريش بابو» الكياسة واللطافة كسابق عهده.

في هذا اليوم انفردت السيدة «بارودا» بـ«سوشاريتّا» وقالت لها:

- "أنتِ تسببين القلق للأب".

ارتعشت «سوشاريتّا» لأن مجرد القول بأنّها تسبّبت بقلق «باريش بابو» ولو دون قصد، يؤلمها بعمق. فشحُبَ وجهها وسألت:

- "كيف! ماذا فعلتُ؟"

- من أين لي أن أعرف يا حبيبتي؟ إنَّه يتصوّر أنّك لا تحبّين «هاران»، والمعروف عملياً أنَّ كلّ أعضاء «البراهمو – ساماج» يعتقدون أنَّ زواجكِ منه أمر مقرَّر، أمّا الآن إن أنتِ....

قاطعتها «سوشاريتّا» متفاجئة:

- " هيّا! أنا لم أتحدّث بهذا الموضوع مع أيّ شخص".

لقد كانت محقّة بأن تتعجّب من المفاجأة. لقد أزعجها موقف «هاران» مِراراً وتكراراً لكنها لم تكن في أي وقت لتثور على فكرة الزواج منه حتى بالفكر؛ في الواقع وكما رأينا آنفاً كانت مقتنعة بأنَّ مسألة سعادتها الشخصية لم تكن موضوعاً مطروحاً على بساط البحث؛ عندها تذكّرت أنَّها في ذلك اليوم وبطيش منها جعلت «باريش بابو» ينتبه لاستيائها من تصرّف «هاران» وموقفه فافترضت أنَّ هذه الحادثة قد سبّبت قلق أبيها، فشعرت بندم شديد. لم يسبق لـ«سوشاريتّا» أن سمحت لنفسها بإظهار مشاعرها أبداً لذلك وعدت نفسها بألاّ تعود لمثل هذا البوح مطلقاً.

وحصل أنَّ «هاران» حضر إلى منزل «باريش بابو» في بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، فاستدعته السيدة «بارودا» إلى غرفتها وقالت له:

- "بالمناسبة يا «هاران بابو» الجميع يزعم أنَّك ستتزوّج ابنتنا «سوشاريتّا»، لكنني لم أسمع مطلقاً شيئاً بهذا الخصوص من فمك أنتَ، إن كانت تلك هي نيتك فلماذا لا تعبّر عنها؟"

لم يستطع «هاران» أن يرجئ طلبه أكثر من ذلك، فقد كان يشعر أنَّه ينبغي عليه أن يتأكّد بأنَّ «سوشاريتّا» ستكون له؛ أمّا مسألة مقدرتها على مساعدته في عمله من أجل «الساماج» ومدى ارتباطها به فهذا أمرٌ يمكن أن يُحلّ لاحقاً. لذلك أجابها:

- "ليس هناك من حاجة للتحدّث بهذا الموضوع أردتُ بكل بساطة الانتظار حتى تبلغ سن الثامنة عشرة".

فقالت «بارودا»:

- "أنتَ شديد التدقيق، يكفي أن تكون قد تجاوزت سن الرابعة عشرة".

فوجئ «باريش بابو» في ذلك اليوم لرؤية تصرّف «سوشاريتّا» في وقت تقديم الشاي، فمنذ زمن طويل لم تستقبل «هاران» بهذه الرحابة؛ وعندما همَّ بالانصراف أصرّت بأن يبقى جالساً لأنَّها أرادت أن تريه التطريز الجديد الذي أنجزته «لابونيا».

بدا الارتياح على وجه «باريش بابو» فقد اعتقد أنَّه كان قد أخطأ والتبس عليه الأمر وهكذا ابتسم لفكرة أنَّ خصام عاشقين قد أبعدهما عن بعضهما سرّاً وأنَّهما قد تصالحا الآن.

في مساء اليوم نفسه، وقبل أن يغادر تقدَّم «هاران» بطلب يد «سوشاريتّا» رسمياً مضيفاً بأنَّه يرغب بألاّ يؤجّل الزواج طويلاً؛ لم يخفِ «باريش بابو» دهشته فقال:

- "لقد كنتَ تؤكّد على الدوام بأنَّ الفتاة الصغيرة ينبغي ألاّ تتزوّج قبل أن تبلغ سن الثامنة عشرة؛ حتى إنَّك أيّدتَ هذه النظرية في مقالاتك الصحفية".

فأجاب «هاران» شارحاً:

- "لا تنطبق هذه القاعدة على «سوشاريتّا» لأنّ عقلها قد نما بطريقة استثنائية بالنسبة إلى سنّها".

احتج «باريش بابو» وقال:

- "فليكن، فهي صلبة رغم نعومتها، لكن يا «هاران بابو» إلاّ إذا كان لديك سبب خاص جداً، ينبغي عليك أن تتصرف وفق قناعاتك وتنتظرها حتى تبلغ سن الرشد".

خجل «هاران» لأنّه كشف ضعفه، فأسرع ليصلح الموقف قائلاً:

- "بالتأكيد، هذا واجبي. لكن رغبتي الوحيدة أن أعلن قريباً خطوبتنا الرسمية بحضور الله وأصدقائنا".

وافق «باريش بابو» وقال: – "بكل تأكيد، يا لها من فكرة جيدة".

الفصل السابع عشر

عندما استيقظ «غورا» من النوم بعد ساعتين أو ثلاث ساعات ورأى «بينوى» نائماً إلى جانبه، امتلأ قلبه فرحاً؛ لقد شعر بارتياح رجل قد أضاع في الحلم غرضاً ثميناً جداً وعندما استيقظ أدرك أنّه كان مجرّد حلم، عندما شاهد «بينوى» بالقرب منه، أخذ يتخيّل حياته وكيف ستصبح مبتورة لو أنّه ضحّى بصديقه، فانتابته فورة مشاعر كبيرة جعلته يهزّ «بينوى» ليوقظه من نومه وهو يصيح:

- "هيّا قم من النوم بسرعة، بسرعة لدينا الكثير لننجزه".

كان «غورا» يقوم بواجبه الاجتماعي بزيارة فقراء الجوار كل صباح بشكل منتظم. فكرته لم تكن في إعطائهم النصائح ولا في نجدتهم، بكلّ بساطة، كان يرغب في مرافقتهم؛ في واقع الأمر، صداقته الحميمة مع أصدقائه المثقفين تكاد تكون بحجم علاقته مع هؤلاء الناس الفقراء؛ كانوا يسمونه «العم» ويقدّمون له النرجيلة (الهوكاب) المرصّعة بالصدف ما اضطره للتدخين كي يوثّق علاقته بهم. المعجب الرئيسي بـ«غورا» كان يدعى «ناندا» ابن نجّار، كان في الثانية والعشرين من عمره يعمل في ورشة أبيه في صناعة العلب الخشبية، كان مبدعاً في الرياضة وكان البطل في الفريق المحلي للعبة «الكركت»، كان «غورا» قد أسّس فريقاً للصيد بالرمي ونادياً للعبة الـ«كركت» وأدخل إليه أبناء النجّار والحدّاد وجعلهم على قدم المساواة مع أعضاء العائلات المرموقة؛ في هذا الوسط النخبوي شغل «ناندا»

المرتبة الأولى في التمارين البدنية بسهولة تامّة، وكان موضع غيرة من قبل العديد من الطلاب، غير أنَّ النظام الصارم الذي وضعه «غورا» كان يجبرهم على قبول انتخابه كقائد للفريق.

قبل بضعة أيام، كان «ناندا» قد جرح قدمه بإزميل ومنذ ذلك الوقت لم يظهر في حقل الـ«كركت»، ولمّا كان «غورا» مشغولاً بـ«بينوى» لم يتمكن من الاستعلام عن حالة الجريح. في ذلك اليوم ذهبا معاً إلى الحارة التي يسكن فيها النجّار للتحرّي عن أخبار «ناندا»، وعند وصولهما إلى باب المنزل سمعا أصوات بكاء نسائية من الداخل، ولم يكن والد «ناندا» موجوداً، كذلك لم يكن هناك أيّ رجل من رجال العائلة فاستعلم «غورا» عن طريق حانوتي في الجوار أنَّ «ناندا» قد مات في صبيحة اليوم نفسه، وأنّهم نقلوا جثمانه إلى الـ«غات»[1] أي إلى المركز الديني لإحراق الموتى.

مات «ناندا»! السليم القوي المليء بأساً وطيبة، هو الذي لا يزال شاباً فتياً، مات هذا الصباح! ظلّ «غورا» جامداً من الذهول، لقد كان «ناندا» ابناً لنجار بسيط، لن يحسّ بغيابه إلاّ القليل من الناس في محيطهم ولمدة قصيرة دون أدنى شك، لكن موته بالنسبة إلى «غورا» بدا قاسياً مرّاً غير مقبول أبداً؛ فقد كان يعرف الحيوية القوية لهذا الشاب الفتي، هناك العديد من الناس الأحياء لكن من منهم يمتلك هذا الفيض من الحياة؟ أخذا يتحرّيان عن سبب موته وعلما أنّه مات بسبب التيتانوس، أراد والد «ناندا» أن يستدعي الطبيب لكن الوالدة زعمت أنَّ ابنها كان مسكوناً بروح شريرة، فاستدعت «ساحراً» لطرد الأرواح الشريرة، أمضى الليل عندهم وهو يتمتم بكلمات سحرية

(١) الـ"غات" Ghat: رصيف على الشاطىء ينحدر إلى النهر بأدراج بحيث تكون الدرجات الواسعة فيها موازية لحافة النهر، على ضفاف نهر الغانج تشكل هذه الأرصفة مركز الحياة الدينية حيث تقام فيها الصلوات ومراسم التطهر والمآتم والجنازات.

ويزعج المريض ويحرقه بالحديد الأحمر؛ في بداية مرضه تمنّى عليهم «ناندا» بأن يُعلموا «غورا»، لكن والدته لم تنقل الرسالة خشية أن يصرّ «غورا» على طلب الطبيب.

بينما هما يغادران زمجر «بينوى» قائلاً:

- "يا للغباء! ويا له من قصاص رهيب!"

- "لا تعزّ نفسك يا «بينوى» وتعتبر كل ذلك وكأنّه حماقة يمكننا أن ننظر إليها من بعيد كما لو أنّها خارجة عنا، لو أنّك تدرك بوضوح عمق هذه الحماقة وفداحة القصاص، لما شعرت- ببراءتك - بعبارة ندم بسيطة".

أسرَعَ «غورا» بخطاه أكثر فأكثر كما لو أنّ هياجه بدا في اِزدياد، بينما كان «بينوى» يحاول أن يحتفظ بهدوئه دون أن يجيب، وبعد صمت قصير، تابع «غورا» كلامه:

- "لا أستطيع أن أتملّص من الموضوع بهذه السهولة يا «بينوى»، الآلام التي فُرِضَت على صديقي «ناندا» من قبل هذا الدجّال، تعذّبني وتعذّب البلد بأكمله، من المحال اِعتبار الحدث تافهاً أو منفصلاً عن عادات مجتمعنا".

اِستمرّ «بينوى» في صمته، أمّا «غورا» فاستعاد الكلام وقال:

- "أعرف تماماً ما في ذهنك يا «بينوى»، إنّك تعتقد أنّه لا يوجد علاج لذلك أو أنّه لو وجد علاج واحد فهو لا يزال بعيد المنال، أمّا أنا فلا أرى الأشياء على هذا النحو، لو فعلتها لكنتُ الآن في عداد الأموات، كل آلام بلادي مهما كانت خطيرة لها علاج وهذا العلاج منوط بي أنا، ولأنّ عندي هذه القناعة فأنا قادر على تحمّل الخوف والشدّة والعار الذي يحيط بي".

فقال «بينوى»:

- "لا أملك الشجاعة على الاحتفاظ باِطمئناني بوجود بؤس عام يستمرّ بهذه الفظاعة".

أجابه «غورا»:

- "لن أقرّر اعتبار هذا البؤس على أنّه نهائي أبداً. كل القوى الروحية والحيوية الماثلة في الكون تهاجم بعضها من الخارج ومن الداخل؛ أستحلفك من جديد يا «بينوى» ألاّ تعتقد حتى في أحلامك أنّه من المستحيل أن يكتسب بلدنا حريته؛ ينبغي علينا أن نظلّ جاهزين، أنت تودّ أن تكتفي بالفكرة الغامضة التي مفادها أنّه في الوقت السانح الملائم ستبدأ المعركة لتحرير الهند، أمّا أنا فأقول إنّ المعركة قد بدأت وهي مستمرّة في كل دقيقة، ولا شيء سيكون أكثر جبناً من جهتنا إلاّ بقاؤنا هادئين وغير مكترثين".

فقال «بينوى»:

- "اِسمع يا «غورا» أرى هذا الاِختلاف، بينك وبيننا، في ما يحصل كل يوم من حولنا حتّى في ما نحن معتادون عليه على الدوام، أنت تراه بنظرة جديدة وغير اعتيادية أبداً، أمّا نحن، فهذا لا يؤثّر فينا ولا يصدمنا لأنّنا غير واعين له ونعتبره كالهواء الذي نتنفسه، كل ذلك لا يسبّب لنا لا فرحاً ولا يأساً ويجعلنا غير مكترثين، تجري أيامنا في الفراغ ولا نميّز وطننا أو شخصيتنا بين الأحداث التي تطرأ".

احمرَّ «غورا» فجأة وبعنف، وانتفخت أوردة جبهته، وبينما هو يشدّ قبضتيه أخذ يركض غاضباً خلف عربة مربوطة بحصانين، وصرخ بصوت جعل الشارع كلّه يرتجف وينتفض: "قفوا! قفوا!" كان هناك رجل بنغالي «بابو» أنيق يدور حول زاوية الشارع الآخر نظر من حوله ثم اِختفى بضربة سوط على أحصنته النشيطة، أمّا الطبّاخ العجوز المسلم الذي كان قد اِجتاز الشارع حاملاً على رأسه سلّة مؤونة لربّ عمله - الذي كان دون شك من جنسية أوروبية - فقد كاد أن يُدهَسَ لأنّه لم يسمع صراخ البابو المغرور محذّراً إياه كي يبتعد عن العربة، لقد تمكّن العجوز الذي كان على الأرجح أصمَّ من النجاة لكنه تعثّر وانتثر محتوى سلّته من فاكهة وخضار وزبدة

وبيض على قارعة الطريق، ولكن السائق الغاضب نعته بالأحمق وجلده بضربة من سوطه فتنهد الرجل المسكين مستنجداً: "الله! الله!" ثم حاول بكلّ تواضع أن يلملم الأشياء التي لم تتلف وأعادها إلى سلته؛ اقترب «غورا» منه وأخذ يساعده، شعر الطبّاخ المسكين بحرج كبير لرؤيته هذا السيّد ذا الثياب الأنيقة يكلّف نفسه عناء مساعدته فقال له:

- "لماذا تتعب نفسك بهذا القدر، يا بابو؟ كل ذلك لن يفيد في شيء بعد الآن".

كان «غورا» يعرف تماماً أنَّ حركته كانت عديمة الفائدة بل قد تُحرِج الرجل التعس، لكنه شعر بضرورة أن يُظهِرَ للمارّة أنَّ هناك على الأقلّ رجلاً مهذباً راغباً بالتعويض عن عنف رجل آخر وأن يتحمل مسؤولية الإهانة ويدافع عن الحق المهضوم، عندما اِمتلأت السلة من جديد قال «غورا»:

- "الخسارة كبيرة جداً وأثقل مما يمكنك تحمّلها، تعالَ إليّ وأنا أعوّضك. لكن اِسمح لي أن أقول لك إنَّ الله لن يسامحك لتحملك مثل هذه الإهانة دون كلمة احتجاج واحدة".

فأجاب العجوز المسلم:

- "الله سيعاقب الجاني لماذا عليّ أنا أن أعاقبه؟"

فقال «غورا»:

- "من ينحني أمام الظلم هو مذنب أيضاً لأنَّه يسمح بكل الشرّ الذي يحصل في العالم، ربّما لم تفهمني، لكن تذكّر أنَّ الدين لا يعني أن نكون سذّجاً، لأن ذلك لا يفيد إلاّ في تشجيع الأشرار. «نبّيك محمد» كان قد فهم هذه الناحية تماماً وهو لم يوصِ بالرضوخ للشرّ".

وبما أنَّ منزل «غورا» كان بعيداً عن المكان فقد رافق العجوز إلى منزل «بينوى» ووقف أمام المكتب وقال له:

- "أعطني نقوداً"

فردَّ «بينوى»:

- "اِنتظر لحظة سأجلب المفتاح".

لكن «غورا» ضرب ضربة عنيفة على طاولة المكتب فارتخى القفل فجأة تحت الضغط واِنفتح الدرج فظهرت صورة كبيرة لعائلة «باريش بابو» كان «بينوى» قد حصل عليها بتدبير من صديقه الطفل «ساتيش»؛ صرف «غورا» العجوز بعد أن سلّمه المبلغ الضروري، ولم يقل كلمة واحدة عن الصورة، وأمام صمت «غورا»، لم يهتمّ «بينوى» بالتحدّث عن الموضوع، مع أنّه لو تمَّ تبادل بضع كلمات بهذا الخصوص لأدّى ذلك إلى راحة باله؛ وفجأة قال «غورا»:

- "حسن! إنّي ذاهب إذاً".

فصاح «بينوى» متعجّباً:

- "هذا لطف منك أن تذهب بمفردك، ألا تعلم أنَّ أمّي قد دعتني للغداء معكَ؟ أنا ذاهب أيضاً".

غادرا المنزل سويّة، وفي الطريق لم يفتح «غورا» فمه، لقد ذكّرته الصورة بأنَّ دوافع «بينوى» قد جرّته إلى درب مختلفة تماماً عن درب حياته هو. كان «بينوى» يفهم تماماً سبب صمت «غورا»، لكنه لم يتجرأ على خرق هذا التحفظ، لأنّه كان يشعر أنّه في النقطة التي يركّز عليها ذهن صديقه ويتمسّك بها يوجد هنا عائق إيجابي يزعزع علاقتهما.

ولمّا وصلا إلى منزل «غورا» وجدا «مُهيم» واقفاً أمام الباب يراقب الشارع، وعندما رأى الصديقين صرخ قائلاً:

- "ما الذي حصل؟ لقد ثرثرتما طوال الليلة الماضية، تخيلتكما كليكما نائمين بهدوء على الرصيف، لكن الوقت متأخّر وقد حان موعد استحمامك يا «بينوى».

بعد أن تخلّص من «بينوى» التفت «مُهيم» نحو «غورا» وقال له:

- "اسمع يا «غورا»، ينبغي عليكَ أن تفكّرَ بجدية في ما سأقوله لكَ؛ حتى لو أنَّ تقليدية «بينوى» لا ترضيك، أين سنجد في العالم أفضل منه؟ لا يكفي التأكّد من أنَّ من يتقدم للزواج هو هندوسي مئة في المئة، ينبغي أيضاً أن يكون قد تلقّى التربية والتعليم المناسبين، أعترف أنَّ المعيار الاعتيادي «تربية مع تقليد» ليس مطابقاً لكتبنا المقدَّسة، ولكنّه مع ذلك لا يشكّل تمازجاً سيئاً، لو كانت لديك ابنة فأنا متأكّد بأنك ستحاكم الأمور بهذه الطريقة".

أجاب «غورا» :

- "ممتاز، يا دادا، لا أعتقد أنَّ «بينوى» لديه اعتراضات".

فصاح «مُهيم»:

- "لكن اسمع، من الذي سينزعج من اعتراضات «بينوى»؟ إنني لا أخشى سوى اعتراضاتك أنتَ؛ لو أنّك فقط ترفع - شخصياً - هذا الطلب إلى «بينوى» فأنا لا أطلب أكثر من ذلك".

فقال «غورا»:

- "سوف أهتمُّ بهذا الموضوع".

على هذا الأساس اعتبر «مُهيم» أنّه لم يبقَ عليه سوى البدء بالتحضير لحفلة الزواج.

وفي أول فرصة قال «غورا» لـــ«بينوى»:

- "«دادا» يلحّ عليّ للتدخّل من أجل زواجك من «سازي»، ما رأيك؟"

-قل لي أولاً ما رأيكَ أنتَ في هذا الموضوع؟"

- "أعتقد أنّه لا بأس ليس فيه سوءٌ".

- "كان لك رأي مختلف في الماضي، ألم نتفق على ألاّ نتزوّج لا أنا ولا أنتَ؟ أعتقد أنّنا اتخذنا هذا القرار".

- "لنفترض أنك ستتزوج وأنا لن أفعل"

- " لماذا؟ لمَ يكون هناك أهداف مختلفة للحج نفسه؟"

- "لأنّي أعتقد أنّ أهدافنا مختلفة فلذلك أقترح هذا التدبير، إنّ الله يرسل بعض الأشخاص إلى العالم فارضاً عليهم أثقل عبءٍ بينما يحتفظ الآخرون بخفة ممتعة. إذا ربطنا معاً هذين النوعين من المخلوقات، ولكي يكون الشدّ متوازناً ينبغي على الأخص تحميل أحدهما العبء كي يتمكن من التقدّم مع الآخر بالمستوى نفسه، فلكي نسير الخطى نفسها بسهولة وبسرعة ينبغي عليك أن تتحمل ثقل الحياة الزوجية".

فقال «بينوى» وهو يبتسم:

- "حسناً! حمّلني حِملاً زائداً بهذه الطريقة، وأنا أوافق".

- "لكن هل يناسبك هذا الوزن بشكل خاص؟"

- "طالما الهدف منه أن يُفرَض عليَّ ثقلٌ إضافي، هذا الثقل أو ذاك، آجرّاً كان أم حجراً، فهذا غير مهمّ".

أدركَ «بينوى» تماماً سبب الاهتمام الملّح الذي أبداه «غورا» بهذا الزواج، وسخر من قلق صديقه الذي يريد إنقاذه من أي اِرتباط محتمل مع إحدى بنات «باريش بابو».

بعد الغداء، أمضيا كل فترة بعد الظهر في قيلولة طويلة عوّضت عن سهرهما الليلة الفائتة.

لم يقم الصديقان بأيّة محادثة قبل حلول المساء، في الوقت الذي صعدا فيه إلى الشرفة، تفحّص «بينوى» السماء وقال:

- "انظر يا «غورا» أريد أن ألفت نظرك بملاحظتي، فأنا أعتقد أنّه يوجد عيب كبير في حبّنا لوطننا، لأننا لا نفكّر إلاّ بنصف الهند".

- "كيف؟ ماذا تريد أن تقول؟"

- "نحن ننظر إلى الهند على أنّها بلد رجال فقط، ونتجاهل النساء كلياً ".

- "أنتَ شبيه بالإنكليز، تريد أن ترى النساء في كل مكان، في البيت وفي العالم الخارجي، على الأرض وفي البحار وفي السماوات، مشتركات في موائدنا وفي لهونا وعملنا. وبالنتيجة بالنسبة إليك النساء سيتفوّقن على الرجال وحكمك سيكون جزئياً أيضاً".

- كلاّ، كلاّ، لن تتخلّص من نقدي بهذه السهولة، لماذا تذهب إلى القول بأني أحكم كالإنكليز؟ إنّي أقول بكل بساطة بأننا لم نعطِ نساء بلدنا الاعتبار والمكانة التي هي من حقهن؛ خذ مثالك الشخصي: إنّي أؤكد دون أن أخشى الوقوع في الخطأ، بأنّك لا تولي النساء أدنى حيز من تفكيرك، في المفهوم الذي تكوّنه عن بلدنا، لاوجودِ للنساء، وهكذا لا يمكن لهذا المفهوم أن يكون عادلاً".

- "منذ أن نظرتُ إلى أمّي وعرفتُها، أرى فيها كل نساء الهند وأعرفُ أيّة مكانة ينبغي أن يشغلن".

- "إنّك تؤلّف أقوالاً لتقع في الخطأ بنفسكَ، الألفة التي نعيش فيها ضمن العائلة مع نساء البيت لا توفرُ لنا معرفة حقيقية؛ أعرفُ أنّي سأثير غضبك عندما أقارنُ مجتمعنا بالمجتمع الإنكليزي، زد على ذلك أني لست في مزاج لفعل ذلك، كذلك لا أزعم بأنّني أعرف المدى والأسلوب الذي ينبغي على نسائنا الظهور وفقه في الخارج دون أن يتجاوزن حدود اللياقة والأدب، لكني متأكّد بأنّهن طالما بقين مختبئات خلف "البرده"[1](في الحرملك) فلن يحصل بلدنا على تمام كماله الذي يعود لنا وبالتالي لن نتمكن من إعطائه حبّنا وإخلاصنا كاملين".

- مثلما يظهر لنا الزمن بشكلين النهار والليل، كذلك المجتمع له هيئتان الرجال والنساء؛ في مجتمع طبيعي تظلُّ النساء مستترات مثل الليل، يتمّمن مهمّتهنّ دون أن نراهنّ، خلف المسرح؛ أمّا عندما يفقد المجتمع شكله الطبيعي

---

(١) البرده Purdah: قانون يُلزِم النساء الهندوسيات من الطبقة العليا أن يعشن حياة مغلقة، محجوبة ومنعزلة.

ويتعدّى الليل على وظائف النهار ويتمّ العمل والمتعة تحت الأضواء الاصطناعية فما هي النتيجة؟ يتوقّف عمل الليل السرّي، ويزداد التعب شيئاً فشيئاً وتصبح الإستراحة مستحيلة ولا يستطيع الرجل متابعة حياته إلاّ باللجوء إلى الخمر. إذا كنا نريد اصطحاب نسائنا إلى مجال النشاطات الخارجية فالعمل النقي الذي هو خصوصيتهنّ سيضطرب، أمّا سعادة الجماعة وسلامها فسيدمّران وسيأخذ الهيجان مكانهما. بنظرة سطحية يمكن أن يحصل لدينا التباس بين هذا الهيجان وبين القوة، لكنها قوة تؤدي إلى الدمار؛ من بين عنصري المجتمع الرجل هو الأكثر ظهوراً لكن ذلك لا يمنحه أي امتياز، إذا جلبت قوة المرأة المستترة وكشفتها للعلن، فسيُجبَر المجتمع على العيش برأس ماله ويوشك أن ينزلق إلى الإفلاس، أمّا أنا فعلى العكس من ذلك أطلب لو أننا نحن الرجال نحضّر المأدبة والنساء يهتممن بتهيئة المؤن، عندها فقط سينجح العيد حتى لو بقيت النساء محجوبات؛ إنّه من الجنون أن نريد توجيه كل الطاقات في الاتجاه نفسه، واستخدامها في المكان نفسه وبالأسلوب نفسه".

- لا أريد يا «غورا» أن أناقش نظريتكَ، لكنك لم ترفض براهيني. المسألة الحقيقية ...

فقاطعه «غورا» قائلاً:

- "اسمع يا «بينوى»، إذا استمررنا في مناقشة هذا الموضوع سننتهي إلى خصام جدّي؛ أعترف أنّ النساء لم يشغلن أبداً حيزاً في تفكيري كما يشغلنه اليوم في تفكيركَ؛ إذاً من المستحيل أن تجعلني أشعر بما تشعرُ به أنتَ، لنقبل – في الوقت الحالي – فكرة أنّنا على خلاف".

وهكذا استبعَدَ «غورا» هذا الموضوع من المناقشة.

إن رمينا حبّة قد تقع على الأرض وهنا لا تنتظر سوى فرصة للنمو، فــقد ظلّت النساء بالنسبة إلى «غورا» خارج مجال تطلعاته حتى الآن ولم يتخيّل أبداً أنّه قد ينتج عن ذلك إجحاف أو ثغرة ما؛ في هذا اليوم بالذات،

حماس «بينوى» وضع أمام وعيه واقعية وجودهنّ وأهميتهنّ؛ لكنه لم يستطع تحديد المكانة التي يستحققنها ولا تمييز مقدار الحاجة إليهنّ، فهو قد كره المناقشة مع «بينوى» في هذا الصدد. لقد كان يفضّل الإمتناع عن الخوض في هذه المسألة إمّا لعجزه عن السيطرة عليها أو لأنّه كان يرفضها بصفتها غير مهمّة بحدّ ذاتها.

في المساء، عندما همَّ «بينوى» بالانصراف، نادته «آناندامو ا» لتسأله:

- "هل تقرَّرَ زواجكَ من «سازي»؟"

أجاب «بينوى» بضحكة محرجة نوعاً ما:

- "أجل يا أمّي، لقد لعبَ «غورا» دور الوسيط في عقد الزيجة".

فقالت «آناندامو ا»:

- «سازي» فتاة لطيفة جداً، لكن لا تتصرّف كالطفل يا صغيري، إنّي أعرفك جيّداً، لقد تعجلْتَ بأخذ القرار لأنّ ذهنك كان متردّداً، لديك الوقت الكافي لتفكّر، أنت في سنّ الرشد ويمكنك أن تحاكم الأمور بنفسكَ، لا تتخذ قراراً في مسألة بهذه الجدّية والأهمية دون أن تستفتي مشاعرك العميقة".

بعد حديثها هذا ربتت على كتفه بلطف، أمّا هو فقد ذهب بهدوء وبطء دون أن يجيب.

الفصل الثامن عشر

أثناء طريق العودة إلى منزله أخذ «بينوى» يفكّر في ما قالته «آناندامو ا»، فهو لم يكن أبداً يستخفّ بالآراء التي كانت تسديها له، وطوال الليل كان يشعر بهمٍّ يُثقِلُ على صدره. في صبيحة اليوم التالي استيقظ يملؤه الشعور بأنّه إن دفع ثمناً مناسباً لصداقته مع «غورا» فسيتحرَّر من أيّة فريضة أخرى: لقد خُيِّلَ له أنَّ الرباط الدائم بزواجه من «سازي» سيتيح له التحرّر من فروض أخرى تجاه المذهب التقليدي، هذا الرابط الزوجي قد يحميه على الدوام من شكوك وهميّة لدى «غورا» الذي يخشى من ميله للزواج من ابنة عائلة براهمو، فينفصل جرّاء ذلك عن المذهب التقليدي.

لاحقاً، أخذ «بينوى» يضاعف من زياراته إلى عائلة «باريش بابو» دون تردّد؛ فهو لم يجد في حياته صعوبات للتأقلم في بيت الناس الذين يحبّهم ويشعر أنّه في منزله، وهكذا تحرَّر من التردّد والحيرة التي كان يشعر بها بسبب «غورا»، وصار يُعاملُ كعضو في هذه العائلة الجديدة.

في البدء أبدت «لوليتّا» موقفاً عدائياً تجاه «بينوى»، لكن هذا الموقف تغيّرَ عندما زال الشكّ بميل «سوشاريتّا» له؛ وعندما تبيّن لها بوضوح أنَّ «سوشاريتّا» لا تبدي أيّ تسامح خاصّ تجاه «بينوى»، خمدت ثورتها، وبسهولة اعتبرت «بينوى بابو» رجلاً جذاباً ومتميّزاً بشكل استثنائي. أمّا «هاران» فلم يكن يبدي تجاهه أيّة ريبة أو حذر، بل على العكس من ذلك كان يؤكِّدُ أنَّ «بينوى» شخص مهذّب فعلاً ولبق وكأنّه كان يريد أن يقول ما معناه

إنَّ «غورا» لم يكن يملك تلك الصفات؛ وبما أن «بينوى» لم يكن يدخل أبداً في جدل مع «هاران»، وهي خطّة شجّعته عليها «سوشاريتّا»، لذلك لم يكن يحدث أيّ نوع من أنواع النزاع في جلسة تقديم الشاي.

غير أنَّه في غياب «هاران» كانت «سوشاريتّا» تشجّعُ «بينوى» على عرض أفكاره في الموضوع الاجتماعي؛ لقد كان عندها فضول جامح لمعرفة كيف أنَّ رجلين مثقفين مثل «غورا» و«بينوى» يمكنهما تبرير الأوهام القديمة التقليدية لوطنهما، فهي لو لم تعرف الشابّين شخصياً لكانت رفضت مثل هذه المحاولة واعتبرتها غير جديرة بالتفكير، لكنها ومنذ أول لقاء لها مع «غورا» كانت عاجزة عن إبعاده عن ذهنها أو عن كرهه؛ وعندما كانت الفرصة تتوفّر كانت تدير المحادثة حول نظريات «غورا» وحول نظام حياته، محاولة أن تتغلغل أكثر فأكثر في الموضوع عن طريق أسئلتها واعتراضاتها. كان «باريش بابو» يعتبر أنَّ التربية الليبيرالية ستسمح لـ«سوشاريتّا» بمعرفة آراء كل المذاهب، صحيح أنَّه لم يكن ليمانع في مثل هذا النوع من المناقشات لكنه كان يخشى إمكانية ضياع «سوشاريتّا» بينها.

سألت «سوشاريتّا» ذات يوم:

- "قل لي «بينوى بابو»، هل يؤمن «غورمُهان بابو» جدّياً بنظام الطبقات الدينية؟ ألا تعبّر مجاهرته بالعقيدة الدينية تعبيراً مبالغاً فيه عن عبادته لبلده؟"

ردَّ «بينوى»:

- "أنتِ تعرفين اختلاف المستوى بين درجات السلّم أليس كذلك؟ وليس لديكِ أي اعتراض بأن تكون إحداها أعلى من الأخرى؟

- كلاَّ، بالتأكيد، لأنَّه ينبغي أن أصعد، لكني لن أقبل هذه الضرورة على أديم الأرض".

فقال «بينوى»:

- "هذا هو بالضبط، سبب وجود السلّم، أي تراتبية الطبقات، فهي تسمح للناس بالارتفاع، والصعود عبر كينونات متتالية بدءاً من أخفض الرتب إلى مقصد الحياة الإنسانية نفسه. لو كان المجتمع أو العالم المادي هو الذي يشكّل هدفنا لما كانت هناك ضرورة لإقامة الفروقات، في هذه الحالة من الممكن أن يكون التنظيم الأوروبي مناسباً لنا، أي هذا التهافت وهذا الصراع لاحتلال أكبر مساحة ممكنة".

فقالت «سوشاريتّا»:

- "أخشى ألاّ أكون قد فهمتك تماماً، سأحدّد سؤالي. هل تؤكّد أنّ الهدف الذي وضع من أجله نظام الطبقات قد تحقّق برأيك؟

أجاب «بينوى»:

- "ليس سهلاً أن نحسم في إمكانية النجاح في العالم المادي بشكل أكيد، لقد قدّمت الهند حلاً للمسألة الاجتماعية كلّه عظمة ألا وهو نظام الطبقات، ينبغي أن تتمّ تجربة هذا الحلّ في العالم أجمع قبل أن نقرّر صلاحيته؛ لم تعرف أوروبا أن تخلق صيغة أفضل، فالحياة الاجتماعية فيها ليست إلاّ صراعاً، سيظلُّ هدف تحقيق مجتمع إنساني حقيقي معلّقاً طالما أنّ الحلّ المقترح من قبَل الهند لم يحقّق نجاحه النهائي".

قالت «سوشاريتّا» بشكل خجول:

- "أرجوك لا تغضب مني، لكن قل لي إن كنتَ تردّد آراء «غورمُهان بابو» أو أنّك مقتنع شخصياً بما تشرحه لي".

أجاب «بينوى» وهو يبتسم:

- "سأقول لك الحق، قناعتي ليست بصلابة قناعة «غورا» ، فأنا عندما أرى مثالب تنظيمنا، وانتهاكات نظام الطبقات، لا يمكنني إلاّ أن أعبّرَ عن شكوكي، لكن «غورا» يؤكّد لي أنّ الشكّ هو فقط نتيجة الاستعداد للنظر إلى

ما هو كبير بعين كليلة، النظر إلى الأغصان الصغيرة المتكسّرة أو الأوراق اليابسة وكأنّها العنصر الأساسي في الشجرة، هذا يدلّ على خفّة فكرية؛ يؤكّد «غورا» أنّه لا يطالب بأن نُعجَبَ بالأغصان الميتة بل يريد أن نشمل برؤيتنا الشجرة بمجملها وعندها نحاول أن نفهم معناها".

- بكل تأكيد، ينبغي إهمال الأغصان الميتة، لكن لنا الحق على أيّة حال أن نقيّم الثمار، أيّة ثمار أعطاها نظام الطبقات هذا لبلدنا؟"

- ما تسمّينه ثمر الطبقة ليس نتيجة لتأثير الطبقة وحدها بل بتأثير مجموعة ظروف بلدنا؛ إذا أردتِ أن تعضّي بسن تتخلخل، فستسبب لك الألم، عندها لن تتّهمي الأسنان كلّها بشكل عام، بل تتّهمين هذه السن التي تتخلخل؛ لقد اجتاحنا المرض والضعف لأسباب مختلفة، وهكذا شوّهنا التراثَ الهنديَّ الذي كان ينبّهنا ولكننا لم نتدبّر الأمر بشكل جيّد، لهذا السبب ينصحنا «غورا» باستمرار، "حاولوا أن تكونوا سليمين، حاولوا أن تكونوا أقوياء".

تابعت «سوشاريتّا» تقول:

- "لا بأس، لكن هل تنظر إلى البراهماني على أنّه كائن إلهي؟ هل تعتقد بصدق أنَّ الغبار المأخوذ من فوق أقدام البراهماني يمكن أن يطهِّرَ إنساناً آخر؟"

- كل احترام يُقدَّم من قِبلنا إلى إنسان أليس ذلك إبداعاً؟ عندما نحترمه، نرغمه بطريقة ما على أن يكون جديراً بهذا الشرف، لو استطعنا أن نخلق براهمانيين حقيقيين أما كان ذلك إنجازاً كبيراً للهند؟ نحن بحاجة إلى رجال سماويين، رجال مثاليين، لو كنا فقط قادرين على أن نرغب في وجودهم من كلّ قلبنا وكلّ عقلنا، لحصلنا عليهم؛ أمّا إذا اكتفينا بأن نتمنى وجودهم فقط، عندها ينبغي علينا أن نرضى بأن نملأ الأرض بأبالسة يُتقِنون كلّ أنواع الجرائم وندعهم يكسبون قوتهم بنثر غبار أقدامهم على رؤوسنا".

- وهؤلاء البشر المثاليون الذين تتحدّث عنهم هل هم موجودون في مكانٍ ما؟"

- إنّهم موجودون هنا، يظهرون عندما تحتاج الهند إليهم، وبقدر ما تبذل من جهد نحوهم، إنّهم مثل النبتة المخبّأة داخل الحبّة؛ البلدان الأخرى تفضّلُ جنرالات مثل «ويلينغتون»، وعلماء مثل «نيوتن»، وأصحاب ملايين مثل «روتشيلد»، أمّا بلدنا فيطمح إلى البراهمان، إلى الذي لا يعرف الخوف، ويكره الجشع، ويتغلّب على القلق، والذي لا يلهيه الفقرُ عن معتقده، والذي تكون روحه باتصال دائم مع «الكائن الأعلى»، تفضّل الهند أن يكون البراهمان ذا ذكاء راسخ، نقي، وحرّ وعندما تمتلكه، حينها فقط ستصبح متحرِّرة؛ نحن لا نطأطئ رؤوسنا أمام الملوك ولا نقدّم رقابنا لنير القامع المستبد، كلاّ، إنّه خوفنا الذاتي الذي يجبرنا على الركوع، فنحن قد وقعنا في فخ أطماعنا الشخصية، نحن عبيد لجنوننا الذاتي؛ عسى أن يتمكّن البراهمان الحقيقي بطبعه المؤدَّب من أن يخلّصنا من هذا الخوف وهذا الطمع وهذا الجنون، نحن لا ننتظر منه أن يناضل عوضاً عنا، ولا أن يتاجر ويكسب من أجلنا، ولا أن يوفِّرَ لنا الخيرات الدنيوية".

اكتفى «باريش بابو» حتى الآن بالإصغاء فقط، وفي هذا الوقت تدَخَّلَ:

- "لا يمكنني الزعم بأنّي أعرف الهند كما أنّي لا أعرف بالتأكيد ما تطمح إليه ولا أعرفُ إن كانت قد نجحتْ في تاريخها بالحصول عليه، لكن هل ينبغي العودة إلى الأزمنة المنصرمة دائماً؟ ينبغي أن نركِّز جهدنا لإنجاز ما هو ممكن اليوم؛ ما هو الخير الذي نحققه عندما نمدُّ ذراعنا سدى لتذكّر الماضي؟"

أجاب «بينوى»:

- "لقد تحدثتُ وفكّرتُ مثلك، لكن «غورا» يسأل إن كنا قادرين على قتل الماضي ببساطة واعتباره ميتاً وزائلاً، الماضي يظلّ حيّاً فينا، لأنَّ ما كان حقيقياً ذات يوم لا يمكن أن يزول".

اعترضت «سوشاريتّا» قائلة:

- "وجهة نظر صديقك ليست هي نفسها وجهة نظر الإنسان العادي، كيف نتأكّد إذاً بأنّك تعبّر عن ميل البلد كله؟"

فاحتجَّ «بينوى» وقال:

- لا تظنّي أنَّ صديقي «غورا» هو من أولئك الناس الخشنين الذين يتبجَّحون بتقليديتهم الصارمة؛ أهمّ ما يتوق إليه هو المعنى العميق للهندوسية، وهو الآن يسهم في تقديم الكثير من التفاسير المهمّة عنها وأكثر من أيّ وقت مضى، ولم يكن واقعها الحقيقي بالنسبة إليه تلك المادة الهشّة التي قد تفسدها أدنى ملامسة غير طاهرة أو قد تضمحل بحركة فظّة".

فقالت «سوشاريتّا» وهي تبتسم:

- "مع ذلك فهو يتّخذ – على ما يبدو لي – اِحتياطات لا بأس بها لتجنّب أدنى ملامسة دنسة".

فردَّ «بينوى»:

- "تيقّظه اِستثنائي، فإن سُئل عن هذا الموضوع يردّ بقوله: "أجل، إنّي أؤمن بكل التفاصيل المتعلّقة بالنواهي الشعائرية، وأعتقد أنَّ الطبقة قد تُنتهَك بملامسة بسيطة وأنَّ الطهارة قد تتلوّث باِستخدام الأغذية المحرَّمة، كل ذلك صحيح قطعاً، لكنني أعرف تماماً أنَّ تلك هي النظرية البسيطة". كلّما بدا الرأي عبثياً بالنسبة إلى سامعيه، أعاد التعبير عنه بشروح إيجابية، إنَّ «غورا» يصرُّ على التقيّد الدقيق والصارم بالنواهي الأخلاقيّة خوفاً من أن يؤدّي تهاون الأشخاص عديمي المحاكمة بنقاط التفاصيل إلى فقدهم الاِحترام للمبادىء الحيوية أو إلى إتاحة الفرصة لأعدائهم لإعلان اِنتصارهم؛ إنّه لا يجازف ولا يُبدي – حتى أمامي – تهاوناً في هذا الصدد".

فقال «باريش بابو»:

-"يوجد عدد لا بأس به من الأشخاص في طائفة البراهمو يتمتّعون أيضاً بهذا الطبع ويريدون قطع أيّة صلة لهم - مهما كانت - مع الهندوسية خوفاً من أن يعتقد الجاهلون - بأصول علم الدين - خطأً بأنّهم يتسامحون في عادات مستنكَرَة؛ أشخاص من هذا النوع يجدون صعوبة في العيش حياة طبيعية، فهم مُجبَرون على التصنّع أو على المبالغة في مواقفهم، ولا يعزون للحقيقة إلاّ مقداراً ضئيلاً جداً من القوّة التي يتخيّلون أنّ عليهم حمايتها بالجبروت أو بالخديعة. يمكننا أن نعتبرَ أنّ المتعصبين في الرأي أو في التقوى من كل الفئات يقولون في نفوسهم: "الحقيقة مرهونة بي وأنا لست مرهوناً بالحقيقة"؛ أمّا بالنسبة إليّ، فأطلب من الله أن يسمح لي بالبقاء عابداً بسيطاً ومتواضعاً للحقيقة، سواء عبدتُها في معبد للبراهمو أم في معبد هندوسي، وألاّ يمنعني عن عبادتها أي عائق خارجي".

بعد أن أنهى كلامه، لزم «باريش بابو» الصمت العميق واستغرق في تفكيره. بدت تلك الكلمات وكأنّها رفعت من مستوى أسلوب المناقشة كلّه، ليس بمعنى الكلمات بحدّ ذاتها بل بالحماسة المنبثقة عن تجربة حياة بأكملها.

لمع على وجه «لوليتّا» و«سوشاريتّا» بريق من التُقى ولم يشعر «بينوى» بعدها بميل للمجادلة. لقد أدرك أنّ «غورا» طاغية ومستبد جداً؛ النقاء الهادئ والواثق الذي ينبعث عن فكر وكلام وسلوك الذين يحملون في داخلهم الحقيقة، لم يكن حكراً على «غورا» . بينما كان بينوى» يصغي إلى «باريش بابو» صدمته هذه الحقيقة بشكل موجع.

في مساء ذلك اليوم، وعندما نامت «سوشاريتّا»، أتت «لوليتّا» وجلست على طرف سريرها، فهمت «سوشاريتّا» بوضوح أنّ «لوليتّا» تعيد وتكرّر في رأسها فكرة ما وأنّ هذه الفكرة تتعلق بـ«بينوى». فوفّرت لها مدخلاً للموضوع بقولها:

- "إني حقاً أحبّ «بينوى بابو» كثيراً".

فأدلت «لوليتّا» بملاحظتها:

- "ذلك لأنّه يتحدث عن «غورمُهان بابو».

بالرغم من أنّ «سوشاريتّا» فهمت التلميح فقد تجاهلته وقالت ببراءة:

- "نعم بالطبع، يمتعني كثيراً أن أسمع آراء «غورمُهان بابو» عندما يشرحها «بينوى»، يخيّل إليّ أنّ الرجل على مرأى مني".

فقالت «لوليتّا» بلهجة جافّة:

- "أنا لا يمتعني ذلك إطلاقاً، بل يزعجني".

فسألت «سوشاريتّا» مذهولة:

- "لماذا؟"

- لا يوجد عنده على الدوام سوى «غورا» «غورا» «غورا» بلا انقطاع، ربّما يكون صديقه «غورا» رجلاً متميّزاً، لكن أليس هو رجلاً أيضاً؟"

فسألت «سوشاريتّا» وهي تضحك:

- "بالتأكيد، لكن ما المانع من أن يكونا واحداً في صداقتهما القوية ومحبتهما لبعضهما؟"

- "صديقه يسيطر عليه لدرجة لم تترك له فرصة ليُظهرَ شخصيته هو، إنّه يشبه صرصاراً قد بلع ذبابة؛ ليس عندي رأفة تجاه الذبابة التي سقطت في الشرك، كما أنّ احترامي للصرصار لم يزدد".

الحماسة التي كانت تتكلم بها «لوليتّا» أمتعت «سوشاريتّا» وجعلتها تضحك دون أن تجيب، أمّا «لوليتّا» فاستمرّت في الكلام:

- "يمكنكِ أن تضحكي إنْ كان ذلك يمتعكِ يا «ديدي» لكن اعلمي تماماً، إنْ أراد أحدهم أنْ يبقيني في الظلّ، لن أقبل ذلك أبداً ولا للحظة واحدة؛ أنتِ مثلاً، مهما فكّر الناس لا تحاولين أبداً أن تغيّبيني، وإلاّ لكان ذلك عكس

طبيعتكِ ولهذا السبب أحبّكِ كثيراً، لقد تعلمتِ هذا الدرس من أبي، فبالنسبة إليه لكل واحد موقعه".

كانت هاتان الفتاتان الأكثر تعلقاً بــ«باريش بابو» من جميع أفراد العائلة، وكانت أدنى إلماحة إليه تثير مشاعرهما، فاحتجّت «سوشاريتّا» قائلة:

- "تخيّلوا! مقارنة أي شخص بــ«أبي»! لكن بالرغم مما تقولين يا حبيبتي، «بينوى بابو» يتحدّث بشكل رائع".

- "لكن يا صديقتي العزيزة، ألا ترين أنَّ أفكاره لها هذه القوة المقنعة تحديداً لأنَّها ليست أفكاره؟ لو عبّر عن أفكاره الشخصية لكانت أقواله بسيطة وعقلانية ولم تكن لتبدو جاهزة سلفاً ولكنت فضّلتها أكثر بكثير".

- "لماذا تغضبين من ذلك يا حبيبتي؟ آراء «غورمُهان بابو» أصبحت آراءه هو".

- "إن كان الأمر على هذا الشكل فإنّي أجد ذلك فظيعاً. هل وهبنا الله الذكاء كي نعرض أفكار الآخرين؟ ووهبنا فماً لنكرّر أقوال الآخرين؟ حتى لو فعلنا ذلك بشكل رائع؟ لتذهب تلك الموهبة الرائعة إلى الجحيم!"

- ألا ترين بأنَّ الصداقة الكبيرة التي يكِنها «بينوى بابو» لــ«غورمُهان بابو» تجعلهما يفكِّران بالأسلوب نفسه؟"

انفجرت «لوليتّا» قائلة:

- "كلاّ، كلاّ، كلاّ، إنكِ تخطئين، بكل بساطة، لقد اِعتاد «بينوى» على قبول كل شيء من «غورا»، وهذه الحالة لا تسمّى صداقة، إنَّها عبودية، إنَّه يريد أنْ يتوهّم ويعتقد أنَّ آراءه هي آراء صديقه نفسها، لكن ما الفائدة في ذلك؟ عندما نحبّ، نستطيع أن نتبع دون أن نتّفق، وأنْ نستسلم وأعيننا مفتوحة، لماذا لا يعترف بصراحة أنَّه يؤيد نظريات «غورمُهان بابو» لأنَّه صديقه؟ أليس واضحاً أنَّ الموضوع هو على هذا الشكل؟ قولي لي بصدق يا «ديدي» ألا تعتقدين بأنّي على حق؟"

لم تكن «سوشاريتّا» قد نظرت إلى المسألة بهذه الرؤية، كل فضولها كان متّجهاً نحو «غورا» ولم تشعر بالحاجة إلى دراسة «بينوى» كموضوع منفصل، كما أنَّها لم تجب «لوليتّا» مباشرة:

- "طيب! لنفرض أنّك على حق ماذا نفعل؟"

- "أودُّ فكّ هذه الروابط وتحريره من صديقه".

- "لماذا لا تحاولين يا حبيبتي؟"

- "إن أنا حاولتُ فهذا لن يغيّر كثيراً في الموضوع، لكن إن شاركتِ أنتِ بفكركِ سنحصل على نتيجة بالتأكيد".

في قرارة نفسها لم تكن «سوشاريتّا» تجهل أنَّها تؤثّر على «بينوى»، ومع ذلك تجنّبت الملاحظة وهي تضحك، وتابعت «لوليتّا» تقول:

- "مع ذلك أحبّ فيه الطريقة التي يحاول بها التخلّص من سلطة «غورمُهان بابو» وخصوصاً أنّه قد أصبح الآن يقدّركِ؛ إنّ أي شخص غيره كان سيبدأ بكتابة مقال موجّه ضد فتيات البراهمو، أمّا هو فقد احتفظ بانفتاح عقله وهذا يفسّر تقديره لك واحترامه لأبينا؛ ينبغي أن نحاول مساعدته على الوقوف وحده، أن يعيش فقط كي يبشّر بمبادئ «غورمُهان بابو»، إنّي لأجد ذلك غير مقبول".

في هذه الأثناء اندفع «ساتيش» إلى الغرفة منادياً «ديدي»!. لقد اصطحبه «بينوى» إلى السيرك مع أنَّ الوقت كان متأخّراً، كان «ساتيش» بحاجة ليعبّر عن بهجته بالعرض الذي حضره لأول مرّة، وبعد أن وصف انطباعاته قال:

- "أردتُ أن يمضي الليلة عندنا برفقتي لكنه رافقني إلى هنا ثم ذهب واعداً بأن يعود غداً، لقد طلبتُ منه يا «ديدي» أن يصطحبكنَّ كلكنَّ إلى السيرك".

فسألته «لوليتّا»:

- "وبماذا أجاب؟"

- "بأن الفتيات سيخفن عندما يشاهدن النمر ،أمّا أنا فلم أخف أبداً".

وضرب «ساتيش» بيده على صدره بزهوّ ذكوري.

فقالت «لوليتّا»:

- "حقاً، إنّي أعرف تماماً أنَّ صديقكَ «بينوى بابو» ذو شجاعة هائلة. اسمعي يا «ديدي» ينبغي أن نجبره على اصطحابنا إلى السيرك".

فقال «ساتيش»:

- " هناك حفل صباحي غداً"

فقرّرت «لوليتّا»:

- رائع، سنذهب غداً"

وعندما أتى «بينوى» في اليوم التالي هتفت «لوليتّا» فرحاً وقالت:

- "لقد وصلتَ في الوقت المناسب يا «بينوى بابو»، لنذهب".

فسأل «بينوى» متفاجئاً:

- "إلى أين إذاً؟"

فأقرّت «لوليتّا»:

- "إلى السيرك طبعاً!"

ذُهل «بينوى»:

- "إلى السيرك! وأجلس برفقة مجموعة فتيات تحت الخيمة وأمام جميع الناس، وفي ضوء النهار!

فتابعت «لوليتّا» تقول:

- "سوف تُغضِب «غورمُهان بابو» أليس كذلك؟"

أرهف «بينوى» سمعه عند هذه الجملة، وعندما تابعت «لوليتّا» الكلام قالت:

- "لـ«غورمُهان بابو» أفكاره حول هذا الموضوع أليس كذلك؟ اصطحاب فتيات إلى السيرك!"

فأجاب بحزم:

- "بالتأكيد، عنده آراؤه".

فرجته «لوليتّا»:

- "هل تريد أن تعرضها علينا لو سمحت، سأذهب لأنادي أختي كي تسمعها هي أيضاً".

شعر «بينوى» بالسهم الذي رُشِق به، ومع ذلك أخذ يضحك ما جعل «لوليتّا» تتابع:

- "لماذا تضحك يا «بينوى بابو»؟ لقد قلتَ البارحة لـ«ساتيش» إنَّ البنات يخفن من النمور، وأنتَ نفسكَ ألا تخاف من أحد؟"

بعد هذا التحدّي وجد «بينوى» نفسه مجبراً على اصطحاب الفتيات إلى السيرك، بالإضافة إلى ذلك كانت مسافة الطريق بالنسبة إليه فرصة له للتأمل بعصبية في الشخصية التي تصنّعها بعلاقاته مع صديقه، ليس فقط أمام «لوليتّا» بل أمام أخواتها الأخريات.

وعند لقاء «بينوى» لأول مرّة بعد نزهة السيرك سألته «لوليتّا» ببراءة:

- "هل أخبرتَ «غورمُهان بابو» عن خروجنا في ذاك اليوم إلى السيرك؟"

تغلغلت وخزة السؤال بعمق هذه المرّة، اِرتعش «بينوى» واحمرَّ وهو يجيب:

- "لا، لم أخبره بعد".

الفصل التاسع عشر

في صبيحة ذات يوم، بينما كان «غورا» يعمل، وصل «بينوى» في زيارة غير منتظَرَة وقال فجأة:

- "لقد رافقتُ بنات «باريش بابو» إلى السيرك منذ بضعة أيام".

أجاب «غورا» دون أن يتوقّف عن الكتابة:

- "أجل، لقد سمعتُ عن ذلك".

فسأل «بينوى» وقد تفاجأ:

- "من رواها لك؟"

فردَّ «غورا» وهو مستمرّ في الكتابة ودون أن يبدي أيّة ملاحظة:

- "سمعتها من «آبيناش» الذي كان موجوداً في السيرك في ذلك اليوم".

وبما أنَّ «غورا» سبق أن علِم بالموضوع من «آبيناش» الذي لم يقصّر في تجميل الوقائع بتفاصيل فجّة بالتأكيد ما أدّى إلى إحياء الأحكام المسبقة القديمة، الأمر الذي جعل «بينوى» يشعر بالخجل، وفي الوقت نفسه راود ذاكرته الأرق الذي ألمَّ به ليلة الأمس ولم يستطع النوم لأن شجاره مع «لوليتّا» ما زال يشغل فكره: "تعتقد «لوليتّا» أنّني أخاف من «غورا» مثلما يخاف تلميذ مدرسة من معلمه؛ كم هم الناس ظالمون في إدانتهم، أنا بالتأكيد أحترم «غورا» لصفاته الاستثنائية، لكن ليس بالأسلوب الذي تتصوّره «لوليتّا» فهي تتجنّى علينا نحن الاثنان، إذ تعتبرني طفلاً فعلاً وأمّا «غورا» فهو الوصي عليّ". كانت تلكَ هي الأفكار التي أزعجت «بينوى» الليلة الفائتة.

ظلَّ «غورا» مستمراً في الكتابة وأخذ «بينوى» يتذكّر مسألتين أو بعض الأسئلة الماكرة التي كانت «لوليتّا» قد فاجأته بها ووجد صعوبة كبيرة في طردها من فكره؛ وفجأة ثار في نفسه شعور بالتمرّد: "وماذا لو ذهبتُ إلى السيرك؟" – اشتعل السؤال في رأسه وهل مناقشة سلوكيتي مع «غورا» تخصّ «آبيناش»؟ ولماذا سمح الشيطان «غورا» لهذا الغبي بالتدخّل في هذه القصة؟ هل «غورا» هو مولاي وصاحب الأمر والنهي وهل عليَّ أن أقدّم له تفسيرات عن الأماكن التي أذهب إليها وعن الأشخاص الذين أرافقهم؟ لو كان الأمر بهذه الصورة لكان ذلك إهانة لصداقتنا".

لم يكن «بينوى» لينقم بهذا الشكل على «غورا» و«آبيناش» لو لم يتبيّن له فجأة مقدار جبنه الشخصي؛ لقد كان مجبراً على إخفاء شيء ما عن «غورا» لبضع ساعات فقط، ولمّا غضب صار يجهد الآن ليحمّل الخطأ لـ«غورا» نفسه؛ لو أنَّ «غورا» وجّه له ملامة فقط لالتقيا في نقطة حول الموضوع نفسه ولهدأ بال «بينوى»، لكن الصمت الجائر الذي لزمه «غورا» جعله يبدو في هيئة قاضٍ يدير جلسة محكمة، الأمر الذي فاقم عند «بينوى» تأثير أقوال «لوليتّا» اللاذعة التي دخلت حيّز الذكرى.

في هذه الأثناء دخل «مُهيم» الغرفة وبيده النرجيلة، وبعد أن مدَّ العلبة ليقدّم لهما الـ«بان» قال معلناً:

- "«بينوى»، يا بنيّ، كلّ الأمور أنجزت في ما يخصنا، وسنكون كلّنا راضين إن وافق عمّك، هل كتبتَ له رسالة؟"

هذا الإصرار على موضوع الزواج، بدا لـ«بينوى» مزعجاً جداً في هذا اليوم بالذات. كان يعرف طبعاً أنَّ الخطأ ليس خطأ «مُهيم» الذي أفهمه «غورا» أنَّ «بينوى» قد وافق؛ لكنه في قرارة نفسه لم يكن فخوراً لأنّه وافق، إجمالاً لقد حاولتْ «آنانداموا» أن تثنيه عن رأيه، ومن جهة أخرى، لم يشعر أبداً بميل كبير نحو خطيبة المستقبل؛ كيف تمَّ اتخاذ قرار حازم وراسخ مع كل

هذا الارتباك والحيرة؟ لا يمكن التأكيد إيجابياً على أنّ «غورا» ضغط عليه؛ لم يكن «غورا» ليلحّ لو أنّه اعترضَ.... لكن... وفي هذه الـ«لكن» شعر «بينوى» من جديد بوخزة ملاحظات «لوليتّا». الموضوع هنا لا يتعلّق بشيء طارئ حدث بغتة في هذه المناسبة، بل بالهيمنة الكاملة التي مارسها «غورا» على «بينوى» خلال كل سنيّ صداقتهما؛ لم يتلاءم «بينوى» مع هذه السطوة إلاّ نتيجة طبعه الهادئ والملاطف ومحبّته المفرطة بحيث طغتِ السيطرة على الصداقة نفسها؛ لم يكن «بينوى» حتّى الآن قد أدرك الموضوعَ بوضوح، أمّا اليوم فلن يستطيع نكرانه؛ وها هو الآن قد تعاقد على الزواج من «سازي».

- "كلاّ، لم أكتب رسالة لعمّي بعد".

فقال «مُهيم»:

- "إنّها غلطتي، لماذا يكون عليكَ أنتَ أن تكتب الرسالة؟ بل عليّ أنا أن أقوم بذلك، تهجَّ لي اسمه بالكامل يا بنيّ".

فسأله «بينوى»:

- "لماذا أنتَ على عجلة من أمرك إلى هذا الحدّ؟ لا يمكننا الاحتفال بالزواج في أيّ من الشهرين القادمين، ثم يأتي شهر «آغراهازان»... لكني نسيت، هذا الشهر ليس مؤاتياً أيضاً، في عائلتنا فأل سيّئ فهو يجلب الكارثة، ففي شهر «آغراهازان» لا نقيم أبداً احتفالات تتطلب طالعاً سعيداً".

وضع «مُهيم» نرجيلته في زاوية تجاه الجدار وقال:

- "هيّا يا «بينوى» إذا أخذت تتعلّل بهذه الأوهام فالتربية الحديثة التي تزهو وتفتخر بها كثيراً ليست إذاً سوى بضعة أقوال حُفظَت عن ظهر قلب؛ في هذا البلد البائس وفي وضعه الراهن، ليس من السهل إيجاد أيام سعيدة في الروزنامة، وفوق هذا كلّه إذا لجأتْ كل عائلة إلى مراجعة ملفّاتها الخاصّة، فكيف يمكننا التقدّم في قضيّة ما وحلّها؟"

- في هذه الحالة، لماذا قبلتَ أن يكون الشهران القادمان مشؤومين؟"

صرخ «مُهيم» نافياً:

- "أنا؟ إطلاقاً لا، لكن ماذا بإمكاني أن أفعل؟ عندنا، لستَ بحاجة لأن تعبد الله، لكن إن أنتَ لا تُراعي القواعد المتعلّقة بالأشهر والأيام وبأوجه القمر، فلن تكون مقبولاً في بيت محترم، وينبغي عليّ أن أعترف أنّه بالرغم من أنّي أزعم عدم تقيّدي بهذه العادات، لكنّي عملياً إذا لم أحسب حساب الروزنامة فلا أشعر بارتياح؛ في الجو الذي نحن فيه ينتشر الخوف كما تنتشر الملاريا، كما أنّي لا أستطيع أن أطرد هذا الشعور من ذهني".

فقال «بينوى»:

- "كذلك الأمر في عائلتي، لا يمكن نبذ الخوف من شهر «آغراهازان»، على أيّة حال عمّتي لن توافق على الإطلاق".

وبذلك تدبَّر أمره بطريقة ما ليؤجّل المسألة مؤقتاً، ولمّا لم يجد «مُهيم» أيّة وسيلة للتصرّف الفوري، فقد انسحب.

تبيّن لـــ«غورا» من لهجة «بينوى» أنَّ صديقه قد بدأ يتردّد إذ مرّت عدّة أيام ولم يأتِ لزيارته، وربّما كان يقوم بزيارة عائلة «باريش بابو» أكثر من ذي قبل، وها هو الآن يحاول أن يرفض الزواج من «سازي» ما خلق عند «غورا» مخاوفَ كبيرة!

أهمل «غورا» عمله والتفت ليقول:

- " يا «بينوى»، طالما قد وعدتَ أخي بالزواج من ابنته لماذا توقعه في ريبة وشكوك غير مفيدة؟"

نفد صَبر «بينوى» فقال فجأة وبشكل حادّ:

- "هل أنا وعدتُ أم انتُزِعَ الوعدُ مني انتزاعاً؟"

هذه الثورة السريعة فاجأت «غورا»، فاكفهرَّ مزاجه وسأل بصوت قاطع:

- "من الذي انتزعه منكَ إذاً؟"

- "أنتَ"

- "أنا؟ هيّا، لقد همستُ لك بكلمة فقط، هل معنى ذلك أنّي انتزعتُ منكَ وعداً؟"

في الواقع، لم يكن «بينوى» يمتلك الوسيلة لإثبات اتهامه، ما قاله «غورا» كان صحيحاً، فهُما لم يتبادلا سوى كلمات قليلة حول الموضوع ولم تكن كلمات «غورا» ضاغطة إلى هذا الحدّ حتّى نتحدث عن إلحاح، بمعنى آخر لم يكن خطأً أنَّ «غورا» قد أخذ موافقة «بينوى». كلّما زادت صعوبة ضبط البرهان أصبح اللّوم في غير محلّه. صرّح «بينوى» بلهجة مهتاجة وغير معقولة:

- "ليس هناك من حاجة إلى الكثير من الكلمات لانتزاع وعد".

فصرخ «غورا» وهو ينهض بعنف:

- "اسحب هذه الجملة، ليس لوعدك قيمة بحيث إنّي أريد انتزاعه أو سرقته منك".

نادى «مُهيم» الذي دخل على عجل، قائلاً:

- «دادا»، ألم أحذّركَ منذ البداية من أنَّ زواج «بينوى» من «سازي» لن يتمّ؟ وأنّي لا أوافق عليه؟"

- أجل، ولا أحد غيرك كان يستطيع أن يقولها، أي عمّ آخر كان سيبدي اهتماماً أكبر لتزويج ابنة أخيه".

- " لماذا استخدمتَ وساطتي للحصول على إقرار «بينوى»؟

قال «مُهيم» وقد بدا عليه الحزن:

- "لسبب بسيط أنّي رأيتُ أنَّها أفضل وسيلة لنجعله يوافق".

احمرَّ وجه «غورا» وصرخ يقول:

- "أرجوك، دعني خارج هذه القضيّة، أنا لست وسيطاً محترفاً في عقد الزيجات، لديّ أعمال أخرى". ثم خرج.

قبل أن يتمكن «مُهيم» منكود الحظ من متابعة حديثه، كان «بينوى» قد بلغ الشارع أيضاً، وبقي لـ«مُهيم» شيء وحيد هو نرجيلته التي اِستعادها من الزاوية حيث ركنها فيها.

لقد تشاجر «بينوى» مع «غورا» مرّات عديدة في السابق، لكن اِنفجاراً عنيفاً بهذا الشكل لم يسبق أن حدث، فقد أصابه الرعب في هذه المرّة، وأثناء العودة إلى المنزل، شعر بسهام الندم تخترق وجدانه. وعندما بدأ يفكر بالطعنة الموجّهة لـ«غورا» فَقدَ الشهية للأكل أو للنوم، وندم على الأخصّ لأنَّه ألقى كل اللّوم على «غورا» بأسلوب أرعن وغير معقول؛ "وأخذ يردّدُ لنفسه: "لقد أخطأتُ، أخطأتُ، أخطأتُ".

في وقت لاحق من بعد ظهر اليوم نفسه، بينما كانت «آنانداموا» تخيط، ظهر «بينوى» وجلس بقربها. كانت قد تلقّت من «مُهيم» صدى مبهماً لِما جرى، لقد أنذرها وجه «غورا» المكفهرّ خصوصاً عند تناول وجبة الطعام بأنَّ هناك عاصفة قد هاجت؛ قال لها «بينوى»:

- "لقد أخطأتُ يا أمّي، ما قلته لـ«غورا» هذا الصباح بخصوص زواجي من «سازي» كان سخيفاً".

- "وبعد يا «بينوى»، هذا ما يحصل عندما نحاول أن نكبت قصداً خفياً يقضّ مضجعنا، إنّه لأمر حسن أن يحصل إيضاحٌ كهذا، ستنسيان بسرعة شجاركما أنتما الاثنان".

- "لكن يا أمّي أريدك أن تعلمي أنّي مستعدّ للزواج من «سازي»».

- لا تزد الموقف سوءاً يا ولدي وأنت تحاول إعادة التفاهم بسرعة زائدة عن اللزوم. الزواج يستمرّ مدى العمر بينما الشجار سرعان ما يُحَلّ".

غير أنَّ «بينوى» لم يتقبّل هذا الرأي، فقد شعر أنَّه عاجز عن رفع طلبه إلى «غورا» فذهب يبحث عن «مُهيم» ليصرّح له أنَّه لا توجد عقبة في

وجه الزواج، وأنّه بالإمكان إقامة الحفل لاحقاً بعد أربعة أشهر، وأنّه سيتدبّر الأمر كيّ لا يبدي عمّه أيّ اعتراض، فسأل «مُهيم» بإصرار:

- "هل سنعلن الخطوبة فوراً؟"

- "لا بأس، فليكن، رتّب الأمر بعد التفاهم مع «غورا»".

تذمّر «مُهيم» وقال غاضباً:

- "كيف! مشاورة «غورا» مرّة أخرى!"

- "أجل، أجل، هذا أمر لا بدّ منه".

- حسن، إذا كان ضرورياً، فينبغي أن نفعله، لكن..."

ثم ملأ «مُهيم» فمه بالــ«بان» كي لا يضيف أيّة كلمة.

لم يحدّث «مُهيم» «غورا» في ذلك اليوم، لكن في اليوم التالي دخل إلى غرفة أخيه وهو خائف من نزاع قد يحصل بينهما مرّة أخرى للحصول على الموافقة اللازمة. غير أنّه ما إن ذكر زيارة «بينوى» له ليلة الأمس واستعداده للزواج من «سازي» ونصيحته بمراجعة «غورا» في موضوع الخطوبة، حتى وافق «غورا» على المشروع، وصرّح قائلاً:

- "ممتاز، لنحتفل بالخطوبة إذاً".

- "أنتَ مرتاح تماماً الآن، لكن بحقّ السماء إياك والاعتراضات من جديد في الأيام المقبلة".

- "لم تحصل الإعاقة بسبب اعتراض مني بل بناء على طلبي".

- "آه! حسن! إذاً، أرجوكَ بكل تواضع ألاّ تبدي اعتراضاً ولا طلبات، سأسعى ما بوسعي لأكتفي بما سأفعله وحدي، كيف يمكن لي التصوّر أنَّ طلبك قد يسبّب رفضاً؟ كل ما أريد معرفته إن كنتَ حقاً تتمنى لهذا الزواج أن يتمّ".

- "بالطبع أتمنى".

- "في هذه الحالة اكتفِ بالتمني ولا تشغل نفسك به أبداً".

الفصل العشرون

خَلُصَ «غورا» إلى أنَّه سيكون من الصعوبة بمكان بالنسبة إليه الاحتفاظ بتأثيره على «بينوى» إن هو بقي بعيداً عنه؛ فمن المستحسن إذاً أن يكون حاضراً في مكان الخطر، أمّا أفضل وسيلة لإبقاء «بينوى» ضمن الحدود المطلوبة فهي ترتكز في رأيه في حفاظه على علاقات مستمرّة مع «باريش بابو».

في اليوم التالي للشجار ذهب «غورا» لزيارة صديقه، وهذه الزيارة السريعة تجاوزت آمال «بينوى» فكان مذهولاً بقدر ما كان سعيداً من هذه الإطلالة المفاجئة، وكانت دهشته أكبر عندما تناول «غورا» موضوع بنات «باريش بابو» بدون أيّة عدوانية. لم يكن هناك من ضرورة لبذل مجهود كبير لإثارة اِهتمام «بينوى» بهذا الموضوع، وأخذ الصديقان يتناقشان إلى وقت متأخّر من المساء.

لم يتوقف «غورا» عن التفكير في المسألة وهو عائد مشياً على الأقدام بعد هبوط الليل، حتى إنَّه لم يستطع أن يطردها من فكره قبل النوم؛ لم يسبق أن خضعت أفكاره لاضطراب من هذا النوع، فموضوع النساء لم يكن يوماً جزءاً من تفكيره؛ ولكن «بينوى» توصّل إلى إقناعه بالحجّة والبرهان أنَّ النساء يشكّلن جانباً من مسألة العالم، وهذه المسألة يمكن تصورها بأساليب متناقضة كلياً، لكن لا يمكننا تجاهلها؛ وفي اليوم التالي عندما قال له «بينوى»

"رافقني إلى عائلة «باريش بابو»، لقد سألني مراراً عن أخبارك"، وافق «غورا» دون تردّد.

يبدو أنَّ عدم اكتراثه بالنساء قد اهتزّ ففي البدء لم تثر عنده «سوشاريتّا» وبنات «باريش بابو» أدنى فضول، بل حمل تجاههنّ عدائية مستعلية، ولكنه الآن متلهّف لمعرفتهنَّ أكثر.

عندما وصلا كان الليل قد هبط، وفي صالون الطابق الأول كان «هاران» يقرأ إحدى مقالاته باللغة الإنكليزية لـــ«باريش بابو» على ضوء القنديل؛ غير أنَّ القراءة لـــ«باريش بابو» لم تكن تشكّل بالنسبة إلى «هاران» سوى وسيلة، لأن هدفه الحقيقي كان التأثير على «سوشاريتّا» التي كانت جالسة قرب الطاولة تصغي بصمت وتحمي عينيها من وهج القنديل بمروحة من ورق النخيل؛ كانت وداعتها الطبيعية تحملها على السماع بأقصى جهدها، لكن ذهنها كان يشرد من وقت لآخر. عندما أعلن الخادم عن قدوم «غورا» و«بينوى»، ارتعشت وهمّت بمغادرة الغرفة لكن «باريش بابو» أوقفها قائلاً: "إلى أين أنتِ ذاهبة يا «رادها»؟ إنَّهما عزيزانا فقط «بينوى» و«غورمُهان بابو» قد جاءا لزيارتنا".

جلست «سوشاريتّا» من جديد مرتبكة قليلاً لكنها ارتاحت لإيقاف قراءة مقالة «هاران» المملّة؛ إمكانية رؤية «غورا» من جديد كانت تثيرها، لكنها شعرت أنَّها مغتاظة ومتخوّفة من فكرة أنَّه سيقابل «هاران»؛ أكانت تخشى من حصول شجار جديد أم كان لديها دافع آخر؟ مجرّد ذكر اسم «غورا» أزعج «هاران» الذي ردَّ على سلامه ببرود وظلَّ صامتاً مقطِّب الجبين، أمّا بالنسبة إلى «غورا» فقد استيقظت كل غرائزه المحاربة بمجرّد أن لمح «هاران».

كانت السيّدة «بارودا» وبناتها الثلاث قد ذهبن في زيارة، وكان من المقرَّر أن يذهب «باريش بابو» لمرافقتهن في المساء إلى البيت، لكن مجيء «غورا» و«بينوى» أخَّره بينما كان من المفروض أن يكون قد ذهب، ولمّا لم يستطع

التأخّر أكثر من ذلك همس لـ«سوشاريتا» ولـ«هاران» بأنّه سيعود بأسرع وقت ممكن وأنّه يترك على عاتقهما مهمّة مجالسة الضيفين؛ ولكن الخلاف بين الشابّين لم يتأخر، فخلال ثانية واحدة شبّت معركة حامية الوطيس بينهما.

دار موضوع المناقشة حول أحد القضاة ويسمّى «براونلو»، وكان قد تمّ تعيينه في ضواحي «كالكُتّا»، وكان «باريش بابو» قد أقام علاقات جيدة معه عندما كان مقيماً في «داكّا». كان هذا الوالي وزوجته يحترمان «باريش بابو» ويقدّرانه كثيراً لأنّه لم يكن يحجب زوجته وبناته داخل الحرملك. وكان هذا الأوروبي يحتفل كل عام بعيد ميلاده بتنظيم معرض زراعي، وكانت السيّدة «بارودا» قد قامت منذ مدة قريبة بزيارة للسيدة «براونلو»، وكعادتها أخذت تفيض بمعارف بناتها في الأدب والشعر الإنكليزي، وكان من المقرَّر أن يشرّف القائمقام وزوجته المعرض بحضورهما، فاقترحت السيدة الأوروبية المتحمّسة أن تمثّل الفتيات أمامهما مسرحية إنكليزية صغيرة، وبذلك سيكون الأمر ساحراً. نال هذا الاقتراح موافقة «بارودا» وسرورها وكانت في ذلك اليوم – أي يوم زيارة «غورا» و«بينوى» – قد اصطحبت بناتها إلى صديق من أجل تجربة المسرحية قبل تقديمها للجمهور. أثار اقتراح حضور الحفل عند «غورا» رفضاً عبثياً عنيفاً تبعته مجادلة حادّة حول علاقات الإنكليز مع البنغاليين وحول الصعوبات التي برزت في الهند ضدّ إقامة علاقات اجتماعية فيما بينهم.

قال «هاران»:

- "إنّه خطأ شعبنا، لدينا الكثير من العادات المزعجة ومن الأوهام التي تجعلنا لا نستحقّ بأن يرحَّبَ بنا".

ردَّ «غورا» يقول:

- "حتّى لو كنتَ على حق، ومهما كنا أوغاداً، ينبغي أن نخجل من التنازل للدخول إلى المجتمع الإنكليزي".

وتابع «هاران» يقول:

- "لكن الإنكليز يستقبلون الناس ذوي القيمة الفعلية باحترام كبير، كأصدقائنا هنا على سبيل المثال".

ردّ «غورا»:

- "اعتبارات وتقديرات من هذا النوع تزيد من إذلال الآخرين وهي بنظري لا تشكّل سوى إهانة".

بسرعة استولى الغضب تماماً على «هاران» وكان «غورا» هو الذي يثيره وكأنّه ألعوبة في يده. وبينما كانت المجادلة مستمرّة ، كانت «سوشاريتّا» مختبئة خلف مروحتها تراقب «غورا»، أمّا الكلمات التي كان يقولها فلم تصل كلّها إلى عقلها؛ لو انتبهت للطريقة التي كانت تحدّق بها فيه لذابت خجلاً وارتباكاً، لكنها كانت تجهل ذلك.

كان «غورا» جالساً في الجهة المقابلة لها سانداً ذراعيه القويّتين على الطاولة، بينما يسقط ضوء الطاولة على جبهته البيضاء، وكان تارة يقهقه ضاحكاً بازدراء، وأخرى يعقد حاجبيه بغضب؛ غير أنّ قسماته احتفظت بوقار شديد رغم هذه الإيماءات المتنوعة جداً ما يشهد على أنّه لم يكن يتلهّى في تبادل أقوال لا فائدة منها، بل كانت آراؤه ثمرة سنين من الفكر والخبرة؛ لم يكن يعبّر بصوته فقط، بل كان وجهه وكل حركات جسده تساهم في التعبير عن قناعته؛ كانت «سوشاريتّا» مندهشة وهي تنظر إليه، فقد ظهر أمامها - ولأول مرة في حياتها - رجل موهوب في واقعيّته، ومن المستحيل ألاّ نميّزه عن باقي الرجال. أمّا «هاران» فقد بدا أمامه عاديّاً جداً لدرجة أنّ اتخذت قسماته وحركاته وحتى ملابسه شكلاً عبثيّاً. لقد سبق وتناقشت كثيراً مع «بينوى» بخصوص «غورا» حتى انتهت إلى تصوّره بكل بساطة كرئيس حزب له آراء شخصية واضحة جداً. كانت تشعر أنّه سيكون قادراً على خدمة البلد على الأغلب؛ الآن وبينما هي تنظر إليه، ترى فيه الرجل «غورا»

بمعزلٍ عن أية نظرية مشايعة أو أية فائدة محتملة؛ لقد رأت الآن ولأول مرّة كُنه روح الرجل، وفي غبطة هذه التجربة النادرة، نسيت وجودها الشخصي تماماً؛ دلائل الشغف في تعابير وجه «سوشاريتّا» لم تخفَ على «هاران» الذي منعه هذا المشهد من أن يضع كل قواه الممكنة في حججه؛ وفي نهاية الأمر نفد صبره فنهض وناداها كما لو كانت من أهله المقرّبين وقال لها:

- "هل تسمحين بالاقتراب يا «سوشاريتّا»؟ لديّ ما أقوله لكِ".

قفزت «سوشاريتّا» كما لو أنّ أحداً صدمها، صحيح أنّ «هاران» كان على حميمية لا بأس بها مع العائلة تمكّنه من مخاطبتها بهذا الشكل، وهي في غير هذا الظرف لم تكن لتعلّق على ذلك أيّة أهمية تذكَر، لكنها في هذا اليوم بالذات وبحضور «غورا» و«بينوى» شعرت وكأنّها قد تلقّت شتيمة، والنظرة السريعة التي رماها بها «غورا» جعلت إهانة «هاران» لا تُغتَفر؛ تظاهرت في البدء بأنّها لم تسمع لكن عندما كرَّرَ «هاران» بشيء من الغضب:

- "هل تسمعينني يا «سوشاريتّا»؟ لديَّ شيء أقوله لكِ، هل تسمحين بالمجيء إلى غرفة أخرى؟"

فأجابت دون أن تنظر إليه:

- "انتظر عودة أبي وعندها ستقوله لي".

في أثناء ذلك، نهض «بينوى» وقال:

- "أخشى أن نكون قد أزعجناكم، لقد حان الوقت لكي نذهب".

فردّت «سوشاريتّا» بسرعة كبيرة:

- "كلاّ يا «بينوى بابو» ليس بعد، لقد رجاكما أبي أن تنتظراه فهو سيعود قريباً".

حمل صوتها لهجة الترجّي القلِق كما لو أنّ هذه المغادرة ستسلّم الأيل للصيّاد.

عندها خرج «هاران» من الغرفة وهو يقول:

- "لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك، ينبغي أن أذهب".

وعندما أصبح في الخارج، ندمَ على نزقه لكنه لم يستطع التحجّج بعذر لكي يعود. بعد مغادرته شعرت «سوشاريتّا» بخجلٍ ممضّ، فظلّت جالسة محنية الرأس، لا تعرف ما تقول ولا ماذا تفعل، بذلك سنحت الفرصة لـ«غورا» بتفحّص قسماتها. هنا، هل يمكن تمييز أيّ أثر لتلك الجرأة غير المتواضعة التي أولاها على الدوام للفتيات المثقفات؟ بدون أدنى شك، كان وجهها يعبّر عن ذكاء باهر، لكن يا لرقّته ولطافته، ويا لذلك الخجل وتلك العفّة ! كانت جبهتها ملساء نقيّة كقطعة من سماء خريفي، وكانت شفتاها صامتتين بانحناءاتهما الدقيقة كانحناءات براعم ناعمة، تكبر مع الكلمات التي كانت تحفظها؛ لم يكن «غورا» حتئذ قد تفحّص لباس امرأة عصرية، لقد أدانه دون أن يراه؛ أمّا الآن فهذا الساري بنسقه الجديد وتموجاته التي تغمر قامة «سوشاريتّا» فقد بدا له جديراً بالإعجاب؛ كانت إحدى يديها تستند إلى الطاولة وتخرج من كمّ صدّارها المغضّن فتبدو بنظر «غورا» رسالة لطيفة من قلب رقيق وحنون. في ظلّ الضوء اللطيف الذي كان قنديل المساء ينشره على «سوشاريتّا»، لم تكن الغرفة بكاملها تقيّم بعناصرها المادية التي تتكوّن منها، بل بظلالها، وبلوحاتها المعلّقة على الجدران، وبأثاثها المنتقى، حيث برزت من خلال كل ذلك صورة شاملة لبيت خلقته لمسات ناعمة وعناية لطيفة من امرأة ظهرت لـ«غورا» على حين غرّة، وبينما كان يتأمّلها، بدأت «سوشاريتّا» شيئاً فشيئاً تأخذ بالنسبة إليه واقعاً قوياً ملموساً بدءاً من خصلات شعرها المتناثرة على صدغيها إلى حوافّ ساريها؛ لقد كانت «سوشاريتّا» كلّها بكل دقائق شخصيتها تجذب نظر «غورا».

خلال فترة قصيرة، شعر الثلاثة بحرج من صمتهم التفت بعدها «بينوى» نحو «سوشاريتّا» وعاد إلى موضوع كان قد ناقشه معها في السابق:

- "كما كنتُ أقول لكِ، كنتُ أعتقد في الماضي أنّه لا يوجد أي أمل لبلدنا ولا لمجتمعنا، سيُنظَرُ إلينا دوماً على أننا قصّر، وسيظلّ الإنكليز أوصياء علينا إلى الأبد، وهذا هو رأي الغالبيّة العظمى من مواطنينا. في مثل هذه الحالة الذهنية يظلّ الناس محصورين ضمن مصالحهم الأنانية أو يصبحون لامبالين بقدرهم؛ أنا نفسي فكّرتُ سابقاً وبكل جديّة في أن أجد لنفسي منصباً كموظف بدعم من والد «غورا»، لكن لحسن الحظ أعادني «غورا» إلى الصواب باحتجاجاته".

رأى «غورا» دهشة خفيفة قد ارتسمت على وجه «سوشاريتّا» فبادر إلى الشرح:

- "لا تظنّي أنَّ الحقد ضد الحكومة أملى عليّ ملاحظاتي، لكن الموظفين عموماً تصل بهم الأمور إلى أن يظهروا أنفسهم فخورين بقوّة الحكومة كما لو أنّها ملكهم، وبذلك يحاولون تشكيل طبقة متميزة بين مواطنيهم، وهي حالة أتبيّنها كل يوم بوضوح؛ كان أحد أقاربي في الماضي نائباً عن قاضٍ احتياطي، وهو اليوم متقاعد، لكن عندما كان في الخدمة وجّه له حاكم المقاطعة الانتقاد التالي:

"«بابو»، كيف يمكن أن يكون هناك هذا الكمّ من التبرئة في المحكمة التي تترأسها؟" فأجابه: "هناك سبب وجيه لذلك، يا سيّد، الذين ترسلهم إلى السجن هم بالنسبة إليك كالقطط والكلاب، بينما الذين ينبغي عليّ سجنهم هم إخوتي".

في تلك الفترة، كان عدد كبير من مواطنينا سيجيبون بأجوبة نبيلة مماثلة وكان هناك أيضاً عدد من الإنكليز قادرين على سماعهم، أمّا اليوم، فالضغوط التي تفرضها خدمات الدولة أصبحت امتيازاً والقضاة المتعاونون في زمننا هذا توصّلوا رويداً رويداً إلى اعتبار مواطنيهم أعلى قدراً بقليل من الكلاب، وقد برهنت التجربة على أنّهم كلّما ارتقت مرتبتهم ازداد فسادهم. إذا أنتِ رُفعْتِ على أكتاف رجل آخر، فحتماً ستنظرين من علٍ إلى مواطنيكِ

الذين يخصّونكِ ومحتّم أنكِ ستصبحين ظالمة تجاههم، هذا الوضع لا يمكن أن يولّد إلاّ الشر". ضرب «غورا» بيده على الطاولة وهو يتكلم ما جعل القنديل يهتز. فقال له «بينوى» وهو يبتسم:

- "هذه الطاولة ليست ملك الدولة يا «غورا» وهذا القنديل هو ملك «باريش بابو».

قهقه «غورا» ضاحكاً وملأ المنزل بفرحه فاندهشت «سوشاريتّا» وافتُتنت لرؤية «غورا» يضحك كطفل من طرفة موجّهة ضدّه؛ يبدو أنّها لم تكن تتخيّل أنّ الذين يملكون أفكاراً عميقة يكونون قادرين أيضاً على الضحك من صميم قلوبهم.

في تلك الأمسية تحدّث «غورا» كثيراً، ورغم أنّ «سوشاريتّا» ظلّت صامتة، لكن وجهها دلّ على موافقة واضحة جداً لدرجة أن امتلأ قلب «غورا» غبطة. وأخيراً توجّه مباشرة إلى «سوشاريتّا» قائلاً:

- "أودُّ أن تتذكّري الأمور التالية: رغم الفكرة الخاطئة القائلة بأن الإنكليز أقوياء، ولكي نصبح نحن أقوياء ينبغي علينا أن نغدو مثلهم، هذه الرؤية غير المحتملة لن تتحقق أبداً، ففي الواقع عندما نقلّدهم لن نصبح مثلهم ولن نبقى كما كنا أنفسنا؛ أستحلفكِ أن تتعمّقي حقاً في حميمية الهند وأن تقبلي الصالح والطالح، حاولي أن تجدي علاجاً للمثالب إنما من الداخل، اُنظري إلى الأشياء بأمّ عينيكِ، افهميها وتمّعني فيها، واجهيها دون خوف، واتّحدي بها، لن تحصلي على شيء إن اتّخذتِ موقفاً معارضاً مشرّباً بأفكار مسيحية حتى العظم ونظرتِ إلى بلدك من الخارج، عندها لن يكون باستطاعتك سوى التجريح ولن تتمكّني من تقديم أي عون".

اعتقدَ «غورا» أنّه كان يوجّه رجاء لكنه في الحقيقة كان أمراً، إذ كانت نبرة أقواله سلطوية واضحة لدرجة تبدو معها وكأنّها لا تنتظر أو لا تبحث عن موافقة محدّثها.

كانت «سوشاريتًا» تصغي إليه محنية الرأس، قلبها يخفق لسماع «غورا» يوجّه الحديث لها بشكل خاص وبهذه الحماسة الكبيرة؛ تغلّبت على الخجل تماماً وأجابت ببساطة متواضعة:

- "لم يسبق لي أبداً حتى الآن أن فكَّرتُ ببلدي بهذا السمو وهذه الواقعية، لكنني أودُّ أن أطرح عليكَ سؤالا: ما هي العلاقة بين الوطن والدين؟ ألا يرفع الدين من شأن الوطن؟"

هذا السؤال المطروح بصوت لطيف أثار عواطف «غورا»، أمّا تعابير عينيها وهي تتكلم فقد زادته شعوراً بالحنان أكثر فأكثر. فأجاب:

- "ما يجعل الوطن يعلو هو أعلى من الوطن ولا يمكن له أن يظهر لكل إنسان إلاّ من خلال وطنه، لقد أظهر الله وحدته، وأزليته بأشكال متنوعة؛ الذين يزعمون أنَّ الحقيقة هي واحدة وبالتالي لا توجد سوى ديانة حقّة واحدة، لا يعترفون سوى بهذا المظهر من الحقيقة ومن وحدتها، ويغفلون في الوقت نفسه الاعتراف بأنَّ الحقيقة ليس لها حدود، وبأنَّ الوحدة دون حدود تتجلّى في التعدّدية دون حدود؛ أستطيع أن أؤكِّد لكِ أنّه في سماء الهند التي هي بلا حدود يمكنكِ أن تشاهدي شمس العالم كله، وليس هناك من حاجة لاجتياز المحيط وللجلوس داخل كنيسة مسيحية".

- هل تريد أن تقول أنَّ للهند طريقاً خاصة للوصول إلى الله؟ وما هي هذه الطريق؟"

أجاب «غورا»:

- "إنّه هو، الكائن الأعلى اللامتناهي، يتجلّى، ويوفّر حدوداً، هذا مؤكّد، ويحرّك المسار الثابت للزمن وللديمومة، للسرّي وللظاهر، هو بدون صفة وله صفات لا تُعدّ ولا تُحصى في آنٍ معاً، ليس له شكل ويضفي على نفسه أشكالا يتعذّرعدّها، حاول البشر في البلدان الأخرى أن يحصروا الله داخل تعريف محدود أو ضمن قرار عقائدي، في الهند أيضاً ودون شك حاول الهنود أن

يصوّروا الله وفق شكل من أشكال مظاهره الخاصة، لكنهم لم يعتبروا مطلقاً أنَّ هذا المظهر نهائي، كما لم يتخيّلوا أنَّ هذا الشكل أو الشكل الآخر هو الوحيد، ليس هناك من هندي مؤمن إلاّ واعترف بأنَّ الله في لامحدوديته يصعِّد الشكل النوعي الذي يتعلّق شخصياً بذلك المؤمن أو بمؤمن آخر".

فقالت «سوشاريتّا»:

- "ربما تكون على حقّ إذا كان الموضوع يتعلّق بعابدين أذكياء، لكن ماذا عن الآخرين؟"

- أعتقد أنَّ هناك دوماً وفي كل بلد جهلة يفسدون الحقيقة".

فتابعت «سوشاريتّا» تسأل بإصرار:

- "ألم نفسدها في بلدنا أكثر من أي مكان آخر؟"

-ربّما، وتحديداً لأن الهند أرادت بحماسة أن تعترف بالمظاهر المتعارضة للألوهة، اللطيف منها والخشن، الظاهر والباطن، الروح والجسد، والذين لا يمكنهم إدراك الناحية الدقيقة يستطيعون تبنّي الناحية الخشنة، وعندها تعمل جهالتهم فيها فتنتج هذه الانحرافات الخارقة. مع ذلك، لا ينبغي علينا مطلقاً أن ننقطع عن العظمة والتنوّع، وعن الحماسة الرائعة التي أرادت الهند أن تبلغ بها «الواحد الأحد» الذي هو «الحقيقة»، وذلك بأنواع الجسد والروح والفعل ومن كل وجهات النظر، والوصول إليه في تجسّداته وفي تجريداته، كما في تجلياته المادية منها والروحية التي تؤثّر في الجوهر أو في الإدراك الحسّي الحميمي. لقد انتجت أوروبا القرن الثامن عشر ديانة قاسية فقيرة وهمية وذلك بمزج الالحاد مع التأليهية(١)، وسيكون عملاً جنونياً قبولها كديانة عوضاً عن هذا الغنى الذي نمتلكه".

---

(١) التأليهية Déisme: مذهب التأليه الذي يقرّ بوجود الله وينكر الوحي والآخرة. معجم المنهل – الترجمة.

ظلّت «سوشاريتّا» لبرهة مستغرقة في أفكارها ولمّا رآها «غورا» صامتة، تابع حديثه:

- "أرجوكِ لا تنظري إليّ على أنّي متزمّت، وعلى الأخصّ لست كأحد الذين اهتدوا فجأة إلى الصراطية، لا تفسّري أقوالي بمعانٍ كما يفسّرها أولئك الناس، تنغمر روحي في نشوة وافتتان عندما أفكّر في الوحدة العميقة والرائعة التي أدرك مسارها من خلال تنوّع التعابير التي توفرها ديانة الهند كجهود تتمايز فيها، هذا الإحساس يحميني من كل نفور واشمئزاز بل يجعلني جاهزاً للانخراط في الغبار مع الناس الأكثر فقراً والأكثر تواضعاً من المواطنين، هذه هي رسالة الهند، هناك قلوب تفهمها وأخرى لا تفهمها، الاختلاف لا يغيّر شيئاً في الشعور الذي أحسّهُ لأتمازج مع الهند كلّها، وأشكّل مع شعبها جسداً واحداً، لا أشكّ في أنّ روح الهند تتجسّد سرّاً عبر هذا الشعب وتفعل فعلها دون مهادنة".

أقوال «غورا» الملفوظة بصوت قوي كادت تزعزع جدران الغرفة وأثاثها، لم تكن «سوشاريتّا» تستطيع فهم تلك الأقوال تماماً من المرة الأولى، لكن الموجة الأولى لكشف وشيك الوقوع أحدثت تأثيراً قوياً، والرؤية بأنّ الحياة لا يمكن عزلها في حدود الأسرة أو الطائفة استولت على تفكيرها بقوّة مؤلمـــة.

انتهى الكلام، لأن ضجيج خطوات وقهقهات ضحكات طفولية انبعث من الدرج ، لقد عاد «باريش بابو» مع بناته وصار«سودهير» كالعادة يمزح مطلقاً إحدى دعاباته المألوفة. عندما دخلوا ورأوا «غورا»، استعاد «ساتيش» و«لوليتّا» جدّيتهما وبقيا في الغرفة، بينما خرجت «لابونيا» بسرعة؛ اندسّ «ساتيش» بالقرب من كرسي «بينوى»، واتخذت «لوليتّا» لنفسها مقعداً إلى جانب «سوشاريتّا» وجلست مختبئة خلفها، الأخير الذي دخل هو «باريش بابو» وقال:"لقد عدتُ متأخّراً جداً، أعتقد أنّ «هاران بابو» قد ذهب".

لم تردّ «سوشاريتّا»، أمّا «بينوى» فقال:

- "أجل، لم يستطع الانتظار".

نهض «غورا» وانحنى باحترام أمام «باريش بابو» وقال:

- "نحن أيضاً ينبغي علينا أن نذهب".

فقال «باريش بابو»:

- "لم أحظَ في هذه الأمسية بفرصة التحدّث معكما، آمل أن تعودا لزيارتي بين الحين والآخر إن استطعتما".

بينما كان «غورا» و«بينوى» يخرجان من الصالة، دخلت إليها السيدة «بارودا»، فألقيا عليها التحية ثم صرخت:

- "ماذا! أتغادران الآن؟

فأجاب «غورا» بنبرة نزقة: "أجل".

فالتفتت «بارودا» نحو «بينوى» وقالت له:

- "لكن يا «بينوى بابو» ينبغي أن تظلّ عندنا كي تتعشى معنا، لا أستطيع أن أدعكَ تذهب هكذا بكل بساطة، بالإضافة إلى أنّ هناك موضوعاً ينبغي أن أحدّثك به".

بعد هذه الدعوة قفز «ساتيش» فرحاً وأخذ بيد «بينوى» وصرخ:

- "أجل، أجل، يا أمّاه، لا تدعي «بينوى بابو» يذهب، ينبغي أن يبقى معي هذا المساء".

ولمّا لاحظت «بارودا» أنّ «بينوى» متردّد، استدارت نحو «غورا» وقالت له:

- "هل ينبغي أن تأخذ «بينوى بابو» معك؟ هل أنتَ بحاجة إليه؟"

أجاب «غورا» على الفور:

- "لا،لا إطلاقاً، ابقَ يا «بينوى» أمّا أنا فسأذهب".

وخرج بأقصى سرعة.

عندما طلبت السيدة «بارودا» موافقة «غورا» كي يبقى «بينوى» على العشاء، لم يستطع «بينوى» إلاّ أن يرمق «لوليتّا» بنظرة خاطفة خَفِية فأدارت رأسها وهي تبتسم، ربّما لم تكن هناك أسباب كي يشعر «بينوى» بالحرج من هذه السخريات الصغيرة التي تسمح «لوليتّا» لنفسها القيام بها لكنها كانت تخزه كالأشواك، عندما عاد وجلس من جديد قالت له «لوليتّا»:

- «بينوى بابو» كان من الحكمة لو أنّك أطلقت ساقيك للريح ".

فسألها «بينوى»:

- "لماذا؟"

- لأنّه في نيّة والدتي أن تجذبك لتقع في فخّ، ينقصنا ممثل في المسرحية التي سنقدّمها في عيد القاضي، وقد اختارتك الوالدة لتسدّ الفراغ".

فقال «بينوى» متعجّباً:

- "يا للسماء! لن أكون قادراً على ذلك!"

فقالت «لوليتّا» وهي تضحك:

- "لقد حذّرت والدتي على الفور، كما نبّهتها بأن صديقكَ لن يسمح لك أبداً بأن تمثّل في هذه المسرحية".

انتفض «بينوى» من هذه اللدغة وقال معارضاً:

- "لا فائدة من مناقشة أفكار صديقي، فأنا لم أمثّل في مسرحية طيلة حياتي، فلماذا أُنتقى أنا بالذات؟"

تأوّهت «لوليتّا» وقالت:

- "ونحن؟ هل تظنّ أنّنا معتادون على التمثيل؟"

عندما عادت السيدة «بارودا» إلى الغرفة قالت لها «لوليتّا»:

- "لا فائدة يا أمّي من دعوة «بينوى بابو» ليمثّل إلاّ إذا حصلتِ على موافقة صديقه....

فقاطعها «بينوى» وقد انزعج كثيراً:

- "لا يتعلق الأمر بموافقة صديقي، بكل بساطة أنا غير قادر على التمثيل".

فصرخت «بارودا» قائلة:

- "لا تقلق من هذه الناحية! نحن سنعلّمك، هل تعتقد أنّ أولئك الصغيرات بإمكانهن لعب الأدوار وأنتَ لا؟ يا للأمر المضحك!"

أُرتج على «بينوى» ولم تعد لديه وسيلة للهروب من قدَره.

الفصل الحادي والعشرون

بعد مغادرته منزل «باريش بابو» لم يمشِ «غورا» وفق إيقاع مشيته العادية، وبدل أن يعود مباشرة إلى بيته، مشى حتى بلغ ضفة النهر، لم يكن قبح الجشع التجاري قد تراكم على نهر الغانج وضفتيه في تلك الفترة، ولم تكن هناك سكّة حديد تمتد على طول شاطئه، كما لم يكن هناك أي جسر يعتليه، ولم تكن السماء ولا أمسيات الشتاء قد اسودّت بفعل الريح المحمّلة بالدخان الأسود الذي ينبعث من المدينة المكتظة بالسكان؛ ما زال النهر إذاً يحمل رسالته المسالمة من قمم الهِمالايا الطاهرة البعيدة إلى المركز النشط والمغبّر لـــ«كالكُتّا».

لم يسبق للطبيعة حتئذٍ أن لفتت اِنتباه «غورا» أبداً إذ كان ذهنه مشغولاً على الدوام باهتمامات شخصية. لا بل لم يكن يلاحظ الأشياء التي لا تشكّل غرضاً مباشراً لاهتماماته في العالم المحيط به.

غير أنّ رسالة السماء في تلك الأمسية، وفي الظلمة المزروعة بالنجوم حرّكت شعوره وأثّرت في حنايا قلبه وبثّت فيه رعشة جديدة. كانت صفحة الماء في النهر هادئة لا يزعجها أيّ تموّج يذكر، وكانت فوانيس السفن المربوطة على أرصفة الركوب تلتمع، بينما بدت الظلال كلها متمركزة بين أوراق الأشجار الكثيفة على الضفة المقابلة. كان كوكب «المشتري» يهيمن على المشهد كلّه كضمير الليل الساهر، وحتّى تلك الساعة كان «غورا» قد حبس نفسه بعالمه الفكري والعملي الخاص به، فما الذي طرأ إذاً؟ وجد نفسه

فجأة على علاقة مع الطبيعة وقد وفّرت له مياه النهر العميقة الداكنة والشواطئ المشجَّرة القاتمة والسماء المظلمة اللامتناهية ملاذاً يحيط برأسه وبأفكاره المضطربة. شعر «غورا» في تلك الأمسية أنّه استسلم لإغراءات الطبيعة، وكان عطر نبات العارشة المتفتّح يفوح من حديقة تحيط بالشارع ما هدّأ قلبه القلق وسكب فيه السلام.

كانت المياه تغازله وتجذبه بعيداً عن الأرض التي يحرثها الإنسان بدون كلل، إلى فلك واسع مجهول وغير معيّن تكون فيه الأشجار محمّلة بأزهار رائعة تلقي بظلال ساحرة على ضفاف أنهرٍ خفيّة، حيث تبدو الأيام وكأنّها النظرة الصريحة لعين مفتوحة بجرأة تحت القبّة الزرقاء الواسعة النقية، أمّا الليالي فتبدو كأشباح خجلة ترتجف تحت أهداب مسدلة.

اجتاحتْ «غورا» زوبعة من الحنان وبدت كأنّها تأخذه إلى أعماقٍ أصيلة لم يكن قد خبرها في حياته ولم تكن لتخطر بباله أبداً؛ وغزت كل كيانه ارتعاشات فرح وألم في آنٍ معاً، لقد غاب عن الوعي وهو واقف على طرف النهر، في ليل خريفي، في عينيه ضياء النجوم المتحيّر، وفي أذنيه همسات مبهمة من المدينة، أمام السرّ المتأصّل المحجوب الذي لا يُرى ولا يقدّر والكامن في الكون.

ولأن «غورا» ظلّ لفترة طويلة يرفض الاعتراف بسلطان الطبيعة فهي اليوم تثأر منه بحياكة شباكها السحريّة حوله، وبربطه بالأرض وبالماء والسماء بدقّة لتنتزعه من الحياة اليوميّة.

مبلبلاً بفعل هذا اللغز العجيب، وقع «غورا» على درجات الرصيف المؤدّي إلى مركز الحياة الدينية «الغات»[1] وكانت هذه الدرجات خالية، جلس عليها، وحاول إدراك معنى هذه التجربة المدهشة ومكانتها في مخطط الحياة التي رسمها لنفسه بلا جدوى. تساءل هل ينبغي محاربتها والانتصار عليها؟

(١) الـ"غات Ghat "

لكنه وبينما كان يشدُّ قبضته بشراسة عاودته ذكرى النظرة الخجولة لعينين فاتنتين لطّفهما التواضع وأنارهما الذكاء، وتخيّل الملامسة الرقيقة ليدين ناعمتين، فارتعش كل جسده بفرح فائق الوصف، وغابت كل تساؤلاته وشكوكه أمام عمق هذا الإيحاء الذي حملته إليه الظلمة، وتخوّف أن يفقده إن هو ابتعد.

عندما عاد إلى المنزل في الليل، سألته «آناندامو ا»:

- "لماذا تأخرتَ إلى هذا الحدّ يا ولدي؟ لقد برد عشاؤكَ".

- لا أدري يا أمّي، لقد بقيتُ طويلاً جالساً قرب النهر".

- "هل كان «بينوى» معك؟"

- "لا، كنتُ وحدي".

اندهشت «آناندامو ا» بشدّة لأنّها لم ترَ «غورا» في حياتها يذهب للتأمّل وحده على ضفاف نهر الغانج إلى وقت متأخّر من الليل، لم يكن ذلك أسلوبه بالحلم في السكون والصمت. أخذت «آناندامو ا» ترقبه وهو يأكل شارد الذهن، ولاحظت على وجهه علامات إثارة وانفعال غريبين عنه. بعد فترة قصيرة سألته:

- "هل ذهبتَ إلى «بينوى» اليوم؟"

- "لا، لقد ذهبنا كلانا بعد ظهر اليوم إلى منزل «باريش بابو».

لقد شكّل هذا الحدث عنصراً جديداً لملاحظات «آناندامو ا» وأفكارها، وبعد فترة جازفت وسألت:

- "هل تعرّفتَ على كل أفراد العائلة؟"

فأجاب «غورا» :

- "أجل، كلهم.

- "أظنُّ أنَّ الصبايا لا يجدن حرجاً في إستقبال الزائرين؟"

- "لا، لا يجدن أي حرج".

في ظروف أخرى لطالما أشارت لهجة «غورا» إلى معنى هذا الجواب، وغياب أي نوع من أنواع الانتقاد زاد من مفاجأة «آناندامو ا».

وفي اليوم التالي، لم يتهيأ «غورا» لمهمّته اليوميّة بالسرعة الاعتيادية، ظلّ واقفاً لمدة طويلة شارد الذهن أمام نافذة غرفته المطلّة على الشرق؛ في نهاية الزقاق وفي الجانب الآخر للشارع العريض الذي ينتهي عنده (ذلك الزقاق) كانت هناك مدرسة، في باحة المدرسة وعلى أوراق شجرة تفاح الورد «الجامبولان»[1] يتموّج غشاء خفيف من سحابة صباحيّة تجتازها بغموض الأشعّة الحمراء للشمس المشرقة، وشيئاً فشيئاً، وبينما كان «غورا» ينظر من النافذة تبدَّد الضباب واخترقت أشعّة الشمس الساطعة ستار الأوراق كحراب تتلألأ وبدأ الشارع يمتلئ بالمارّة وبالضجيج؛ وفجأة وقع نظر «غورا» على «آبيناش» وبعض من رفقائه الذين كانوا يسلكون الزقاق قاصدين منزله، فقام بمجهود قويّ ليمزّق السحر الذي كان يتملّكه والذي لم يحاول عقله التهرّب منه، وبقوّة صدمته قال في قرارة نفسه: "كلاّ، لا ينبغي"، ثم قفز مسرعاً إلى خارج الغرفة. لقد لام نفسه بمرارة لأنّه لم يكن جاهزاً لاستقبال رفقائه، الأمر الذي لم يحصل له سابقاً، وقرَّر عدم العودة إلى منزل «باريش بابو»، كما سيتدبَّر أمره لطرد كل فكرة عن هذه العائلة، حتى لو تطلّب ذلك الابتعاد عن «بينوى» لبعض الوقت.

في سياق الحديث بينه وبين رفقائه، تمَّ اقتراح مشروع القيام برحلة سيراً على الأقدام على الطريق المركزي الكبير للهند. قرَّروا ألاّ يأخذوا معهم مالاً وأن يقتاتوا من الضيافة التي ستُقدَّم لهم على طول مسارهم. وعندما اتُّخذَ القرار، أبدى «غورا» حماسة دون حدود، وتملّكه فرح كبير جداً لفكرة أنّه سيهرب مفلتاً بذلك من كلّ المصاعب. مجرّد التفكير في القيام بهذه المغامرة بدا وكأنّه يحرِّر قلبه من الفخّ الذي حوّله إلى سجين؛ وعندما خرج من البيت

(١) جامبولان: شجرة هي رمز الهند، وهي من الفصيلة الآسية.

لتهيئة هذه الرحلة، سار وكأنّه يركض مثل طفل قد تحرّر من المدرسة، وجهدَ ليقنع نفسه أنّ العمل وحده هو الأساس حقاً وأنّ كل المشاعر التي اِستسلم لها كانت مجرّد وهم.

ولمّا كان «كريشنادايال» عائداً إلى البيت حاملاً بيده إناء مليئاً بمياه الغانج المقدّسة، وعلى كتفيه شال كتبت عليه أسماء الآلهة، اِصطدم به «غورا» وهو يركض، فخجل لأنّه دفعه بقوة، فانحنى ليلمس قدمي أبيه كي يسامحه، لكن «كريشنادايال» اِرتد فجأة إلى الوراء وهو يقول: "هذا غير مهمّ، بل عديم الأهميّة" وابتعد ليتجاوزه لأنّه مقتنع أنّ ملامسة «غورا» قد أبطلت كل فعاليّة غسوله الصباحي في نهر الغانج؛ أمّا «غورا» فلم يتنبّه طيلة حياته إلى أنّ وسوسة «كريشنادايال» في الطهارة تدفعه إلى تجنّبه هو بالذات بشكل خاص، فكان يعزو هذا النفور إلى الرغبة الشديدة في تجنّب أدنى شكل من أشكال التلوّث وذلك بالاِبتعاد عن ملامسة كل شيء دون اِستثناء، ألم يبتعد «كرشنادايال» عن زوجته «آناندامواْ» كما لو أنّها من خارج الطبقة؟ ولم يكن يقابل «مُهيم» إلاّ قليلاً لأنّه كان مشغولاً على الدوام. العضو الوحيد من العائلة الذي كانت له علاقات معه هي حفيدته «سازي» التي كان يحفّظها النصوصَ السنسكريتية ويعلّمها طقس العبادة الصارم، وعندما تراجع «كرشنادايال» باشمئزاز، اِكتفى «غورا» بالاِبتسام من سلوكية أبيه، في الواقع كان هذا الأب قد أبعده تدريجياً عن طريق اِنتقاده وعدم رضاه من تراجع تقليدية «آناندامواْ» إذ ركّز «غورا» كل حبّه البنوي على هذه الأمّ المتحرّرة جداً من التقاليد.

بعد أن تغدّى، جهّز «غورا» صرّة ثياب وعلّقها على ظهره وفق طريقة السيّاح الإنكليز، وذهب ليرى «آناندامواْ» وليقول لها:

- "أودُّ الذهاب لبضعة أيام، هل توافقين؟"

- "إلى أين يا ولدي؟"

- "أنا نفسي لا أعرف بعد إلى أين".

- "وماذا ستفعل؟"

- "ليس هناك من شيء خاص أفعله، الرحلة بحدّ ذاتها هي الهدف بعينه".

ولمّا رأى «غورا» أنّ «آناندامو ا» لزمت الصمت، توسّل إليها قائلاً:

- "لا تمنعيني يا أمّي، أنتِ تعرفينني، فلا تخشي أن أصبح ناسكاً أو متشرداً، ولا أستطيع أن أبتعدَ عنكِ لمدة طويلة، إنّكِ تعرفين ذلك جيّداً".

لم يعبّر «غورا» في حياته عن حبّه لأمّه بهذا الوضوح، وعندما فعل ذلك شعر بشيء من الحرج.

مع أنّ «آناندامو ا» فرحت من صميم قلبها، حزرت انطباعه، وكي تجعله يشعر بالراحة سألته:

- "هل سيذهب «بينوى» معكَ؟"

- "آه يا أمّي! إذا لم يكن «بينوى» هنا ليحافظ على ابنك، هل تظنين أنّ أحداً سيخطفه، لن يأتي «بينوى» معي وسأشفي ثقتكِ الوهمية به، لأنّني سأعود سالماً وسليماً حتى بدون حمايته".

- "لكنك سترسل لي لتعلمني عن أخبارك من وقت لآخر؟"

- "يستحسن أن أقول لكِ سوف لن تتلقي أخباري، بذلك تسعدين أكثر إن وصلتكِ، لن يسرق أحد ابنكِ «غورا» فليس هناك من مبرّر لخوفك، إنّه ليس ذاك الكنز الذي تتخيّلينه والذي لا يُقدَّر بثمن؛ أما بالنسبة إلى المتاع الذي أحمله معي، فإن اشتهاه أحدهم فسأقدّمه له كهدية ثم أعود، لن أدافع عنه وأعرّض حياتي للخطر، أستطيع أن أؤكّد لك ذلك".

انحنى «غورا» ليلمس غبار قدمي «آناندامو ا»، فمنحته بركتها بتقبيل أطراف أصابعها بعد أن لامست رأسه، ولم تحاول أن تثنيه عن الرحيل. لم تكن تعارض أبداً أي فعل يوشك أن يسبّب له الألم أو الرعب. لقد صادفت في حياتها الخاصّة مصاعب كثيرة وأخطاراً كثيرة، كما أنّها لا تجهل العالم

الخارجي، وهي لا تعرف الخوف، وقلقها الحالي لم يأتِ من فكرة أن خطراً ما يهدّد «غورا» بل من شكٍّ اِنتابها مساء الأمس وجعلها تظن بأنّه يجتاز أزمة نفسية، الأمر الذي يفسّر هذا الرحيل المفاجئ.

بينما كان «غورا» يخطو الخطوة الأولى في الطريق وصرّة ثيابه على ظهره، ظهر «بينوى» حاملاً – بعناية كبيرة – وردتين بلون أحمر غامق، فقال «غورا» :

- "لو كنتَ طيراً نذير يمن أو نذير شؤم، فإنّ برهان ذلك سيظهر".

- "أتذهب في رحلة إذاً؟"

- "أجل".

- "إلى أين؟"

فقال «غورا» وهو يضحك:

- "الصدى يجيب: إلى أين؟"

- "ألا يمكنك أن تفيدني بجواب دقيق؟"

- لا، اِذهب إلى أمّي وهي ستقول لك ما تعرفه، أمّا أنا فينبغي أن أرحل".

وابتعد «غورا» بخطى سريعة.

عندما دخل «بينوى» إلى غرفة «آنانداموا» اِنحنى باِحترام أمامها ووضع الوردتين على قدميها، أخذتهما وسألت:

- "من أين لك هذه الورود يا «بينوى»؟"

دون أن يجيبها مباشرة، قال:

- "عندما يكون معي شيء جميل أودُّ دوماً أن أبدأ بوضعه على قدميكِ للتبرّك؛ لكنكِ مشغولة يا أمّي".

فسألته «آنانداموا»:

- "لماذا تظن ذلك؟"

- "لأنّكِ نسيتِ أن تقدّمي لي البيتيل كالعادة".

بعد أن قدّمت «آناندامو ا» له البيتيل مستدركة ذلك النسيان، دخلا كلاهما في محادثة اِستمرّت حتّى الظهر. لم يتوصّل «بينوى» إلى إلقاء الضوء على هدف رحلة «غورا» الغامض، وفي سياق الحديث سألته «آناندامو ا» إن كان قد اِصطحب معه «غورا» ليلة البارحة إلى عائلة «باريش بابو»، فروى لها كل ما جرى هناك وأصغت باِنتباه شديد إلى أدنى تفصيل، وعندما حان وقت المغادرة قال «بينوى»:

- "هل قبلتِ احترامي يا أمّي، هل بإمكاني الآن أن آخذ الوردتين اللتين باركتِهما؟"

أعطته «آناندامو ا» الوردتين وهي تضحك، لقد كانت تدرك تماماً أنّه ليس من أجل جمالهما فهو حريص جداً على هاتين الوردتين، واِهتمامه بهما أعمق من الاِهتمام بالنبات. بعد أن غادر «بينوى»، حلمت لمدة طويلة بما سمعت وأخذت تصلّي بحماسة من أجل سعادة «غورا» ومن أجل ألاّ يحصل شيء يعكّر صداقته مع «بينوى».

الفصل الثاني والعشرون

للوردتين قصّة. في الأمسية التي غادر فيها «غورا» وحده منزل «باريش بابو» كان قد ترك المسكين «بينوى» محرجاً كثيراً جرّاء الاقتراح لتمثيل دور في المسرحية التي ستُعرَض بمناسبة عيد القاضي؛ لم تكن هذه المسرحية تشكّل حماسة بالنسبة إلى «لوليتّا»، وكان الموضوع برمّته يقلقها، لكنها أرادت أن يساهم «بينوى» حصراً فيها. كان «غورا» يزعجها لذلك رغبت باستخدام «بينوى» لمعارضة رغبات «غورا» قدر الإمكان؛ هي نفسها لم تكن تدرك لماذا لا تحتمل تخيّل «بينوى» تابعاً لصديقه، لكن أياً كان سبب نفورها فهي لن تتنفس بحرية، حسب شعورها، إلاّ إذا توصّلت إلى سحب «بينوى» من تلك العبودية؛ هزّت رأسها بمكر وسألته:

- "لماذا يا سيّدي العزيز؟ ما هو انتقادك للمسرحية؟"

- "ربّما أنا لا أنتقد فيها شيئاً ، لكن مجرّد تمثيلها عند الحاكم يصدمني".

- "أهذا تفكيركَ الشخصي أم رأي أحد آخر؟"

- "إنّي لست مكلّفاً بالتعبير عن أفكار الآخرين، بالإضافة إلى أنّه ليس من السهل شرحها؛ إنّها آرائي الشخصية التي أقولها لكِ إمّا بتعابير خاصة بي أو ربّما أحياناً بتعابير الآخرين نفسها، قد تجدين صعوبةً في تصديقي".

اكتفت «لوليتّا» بالابتسام، ثم قالت بعد فترة وجيزة:

- "يبدو لي أنَّ صديقكَ «غورمُهان بابو» يعتقد أنَّ هناك فخراً في رفض دعوة القاضي، يرى في ذلك أسلوباً لمحاربة الإنكليز".

ردَّ «بينوى» باحتدام:

- "سواء أكانت فكرة صديقي أم لم تكن، إنّها بالتأكيد فكرتي؛ أليست حقاً أسلوباً لمحاربتهم؟ كيف نحفظ كرامتنا إن لم نرفض كل أنواع العبودية تجاه الذين يعتقدون أنّهم يشرّفوننا عندما يوجّهون لنا دعوة بخنصرهم؟"

لقد كانت «لوليتّا» فخورة بطبيعتها، وقد أعجبها تنويه «بينوى» إلى هذا الاهتمام بالكرامة، لكنها بالرغم من أنّها شعرت بضعف حجّتها، استمرّت بجرح «بينوى» بسخرياتها.

في نهاية الأمر قال لها «بينوى»:

- "اسمعي، لماذا النقاش بهذا الشكل؟ لماذا لا تقولين بصراحة "أودُّ أن تأخذَ دوراً في هذه المسرحية". عندها قد أتمكّن من الاستفادة بقليل من المتعة في التضحية بقناعاتي في سبيل طلبكِ".

فقالت «لوليتّا» مندهشة:

- "ياه عجباً! لماذا أقولها لك؟ لو كان لديك قناعة صادقة فلماذا كنتَ ستتراجع عنها بناءً على طلبي؟ أتحدّث عن حالة تكون فيها هذه القناعة هي حقاً قناعتكَ أنتَ".

فقال «بينوى»:

- "فليكن، لنفرض أنّه ليس لديّ قناعة خاصة بي، وبما أنّكِ لا تريدين أن أضحّي بها بناءً على طلب منكِ، لنقلْ بأنّي اقتنعتُ بحججكِ وقبلتُ لعب الدور".

ولمّا دخلت «بارودا» في هذه الأثناء، نهض «بينوى» وقال لها:

- "هل تتكرّمين وتعلّمينني ما ينبغي فعله للعمل على الدور الذي سألعبه؟

أجابت «بارودا» بازدهاء:

- "لا تهتمّ بذلك، سنتولّى نحن تعليمكَ، كل ما ينبغي عليكَ فعله هو حضور تدريبات المسرحية قبل العرض بشكل منتظم".

- حسن، إذاً أنا ذاهب الآن".

عندها أصرّت السيدة «بارودا» قائلة:

- "كلاّ، كلاّ، ينبغي أن تبقى على العشاء".

- "اعذريني هذه الليلة، أرجوك".

- "كلاّ، «بينوى بابو»، ابقَ حقاً".

وبقي «بينوى»، لكنه لم يشعر براحة كعادته، وحتّى «سوشاريتّا» ظلّت في هذه الأمسية مستغرقة في أفكارها، وهي لم تشارك في المناقشة مع «بينوى» بل قامت تتمشّى في الشرفة طولاً وعرضاً؛ على أيّة حال يبدو أنّ سلسلة الموضوعات المتبادلة قد انقطعت.

عندما استأذن «بينوى» من «لوليتّا» لاحظ أنّ تعبير وجهها جدّيّ، فقال لها:

- "هذا هو نصيبي، أعترف بهزيمتي، ومع هذا كلّه لم أتمكّن من إرضائك".

لكن «لوليتّا» لم تجب واستدارت، فهي لم تكن من البنات اللواتي يبكين من لا شيء، مع ذلك شعرت بالدموع في عينيها دون أن تستطيع مقاومتها، ماذا يجري إذاً؟ ما هو الدافع الذي أجبرها على القيام بمجهود لتجريح «بينوى»، ولم تحصد في النتيجة سوى تجريح نفسها بالذات؟ فقد ظلّ «بينوى» لمدة طويلة يرفض المساهمة في عرض المسرحية، لكن عناد «لوليتّا» ازداد، وما إن وافقَ، حتّى اختفت كل الحماسة التي عملت فيها لإقناعه؛ في الواقع، الأسباب التي كانت تحول دون مشاركته في المسرحية قد تعزّزت في ذهنها وأثارتها، فقلقت لفكرة أنّه ما كان ينبغي عليه أن يتنازل لإرضائها، وما أهمية فكرة إرضائها بالنسبة إلى «بينوى»؟ هل كان ذلك بداعي التهذيب، كما لو أنّها حريصة على أن يبدي تهذيبه؟ لكن لماذا تشعر الآن باستعداد مختلف تماماً؟ ألم تعمل ما بوسعها لإقناع المسكين "بينوى» للعب دور في المسرحية؟ كيف إذاً تغضب منه لأنّه تنازل عن موقفه مستسلماً لإصرارها ولو أنّه لم يتنازل إلاّ لياقةً؟ فحتى لو وصل بها الأمر حقاً إلى لوم

نفسها فقد ظلّت هذه المسألة تعني لها الكثير! بشكل عام عندما تضطرب كانت تذهب باحثة عن الدعم عند «سوشاريتّا»، لكنها في هذه الأمسية لم تذهب إليها، فهي لم تستطع أن تفهم نفسها ولماذا يخفق قلبها بهذه الطريقة، ولماذا تجهد لضبط دموعها.

في اليوم التالي حمل «سودهير» باقة ورد إلى «لابونيا»، وكان في منتصفها وردتان سحبتهما «لوليتّا» من الحزمة؛ وعندما سُئلت عن ذلك أجابت: "لا أحتمل رؤية ورود جميلة مسحوقةً داخل ربطة، أجد أنَّ ضغطها بهذه الطريقة هو فعل بربري"، حلّت ربطة الباقة ووزعت الورود على عدة مزهريات في كل أنحاء الغرفة، وبينما هي منهمكة بهذا التوزيع وصل «ساتيش» وصرخ:

- "من أين لكِ هذه الزهور الجميلة يا «ديدي»؟"

فسألته «لوليتّا»، بدون أن تجيب:

- "أليس في نيّتك اليوم الذهاب لرؤية صديقكَ؟"

إلى تلك الساعة لم يكن «ساتيش» قد فكّرَ في «بينوى»، لكن بعد هذا التنويه أخذ يرقص في مكانه وقال:

- "بكل تأكيد سأذهب إليه".

وعندما استعدّ للخروج أوقفته «لوليتّا» وسألته:

- "ماذا تفعلان عندما تكونان مع بعضكما".

فأجابها «ساتيش» بشكل مقتضب:

- "نتحدّث".

- "إنّه يعطيكَ الكثير من الصور، لماذا لا تعطيه شيئاً؟"

كان «بينوى» يقتطع كل أنواع الصور من المجلات الإنكليزية وكان «ساتيش» يضعها في كرّاس صورهِ، حتى أصبح ملء الصفحات شغفاً لديه،

فعندما يشاهد صورة ولو كانت في كتاب قيّم كانت أصابعه تتحرّق لهفة لقصّها، وقد جلبت هذه الهواية لرأسه المذنب كل ملامة أخواته؛ أمّا واقع أنَّ الهدية في هذا العالم تستوجب ردها بهدية أخرى، فقد ظهر بنظر «ساتيش» كفكرة غير مريحة، فهو لم يكن يملك الجرأة ليقرّر التنازل عن كنز من كنوزه التي كان يحفظها بحنان ضمن علبة حديدية فبدا القلق على قسمات وجهه؛ قرصت «لوليتّا» وجهه وقالت له:

- "لا أهمية لذلك، لا ترتبك ولا تهتمّ، أعطه هاتين الوردتين بكل بساطة".

فرح «ساتيش» لهذا الحلّ السهل لمسألته وذهب مع الوردتين ليسدّد الدين المبرم لصديقه، عندما صادف «بينوى» في الشارع ناداه:

- "«بينوى بابو» «بينوى بابو»!

وبعد أن خبّأ الزهور تحت ثيابه سأل:

- "احزر ما الذي أخبّئه هنا لك؟"

وعندما اعترف «بينوى» بالهزيمة كعادته أخرج «ساتيش» الوردتين الحمراوين، عندها صاح «بينوى» متعجباً:

- "كم هما جميلتان! لكن يا «ساتيش بابو» إنّهما بالتأكيد ليستا لك، فأنا لا أريد أن توقفني الشرطة وفي حيازتي أشياء مسروقة".

فجأة ساورت «ساتيش» الشكوك: هل يستطيع أن يزعم بأن تلك الورود هي ملكه؟ بعد برهة تفكير اعترف:

- "بالطبع لا! أختي «لوليتّا» هي من أعطاني إياها كي أحملها لكَ".

وبذلكِ حُلّت المسألة واستأذن «بينوى» من «ساتيش» واعداً بأن يأتي لزيارتهم بعد الظهر.

لم يستطع «بينوى» أن ينسى الألم الذي سببته له «لوليتّا» مساء الأمس، فهو ليس ذا مزاج خصاميّ أو مماحك، ولا يمكن أن يُنتظَر من أحدٍ

إذاً أن يوجّهَ له كلمات بهذه الفظاظة؛ في البدء اعتبرَ أنَّ «لوليتّا» قادرة أن تحذو حذو «سوشاريتّا» بكلِّ بساطة؛ لكن علاقته معها مؤخراً أصبحت تشبه علاقة فيلٍ أهلي مع سائسه بحيث يمنعه المهماز من نسيانه لدقيقة واحدة؛ اهتمامه الرئيسي كان إرضاء «لوليتّا» كي يوفِّر لنفسه السلام. البارحة عندما عاد إلى منزله، استذكر في ذهنه كل الكلمات الساخرة والحادّة، التي صدرت عن الصبية، استعادها كلمة كلمة الأمر الذي أفقده الراحة فلم يجد معه سبيلاً إلى النوم. "أنا لستُ سوى ظلّ لـ«غورا» ولا أملك آراء شخصية، كل هذا التوصيف خطأ بالمطلق، لكن «لوليتّا» مقتنعة به وتكرهني"، هكذا كان سياق ملاحظاته، ثمَّ راح فكره يستجمع كل الحجج المحتملة لإسقاط هذا الرأي؛ غير أنَّ هذه الحجج لم تكن لتفيد في شيء لأنَّ «لوليتّا» لم يسبق أن وجّهت له اتهاماً واضحاً، وقد تجنّبت إعطاءه الفرصة لمناقشة هذه الاتهامات.

لم تكن الأجوبة السريعة اللاذعة تنقص «بينوى» ليحتجّ بها، لكن الفرصة لم تتح له لعرضها أبداً وهذا ما كان يعذّبه؛ أمّا الخاتمة الأنكى، فهي أنّه حتى عندما اعترف بهزيمته، لم تُظهر «لوليتّا» رضاها، الأمر الذي زاد الطين بلّة وانتهى بتكديره، فصار يتساءل في قرارة نفسه بمرارة "هل أستحق هذا الكره؟" في هذه الظروف، وعندما علم من "ساتيش» أنَّ «لوليتّا» قد أرسلت له تلك الورود، تهلّل وجهه فرحاً، ورأى فيها قرباناً للمصالحة معدّاً للاعتراف باستسلامها؛ رغب أولاً في أن يأخذها إلى منزله ثم قرَّر قبل كل شيء أن يقدّسها بوضعها عند قدميّ الأمّ «آناندامو ا».

عندما وصل «بينوى» في مساء اليوم نفسه الى منزل «باريش بابو» كانت «لوليتّا» تُسمّع لـ«ساتيش» دروسه؛ وأول كلمات «بينوى» لها كانت:

- "الأحمر هو لون الحرب، وورود المصالحة كان ينبغي أن تكون بيضاء".

نظرت إليه «لوليتّا» مذهولة دون أن تفهم ماذا يقصد بقوله هذا، عندها سحب من شاله باقة من الدفلى البيضاء وقدّمها لها قائلاً:

- "جمال زهورك غير مهم إذ لا تزال تحمل في داخلها لذعة غضب، أمّا ورودي، فصحيح أنَّه لا يمكن مقارنتها من الناحية الجمالية بورودك، مع ذلك لا تعتبر غير لائقة لتقبليها بثوب تواضعها الأبيض".

فسألته «لوليتّا» وهي تحمرّ خجلاً:

- "ماذا تسمّي ورودي؟"

تلعثم «بينوى» مرتبكاً وتمتم قائلاً:

- "هل أخطأتُ؟ من أين أتيتَ بالورود التي أعطيتني إياها يا «ساتيش بابو»؟

فردَّ «ساتيش» وهو مغتاظ بشكل واضح:

- "هيا! إنّها «ديدي لوليتا» هي التي قالت لي أن أعطيها".

- "ولمن قالت لك أن تعطيها؟"

- "لكَ بكل تأكيد".

احمرَّ وجه «لوليتّا» أكثر من أي وقت مضى ودفعت «ساتيش» بتبرّم وقالت له:

- "لم أرَ في حياتي صبياً بهذا الغباء، ألم تكن ترغب بتقديم هذه الورود إلى «بينوى بابو» لتشكره على صوره؟"

فصرخ «ساتيش» متحيّراً تماماً:

- "أجل بالتأكيد، لكن ألم توصيني بتقديمها له؟"

أدركت «لوليتّا» أنَّ متابعة المناقشة مع «ساتيش» لن تزيدها إلاّ إحراجاً، لأن «بينوى» رأى بوضوح أنَّها هي من أرسلها ولم تكن تريد أن يعرف ذلك. فقال لها:

- "هذا غير مهم، إنّي أتخلّى عن حقّي في ورودك، لكن اسمحي لي أن أؤكد لك بأنَّه ما من شك في حقك بورودي، هي مقدَّمة من أجل مصالحة لإنهاء شجارنا".

وبحركة من رأسها تبرهن عن نفاد صبرها، قاطعته قائلة:

- "متى تشاجرنا وما هي هذه المصالحة التي تتكلّم عنها؟"

فقال «بينوى» متعجباً:

- "كل شيء إذاً كان مجرد وهم من البداية إلى النهاية، لا شجار ولا ورود ولا مصالحة، فمقولة "ليس كل ما يبرق ذهباً" غير كافية إذ لا شيء البتّة قد يبرق، وذلك الاقتراح بلعب دور في الكوميديا، هل يصدَّق...؟؟

- إنَّه واقع، لكن دون أيّة مشاجرة، لماذا تتخيّل أنّي قمتُ بتدبير مؤامرة بغية الحصول على موافقتكَ؟ لقد وافقتَ وكنتُ سعيدة جداً بذلك، هذا كل شيء؛ لكن إذا كان لديك اعتراض جدّي على لعب دور في المسرحية، لماذا وافقتَ، سواء أتى الطلب مني أم من أحد آخر؟"

وعندما أنهت كلامها غادرت الغرفة.

دار كل شيء عكس إرادتهما؛ ففي الصباح ذاته كانت قد قرَّرت الاعتراف لـ«بينوى» بالخطأ الذي ارتكبته، كما قرَّرت أيضاً أن ترجوه لرفض لعب الدور، لكن الأحداث أخذت منحىً آخر.

موقف «لوليتّا» جعل «بينوى» يظن أنَّها لا تزال منزعجة من رفضه الأوليّ للمشاركة في المسرحية، وغاضبة من فكرة أنَّه وإن استسلم ظاهرياً، فهو يبقى في الحقيقة مائلاً للانحياز ضد العرض؛ لقد ندمَ «بينوى» بشدة لأنَّ «لوليتّا» أخذت الأمر بجديّة، وقرَّرَ أنَّه لن يقوم باعتراضات أبداً حتى على سبيل المزاح، وأنَّه سينفّذ دوره في المسرحية باجتهاد وكفاءة كبيرين حتى لا يخطر ببال أحد أنَّه غير مكترث.

في هذه الأثناء كانت «سوشاريتّا» جالسة في غرفتها منذ الصباح تحاول قراءة كتاب(١) في التقوى بعنوان «الاقتداء بيسوع المسيح». فهي في

---

(١) كتاب "الاقتداء بيسوع المسيح" هو كتاب في التدين من القرن الخامس عشر الميلادي، مجهول إسم مؤلّفه. عن القاموس الفرنسي(لاروس – Lexis).

هذا اليوم لم تخصص وقتاً للأعمال المنزلية المناطة بها عادة. كان ذهنها يشرد في كل لحظة فتختلط صفحات الكتاب، حاولت استجماع انتباهها كلّه لتركّز على القراءة، رافضة القبول بضعفها، فقد ظنّت لفترة بأنّها تسمع صوت «بينوى»، وشعرت بدافع يدفعها لوضع كتابها على الطاولة والذهاب إلى الصالون. غير أنّها غضبت من نفسها لعدم اهتمامها بما تقرأه فعادت وجلست وأخذت الكتاب بيدها ثانية وسدّت أذنيها كي لا يلهيها الضجيج ويزعجها. عندما كان «بينوى» يأتي لزيارتهم كان «غورا» يرافقه في أغلب الأحيان، وهي الآن لا تستطيع أن تمنع نفسها من التنصت لتعرف إن أتى معه أم لا؛ فهي تخشى حضوره، ثم إنّها تقلق من فكرة أنّه امتنع عن المجيء، وبينما كانت فريسة هذه الحيرة رأت «لوليتّا» تدخل، فتعجّبت لرؤية وجه أختها وقالت لها:

- "ماذا يحصل يا حبيبتي؟"

فأجابت «لوليتّا» وهي تهزّ رأسها:

- "لا شيء".

- من أين أتيت؟"

- "«بينوى بابو» هنا، وأظن أنّه يودُّ أن يكلّمكِ".

لم تتجرأ «سوشاريتّا» على السؤال إن كان أحد آخر برفقة «بينوى»، لو كان أحد برفقته لأشارت «لوليتّا» إلى ذلك بالتأكيد؛ ومع ذلك ظلّت «سوشاريتّا» غير متيقّنة من الأمر، في النهاية خرجت وهي مقرِّرة أن تقوم بواجبات الضيافة مهما يحصل، غير آبهة بقرارها في قمع فضولها. فسألت «لوليتّا»:

- "ألا تأتين معي؟"

فأجابت «لوليتّا» بقليل من التلهّف:

- "اذهبي أنتِ أولاً ثم ألحق بك بعد ذلك".

عندما دخلت إلى الصالون لم تجد سوى «بينوى» و«ساتيش» يتحادثان، فقالت:

- "لقد خرج أبي، لكنه سيعود قريباً، واصطحبت أمّي «لابونيا» و«ليلا» إلى الأستاذ كي يعلّمهما دورهما، وكلّفتنا في حال حضوركَ أن نرجوكَ انتظارها".

فسألها «بينوى»:

- "وأنتِ، ألن تلعبي دوراً؟"

- " إذا كان الجميع سيمثّل في المسرحية فلن يكون هناك متفرّجون".

عندما يجتمع «بينوى» و«سوشاريتّا» عادة لا يتوقّفان عن الكلام، لكن في هذا اليوم بالذات كان هناك حاجز خفي يمنعهما من التحدث مع بعضهما بحريّة؛ وكانت «سوشاريتّا» قد قرَّرت ألاّ تخوض الموضوع العادي أي موضوع «غورا» ، كما أنَّ «بينوى» أيضاً كان يجد صعوبة في ذكره لأنَّ «لوليتّا» وباقي أفراد العائلة، كانوا ينظرون إليه كمجرد تابع لصديقه. بعد تبادل بضع كلمات مع «بينوى» لم تجد «سوشاريتّا» مخرجاً آخر إلاّ مناقشة «ساتيش» حول مزيّة كرّاس الصور الذي بدأ ينظمه وقيمته من عدمها، فوجدت وسيلة لإغضاب «ساتيش» بنقدها طريقته في ترتيب الصور، فأصبح «ساتيش» عصبياً وصار يناقش بصوتٍ حاد.

في هذه الأثناء كان «بينوى» يتأمّل بعين حزينة باقة ورود الدفلى التي أُهملتْ وبقيت على الطاولة، وفي كبريائه المجروحة أخذ يفكّر "كان ينبغي على «لوليتّا» أن تقبل الورود التي حملتُها إليها، على سبيل التهذيب واللياقة وهو أضعف الإيمان".

فجأة سُمِعَ صوت خطوات فقفزت «سوشاريتّا» عندما رأت «هاران» يدخل، كانت مفاجأتها قوية جداً بحيث شعرت بها واحمرَّ وجهها تحت نظرات «هاران». فقال «هاران» لـــ«بينوى» وهو يجلس:

- "هل أتى صديقكَ «غورمُهان بابو» اليوم؟"

فسأله «بينوى» الذي يزعجه هذا السؤال عديم الفائدة:

- "لماذا؟ هل أنتَ بحاجة إليه؟"

فردَّ «هاران» قائلاً:

- "نادراً ما نراك بدونه، لذلك طرحتُ عليكَ السؤال".

انزعج «بينوى» وخشي أن يظهر ذلك على وجهه فقال بسرعة مفاجئة:

- "إنَّه ليس في «كالكُتّا»".

فقال «هاران» بتهكّم:

- "لقد ذهب ليقوم بجولة تبشير على ما أعتقد".

ازداد غضب «بينوى» ولزم الصمت. غادرت «سوشاريتّا» الغرفة دون أن تقول شيئاً، فقام «هاران» ولحق بها، لكنها اختفت بسرعة كبيرة ولم يستطع اللحاق بها فناداها:

- "«سوشاريتّا»، أودُّ أن أكلمكِ".

فأجابت:

- "إنني تعبة". وذهبت لتنفرد في غرفتها.

في هذه الأثناء وصلت السيدة «بارودا» واستدعت «بينوى» إلى جانبها لتنقل له تعليماتها حول موضوع المسرحية؛ عندما عاد بعد فترة تبيّن له أنَّ وروده قد اختفت.

لم تظهر «لوليتّا» في هذه الأمسية للتدرُّب على تجربة المسرحية. أمّا «سوشاريتّا» فقد ظلّت وحدها في غرفتها إلى ساعة متأخرة من الليل وكتاب «الاقتداء بيسوع المسيح» على ركبتيها، ونظرها زائغ في ظلمة الخارج. لقد خُيِّلَ لها أنَّ بلداً مجهولاً رائعاً قد ظهر أمام عينيها كسراب يغيّر نمط كل

تجارب ماضيها بالكامل، أمّا الأنوار التي كانت تبرق في الظلمات ككوكبة نجوم في ليل داكن، فقد أصابت روحها بقلق خفي بعيد وفائق الوصف، ثمَّ أخذتها الأفكار فصارت تحدّث نفسها:

"كم كانت حياتي عبثية! والآن، طوّقت الشكوك قناعاتي السابقة وفقدت أفعالي اليومية كل قيمة، ربّما في ذاك البلد المجهول والمرعب، هل ستكون معرفتي الحقيقية لمثلٍ أعلى عظيم وسعيي لفهمه كلّياً - ما يضفي معنىً على حياتي - أمراً ممكن الحدوث؟ من الذي ساقني أمام الباب السرّي لهذا المكان المجهول الذي يبدو في منتهى الغرابة والفظاعة؟ لماذا يخفق قلبي بهذا الشكل، ولماذا لا تستجيب لي أعضائي؟"

الفصل الثالث والعشرون

جهدت «سوشاريتّا» لتستغرق في قراءة كتابها أو الانفراد في غرفتها لأيام عدّة، وكانت تصلّي كثيراً، وبدت كأنّها بحاجة ملحّة أكثر فأكثر لدعم «باريش بابو». ذات يوم كان يقرأ وحيداً في غرفته، فدخلت «سوشاريتّا» وجلست إلى جانبه دون أن تحدِث جلبة، عندها وضع كتابه وسأل:

- "ماذا في الأمر يا حبيبتي «رادها»؟"

- "لا شيء يا أبي".

أجابت وهي ترتّب الكتب والأوراق على المكتب مع أنّ كل شيء كان مرتّباً، وبعد برهة من الزمن سألته:

- "لماذا لم تعد تقرأ معي كالسابق يا أبي؟"

فأجابها «باريش بابو» بابتسامة ملؤها الحنان:

- "تلميذتي لم تعد بحاجة إلى تعليمي، أصبح الآن بإمكانكِ أن تفهمي بنفسك ما تقرأين".

فاحتجّت «سوشاريتّا» قائلة:

- "كلاّ، لستُ قادرة على فهم شيء أبداً، أفضّل أن نقرأ معاً كما كنا نفعل في السابقْ".

قبِل «باريش بابو» مسلّماً:

- "حسن، فليكن، سنبدأ غداً".

بعد صمت وجيز قالت «سوشاريتّا» فجأة:

- "لماذا لم تشرح لي أبداً ما كان يقوله «بينوى بابو» في المرّة السابقة عن موضوع الطبقات؟"

- "تعلمين تماماً يا بنتي العزيزة أني رغبت دوماً أن تتعلّم بناتي التفكير وحدهنَّ وألاّ يكتفينَ بتبنّي آرائي أو آراء أحد آخر دون محاكمتها والتأمّل فيها بعمق. إنَّ اقتراح نظرية لا على التعيين قبل أن تكون هناك مسألة مطروحة في الذهن أمر يعادل تقديم الطعام لإنسان ليس جائعاً، وهذا يُفسد الشهيّة ويؤدّي إلى عسر الهضم، ولكن في كل مرّة تسألينني فيها سأكون مستعداً لأقول لكِ ما أعرفه".

فقالت «سوشاريتّا»:

- "حسن، أسألكَ إذاً لماذا نُدينُ التمييز بين الطبقات؟"

- "ليس هناك من ضرر إن جلس هرٌ بقربك وأكل، ولكن بمجرّد أن يدخل بعض الناس إلى الغرفة، تصبحين مجبرة على رمي طعامكِ، كيف لا نُدين هذا النظام الذي يحمل هذا الاحتقار وهذه الإهانة من إنسان إلى آخر؟ إن لم نسمِّ ذلك بحدِّ ذاته ظلماً فأنا لا أدري ما معنى الظلم! إنَّ الذين يحملون مثل هذا الكره تجاه إخوانهم البشر لا يمكنهم الارتقاء إلى مستوى السموّ الأخلاقي، وهم بدورهم يشجّعون البغضاء".

فقالت «سوشاريتّا» مكرِّرة فكرة كانت قد سمعت «غورا» يشرحها:

- "الانحطاط الحالي لمجتمعنا قد ولَّد الكثير من المثالب، وهذه المثالب تتجلّى في كلّ تفاصيل حياتنا، فهل نحن مفوَّضون بانتقاد الأساس العميق لمؤسساتنا انطلاقاً من هذا الوضع؟"

ردَّ «باريش بابو» برقّته العادية:

- " لو كنتُ أعلم أين أجد هذه القاعدة العميقة التي تتكلّمين عنها لاستطعتُ أن أجيبكِ. لكن ما أراه اليوم في بلدنا هو البغض غير المقبول

للإنسان تجاه أخيه الإنسان، الأمر الذي يقسّم ويفتّت شعبنا، وفي هذه الظروف، هل بإمكاننا أن نواسي أنفسنا بالبحث عن دعم لقاعدة عميقة وهمية؟"

فقالت «سوشاريتّا» وهي تردّدُ أقوال «غورا» من جديد":

- " ألم يتكوّن جوهر إحدى الحقائق الأساسية الراقية التي أحياها بلدنا والتي تقول: إنَّ كلَّ البشر سواسية بتجرّد ونزاهة؟

فقال «باريش بابو»:

- "هذه الرؤية الحيادية كانت تحقيقاً فكرياً مستقلاً عن القلب، ولم تكن تحمل لا حبّاً ولا كرهاً بل كانت تصعّد كل العواطف، لكن حساسية الإنسان لا يمكن أن تكتفي بفكرة تجريدية غريبة جداً عن اِحتياجاته، لهذا السبب، ورغم هذه المساواة التي تصورّها الفلاسفة، نرى أنَّ الطبقات الدنيا تُمنَعُ حتى من دخول معابد الألوهة، فإذا لم تكن المساواة موجودة في بيوت الله، فما أهميّة أن نستطيع تبنّي المفهوم في فلسفتنا".

ظلّت «سوشاريتّا» صامتة تعيد في ذهنها أقوال "باريش بابو» جاهدة في متابعتها، ثم سألته في النهاية:

- " إذاً، لماذا يا أبي لم تشرح هذه الأمور لـــ«بينوى بابو» وصديقه؟"

اِبتسم «باريش بابو» اِبتسامة خفيفة ثم أجاب قائلاً:

- "إنّهما لن يستوعبا، لكن ليس لنقص في الذكاء بل لأنّهما ذكيّان جداً لذلك لا يميلان للفهم، بل يفضّلان شرح الأفكار للآخرين. إن حصل ورغبا حقاً بالفهم ذات يوم وتبنّيا بنفسيهما وجهة نظر الحقيقة العظمى أي العدالة، فلن يعودا بحاجة لذكاء أبيكِ كي يشرح لهما ذلك، وجهة نظرهما مختلفة تماماً في الوقت الراهن وكل ما يمكن أن أقوله لهما لن يفيدهما في شيء".

مع أنَّ «سوشاريتّا» قد أصغت باِحترام إلى خطابات «غورا»، إلاّ أنَّ تضارب الآراء الذي يباعد بين القيم التي يستقي منها كلٌّ من «غورا» وأبيها

قد آلمها ومنعها من إيجاد دعم للنتائج التي خلصَت إليها؛ وخلال حديث «باريش بابو» شعرت بهدوءٍ مؤقّتٍ للصراع النفسي الذي كانت تعاني منه. لقد كانت عاجزة ولو لثانية واحدة عن قبول فكرة أنّ «غورا» أو«بينوى» أو أي شخص آخر يمكن أن يحيط بموضوعٍ ما أفضلَ من «باريش بابو»؛ وعلى العكس، فهي لم يسبق لها أن قمعت أي نوع من أنواع الغضب ضد الذين تناقض آراؤهم آراء أبيها؛ غير أنّها مؤخراً، لم تكن لديها القوة لرفض نظريات «غورا» مع الاستخفاف التلقائي الذي شعرت به في السابق، ومن هنا أحسّت برغبة قلقة في الاحتماء باستمرار تحت جناح «باريش بابو» كما كانت تفعل عندما كانت طفلة. نهضت، وعندما وصلت إلى الباب عادت على أعقابها ووضعت يدها على كرسي «باريش بابو» وقالت:

- "هل تأذن لي يا أبي، أن أجلس بالقرب منكَ أثناء تأمّلك في المساء؟"
- "بالتأكيد يا حبيبتي".

انسحبت «سوشاريتّا» في نهاية الأمر إلى غرفتها وبعد أن أغلقت الباب جلست وجهدت لنبذ كل ما قاله «غورا» ، لكن وجه «غورا» المشرق بيقين راسخ كان يبرز أمامها، ففكّرت في قرارة نفسها: "أقوال «غورا» ليست مجرّد كلمات، إنّها «غورا» بذاته، خطاباته لها شكل وحركة وهي مليئة بالحياة، فهو يعظّم من سلطة الإيمان ومن الألم الذي يوحيه حبّ الوطن، آراؤه ليست من النوع الذي ننتهي بالتناقض معه، إنّها الإنسان بكامله الذي هو بالتأكيد ليس إنساناً مألوفاً".

كيف سيكون لديها الشجاعة لرفع يدها ضدّه كي تنبذه؟ شعرت أنّ صراعاً رهيباً قد نشب في داخلها، فانفجرت تنتحب.

أن استطاع «غورا» وضعها في حالة مريعة للغاية ومع ذلك تخلّى عنها دون ندامة، كان ذلك أمراً فتّت قلبها، وبمشاعر التفتّت هذه، أحسّت بخجل مرير.

الفصل الرابع والعشرون

تقرَّر أن يلقي «بينوى» قصيدة لـ«دريدن»[1] حول «سلطان الموسيقا» بأسلوب دراماتيكي، وفي الوقت نفسه تقوم الفتيات بتشكيل لوحات تمثّل موضوع القصيدة باللباس المناسب. بالإضافة إلى ذلك سيغنين وينشدن باللغة الإنكليزية. كانت السيدة «بارودا» قد أكّدت لـ«بينوى» مرّات عديدة أنّه ستتم تهيئته بشكل كامل لليوم المنتظر؛ في الحقيقة لم تكن «بارودا» نفسها تعرف من اللغة الإنكليزية إلاّ القليل، لكنها كانت تتّكِل على مساعدة صديقين أو ثلاثة من أصدقائها الضليعين في هذه اللغة.

غير أنَّ «بينوى» فاجأ هؤلاء الخبراء بإلقائه المثالي في يوم التجربة فوجدت «بارودا» نفسها محرومة من متعة إرشاد القادم الجديد، وحتّى الذين لم يُبدوا اعتباراً خاصاً لـ«بينوى» وجدوا أنفسهم مجبرين على احترامه لإتقانه اللغة الإنكليزية، حتى إنَّ «هاران» طلب منه أن يساهم بمقالات في تحرير صحيفته، وأصرَّ «سودهير» عليه أن يلقي محاضرات باللغة الإنكليزية في حلقة الطلاب التي يشرف عليها.

أمّا بالنسبة إلى «لوليتّا» فقد كانت تفكِّر بطريقة غريبة: كانت تُسَرّ من بعض النواحي لأن «بينوى» لا يحتاج لمساعدة أحد وفي الوقت نفسه كانت مغتاظة من ذلك، لقد كانت قلقة من فكرة أنَّ «بينوى» قد وعى الآن قدراته ولا ينتظر ليتعلّم منهم أي شيء مهما كان؛ أمّا ما تريده «لوليتّا» حقاً من

---

(١) Dryden

«بينوى» - وقد يكون قابلاً لأن يعيد إليها السلام النفسي- فهي بنفسها لم تفلح في اكتشافه، وبالتالي كان استياؤها يظهر من أدنى حادثة، وكان «بينوى» هو الذي يتعرّض للتبعات وكأنّه مرمى لسهامها؛ كانت تعاني من ذلك وتحاول جاهدة أن تسيطر على نفسها، لكن أصغر ذريعة كانت توقعها في هذا الغيظ الحميمي، وكان غضبها ينفجر بشكل لا يمكنها شرحه؛ فبعد أن ألحّت على «بينوى» وضايقته كي يوافق على المشاركة بمشروعهم، ها هي تزعجه الآن كي ينسحب، لكن في هذه المرحلة من مشروعهم هل يكون بإمكان «بينوى» الانسحاب دون أن يعرّض كل مخططاتهم للفشل؟ من جهة أخرى، ودون شك، مع اكتشاف قدراته غير المنتظرَة، لم يبدِ هو نفسه أيّة رغبة في الانسحاب.

في نهاية الأمر قالت «لوليتّا» لوالدتها:

- "إنّه من المستحيل بالنسبة إليّ أن أستمرّ حقاً في تهيئة هذا العرض".

كانت السيدة «بارودا» تعرف ابنتها الثانية تماماً، فسألتها بذهول:

- "لماذا؟ ما الذي حصل إذاً؟"

- "لا أستطيع، هذا هو الأمر بكل بساطة".

في واقع الأمر، منذ أن تراجعت عن اعتبار «بينوى» كمبتدئ، شعرت بعدم الرغبة في إلقاء القصيدة بحضوره وفي تنفيذ اللوحة الحيّة التي كانت مكلّفة بها، وكانت تدرس وتعيد وحدها ما لم يكن مناسباً أبداً بالنسبة إلى الآخرين كلّهم، وبما أنّها لم تبدِ استعداداً للعمل معهم فقد استسلموا في النهاية وقاموا بالتجربة وحدهم؛ لكن عندما أعلنت في آخر لحظة عن نيتها عدم المشاركة في العرض المسرحي، شعرت «بارودا» بالحيرة واليأس، فهي تعرف جيداً أن أي كلام أو فعل منها لن يجدي نفعاً، وأخيراً وجدت نفسها مجبرة على الاستعانة بـــ«باريش بابو» الذي لم يكن ليهتمّ أبداً بأذواق بناته واختياراتهنّ في مجالات ليست ذات أهميّة كبيرة كهذه المناسبة، ولكن بما أنّ

العائلة قد التزمت تجاه القاضي ولم يبقَ وقت لتغيير المخططات، فقد استدعى «باريش بابو» «لوليتّا» وسألها وهو يداعب شعرها:

- "ألا تعتقدين يا «لوليتّا» بأنّكِ تخطئين بانسحابكِ الآن؟"

فقالت «لوليتّا» والدموع في صوتها:

- "لا أستطيع لعب الدور يا أبي، إنّه يفوق قواي".

- "لن تكون الخطيئة خطيئتكِ إن أنتِ لم تحسنيه، أمّا إذا امتنعتِ عن تنفيذه فستصبحين أنتِ الملومة".

حنت «لوليتّا» رأسها بينما تابع أبوها كلامه:

- "يا حبيبتي، عندما تقرّرين تحمّل مسؤولية ما فينبغي القيام بها حتى النهاية، لقد فات الأوان ولا يصحّ أن تحاولي الانسحاب، حتى لو تأذّى كبرياؤكِ، ألا تستطيعين تحمّل هذا الانزعاج للقيام بما ينبغي عليكِ فعله؟ ستحاولين أليس كذلك يا حبيبتي؟"

فقالت «لوليتّا» وهي ترفع عينيها باتجاه أبيها:

- "سأحاول".

في مساء اليوم نفسه، بذلت مجهوداً كبيراً، ونبذت التردّد الذي سبّبه لها وجود «بينوى» وقامت بدورها بحماسة أقرب إلى التحدّي، وكانت تلك أول مرّة يسمع فيها «بينوى» إلقاءها، وقد دُهش حقاً من قوّة ووضوح أسلوبها، ومن الثقة الذكيّة التي كانت تؤدّي بها القصيدة الشعرية؛ بهجته تجاوزت انتظاره، وظلّ صوت المؤدّية يرنّ في أذنيه لمدة طويلة بعد أن سكتت.

يضفي الإلقاء الممتاز لقصيدة شعرية سحراً استثنائياً على المستمع، كما وتعكس القصيدة روعتها على منشدها كما تفعل الورود بالغصن الذي يحملها، فبالنسبة إلى «بينوى» غدت «لوليتّا» منذئذٍ محاطة بالشعر.

كانت «لوليتّا» حتى ذلك اليوم قد أبقت الشاب في قلق جرّاء نقدها اللاّذع، ولم يصل «بينوى» إلى إدراك الفرق في معنى ما تقوله «لوليتّا»، فهو

لم يبلغه منها إلاّ الكلمات الجارحة والنظرات التهكّمية، ذلك لأن الإنسان يضع يده باستمرار على الموضع المؤلم في جسده؛ لقد انحصرت كل أفكاره وملاحظاته المتعلّقة بهذه الصبيّة في مجهود واحد لمعرفة ما الذي يدفعها إلى أقوال لاذعة بحقّه، وكلّما بدا له نفورها منه غامضاً زاد عذابه وجهد خياله لفهمها.

هذا الانشغال كان غالباً موضوع تفكيره الأول عندما يستيقظ، وكلّما سار باتجاه منزل «باريش بابو» كان يشعر بقلق لمعرفة كيف سيكون مزاج «لوليتّا»، فإن بدت لطيفة صدفة فإنّ ذلك الثقل الهائل سينزاح عنه، وهنا تبرز مسألة مهمة بالنسبة إليه وهي الحفاظ على هذه الوضعية، إنّها مسألة يتجاوز حلّها إمكانياته بالتأكيد.

تبدّد القلق الذي لم يفارقه في الأيام الأخيرة، لأنّ الأسلوب الذي أنشدت به «لوليتّا» القصيدة الشعرية أثّر فيه وحرّك مشاعره بطريقة غريبة وعميقة، لا سيما وأنّه كان يشعر بعجزه عن التعبير عن المتعة التي كان يحسّها؛ كما أنّه لم يجرؤ على إبداء أي تعليق أمام «لوليتّا»، لعدم تيقّنه إن كان مديحه سيُقبَل، وإن كان الرضى سيتجلّى كنهاية عاديّة بعد الثناء؛ كان هناك احتمال كبير ألاّ يتجلّى لأنّ الحالة كانت طبيعية تماماً. عندما ذهب «بينوى» إلى السيدة «بارودا» وانحنى أمامها معبّراً عن إعجابه بنجاح «لوليتّا»، وهذا ما زاد – أكثر فأكثر – من تقدير «بارودا» لحكمة «بينوى» وذكائه.

لم يكن تأثير الحدث على الطرف الآخر أقل غرابة، فما أن أدركت «لوليتّا» أنّ إلقاءها كان جيداً، وأنّها صمدت ضدّ الأمواج التي كانت تتهدّد زورقها الصغير كسفينة قادرة على الملاحة وقت المدّ، حتّى زال غضبها كلّه تجاه «بينوى»، ولم يبقَ أي أثر لرغبتها في جرحه؛ وأصبحت منذ ذلك الحين تبدي نشاطاً وحماسة كبيرين في التجارب، وبذلك غدا وجودها مع «بينوى» أكثر تكراراً، كذلك لم تبدِ أي نفور أو تردد في طلب النصيحة منه؛ لقد كان هذا التغيير في موقف «لوليتّا» منه أشبه بحجرٍ قد تمّ رفعه من فوق صدره،

فصار يشعر بأنَّ قلبه خفيف جداً، وأنَّه يرغب في الذهاب إلى «آناندامو» ليلعب إلى جانبها دوره كولد عفريت كعادته. أفكار شتى راودت دماغه كان يودُّ لو يناقشها مع «سوشاريتا»، لكنه لم يعد يراها أبداً منذ بعض الوقت، وعندما كانت الفرصة تتوفَّر خلال حديثها القصير مع «لوليتا» فقد كان يتمسك بالحديث معها، إلاَّ أنَّه كان يشعر بضرورة اتخاذ العديد من الاحتياطات، لأنَّه كان يعلم أنَّها تمتلك روح النقد الذي يوجِّه أحكامها بحقِّه وبحقِّ صديقه، الأمر الذي كان يجعله يمتنع عن التعبير بتلقائيته الطبيعية. كانت «لوليتا» تسأله أحياناً: "لماذا تتحدّث بأسلوب كتبيٍّ؟" وكان يجيبها: "لقد أمضيت حياتي في القراءة، فأصبح عقلي دون شك أشبه بصفحة مطبوعة".

وتقول له «لوليتا» من جديد: "أرجوكَ، لا تحاول أن تتحدّث بهذا الشكل الجيّد، قل ما تفكِّر فيه، فأنتَ تعبِّر عن نفسكَ بشكل ممتاز ما يجعلنا نظنّ أنّك تعرض أفكار غيرك بكل بساطة". لهذا السبب، كان – عندما تحضره أيّة فكرة متعلّقة بعلم المنطق – يجهد لإيجازها وتبسيطها أمام «لوليتا»، وعندما ينسى – عرَضاً – مقارنة ما، كان يخجل من ذلك.

أمّا «لوليتا» نفسها فقد أشرقت ملامحها كما لو أنَّ تلك الغيمة المبهمة قد انقشعت . دهشت السيدة «بارودا» لمشاهدة هذا التحوّل الحاصل عند ابنتها، فهي لم تعد عدوانية كالسابق جاهزة لاستقبال كل ما يُعرَض عليها بالاعتراض، بل على العكس من ذلك أصبحت توافق بمودّة على ما يباشر به الآخرون، وصارت تفحمهم بغزارة أفكارها واقتراحاتها بالنسبة إلى المسرحية التي كانوا قد باشروا بتهيئتها؛ في هذا المجال، بدت «بارودا» أحياناً معتدلة باهتمامها بتناسق مشاهد المسرحية، لأنَّها وجدت نفسها الآن محرجة من حماسة ابنتها كما كانت أولاً محرجة من عدم حماسها.

وبما أنَّ «لوليتا» قد امتلأت الآن بهذا الحماس الجديد فقد أخذت تبحث باستمرار عن «سوشاريتا» وتنتظرها وهي مهتاجة، ولكن بالرغم من أنَّ

«سوشاريتّا» كانت تتحدّث معها وتضحك إلاّ أنّ «لوليتّا» كانت تشعر ببرودة في حضور أختها، وتعود في كل مرّة مع خيبة أمل خفيفة.

في أحد الأيام ذهبت إلى «باريش بابو» وقالت له: "إنّه ليس من العدل يا أبي أن تظلّ «ديدي» جالسة بكل هدوء مع كتبها بينما نحن نجهد كالعبيد من أجل تقديم مسرحيتنا، لماذا لا تأتي معنا؟"

كان «باريش بابو» نفسه قد لاحظ أنّ «سوشاريتّا» تبدو وكأنّها تنعزل عن رفيقاتها، وخشي أن يؤثّر مزاجها هذا بالإنفراد وحدها سلباً عليها ويؤذيها، وهكذا جعلته ملاحظة «لوليتّا» يخشى أن تعتاد «سوشاريتّا» على هذا الميل للانعزال، حتى عندما تكون مدعوة لتشارك الآخرين في التسلية، فأجاب «لوليتّا»: "لماذا لا تخبري والدتك بذلك؟"، فقالت «لوليتّا»:

- "سأحدّث والدتي بذلك، لكن ينبغي أن تقنع «ديدي» أنتَ بنفسك، وإلاّ فلن تسلّمَ أبداً".

وعندما حدَّث «باريش بابو» - في نهاية الأمر - «سوشاريتّا» بالموضوع فوجئ بأنّها لا تتذرّع بأيّ عذر واهٍ بل توافق فوراً على القيام بالمهمة التي يكلّفونها بها.

عندما خرجت من انزوائها أراد «بينوى» أن يستعيد معها الحميمية التي كانت بينهما سابقاً ويتابع أحاديثهما، ولكن يبدو أنّه قد طرأ تغيير ما خلال تلك الفترة يمنعها من تجديد تلك العلاقة، التحفظ الذي كان على الدوام مسألة حسّاسة في موقف الصبيّة وتصرّفها تجاه «بينوى» إزداد الآن رغم إجتماعهما في تجربة المسرحية، فلم يعد يجرؤ على فرض نفسه عليها لشدّة ما أصبحت نظراتها غامضة وتعبير وجهها مترفّعاً؛ لقد كانت تكتفي بلعب دورها ثم تغادر الصالة وبذلك كانت تتهرّب منه أكثر فأكثر.

إنّ غياب «غورا» أتاح لـ«بينوى» فرصة إقامة علاقات أكثر حميمية مع عائلة «باريش بابو» وكلّما استسلم لتلقائيته إزداد إنجذاب الجميع نحوه،

وازداد أيضاً تمتعه بتجربة هذه الحرية الصريحة التي لم يعرفها أبداً من قبل. في هذه الظروف شعر بتراجع «سوشاريتّا» محاولة الابتعاد عنه. لو كانت الظروف مختلفة لشعر بألم قاسٍ من هذه الخسارة، لكنه تحمّلها دون صعوبات كبيرة. وقد نندهش من أنّ «لوليتّا» - وقد لاحظت التغيير الحاصل عند «سوشاريتّا» - لم تلمها عليه كما كانت تفعل في الماضي. هل كان ذلك يا ترى بسبب الحماسة التي أضفتها عليها المسرحية والإلقاء الذي كانت تستعد له؟ إنّهما أمران سيطرا عليها بالكامل؟

أمّا «هاران» فقد أخذته الحماسة هو أيضاً عندما رأى «سوشاريتّا» تشارك في المشاهد بين فصلي مسرحية، فاقترح أن يلقي مقطعاً من «الفردوس المفقود» وأن يقول بضع عبارات من قصيدة «سلطان الموسيقا» كمقدّمة لإنشاد رائعة «دريدن»؛ هذا الاقتراح أزعجَ السيدة «بارودا»، ولم تكن «لوليتّا» أيضاً راضية عن ذلك، لكن «هاران» كان قد كتب رغبته ورفعها إلى القاضي وحسم المسألة؛ ولمّا ألمحت «لوليتّا» إلى إمكانية اعتراض القاضي على إطالة الجلسة أسكتها «هاران» عندما أخرج من جيبه - مزهواً - رسالة شكر من القاضي.

لا أحد كان يعلم متى سيعود «غورا» من رحلته، وبالرغم من أنّ «سوشاريتّا» قرّرت أن تطرد المسألة من ذهنها، غير أنّ الأمل كان يعود إليها في كل يوم جديد فتتخيّل أنّ هذا اليوم ربّما سيكون يوم عودة المسافر؛ وخلال تلك الفترة التي كانت تشعر فيها بشكل حادّ بلامبالاة «غورا» وببلبلة أفكارها وفي الوقت نفسه بقلقها في البحث عن وسيلة للتخلّص من هذه الحالة المؤلمة، أتى «هاران» مرّة أخرى يرجو «باريش بابو» لإعلان خطوبته على «سوشاريتّا» باسم الإله.

احتجَّ «باريش بابو» قائلاً:

- "لكن لا يمكن إعلان الزواج قبل مدّة طويلة، هل تعتقد أنّه من الحكمة ارتباطكما أنتما الاثنان منذ الآن؟"

فأجاب «هاران»:

- "برأيي أنّه من الضروري لكلينا أن نجتاز مرحلة ما قبل الزواج ونكون خلالها مرتبطين، وستكون لروحينا فرصة مؤاتية لمعرفة هذا النوع من العلاقة الروحية التي تنقلنا من العلاقات الأولى التي ربطتنا قبل الزواج إلى وضع الزواج، أي رابط دون واجبات".

فقال له «باريش بابو»:

- "ينبغي عليكَ أن تتحرّى رأي «سوشاريتّا» في هذا الموضوع".

تابع «هاران» متمسّكاً برأيه:

- "لقد سبق ووافقَتْ".

غير أنَّ «باريش بابو» ظلَّ غير متيقّن من عواطف «سوشاريتّا» الحقيقيّة تجاه «هاران»، فذهب إليها وحدّثها عن طلب الخطوبة. لقد كانت «سوشاريتّا» مستعدّةً للتعلّق بأيّ نوع من الدعم للتغلّب على تشتّتها، فقبلت بسرعة ودون تردّد، فتبدّدت بذلك كل شكوك «باريش بابو» وشعر بعدها بارتياح كبير. ولكنه أخذ ينصحها من جديد بالتروّي والنظر بجديّة في المسؤوليات التي تتضمّنها فترة الخطوبة الطويلة، وإذا لم تبدِ أيّ اعتراض فقد يتّخذ القرار فوراً بعد عيد السيد «براونلو» لتعيين يوم للاحتفال بالخطوبة. أعطى هذا القرار لـــ«سوشاريتّا» الإحساس بأنَّ فكرها قد نجا من تنّين ملتهم، وصمّمت أن تستعدّ بقوة وصرامة لخدمة «البراهمو – ساماج» عندما تتزوج «هاران»؛ فصارت تذهب معه كل يوم لقراءة كتاب يعالج موضوعات دينية كي تصبح في المستوى الذي تستطيع معه أن تكيّف حياتها مع أفكار زوج المستقبل. بمجرّد أن فرضت على نفسها هذا الحمل الصعب والمزعج بالنسبة إليها، فقد أوحى لها ذلك شعوراً بالارتياح.

امتنعت «سوشاريتّا» في المدّة الأخيرة عن قراءة الصحيفة التي يديرها «هاران»، وبعد يوم واحد من اتخاذها هذا القرار، تلقّت نسخة مرسلة مباشرة من الصحافة بوساطة المدير نفسه؛ فأخذت الصحيفة إلى غرفتها وجلست لتقرأها من

السطر الأول إلى السطر الأخير، كما لو أنّها تقوم بواجب ديني، مستعدّة كتلميذة طيّعة أن تولي عناية خاصة لكل التعليمات التي قد تجدها داخلها؛ لكن ما حصل هو العكس تماماً، لقد اصطدمت بعثرة، كسفينة بلا قبطان تعرّضت أشرعتها للرياح من كل الجهات، وهي مقالة بعنوان «هوس النظر إلى الوراء» مفادها هجوم شرس ضدّ الأشخاص الذين يتطلعون بإصرار نحو الماضي مع أنّهم يعيشون في العصر الحديث. حجج المقالة لم تنقصها الدقّة، وفي الواقع كانت «سوشاريتّا» تبحث عن حجج من هذا النوع، إلاّ أنّها ما أن بدأت القراءة حتى تبيّن لها أنّ هذه الكتابة تقصد «غورا»، لم يكن اسمه مذكوراً كما لم تُدرَج كتاباته، لكنّ مقصداً خبيثاً ينبعث من المقالة بكلّ وضوح يجعلك تشعر بأنّ كل كلمة فيها تجرح شخصاً حيّاً، تماماً كرضا الجندي الذي يرى أنّ كل رصاصة تنطلق من بندقيته تقتل إنساناً.

بدا لها كل ما توحي به الصحيفة غير محتمل وتمنّت أن تمزّق كل هذه الحجج وترمي بها بين الأسمال، فصارت تفكّر وتتساءل: "سيحوّل «غورمُهان بابو» كل هذا الجدل الفارغ إلى غبار". وظهر لها الوجه المشرق ودوّى الصوت القويّ في أذنيها؛ وأمام هذه الصورة وميزة تلك البلاغة بدت لها المقالة وكاتبها في مستوى مبتذل ومقيت ما دفعها لرمي الصحيفة أرضاً، ولأوّل مرّة منذ أيام عديدة جلست «سوشاريتّا» بالقرب من «بينوى» وقالت له:

- "ماذا حصل لنسخ الصحيفة التي تحرّرها مع صديقكَ؟ لقد وعدتني بأن تعطيني إياها لأقرأها".

لم يعترف لها «بينوى» بأنّه لم يتجرّأ على الوفاء بوعده بسبب التغيُّر الذي لاحظه في موقفها منه، فاكتفى بالإجابة:

- "النسخ كلّها جاهزة سأجلبها لك غداً".

وفي اليوم التالي حمل «بينوى» إليها رزمة كبيرة من صحف ومجلات.

عندما تلقّتها لم تقرأها بل وضعتها جانباً في علبة، لم تكن تنشد القراءة فقط لأنّها تتلهّف شوقاً إليها، لقد كانت تبحث عن السلام لقلبها العنيد بمنعه من الالتفاف عن واجبه، وبإجباره على الخضوع لسلطان «هاران» الذي لا يقبل المنازعة.

الفصل الخامس والعشرون

في صباح يوم من أيام الآحاد، بينما كانت «آناندامو ا» تحضّر «البان»، و«سازي» جالسة بقربها تقطّع «جوز البيتيل» وتكدّس القطع طبقات طبقات، دخل «بينوى» الغرفة، فهربت «سازي» بخجل موقعة الجوز من على ركبتيها فتدحرج على الأرض، وكان الاثنان معتادين على إغاظة بعضهما البعض. كانت «سازي» تدبّرُ له خدعة وهي أن تخفي حذاءه وألاّ تردّه إلاّ إذا وعدها بقصّة يرويها لها، أمّا «بينوى» فكان يخترع قصصاً مبنيّة على سرد مشوّه لأحداث حياتها للثأر منها، كانت العقوبة فعّالة لأنّ الفتاة كانت تحاول استنكار القصة أولاً باتّهام الراوي بالكذب، ثم تصرخ بصوت أقوى من صوته، وفي النهاية كانت تهرب مهزومة تماماً؛ وفي بعض الأحيان كانت تحاول أن تعامله بالمثل بفبركة روايات عنه لكنها لم تكن على مستوى المنافس عندما يتعلّق الأمر بالفبركة. ومهما كان يحصل، فما أن يظهر «بينوى» في المنزل، حتى تترك «سازي» كل ما يشغلها وتهرع للتسلّي معه. كانت أحياناً تزعجه لدرجة تضطر فيها «آناندامو ا» لتوبيخها، لكن الخطأ لم يكن من جهتها فقط لأنّ «بينوى» كان يدفعها بمهارة لإثارته بطريقة لم تكن تتمكّن معها من السيطرة على نفسها.

غادرت «سازي» الغرفة بخفر حالما دخل «بينوى». صحيح أنّ «آناندامو ا» ابتسمت غير أنّ ابتسامتها كانت بلا فرح، و«بينوى» نفسه ذهل

لهذا التصرّف الذي يبدو ظاهرياً دون أهميّة، فقد ظلّ جالساً لبعض الوقت دون أن ينطق بكلمة واحدة، ثمّ أدرك فجأة سبب هذا التكلّف في العلاقات الجديدة مع «سازي»؛ فهو عندما قبل عرض الزواج الذي طرحه عليه «مُهيم» لم يكن يفكّر إلاّ بصداقته مع «غورا» ، لم يكن أبداً ليتصوّر ما قد يتضمنه هذا الزواج من النواحي الأخرى؛ من جهة أخرى، وكما كان قد كتب في صحيفتهم أنّ الزواج في بلدنا هو شأن اجتماعي وليس شأناً خاصاً، وبما يتعلّق به لم يُدخِل في هذا الموضوع لا الجاذبية ولا النفور الشخصي، أمّا الآن وعندما رأى «سازي» مضطربة من الخجل تهرب لتختفي حالما ترى زوج المستقبل، فقد اكتشف ما ستؤول إليه علاقاتهما القادمة، وعندما أدرك أنّ «غورا» قد استجرّه إلى هذا الموقف شعر بالغضب من صديقه ولام نفسه، ولكنه تذكّرَ أنّ «آناندامو» كانت قد ثبّطت همّته منذ البداية بصدد هذا المشروع فامتلأ إعجاباً ممزوجاً بالدهشة بحدّة تعمّقها في فهم النفس الإنسانية. فهمت «آناندامو» ما كان يدور في رأس «بينوى»، وكي تغيّر موضوع أفكاره قالت له:

- "يا «بينوى»، لقد وصلتني البارحة رسالة من «غورا» .

فسألها «بينوى» بذهن شارد:

- "وماذا يقول فيها؟"

- "لا يتحدّث فيها عن نفسه أبداً، لكن رسالته مليئة بالألم الذي سبّبه له الوضع البائس والمزري للفلاحين الفقراء في الريف، ويصف فيها مطوّلاً كل التجاوزات التي يرتكبها القاضي في بلدة تدعى «غوزيبارا»".

ولمّا كان «بينوى» هائجاً يثيره حقده على «غورا» فقد أجاب بنفاد صبر:

- "عيونُ «غورا» ترى على الدوام أخطاء الآخرين أمّا التجاوزات الاجتماعية التي هي في الحقيقة لا تُعدّ ولا تحصى والتي نحمّلُ أنفسنا المسؤولية عنها تجاه مواطنينا، فإنّه يجد لها الأعذار ويسمّيها أعمالاً فاضلة".

ابتسمت «آناندامو ا» لرؤية «بينوى» يأخذ دور البطولة إلى جانب الخصم ليقوم بانتقاد خبيث ضد «غورا» ، لكنها لم تقل شيئاً، فتابع «بينوى»:

- "إنكِ تبتسمين يا أمّي وتندهشين لأنّني بدوت ساخطاً فجأة، سأقول لك ما الذي أغضبني: اصطحبني «سودهير» منذ بضعة أيام إلى صديق في الريف، وعندما غادرنا «كالكُتّا» بدأ المطر ينهمر، ولمّا توقّف القطار شاهدتُ رجلاً بنغالياً مرتدياً لباساً وفق التقليعة الأوروبية وبيده مطريَّة ليقي نفسه بها، وكان ينظر إلى زوجته وهي تنزل من المقطورة تحمل طفلاً بين ذراعيها، وتجهد بصعوبة لحمايته بوشاحها، ثمَّ بقيت واقفة في ساحة المحطّة ترتجف برداً وخجلاً. عند مشاهدتي هذا الزوج هادئاً تماماً وغير منزعج على الإطلاق تحت مطريّته، ومشاهدة المرأة المبلّلة والتي لا تتذمّر وكأن الأمر اعتيادي تماماً بالنسبة إليها- زد على ذلك أن لا أحد في المحطّة رأى أو لاحظ شيئاً يستحقّ اللوم- انتابني شعور بأنّه لا توجد امرأة واحدة غنية أو فقيرة في كل البنغال محميّة حقاً من المطر والشمس، حينئذ وعدتُ نفسي ألاّ أنطق من الآن فصاعداً بالكذبة القائلة بأنّنا نعامل نساءنا باحترام كملائكتنا الصالحين وكآلهتنا، إلخ".

سكت «بينوى» بشكل فجائي عندما أحسَّ بأنَّ هياج مشاعره جعله يرفع صوته، فأنهى حديثه بصوت أكثر هدوءاً قائلاً:

- "ربّما تعتقدين يا أمّي أنّني ألقي محاضرة كما أفعل في أماكن أخرى أحياناً، فأنا دون شك قد اعتدتُ أن أتحدث بهذا الشكل، لكنني الآن لا أقوم بإلقاء محاضرة أمامك؛ فأنا لم أفهم أبداً إلى اليوم ماذا تمثّل النساء بالنسبة إلى بلدنا، وكنتُ لا أوليهنَّ أيّة مساحة من تفكيري طيلة حياتي؛ لكني لن أستمر في الثرثرة يا أمّي، إنّني أتكلم طالما لا أحد يصدّق أنَّ أقوالي تعبّر عن أفكاري الشخصيّة، سأنتبه أكثر في المستقبل".

كما أتى «بينوى» بغتة، غادر بالطريقة نفسها وقد اِمتلأ بالاِنفعال الجديد الذي تكشّف له.

اِستدعت «آناندامو ا» «مُهيم» وقالت له:

- "زواج «بينوى» و«سازي» لن يتمّ".

فسأل «مُهيم»:

- "لماذا؟ هل تعترضين عليه؟"

- "أجل، أنا أعارض هذا المشروع لأنني متيقّنة بأنّه لن يتحقّق، وإلاّ ما كنتُ لأعترض عليه، فأيّة ملامة يمكنني أن أرى فيه؟

- "لقد وافق كل من «غورا» و«بينوى» أيضاً، إذاً لماذا لن يتحقّق هذا الزواج؟، طبعاً إن كنتِ لا توافقين عليه، فـ«بينوى» لن يتزوّج".

- "إنّي أعرف «بينوى» أفضل من معرفتكَ به".

- "وأفضل من معرفة «غورا»؟"

- "أجل، أعرفه بعمق أكثر من «غورا»، كما أنّي بعد أن راجعتُ المشروع من كل جوانبه، أشعر بأنّه لا ينبغي أن أوافق عليه".

- "حسن، اتركي الأمور إلى أن يأتي «غورا» أولاً".

- "اِسمعني يا «مُهيم»، إن أنتَ أصررت أكثر فستسبّب مصاعب كبيرة، أؤكّد لك ذلك، أنا لا أرغب بأن يحدّث «غورا» «بينوى» في هذا الموضوع من جديد".

فقال «مُهيم» وهو يملأ فمه بالـ«بان» مغادراً الغرفة:

- "حسن، سنرى".

الفصل السادس والعشرون

عندما ذهب «غورا» في رحلته اصطحب معه أربعة من رفقائه، لكنهم جميعاً لاقوا صعوبة كبيرة في مواصلة المسير وفق إيقاع حماسة «غورا» المتعب الذي لا يرحم؛ فمنذ الأيام الأولى عاد «آبيناش» وشابٌ آخر من المجموعة إلى «كالكتّا» بذريعة المرض، أمّا بالنسبة إلى الرفيقين الآخرين، فما استبقاهما ومنعهما من التخلّي عن قائدهما لم يكن إلاّ إخلاصهما لـ«غورا»، لكنهما في الحقيقة قد دفعا بقساوة ثمن ولائهما، لأنّ «غورا» لم يكن ليضع حدوداً أبداً ولا يأخذ استراحة في مساره اللامتناهي على طول الطرقات.

كان «غورا» طوال الرحلة يوافق على التوقّف عند الذين يسارعون لتقديم واجبات الضيافة لهؤلاء البراهمان الحجّاج مهما كانت منازلهم ضيّقة ولا تحتوي على وسائل الراحة؛ وكان الريفيون يتهافتون أفواجاً للاستماع إلى «غورا» ولا يريدونه أن يغادرهم؛ ولأول مرة تبيّن لـ«غورا» الوضع الحقيقي للبلد خارج المجتمع الميسور والمثقّف في «كالكتّا». كم هي مجزّأة وضيّقة وضعيفة هذه الهند الريفية الشاسعة! أيّ كسلٍ وأيّة بلادة وأيّ لاوعي لقوّتها الحقيقية! وأيّ جهل، وأيّة لامبالاة لرفاهيّتها الذاتيّة! أيّة وديان اجتماعية تفصل بين القرى البعيدة عن بعضها بضعة أميال فقط ! أيّة كتلة معوقات وهميّة خلقتها هي حتى منعتها من أخذ مكانتها في كبرى تيارات العالم!

كانت أدقّ التفاصيل تبدو لكل هؤلاء الناس الريفيين مهمّة جداً وخطرة لأنّ خرق أيّ تقليد من تقاليدهم يصبحُ أمراً مستحيلاً! لقد كانت هذه هي

الفرصة التي رأى فيها بأمّ عينه حقيقة المواطنين، لم يكن «غورا» ليتصوّر أنّ ذهنيّات مواطنيه بهذا الخمول الفظيع، وأنّ حياتهم منحطّة وشحيحة جداً وجهودهم متعثّرة إلى أبعد حدّ.

ذات يوم نشب حريق في قرية كان «غورا» قد توقّف فيها فذُهل لمشاهدة عدم قدرة السكّان على تجميع مقدراتهم حتّى عندما يتعلّق الأمر بمواجهة كارثة أو بليّة بهذه الخطورة. لم يكن هناك سوى الفوضى، الكلّ كان يجري هنا وهناك باكين ومتألمين ونائحين دون أدنى فكرة عن أيّ نهج أو أيّ أسلوب منظّم؛ لم يكن هناك ماء في الضواحي، إذ كان على نساء الجوار أن يذهبن بعيداً جداً طلباً لماء الإستخدام المنزلي، حتى الناس الأكثر ثراء بينهم لم يتخيّلوا أنّ بإمكانهم حفر حوض للتخفيف من الصعوبات اليومية للأعمال المنزلية؛ لم يكن ذلك الحريق الأول من نوعه، لكن كل واحد قد تقبّل الحرائق السابقة كمظهر من مظاهر القدر، ولم يخطر ببالهم أبداً القيام بتدبير ما لتوفير مؤونة مخزون مائي.

بدأ «غورا» يُدرك المبكي المضحك في توجهه للقيام بوعظ الفلاحين حول ظروف وطنهم، بينما رأى أنّ مقدرتهم على إدراك الاحتياجات الأكثر إلحاحاً في حياتهم وفي سكنهم المباشر قد حُجبَت بسبب عادات عمياء. غير أنّه كان أكثر اندهاشاً أيضاً لرؤية رفقائه الذين لم يبدوا أي اضطراب من المشهد الذي أمامهم بل على العكس من ذلك بدوا وكأنّهم يعتبرون انفعال «غورا» وهياجه في غير محله. فقالوا: "هكذا يعيش الشعب، ما يظهر لنا على أنّه مؤلم جداً، هم لا يشعرون به". ويعتبرون مجرّد الاهتمام والحماسة لتوفير حياةٍ أفضل لهؤلاء الفلاحين المساكين حالة عاطفية. لكن «غورا» شعر بعذاب أبديّ لوجوده أمام هذا القدر الرهيب من الجهل وعدم الإحساس والآلام، إنّها حالة تسحق الغني والفقير والمثقّف والأمّي في آنٍ معاً، وتعيق التقدّم في كل خطوة.

أخيراً بقيَ «رامباتي» وحده مع «غورا»، لأنَّ رفيقهما الأخير عاد إلى منزله إثر خبر مفاده أنَّ أحد أقربائه كان مريضاً؛ فتابعا رحلتهما، ووصلا إلى قرية مسلمة على ضفاف نهر، وبعد أن بحثا مطوّلاً عن ملاذ يمكن لهما أن يلاقيا فيه الضيافة اللازمة، اِكتشفا في النهاية بيتاً هندوسياً منفرداً في إحدى الزوايا وهو بيت الحلاّق. عندما اِستقبل هذا الرجل زائريه البراهمان بأهلاً وسهلاً، اِكتشفا بعد أن اجتازا عتبة المنزل أنَّ أحد سكّانه طفل مسلم كان الحلاّق وزوجته قد تبنياه. بدا «رامباتي» التقليدي مشمئزاً، لكن عندما لام «غورا» الحلاّق على تصرفه غير اللائق بالهندوسية، أجابه الحلاّق:

- "ما هو الفرق يا سيّدي؟ نحن نعبد الله باِسم «هاري» وهم يعبدونه باِسم «الله»، هذا هو كل شيء".

في هذه الأثناء صعدت الشمس إلى كبد السماء وبدأت ترسل أشعّتها بشراسة؛ كان النهر بعيداً وكانت مساحة واسعة من الرمال المحرقة تفصلهما عنه، أخذ «رامباتي» – وقد اِفترسه الظمأ – يبحث عن سبيل لتوفير مياه للشرب تكون طاهرة بشكل كاف بالنسبة إلى هندوسي؛ كانت بالقرب من منزل الحلاّق بئر صغيرة لكنهم يعتبرون المياه فيها ملوّثة بسبب استخدام غير الهندوس لها، ولا يمكن أن تكون صالحة لاِستخدام الهندوسي التقليدي. سأل «غورا»:

- "أليس لهذا الولد أبوان؟"

فأجاب الحلاّق:

- "والده ووالدته لا يزالان حيّين، لكنّه في وضع يمكننا معه أن نعتبره يتيماً تماماً".

- "ماذا تقصد بذلك؟"

أخذ الحلاّق بعد ذلك يروي قصّة الصبي. الأراضي التي كان يعيش عليها سكان المنطقة قد أُجِّرَت إلى زارعي شجر النيلة الذين كانوا يتنازعون

باستمرار مع الفلاحين المقيمين على حق استخدام مساحات الطمي الخصبة الممتدّة على ضفاف النهر؛ كلّ الفلاحين كانوا قد تنازلوا للأوروبيين عن حقّهم عدا سكان بلدة «غوزيبارا» الذين رفضوا أن يستبعدهم زارعو شجر النيلة. لقد كانوا مسلمين وزعيمهم لم يكن يخاف أحداً، لقد تمّ سجنه مرتين بتهمة مقاومة الشرطة خلال كفاحه ضدّ الزرّاعين، لكنهم لم يستطيعوا إخضاعه ولا قهره؛ في تلك السنة بالذات، توصّل الفلاحون إلى فكرة القيام بحصاد مبكر على مساحات الطمي الخصبة والمتوضّعة حديثاً على ضفة النهر، لكن أحد زارعي شجر النيلة كان قد وصل قبل شهر من ذلك ترافقه كتيبة مسلّحة فاستولى بالقوة على الحبوب المحصودة، وبسبب هذه الحادثة قام الزعيم المسلم بالدفاع عن فلاّحي بلدته فضرب يد الأوروبي ضربة قويّة أدّت إلى بترها، لم تعرف هذه المنطقة في تاريخها مثل هذا التهوّر. ومنذ ذلك الحين استُخدمَت الشرطة كالنار المشتعلة في تدمير الجوار كلّه، لم يبقَ أي بيت بمنأى عن التفتيش الدقيق وعن السلب والنهب، ولم يبقَ شرف أيّة امرأة في مأمن، وبالإضافة إلى الزعيم الجاني سُجنَ آخرون، أمّا الذين تركوهم طلقاء فالعديد منهم قد هربوا. لم يبقَ هناك زاد يؤكل في منزل الفلاّح الشجاع، ولم يبقَ لزوجته إلاّ خرقة عوضاً عن الساري، فلم تجرؤ بعد ذلك على الخروج من البيت، ابنهم الوحيد ويدعى «تاميز» هو هذا الصبي الصغير، كان ينادي الخادمة زوجة الحلاّق بـــ«عمتي»، وعندما رأت بأنّه يكاد يموت من الجوع، حملته الخادمة الشجاعة إلى منزلها.

كانت مكاتب معمل النيلة تقع على بعد ميلين تقريباً من القرية، وكان مفتش الشرطة ومجموعاته قد استقرّوا فيها. في الليلة الفائتة تحديداً رآهم جار الحلاّق يدخلون دكّانه، وكان هناك شابّ هو أخو زوجته قد أتى من مقاطعة أخرى ليرى شقيقته، وعندما رآه مفتش الشرطة قال بشكل غير معقول:"هكذا إذاً! ها هو زعيم مقاتل قد جاء، وينفش ريشه". ثمّ وجّه له ضربة مطرقة أدمت

فمه ونزعت بعض أسنانه؛ حيال هذا الفعل العنيف هرعت شقيقة الشابّ إليه لتعتني به، وبضربة قبضة متوحشة تدحرجت على الأرض. لم تكن الشرطة لتتجرّأ حتى ذلك اليوم على ارتكاب أعمال عنف كهذه في المنطقة، لكن الآن وبما أنّ كلّ الرجال الأقوياء كانوا نزلاء السجون أو هاربين، فقد صار بمقدورها أن تصبّ جام غضبها على القرى دون حسيب ولا رقيب، لا أحد يستطيع التكهّن إلى متى سيستمرّ ثقل ظلّها عليهم.

لم يستطع «غورا» إلاّ أن يتابع رواية الحلاّق، أمّا «رامباتي» فكان قد جُنّ من العطش فأخذ يقاطع الرواية ويكرّر سؤاله:

- "أين هو المنزل الهندوسي الأقرب من هنا؟"

أجاب الحلاّق:

- "جابي إيجارات معمل النيلة هو براهماني يدعى «مادهاف شاترجي»، إنّ بيته هو البيت الهندوسي الوحيد الأقرب إلينا، وهو يقطن في منطقة المكاتب على بعد ميلين أو ثلاثة من هنا".

فسأل «غورا»:

- "أي نوع من الرجال هو؟"

- "عميل حقيقي للشيطان، من المحال أن تقابل لصّاً بهذه الشراسة، لكنه رجل متملّق، فهو يستضيف في بيته مفتّش الشرطة ويقبض الكلفة منا نحن بالإضافة إلى مربحه".

قاطعه «رامباتي» وقد نفد صبره:

- "هيّا نذهب يا «غورا بابو» لم أعد أحتمل".

لقد بلغت الأمور عنده أقصاها بعد أن رأى زوجة الحلاّق في الباحة تغرف المياه وتسكب سطلاً مليئاً على الطفل الصغير من أجل استحمامه، تشنّجت أعصابه إلى حدّ كبير، وشعر أنّه عاجز عن البقاء في هذا البيت لدقيقة واحدة. وعند الرحيل سأل «غورا» الحلاّق:

- "لماذا بقيت هنا رغم الانتهاكات التي كنت ضحيّتها؟"

فقال الحلّاق شارحاً:

- "لقد عشتُ هنا طوال عمري، وارتبطت بكل جيراني، وأنا الحلّاق الهندوسي الوحيد في المنطقة، وبما أنّه ليس لي علاقة بالأرض، فإنّ موظفي الزارعين لا يزعجونني، وفوق ذلك، أصبح من الصعوبة بمكان أن تجد رجلاً في هذه البلدة فإذا أنا ذهبت ستموت النساء خوفاً".

فقال «غورا» :

- "نحن ذاهبان، لكنني سأعود لأراك بعد أن نكون قد تناولنا الطعام".

كان تأثير هذه الرواية الطويلة على «رامباتي» الظامئ والجائع أنّه وجّهَ كل سخطه ضدّ الفلّاحين المتمرّدين الذين جلبوا هذه المتاعب على رؤوسهم، لقد بدت له هذه الجسارة في المقاومة بحضور الأقوى قمّة الجنون والعناد والمكابرة عند هؤلاء الفلاحين؛ وفي رأيه لقد استحقّوا أن يتلقّوا درساً كسر شوكتهم، فقال: إنّ أبناء هذه الطبقة الشعبية هم الذين يتشاجرون مع الشرطة دائماً، ومسؤوليّة الشجار مفروضة عليهم بشكل عام، لماذا لا يطيعون الأسياد والزعماء؟ ما فائدة استعراض الاستقلال هذا؟ ماذا حدث لهذه المطالبات الجسورة وبغير دعم؟ إجمالاً، كان لدى «رامباتي» تعاطف حميمي مع الأوروبيين.

أثناء مسيرهم عبر الرمال الحارقة، لم ينبس «غورا» ببنت شفة، وأخيراً عندما ظهر لهم سطح معمل النيلة من خلال الأشجار، وقف فجأة وقال:

- "اذهب يا «رامباتي» وحدك لتناول الطعام، أمّا أنا فسأعود إلى الحلّاق".

فقال «رامباتي» مستغرباً:

- "بماذا تفكّر؟ ألا تريد أن تأكل؟" لماذا لا تؤجّل عودتك إلى هناك بعد أن تتناول شيئاً من الطعام عند البراهماني؟"

أجابه «غورا»:

- "سأتدبّر أمري، لا تقلق، تناول طعامكَ ثم عد إلى «كالكتّا»، أعتقد أنّه ينبغي عليّ أن أبقى في هذه القرية لبضعة أيام، ولن يكون بمقدرتكَ تحمّل ذلك".

تصبَّب «رامباتي» عرقاً بارداً، لم يصدّق ما سمعته أذناه. كيف يمكن لـ«غورا» هذا الهندوسي التقليدي أن يتحدّث عن السكنى في منزل هؤلاء الناس النجسين؟ هل أمسى مجنوناً أو أنّه قرَّرَ الصيام حتى الموت؟ غير أنَّ الوقت بالنسبة إلى «رامباتي» كان غير مناسب إطلاقاً للتفكير، فكلّ دقيقة تـ... كانت تبدو له كأنّها قرن من الزمن، ولم تكن هناك من حاجة لكثير من الإلحاح كي يغتنم الفرصة ويهرب إلى «كالكتّا».

في هذه الأثناء، وقبل أن يلِج المكتب، اِستدار ليلقي نظرة على قامة «غورا» الفارعة، وقد بدأ يجتاز رمال الصحراء من جديد بخطى كبيرة. كم كان يبدو وحيداً!

الجوع والعطش كادا يصعقان «غورا»، لكن فكرة المحافظة على طبقته بتناول الطعام عند «مادهاف شاترجي»، ذلك الفاسق عديم الذمّة، غدت بالنسبة إليه غير محتملة – أكثر فأكثر – عندما تخطر بباله. كان وجهه أحمر وعيناه محتقنتين، وكان دماغه يشتعل ناراً، أمّا روحه فقد كانت في حالة ثورة، فقال في قرارة نفسه:

"يا للخطيئة المأسويّة التي وقعنا فيها عندما اِعتقدنا الطهارة شأناً مادياً! هل أحافظ على طبقتي إذا قبلتُ الطعام من يدَي هذا الذي يقمع البائسين المسلمين بهذه الصورة؟ وهل أفقدُها في منزل الرجل الذي لم يكتفِ بمشاركتهم بؤسهم فحسب بل وفَّر ملجأً لواحد منهم مخاطراً بنفسه وبفقدان طبقته؟ مهما كان الحلّ الأخير للمسألة، فلا يمكنني الآن قبول ذلك التأويل.

فوجئ الحلّاق لرؤية «غورا» يعود وحده؛ أول تصرّف قام به «غورا» كان أن أخذ دلو الحلّاق ونظّفه بعناية ثمَّ ملأه من مياه البئر، وبعد أن شرب قال:

- "إذا كان لديكَ في البيت قليل من الأرز ومن «الدال»[1] (أي العدس الأبيض)، هل تسمح بإعطائي قليلاً منه كي أطبخه؟". سارع المضيف لتهيئة ما يلزم، وبعد أن طبخ «غورا» وأكل وجبته، سأل الحلاّق:

- "هل بإمكاني أن أبقى عندكَ لبضعة أيام؟"

ذُعِرَ الحلاق لهذا الاحتمال فجمع يديه راجياً وقال:

- "إنّه شرف عظيم لي أنّك تنازلتَ وأردتَ ذلك، لكنَّ منزلي مراقب من قبل الشرطة وإذا وجدوك هنا قد يستتبع ذلك مضايقات".

أجاب «غورا»:

- "عندما أكون أنا هنا لن تجرؤ الشرطة على مسّك، وإن تجرأتْ وفعلتْها سأقوم بما يلزم فعله".

فقال الحلاّق متوسلاً:

- "كلاّ، كلاّ، أرجوكَ لا تتخيّل ذلك، إذا حاولتَ حمايتي سيُقضى عليّ، هؤلاء الناس يتصوَّرون أنّي اِستدعَيتُ أحداً من الخارج ليكون شاهداً على أعمالهم التخريبية كي أخلق لهم المشاكل، لقد استطعتُ إلى اليوم أن أتدبَّر أمري وأفلت منهم، لكن عندما أغدو رجلاً مشبوهاً سأُجبَر على الرحيل وتضييع القرية".

«غورا»، الذي عاش على الدوام في مدينة، كان يفهم بصعوبة دوافع القلق عند الرجل المسكين، لقد كان يتخيّل دوماً أنَّ الدفاع بصلابة عن قضية محِقّة كافٍ للانتصار على الشرّ، كان حسّ الواجب عنده يمنعه من التخلّي عن هؤلاءِ الفلاّحين البؤساء ومن تركهم لقدرهم، لكن الحلاّق ركع على ركبتيه وأمسك بقدميه وقال راجياً:

- "يا سيّدي، أنتَ البراهماني تنازلتَ وقبلتَ ضيافتي، إنها جريمة من قِبَلي أن أرجوكَ الرحيل، ومع ذلك، لأني أرى أنَّ رأفتكَ بنا صادقة أسمح

(١) "الدال": العدس الأبيض، وهو عنصر مهم في الغذاء الهندوسي.

لنفسي أن أُنذرك بأنّك خلال إقامتكَ عندي، ستضعني في موقف خطر إذا حاولتَ التحذير من تجاوزات الشرطة".

اغتاظ «غورا» لأنّه اعتبر تصرّف الحلاّق دليلاً على جبن عبثيّ فأسرع إلى مغادرته بعد الظهر، حتى أنّه شعر بنوع من الثورة لفكرة أنّه تناول طعاماً تحت سقف هذا المارق الرعديد. وصل «غورا» إلى المكتب في المساء تقريباً، متعباً ومشمئزاً، أمّا «راماباتي» فلم يضيّع وقتاً، وحالما انتهى من تناول وجبة الغداء عاد إلى «كالكتّا». استقبل «مادهاف شاترجي» «غورا» باحترام كبير ودعاه ليكون ضيفه لكنّ «غورا» وقد امتلأ بردود أفعاله الغاضبة صاح متعجّباً:

- " لن ألمسَ حتى الماء من عندكَ".

فوجئ «مادهاف» وسأل عن سبب هذا الرفض، فبدأ «غورا» يلومه بمرارة على تجاوزاته الفاضحة في السلطة ورفض حتى الجلوس عنده. كان مفتّش الشرطة متمدّداً على مضجع[1] مجهّز بأريكة ضخمة جداً، وكان يستنشق الدخان من نرجيلته، وأمام انفجار «غورا» ، جلس وسأل بخشونة:

- "من أنتَ ومن أين أتيتَ؟"

ودون الإجابة على السؤال قال «غورا» ملاحظاً:

- "آه! المفتّش، على ما أظن! دعني أقلْ لكَ بأنّي قد سجّلتُ كل ما فعلتَ في «غوزيبارا»، فإن لم تغيّر من أسلوبك، على أيّ حال الآن..."

فردّ المفتش ساخراً:

- "ستشنقنا أليس كذلك؟"

والتفت نحو صديقه وقال له:

- "أظنّ أنّه قد أتانا متبجّحٌ مزهوّ جداً بنفسه، لقد ظننته متسوّلاً لكن اُنظر إلى عينيه... ثم صرخ منادياً أحد رجاله: يا رقيب، تعال إلى هنا".

---

(١) يسمى بالبنغالي "توكتا".

اضطربَ «مادهاف» وأمسك المفتش من ذراعه وقال له راجياً:

- "أرجوكَ حضرة المفتش، بلطف، لا تشتم هذا الرجل".

- "سيّد جميل حقاً، قال المفتش مستنكراً، من هو إذاً حتى يسمح لنفسه بإهانتكَ بهذا الشكل؟ لأنّه أهانك فعلاً".

فدافع «مادهاف» بلهجة عذبة:

- "ما قاله لم يكن خطأً كبيراً أليس كذلك؟ إذاً لماذا نغضب؟ بالنسبة إليّ، أكبر خطاياي أنّي وكيل زارعي النيلة، فهل يمكنهم أن يتّهموني بأفظع من ذلك؟ ولا تأخذ الأمور بنيّة سيئة يا عزيزي، لكن هل نكون قد شتمنا مفتّش شرطة فعلاً عندما نسمّيه عميل الشيطان؟ وظيفة النمور هي القتل والتهام الفريسة، فلا فائدة من معاملتهم على أنّهم متسامحون طيبو القلوب. هيّا، لنفكّر معاً، ينبغي أن نتدبّر الأمور بأنفسنا لنكسب خبزنا".

قبل هذا الموقف، لم يرَ أحدٌ «مادهاف» يهتاج إلاّ إذا كان هناك بعض من المكاسب؛ كيف لنا أن نعرف مسبقاً من يمكنه أن يكون مفيداً لك ومن يمكن أن يسبّب لك خسارة؟ لقد كان على الدوام يزن الـ«مع» والـ«ضدّ» قبل أن يقرّر إن كان سيهاجم أحداً، فهو لم يكن يؤمن بهدر الطاقة سدىً.

عندها قال المفتش لـ«غورا»:

- "اسمع يا «بابو» أتينا إلى هنا لتنفيذ أوامر الحكومة، إذا حاولتَ أن تزجّ نفسك فيها فستسبّب لك المتاعب وأعدكَ بأنّكَ ستندم على ذلك".

خرج «غورا» دون أن يجيب، لكن «مادهاف» تبعه وقال له:

- "ما تلوموننا به صحيح يا سيّدي، إننا نقوم بمهنة جزّار يعمل في مسلخ، وأمّا بالنسبة إلى هذا المفتّش الخبيث فأكبر خطيئة أن يجلس الإنسان بقربه، لا أستطيع أن أروي كلّ الأعمال الوحشية التي اضطررت إلى ارتكابها بسبب هذا الرجل، لكنّي لن أبقى طويلاً هنا فقد شارفت مهمتي على

الانتهاء، فبعد بضع سنوات سأكون قد كسبتُ مبلغاً لا بأس به من المال لدفع تكاليف زواج ابنتي، حينئذ سنعتزل أنا وزوجتي وسنعتنق الحياة الدينية في مدينة «بيناريس»؛ لقد تعبتُ من المهنة التي أقوم بها، ووصلتْ بي الأمور أحياناً إلى حدّ التفكير بالانتحار شنقاً كي أتخلّص منها. مهما يكن من أمر، أين تنوي قضاء هذه الليلة؟ لماذا لا تتعشّى معي وتنام هنا؟ سأتدبّر الأمر كي تشعر بالراحة وكأنّكَ في بيتكَ، وكي لا تلتقي بوجه النحس ذاك".

كان «غورا» قد شعر بشهيّة استثنائية، فهو لم يأكل شيئاً طيلة ذلك النهار الحزين، لكن كل كيانه كان يشتعل نقمة وسخطاً، وشعر أنّه فعلاً غير قادر على البقاء هنا، فاستأذن للرحيل زاعماً أنّ لديه أعمالاً في مكان آخر، فألحَّ عليه «مادهاف» قائلاً:

- "دعني على الأقل أعطيكَ قنديلاً".

لكن «غورا» هرب دون أن يقول كلمة واحدة، وعندما عاد «مادهاف» إلى مقرّه قال للمفتش:

- "هذا الرجل سيكتب تقريراً عنا بكلّ تأكيد يا عزيزي، لو كنتُ مكانكَ لأرسلتُ رسولاً إلى القاضي قبل وصوله".

فسأل المفتش:

- "لكن لماذا؟"

- "لتنبيهه فقط بأنّ هناك شاباً «بابو» لا نعرف من أين أتانا وهو يقوم بتجميع شهود ضدّك".

الفصل السابع والعشرون

كان القاضي «م. براونلو» يتنزّه على طول ضفة النهر في برودة المساء برفقة «هاران»؛ ومن الجهة الأخرى كانت زوجته تقوم بجولة في السيارة مع بنات «باريش بابو».

كان من عادة «م. براونلو» أن يدعو بعض الشخصيات المحترمة من العالم البنغالي إلى حفلات يقيمها أحياناً في الحدائق، وكان يترأس توزيع الجوائز في المدرسة العليا في منطقته، وإذا دُعيَ ليشرّفَ بحضوره حفلة زفاف في عائلة غنية، كان يقبل هذه الدعوة غير المحبّبة بلطف وترحاب وحتّى عندما كانوا يدعونه ليتنازل ويحضر اجتماعاً للـ«جاترا»[1] كان يتفضّل بالبقاء لبعض الوقت جالساً على مقعدٍ مريح محاولاً تحمّل العرض وجلسة الغناء رغم ضيقه.

في العام الماضي خلال اجتماع الـ«جاترا» الذي قُدّمَ في منزل صاحب الدعوة، افتتن بأداء اثنين من الصبيان كانا يقومان بدورهما، وبناءً على طلبه كرّرا الحوار أمامه.

أمّا زوجته ابنة أحد المبشّرين، فكانت تستقبل سيدات مبشّرات - توقفن في المحطّة .- في جلسات الشاي، وكانت قد أسّست مدرسة للبنات في

---

(١) جاترا: عرض يقوم به ممثلون جوالون يغنون أو يلقون أو يمثلون مسرحية ما. إنّه نوع من الترفيه الشعبي.

المنطقة، وتجهد للمحافظة على عدد الطالبات، ولمّا رأت الحماس الذي أبدته بنات «باريش بابو» للتثقّف فقد شجّعتهنّ باستمرار، وبما أنّها لم تعد تقطن في المدينة نفسها فهي تراسلهنّ حتّى الآن وتبعث لهنّ في أعياد الميلاد كتباً دينيّة هديّة.

لقد بدأ الاحتفال وكانت السيدة «بارودا» قد وصلت إلى مكان الاجتماع مع الصبايا ومع «هاران» و«سودهير» و«بينوى». كان على المجموعة بأكملها أن تجلس في صالة المنزل الريفي[1] الرسمي. ولمّا لم يكن «باريش بابو» قادراً على تحمّل هذا الضجيج وهذه البلبلة فقد تُرك لوحده في «كالكُتّا»، عملت «سوشاريتّا» ما بوسعها لتبقى برفقته، لكن «باريش بابو» إعتبر قبول دعوة القاضي واجباً ينبغي تلبيته، لذلك أصرَّ عليها كي تذهب مع الآخرين. كان قد تقرَّرَ بأن تُقدَّم المسرحية والقصائد الشعرية بعد الغد في منزل «م.براونلو»، وأن يحضر العرض مدير الشرطة والقائمقام وزوجته، وكان القاضي قد دعا أصدقاء إنكليزاً ليس فقط من المنطقة بل من «كالكُتّا» أيضاً؛ كما أنّه قد قرَّر إستقبال بعض البنغاليين من الذين إنتقاهم بعناية، والذين من أجلهم سرت الشائعة بأنّه قد نصبَتْ في الحديقة خيمة خاصة فيها مرطّبات قد اُحترمت فيها التقليدية.

نال «هاران» إعجاب القاضي بسرعة بفضل الدقّة العالية لحديثه، كما أدهشته معرفته الإستثنائية لكتب المسيحيين المقدّسة، فسأله: لماذا لم يصل إلى حدّ إعتناق المسيحية بعد أن قطع مرحلة كبيرة في هذا الاتجاه! في تلك الأمسية وهما يذرعان ضفة النهر جيئة وذهاباً دخلا في مناقشة مهمّة حول طرق «البراهمو – ساماج»، وحول أفضل الوسائل لإصلاح النظام الاجتماعي الهندوسي؛ في منتصف لقائهما ظهر «غورا» إلى جانبهما واقترب من الأوروبي بشكل غير متوقّع وقال"مساء الخير يا سيّدي!"

---

(١) Bungalow، بنغالو: بيت مؤلف من طابق واحد في الريف.

لقد حاول ليلة الأمس أن يحصل على مقابلة مع القاضي لكنه اكتشف أنّه من أجل أن يحصل عليها ينبغي عليه أن يدفع رشوة للخدّام؛ ولمّا امتنع عن القيام بهذه الممارسة المزعجة، اغتنم فرصة التحدّث إلى الأوروبي بمراقبته أثناء نزهته المسائية، لكنّ كلاً من «هاران» و«غورا» لم يُظهرا أيّة إشارة بأنّهما يعرفان بعضهما بعضاً؛ لقد فوجئ القاضي بهذا الظهور المباغت، وهذه القامة الفارعة بطول ستة أقدام، صلبة وقويّة العظام، لم تذكّره بأيّ شخص قابله قبل ذلك في المنطقة، إذ لم تكن بشرة هذا الشخص بشرة رجل بنغالي عادي، وكان مرتدياً قميصاً لونه عسكري و«دهوتي» من قماش خشن قد اتّسخ قليلاً، وكان يحمل بيده عصا من الخيزران (البامبو) وقد لفّ وشاحه حول رأسه بشكل عمامة. بدأ «غورا» حديثه قائلاً:

- "لقد وصلتُ للتوّ من «غوزيبارا»".

أطلق القاضي على الفور نوعاً من الصفير، لقد تلقّى منذ قليل تنبيهاً بأنّ رجلاً غريباً كان يحاول التدخّل في البحث الذي قامت به الشرطة هناك، ها هو إذاً الشخص المعني يحضر شخصياً؛ تفحّص القاضي «غورا» بعين المدقّق وسأل:

- "في أيّة منطقة من البلاد تقطن؟"

- "أنا براهماني بنغالي".

- "ممثّل لصحيفة، على ما أعتقد؟"

- "لا".

- "إذاً ماذا كنتَ تفعل في «غوزيبارا»؟"

- "كنتُ موجوداً فيها صدفة خلال رحلة قمتُ بها سيراً على الأقدام، وبما أنّي شاهدتُ تجاوزات الشرطة، وخشيتُ أن تتبعها أعمال تعسّفية أخرى، فقد أتيتُ إليكَ آملاً أن تضع حدّاً لذلك".

- "هل تعلم أنّ سكّان «غوزيبارا» هم زمرة من الأنذال؟"

- "ليسوا أنذالاً، بل أناس شجعان وأحرار ولا يستطيعون تحمّل الظلم دون أن يحتجّوا".

هذا الجواب أغاظ القاضي الذي رأى في «غورا» أحد الشبان العصريين الذين تحولّ تفكيرهم بفعل التربية، فتمتم بصوت منخفض قائلاً: "هذا أمر لا يُطاق"، ثم أضاف بصوت عالٍ وبلهجة حازمة غرضها إنهاء المسألة:

- "إنّك تجهل كلّ الظروف المحليّة في تلك المنطقة".

لكن «غورا» ردَّ بصوته القويّ:

- "لعلك تعرف هذه الظروف لكن ليس كما أعرفها أنا".

- "اسمع، أنذركَ إذا تدخلتَ في قصة «غوزيبارا»، فلن تسلم من المصاعب".

- "بما أنّك متحامل على الفلاّحين وقرَّرت ألاّ تصلح المظالم التي كبّدوهم إياها، فلن يبقى لي إلاّ العودة إلى «غوزيبارا» لتشجيع هؤلاء الناس على الصمود ضدّ قمع الشرطة في حدود الممكن".

توقّف القاضي فجأة والتفتَ نحو «غورا» متعجّباً وصعقه بقوله:

- "يا للوقاحة اللعينة!

انسحب «غورا» ببطء دون أن يردَّ بالمزيد.

سأل القاضي «هاران» لكن بازدراء:

- "ماذا تعني كلّ هذه الأعراض المرَضية الجديدة؟"

فأجاب «هاران» بلهجة فوقية:

- " الصبية غير القادرين على استيعاب أفضل ما في الثقافة الإنكليزية كحال هذا الصبي، قد حفظوا دروسهم عن ظهر قلب ولم يخضعوا إلى أيّة تربية أخلاقية، هذا يعني بكلّ بساطة أنَّ تربيتهم ظلّت سطحية، فهم لم يتلقّوا

أيّ نوع من التعليم الروحي أو الأخلاقي، لذلك لا يريد هؤلاء الكافرون بالنعمة الاعتراف بأنّ السيطرة الإنكليزية كانت بالنسبة إلى الهند فضلاً من العناية الربّانية".

علّق القاضي بلهجة حكيمة قائلاً:

- "لكي يكتسبوا هذه الثقافة الأخلاقية، ينبغي أن يصبحوا مسيحيين".

- "هذا صحيح، إلى حدٍّ معين".

قبِلَ «هاران» بالفكرة وتابع مستغرقاً في التحليل الدقيق للنقاط التي يتفق بها مع العقيدة المسيحية أو التي تفصله عنها.

أخذت هذه الموضوعات كلّ تفكير القاضي لدرجة لم ينتبه معها للوقت إلاّ عند عودة زوجته، فهي قد عادت من نزهتها في السيارة وأوصلت بنات «باريش بابو» إلى مكان الحفل ونادت:

- "«هاري» هل تعود إلى المنزل؟"

فقال متعجّباً وهو ينظر إلى ساعته:

- "يا إلهي! الساعة الثامنة!"

وبينما كان يركب في العربة شدّ على يد «هاران» قائلاً:

- "لقد مضت الأمسية بطريقة ممتعة جداً برفقتكَ المفيدة".

عندما عاد «هاران» إلى البيت الريفي روى محادثته مع القاضي بالتفصيل، لكنه أغفل الإشارة إلى الحلقة المفاجئة لظهور «غورا».

الفصل الثامن والعشرون

سبع وأربعون من الفلاّحين التعساء قد اعتُقِلوا في السجون دون محاكمة نظامية ليكونوا عبرة للآخرين. بعد محادثته مع القاضي أخذ «غورا» يبحث عن محامٍ، فقيل له: إنَّ «ساتكوري هالدار» هو أحد أفضل المحامين في البلاد، وعندما ذهب «غورا» إليه ليقابله، اكتشف أنَّ هذا الحقوقي كان أحد رفاقه القدامى فصاح متعجّباً:

- "يا للصدفة! إنَّه «غورا»! ماذا تفعل هنا؟"

شرح له «غورا» بأنَّه يريد أن يرفع إلى المحكمة طلباً للحصول على إطلاق سبيل سجناء «غوزيبارا» بكفالة".

- "ومن سيدفع الكفالة؟"

- "أنا، طبعاً".

- "لا يمكنكَ أن تكفل سبعة وأربعين شخصاً".

- "إذا وافقوا على الكفالة، سأدفع الفائدة الطبيعية".

- "لكن ذلك سيكلِّف ثمناً باهظاً".

في جلسة اليوم التالي قُدِّمَ طلب إخلاء السبيل بكفالة بالشكل الرسمي، لكن حالما لمح القاضي قامة الشابّ الذي شاهده مساء الأمس، بثيابه المغبرّة وعمامته، حتى رفض الطلب بلهجة قاسية؛ وبذلك تكون مجموعة الفلاّحين وبينهم شباب في الثامنة عشرة من عمرهم وشيوخ في الثمانين قد احتُجِزوا الآن في السجن ليضنيهم الغمّ.

توسّل «غورا» إلى «ساتكوري» كي يدافع عن قضيّتهم، لكن المحامي صرّح قائلاً:

- "أين ستجد شهوداً؟ كلّ الذين حضروا الواقعة هم الآن معتقلون، بالإضافة إلى ذلك كلّ الجيران قد تمّ إرهابهم بالتحريات التي تبعت الاعتداء على الأوروبي، وقد بدأ القاضي يتخيّل أنّ هناك مؤامرة مفبركة من قِبَل مفكِّرين أتوا من الخارج، فإذا ألححتُ على الموضوع أكثر من اللاّزم قد أصبح أنا نفسي مشتبهاً به. تشكو الصحف الإنكليزية – الهندية باستمرار من أنّ حياة الإنكليز في أمكنة إقامتهم «في الموفوزيل»[1] ستكون قريباً في خطر إن تُرِكَ السكّان الأصليون على سفاهتهم، وفي هذه الظروف سيصبح من المستحيل حقاً على السكّان الأصليين أن يعيشوا في موطنهم الأصلي. أعرف أنّ هذا القمع هو شيء مرعب، لكن كيف نقاومه؟"

فصاح «غورا» قائلاً:

- "كيف نقاومه! ماذا! ألا نستطيع...."

فقال «ساتكوري» وهو يضحك:

- "أرى أنّه لم يتغيّر فيك شيء منذ زمن المعهد، لا نستطيع بكلّ بساطة لأنّ لدينا نساءً وأطفالاً سيموتون جوعاً إذا لم نكسب خبزهم كل يوم؛ كم من الأشخاص تجدهم جاهزين ليجازفوا بحياتهم من أجل عائلتهم وهم يحملون على أكتافهم المخاطر التي تحصل للآخرين؟ على الأخصّ عندنا، حيث عدد أفراد العائلة كبير عادة! الذي يتحمّل تكاليف معيشة حوالي اثني عشر شخصاً لا يمكن أن يسمح لنفسه بالاهتمام باثني عشر آخرين بالإضافة إليهم".

فألحَّ «غورا» قائلاً:

- "لنْ تفعل إذاً شيئاً من أجل هؤلاء التعساء؟ ألا يمكنك أن ترفع طلباً أو التماساً إلى محكمة الاستئناف؟"

---

(١) موفوزيل :Moffusil: معسكر يقطن فيه الإنكليز في المدن الهندية.

فقاطعه «ساتكوري» قائلاً، وقد نفد صبره:

- "يبدو أنّك لم تفهم الموقف تماماً، إنّ الذي ضُرِبَ إنكليزي، وكل إنكليزي هو من سلالة الأسياد، وأيّة إهانة تصيب أدنى شخص من البيض تساوي نوعاً من الثورة ضدّ الاحتلال البريطاني، لن أضع نفسي موضع شبهة بالنسبة إلى القاضي بمهاجمتي للنظام دون أيّ بصيص أمل في الحصول على نتيجة".

في اليوم التالي قرَّرَ «غورا» الذهاب إلى «كالكتّا» في قطار الصباح ليرى إن كان أحد المحامين في العاصمة يستطيع مساعدته، وفي طريقه إلى المحطّة أوقفه حادث غير متوقع.

كانت مباراة للـ«كريكت» قد نُظِّمَت بين فريق من طلاّب «كالكتّا» وبين فريق محلّي لآخر يوم من العيد، وبينما كان الفريق الضيف يتدرّب تلقّى أحد اللاّعبين الكرة على ساقه وجُرِحَ، كان هناك خزّان كبير مليء بالمياه بالقرب من مكان اللعب ، حمل طالبان الجريح إلى جانب الخزّان وضمّدوا له ساقه بقماش بلّلوه بالماء، وإذا بشرطي يتعرَّض لهم فجأة ويضرب الطلاّب شمالاً ويميناً ويشتمهم.

كان طلاب «كالكتّا» لا يعلمون أنَّ استعمال مياه هذا الحوض أمر ممنوع، وحتى لو كانوا يعلمون ذلك فهم ليسوا معتادين أن تهاجمهم الشرطة دون سبب، وكانوا صبية أقوياء فوقفوا موقف المنتقم من هذه الإهانة كما تكون طبيعة الأمور عادة؛ وبعد سماع الشجار هرعت عناصر أخرى من الشرطة إلى المكان جرياً، وفي الوقت نفسه ظهر «غورا» على الساحة، فقد كان يعرف هؤلاء الطلاّب جيداً وغالباً ما كان يأخذهم ليلعبوا مباريات لعبة الـ«كريكت»، وعندما رآهم قد عُنِّفوا بشراسة أتى لنجدتهم، وصرخ بعناصر الشرطة قائلاً:

- "حذارِ، اتركوا هؤلاء الصبية بحالهم".

بعد سماع ذلك توجَّه عناصر الشرطة ضدّه وشتموه بفظاظة وبدأت معركة منسّقة؛ تكدّست جماهير غفيرة من الناس، وبسرعة كبيرة تجمّع عدد

كبير من الطلاّب في مكان الحادث، وقد تشجّعوا بمساعدة وتعليمات «غورا» ونفّذوا هجوماً ناجحاً ضدّ قوى الشرطة وفرّقوهم عن بعضهم بعضاً؛ بالنسبة إلى المشاهدين (المتفرجين) بدت القصّة وكأنّها تسلية رائعة، لكن هذا الموضوع لم يكن طرفة بالنسبة إلى «غورا» بالتأكيد.

حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة من بعد الظهر، كان «بينوى» و«هاران» والصبايا يتدرّبون على المسرحية داخل المنزل الريفي، وإذ بطالبين يعرفهما «بينوى» أتيا ليعلماهم أنّ «غورا» وعدداً كبيراً من رفقائهم قد أُوقِفوا واعتُقِلوا في مخفر الشرطة انتظاراً للحكم الذي سيصدر غداً من قبل القاضي. «غورا» موقوف! هذا الخبر أثار الجميع عدا «هاران». هرع «بينوى» إلى زميل الدراسة القديم «ساتكوري» واصطحبه إلى المفوضيّة، اقترح «ساتكوري» تقديم طلب إخلاء سبيل بسند كفالة، لكن «غورا» رفض رفضاً مطلقاً أن يوكِّل محامياً وأن يقبل الكفالة؛ عندها صرخ «ساتكوري» وهو ينظر إلى «بينوى»:

- "حقاً، من يصدّق أنّ «غورا» قد أنهى دراسته؟ ليس عنده تعقّل أكثر مما كان يتمتع به أيام المدرسة".

فقال «غورا»:

- "لا أريد أن أحصل على حريتي لأنّه لديّ أصدقاء أو مال، فوفق كتبنا المقدّسة ، إحلال العدل وظيفة الملك، وجريمة الظلم ترتدّ عليه، لكن إذا اضطرّ الناس في ظلّ الحكومة الحالية إلى دفع المال للخروج من السجن، فهم سيصرفون ما يملكون للحصول على ما هو حقّهم الشرعي، أما بالنسبة إليّ فلن أدفع فلساً واحداً لعدالة من هذا النوع".

علّق «ساتكوري» قائلاً:

- "في زمن الأباطرة الباتان، كان ينبغي رهن الرأس لدفع الرشوة".

- "كان ذلك خطأ موظفي القضاء وليس الحاكم، أمّا اليوم فيوجد قضاة سيّئون يستسلمون للفساد، لكن في النظام الحالي، من المؤكّد أنّ تعيس الحظ سيفلس حالما ينبغي عليه المثول أمام المحكمة، سواء أكان مدّعياً أم مدافعاً، بريئاً أم مذنباً، والأنكى من ذلك عندما يكون التاج هو المدّعي وأشخاص مثلي هم المدافعون، كلّ وكلاء الدعوى وكلّ المحامين سيصطفّون إلى جانب الحكومة ولن يبقى لي سوى قدَري. لو كان يكفي لربح قضيّة ما أن تكون عادلة، فما الحاجة إلى نائب عام يرافع عن التاج؟ من جهة أخرى، إذا كانت مرافعة محام ما جزءاً مرتبطاً بالنظام، فلماذا لا يكون للخصم دفاع أيضاً؟ هل ينبغي أن نسمّي ذلك سياسة الدولة أم أسلوباً لشنّ الحرب على الرعايا؟

فسأله «ساتكوري» وهو يضحك:

- "لماذا تنفعل هكذا يا صديقي؟ الحضارة ليست سلعة رخيصة، إذا استدعوكَ لمحاكمات حسّاسة ينبغي أن تكون القوانين أيضاً ثاقبة؛ فإذا كانت القوانين صعبة التفسير، يصبح تفسيرها مهنة، وعندها يبرز قانون العرض والطلب وتصبح محاكم العدالة في البلدان المتمدّنة أسواقاً تُشترى فيها العدالة أو تُباع، والذين لا يملكون المال يكون نصيبهم الحرمان من الحقوق، فأيّ نظام كنتَ ستتبنّى لو كنتَ ملكاً، قل لي من فضلك؟"

- "لو كنتُ قائماً على القوانين لوضعتُ قوانين متقنة للغاية بحيث لا يمكن لأذكى القضاة من الذين يتقاضون تعويضات سخيّة ويعيشون في بحبوحة، توضيح أسرارها، ولكنتُ على أيّ حال وفّرتُ للفريقين محامين مختصين تدفع الحكومة تكاليفهم، والأهمّ أنّي لن أفتخر بتفوّقي على الأباطرة الباتان أو على المغول العظام إن أنا فرضتُ على رعيّتي الفقيرة ضرورة دفع ثمنٍ غالٍ للحصول على العدالة".

فقال «ساتكوري»:

- "هكذا إذاً! فمهما يكن من أمر وبما أنّ هذا اليوم السعيد لم يأتِ، وبما أنّكَ لست ملكاً بل سجيناً فقط ومحكوماً قضائياً من قبل إمبراطور متحضر،

فينبغي عليك إمّا أن تدفع مالاً أو أن تحصل على نجدة مجّانية من محام صديق، أيّ حلّ آخر ستكون له نتائج كارثية".

فقال «غورا» بنبرة خطابية:

- "أريد أن يحصل المخرَج دون تدخّلي أنا، أريد أن أتبع قدَر الذين ليس لديهم مال في هذه الإمبراطورية".

رجاه «بينوى» كي يكون أكثر تعقّلاً لكنه رفض أن يسمع أي شيء، وسأل «بينوى»:

- "ما الذي أتى بك إلى هنا؟"

احمرَّ «بينوى» قليلاً، فلو أنَّ «غورا» لم يكن سجيناً، لشرح له بدون شكّ وبلهجة التحدّي ظروف زيارته، لكنه في الموقف الراهن لم يجرؤ على الردّ بجواب مباشر واكتفى بقول:

- "سأحدّثك عن نفسي لاحقاً، دعنا الآن نهتم بقضيتك".

- " إنّي اليوم ضيف الملك، والملك بنفسه يهتمّ بي، ولستم بحاجة لتقلقوا من أجلي".

كان «بينوى» يعرف أنَّ أيّة محاولة تهدف إلى زعزعة قرار «غورا» ستكون بلا جدوى، كما أنّه تراجع عن فكرة توكيل محامٍ للدفاع عنه، فقال:

- "في نظام السجن لن تستطيع أن تتغذّى، سأتدبّر الأمر كي يجلبوا لك وجباتك من الخارج".

فردّ «غورا» وقد نفد صبره:

- "لماذا تهدر طاقتكَ؟ لا أريد أن يجلبوا لي وجباتي من الخارج، لا أريد شيئاً سوى ما يحصل عليه كل المساجين بشكل مشترك".

عاد «بينوى» إلى المنزل الريفي حيث كانت «سوشاريتّا» تراقبه من نافذة غرفتها المفتوحة، لقد انعزلت لأنّها كانت غير قادرة على تحمّل أيّة رفقة أو

محادثة، فعندما لمحت «بينوى» عائداً ووجهه قلق ومنهك، خفق قلبها من الخوف، لكنّها سيطرت على نفسها بمجهود كبير وأخذت كتابها وخرجت من غرفتها.

كانت «لوليتّا» جالسة في زاوية من الصالة مشغولة بالخياطة، وهو ما كانت تكرهه عموماً، بينما كانت «لابونيا» تلعب مع «سودهير» لعبة الكلمات، أمّا «ليلا» فكانت تقوم بدور المساعدة، وكان «هاران» يناقش مع السيدة «بارودا» أحد تفاصيل التسلية المخطّط لها.

أصغت «سوشاريتّا» بصمت إلى الشرح الذي رواه «بينوى» عن مقابلة «غورا» الصباحيّة مع الشرطة، في هذه الأثناء صعد الدم إلى خدي «لوليتّا» وانزلق القماش عن ركبتيها إلى الأرض، فقالت السيدة «بارودا»:

- "لا تقلق يا «بينوى بابو» سأكلّم بنفسي زوجة القاضي هذا المساء عن «غورمُهان بابو»".

فقال لها «بينوى» راجياً:

- "لا تفعلي أرجوكِ، إن علم «غورا» فلن يغفر لي ذلك إلى آخر يوم في حياته".

فقال «سودهير»:

- "مع ذلك ينبغي اتخاذ خطوات للدفاع عنه".

عندها، أخبرهم «بينوى» بالمجهود الذي قام به للحصول على موافقة «غورا» بإخلاء سبيله بكفالة وعن رفضه لخدمات محامٍ.

قال «هاران» ساخراً وقد نفد صبره من هذه القصّة:

- "يا للمسرحية المضحكة".

مهما يكن من أمر مشاعر «لوليتّا» الحقيقية تجاه «هاران» حتى الآن، فهي قد أبدت احتراماً له على الدوام، ولم تكن تدخل معه في أيّة مناقشة، لكنها في هذه المرّة هزّت رأسها بعنف وقالت صارخة:

- "كلاً هذا ليس مسرحية أبداً، «غورمُهان بابو» على حقّ. القاضي بدون شك مكلّف بتنغيص عيشنا، وبما أنّه من الضروري أن ندافع عن أنفسنا، فهل ينبغي علينا أن ندفع له راتباً ضخماً وندفع أيضاً أجور المحامين لنفلت من براثنه؟ البقاء في السجن أفضل من الخضوع لعدالة كهذه".

نظر «هاران» إلى «لوليتّا» متفاجئاً، لقد عرفها طفلة ولم يخطر بباله أنّه بإمكانها أن تبني آراءً لها، فوبّخها بعنف لهذا الإنفجار الخاطئ وقال لها:

- "ماذا تعرفين في قضايا مماثلة كهذه؟ أظن أنَّ ما في رأسك قد تغيّرَ بسبب هذيان بعض الشباب الهاربين من الجامعة والذين درسوا بعض الكتب عن ظهر قلب وليس لديهم أدنى فكرة عن الثقافة الحقيقية".

بعد ذلك أخذ يتحدّث عن مقابلة «غورا» مع القاضي مساء الأمس، وأخبرهم أيضاً عن تعليقات القاضي بعد المقابلة. قضيّة «غوزيبارا» كانت خبراً جديداً بالنسبة إلى «بينوى» فزادت من قلقه وأدرك عندها أنَّ الفرصة ضعيفة ليخلي القاضي سبيل «غورا» .

لم يتحقّق الهدف الذي روى «هاران» القصة من أجله بل على العكس من ذلك، لقد جُرِحَتْ «سوشاريتّا» بعمق من الوضاعة التي بانت من «هاران» بإخفائه المقابلة، وبدأ الجميع يزدرونه للحقد المنحطّ الذي أبداه تجاه «غورا» والذي انكشف لهم الآن، لكنّ «سوشاريتّا» لم تنبس ببنت شفة، لقد بدت للحظة وكأنّها جاهزة للاعتراض، لكنها سيطرت على نفسها وأخذت كتابها من جديد وصارت تقلّب الصفحات بيد مرتجفة. فقالت «لوليتّا» بلهجة التحدّي:

- "لا يهمني إن كان «هاران بابو» يشاطر القاضي رأيه، بالنسبة إليّ كل القضية تدلّ ببساطة على النبل الأصيل لمشاعر «غورمُهان بابو»".

الفصل التاسع والعشرون

بما أنَّ القائمقام سيحضر في هذا اليوم، فقد أتى القاضي إلى المحكمة في الموعد المحدَّد في الساعة العاشرة والنصف تماماً على أمل أن يحلَّ القضايا التي عليه البتّ فيها بأقصى سرعة. حاول «ساتكوري بابو» الذي يدافع عن الطلبة أن يغتنم الفرصة ليساعد صديقه، لكنّ الشكل الذي جرت فيه الأحداث جعله يخلص إلى أنَّ أفضل أسلوب ينبغي تبنّيه هو الترافع على أساس الإعتراف بالجريمة، وهذا ما فعله في مرافعته لكن مع طلب الرحمة ومع التنويه إلى سنّ الشباب وقلّة خبرة موكليه؛ حكم القاضي على الشباب بالجلد بدءاً من خمس جلدات إلى خمس وعشرين جلدة وفق العمر والتهمة؛ لم يكن لـ«غورا» محامٍ، وفي دفاعه عن نفسه حاول أن يبيّن فضيحة العنف الذي مارسته الشرطة، لكن القاضي قاطعه بحزم وحكم عليه حكماً صارماً بالسجن شهراً لأنَّه هاجم الشرطة أثناء القيام بعملها، كما أرفق الحكم بملاحظة مفادها أنَّ «غورا» ينبغي أن يقتنع بأنَّه نجا من ورطته بسعر رخيص.

كان «سودهير» و«بينوى» بين الحاضرين. لم يجرؤ «بينوى» على النظر إلى «غورا»، فغادر الجلسة بسرعة وهو يشعر بالاختناق، أراد «سودهير» أن يدفعه للعودة إلى المقرّ الرسمي كي يستحمّ ويأكل، غير أنَّ «بينوى» لم يعِر كلامه أيّ إنتباه، واجتاز باحة المحكمة ثمَّ جلس تحت شجرة وقال:

- "عد أنت إلى المنزل الريفي وسأتبعك بعد قليل".

لم يعِ «بينوى» ما هي المدة التي مرّت عليه جالساً تحت الشجرة بعد أن غادره «سودهير»، وحين أصبحت الشمس في أوجها، توقّفت عربة أمامه تماماً، ولمّا رفع ناظريه لمح «سوشاريتّا» و«سودهير» ينزلان منها ويتّجهان نحوه، وقف بسرعة عندما رآهما يقتربان وسمع «سوشاريتّا» تقول له بصوت منفعل:

- «بينوى بابو» ألا تريد المجيء؟" أدرك «بينوى» حالاً أنّه قد أصبح هدفاً لفضول المارّة، فتبعهما على الفور باتجاه العربة، وفي طريق العودة لم ينبس أحد ببنت شفة.

عندما عادوا إلى المنزل الريفي، فهمَ «بينوى» أنَّ مناقشة خطرة كانت قد بدأت، وقد أعلنت «لوليتّا» عن نيتها عدم المشاركة في الحفل عند القاضي هذا المساء وغدت السيدة «بارودا» في حرج رهيب، بينما بدا «هاران» غاضباً جداً من هذا التمرّد، فقد اعتبر ذلك غير مقبول من قِبل بنت صغيرة كـ«لوليتّا»؛ وأخذ يرثي مرض الشباب الحديث، من صبيان وبنات، ذلك المرض الذي يجعلهم يرفضون أيّ شكل من أشكال النظام، معتبراً أنَّ هذا المرض هو نتيجة تركهم يعاشرون كلّ أنواع الناس ويتحدّثون معهم بكل الأشياء اللامعقولة. وحالما وصل «بينوى» اقتربت منه «لوليتّا» على الفور وقالت له:

- "أطلب منك السماح يا «بينوى بابو»، لقد أزعجتكَ كثيراً عندما أظهرتُ عدم فهمي صحة الانتقادات التي كنتَ تعبّر عنها، ولأنّنا نجهل كل ما يحدث خارج دائرتنا الضيقة فإنّنا نخطئ أخطاء لا تغتفر، وتابعت كلامها قائلة: لقد أعلن «هاران بابو» أنَّ إدارة هذا القاضي للهند هي هبة من العناية الربّانية، أمّا أنا فأضيف على ذلك: إنَّ رغبة قلوبنا القوية في لعن هذه الإدارة، هي هبة أخرى لنا من العناية الربّانية".

استأنف «هاران» بغضب:

- "«لوليتّا»، أنتِ...".

لكن «لوليتّا» أدارت له ظهرها وصاحت بتعجّب:

- "اصمت، أنا لا أتكلّم معكَ، لا تتنازل يا «بينوى بابو» عن أيّة حجّة ولا عن أيّة مرافعة تُطرح، ينبغي علينا ألاّ نلعب المسرحية هذا المساء، ولا بأيّ ثمن في العالم".

فصرخت السيدة «بارودا» محاولة أن توقفها عن الكلام:

- "أنتِ حقاً فتاة لطيفة، هل تتركين «بينوى بابو» يغتسل ويتغدّى؟ ألا تعلمين أنَّ الساعة الواحدة والنصف؟ انظري كم هو تعِب وكم وجهه شاحب".

فقال «بينوى»:

- "إنّه من المحال لي أن أتناول الطعام هنا، فنحن ضيوف القاضي".

حاولت السيّدة «بارودا» أولاً أن تتدبّر المشكلة، راجية «بينوى» أن يبقى، وبعد ذلك، وبما أنَّ كل بناتها لزمن الصمت، صرخت بغضب:

- "ماذا أصابكن جميعاً؟ «سوشي»، أتريدين، أرجوكِ، أن تشرحي لـ«بينوى بابو» بأنّنا ملتزمون، وأنَّ الناس مدعوون وينبغي علينا أن ننفّذ ما وعدنا به، وإلاّ، كيف سينظرون إلينا؟ لن أجرؤ أبداً على الظهور علانية بعد ذلك".

لكن «سوشاريتّا» التزمت الصمت وقد خفضت عينيها.

ذهب «بينوى» إلى محطّة السفن البخارية جانب المنزل الريفي والتي تقوم بخدمة المواصلات النهرية وعلِمَ بأنَّ هناك سفينة قد تغادر بعد ساعتين إلى «كالكتّا» وتصل صباح اليوم التالي حوالي الساعة الثامنة.

أطلق «هاران» عنان غضبه ضد «غورا» و«بينوى» بألفاظ مهينة، جارحة، ما جعل «سوشاريتّا» تبتعد بسرعة وتعزل نفسها في الغرفة المجاورة.

تبعتها «لوليتّا» بعد برهة فوجدتها مستلقية على السرير وقد غطّت وجهها بيديها، أغلقت «لوليتّا» الباب بالمفتاح ثم ذهبت بهدوء وجلست بالقرب من أختها وأخذت تلامس شعرها. بعد قليل وعندما استعادت «سوشاريتّا»

هدوءها، أبعدت «لوليتّا» اليدين المرتخيتين بلطف عن وجهها، وعندما استطاعت أن ترى وجه أختها همست في أذنها:

- "لنذهب يا «ديدي» ونعود إلى «كالكتّا»، إنّه من المستحيل أن نلعب المسرحية هذا المساء عند القاضي".

ظلّت «سوشاريتّا» مدّة لا بأس بها دون أن تجيب، لكن عندما كرّرت «لوليتّا» اقتراحها، جلست على السرير وقالت:

- "لا يا حبيبتي، أنا لم أكن أرغب في المجيء، لكن طالما أنّ أبي هو الذي أرسلني فكيف يكون باستطاعتي المغادرة قبل أن أُنفِّذَ ما يرغب فيه؟"

- "لكن أبي لا يعلم شيئاً مما جرى، ولو علم، لما طلب منا البقاء، بالتأكيد".

فسألت «سوشاريتّا» وقد بدا عليها الإرهاق والاشمئزاز:

- " كيف يمكننا أن نتأكّد من ذلك يا حبيبتي؟"

فتابعت «لوليتّا» كلامها قائلة:

- "هيّا، قولي لي يا «ديدي» هل ستكونين قادرة فعلاً على لعب دورك، ألا يزعجكِ مجرّد الذهاب عند القاضي؟ وهل يمكنكِ الصعود إلى المنصّة جاهزة بكل زينتكِ لتلقي شعراً؟ أمّا بالنسبة إليّ فسأكون حتماً عاجزة عن لفظ كلمة واحدة، حتى لو كنتُ سأندم على ذلك".

- " آواه! يا حبيبتي، مع ذلك ينبغي أن نتحمّل حتى عذابات جهنم، كيف نتخلّص من ذلك الآن؟ هل تظنّين أنني سأنسى هذا اليوم ما حَييت؟"

غضبت «لوليتّا» من طاعــة «سوشاريتّا» وانقيادها، وعادت إلى أمّها وسألت:

- "ألا تأتين معنا يا أمّي؟"

فقالت «بارودا» متعجّبة وقلقة:

- "ماذا جرى لهذه الصغيرة؟ ينبغي أن نكون جاهزين عند الساعة التاسعة مساءً".

- "أتحدث عن عودتنا إلى «كالكُتّا»".

عندها صرخت «بارودا» قائلة:

- "إسمعوا هذا الهذر".

هنا التفتت «لوليتّا» نحو «سودهير» وسألته:

- "وأنتَ، يا «سودهير دادا»، هل ستبقى هنا أيضاً؟"

لقد تأثّر «سودهير» جرّاء إدانة «غورا»، إلاّ أنّه لم يكن يملك المقدرة على مقاومة رغبته في إظهار مواهبه أمام جمهور الأوروبيين المميّز، فتمتم بضع كلمات عبّرت عن تردّد، لكنه أكّدَ بأنّه ينبغي عليه الذهاب إلى العرض على الرغم مما حدث. فقالت «بارودا»:

- "إنّنا نضيّع وقتنا في كلّ هذه القصص، لنذهب ونرتاح وإلاّ ستكون وجوهنا شاحبة هذا المساء ولن نتمكّن من الظهور أمام أحد، ينبغي على كل واحد أن يلزم سريره حتى الساعة الخامسة".

وأرسلت كل واحد منهم إلى غرفته، حيث ناموا جميعاً عدا «سوشاريتّا» التي لم تستطع النوم و«لوليتّا» التي ظلّت منتصبة في سريرها.

سُمِعت صفارة السفينة الذاهبة إلى «كالكُتّا» تدعو الركّاب مرّات عديدة.

وعندما حان وقت رحيل السفينة البخارية واستعد البحّارة لسحب الجسر المتحرّك كان «بينوى» واقفاً على الجسر العالي، فرأى امرأة بنغالية مسرعة تصعد على متن السفينة، ثوبها وقامتها يذكّرانه بـــ«لوليتّا»، لكنه للوهلة الأولى لم يصدّق عينيه، أمّا عندما اقتربت، فلم يعد هناك مكان للشك، تخيّلَ لبرهة أنّها أتت لتعيده معها ثم تذكّر أنّها هي أيضاً رفضت الذهاب إلى بيت القاضي هذا المساء، استطاعت «لوليتّا» أن تدرك السفينة، وبينما كان

البحّارة يقلعون بالسفينة، كان «بينوى» المتأثّر جداً قد نزل مسرعاً إلى الأسفل ليقابلها. فقالت له:

- "لنصعد الجسر العالي".

فصرخ «بينوى» مشدوهاً:

- "لكن السفينة تبحر".

فردّت:

- "أعرف ذلك".

ودون أن تنتظر أكثر من ذلك صعدت الدرج، بينما كان صوت الصفارة يعلو والسفينة البخارية تتحرك. وجد «بينوى» مقعداً مريحاً لـ«لوليتّا» على الجسر، نظر إليها بعينين مليئتين بأسئلة صامتة، فقالت «لوليتّا» شارحة:

- "إني ذاهبة إلى «كالكتّا»، لقد وجدتُ أنّه من المستحيل بالنسبة إليّ أن أبقى".

- " وماذا سيقول الآخرون؟"

- "لا أحد يعلم ذلك حتى الآن، لقد تركتُ رسالة صغيرة، سيعرفون عندما يقرؤونها".

ذُهِلَ «بينوى» من استقلاليّة الفتاة، وبدأ يقول بلهجة متردّدة: "لكن مع ذلك ....". فقاطعته «لوليتّا» قائلة:

- "لقد انطلقت السفينة الآن فماذا يفيدنا أن نقول "لكن"؟، لا أرى لماذا ينبغي عليّ أن أقبل كل شيء دون اعتراض بذريعة أنني بنت، بالنسبة إلينا أيضاً كلمات مثل ممكن ومستحيل، خير وشر، لها قيمة، كان من الأسهل عليّ أن أنتحر من أن أشارك في هذه المسرحية التي سيقدّمونها".

أدركَ «بينوى» أنّ ما حصل قد حصل وأنّه لا فائدة من القلق والانشغال لمعرفة إن كان ذلك مُرضياً ومقبولاً أم لا. وبعد فترة صمت استعادت «لوليتّا» الكلام قائلة:

- "لقد كنتُ ظالمة جداً تجاه صديقك «غورمُهان بابو»، لا أدري لماذا! عندما رأيته وسمعته يتحدّث استفزّني ضدّه إلى حدّ ما، فقد كان يعبّر عن نفسه دائماً بعنف شديد، وكنتم جميعاً جاهزين باستمرار للموافقة على طروحاته، وهذا الأمر كان يزعجني، فأنا لم أكن أقبل أن أُقمَع لا بالكلام ولا بالفعل؛ غير أنّي أدركتُ الآن أنّ «غورمُهان بابو» يفرض على نفسه نظماً صارمة تماماً كما على الآخرين، يا لها من سلطة محترمة فعلاً، لم أرَ في حياتي رجلاً يشبهه"!

استمرّت «لوليتّا» بالكلام ليس فقط لأنّها نادمة على الأسلوب الذي حكمت به على «غورا» ، بل أيضاً لأنّ القلق من التصرّف الذي قامت به استمرَّ في تبكيت ضميرها كما أنّها لم تكن تتوقّع الحرج الذي قد يسبّبه لها وجود «بينوى» كرفيقٍ في مغامرتها على السفينة؛ ومع ذلك، ورغم إدراكها بأنّها كلّما أظهرت خجلاً بدا الموقف صعباً، أخذت تثرثر دون تركيز.

لم يتمكن «بينوى» من إيجاد كلمة واحدة ليقولها، كان تفكيره منشغلاً بفكرتين، فكرة الإزعاجات والإهانات التي وجّهت لـــ«غورا» من قبل القاضي، وفكرة العار الذي قد يتعرّض له هو نفسه لأنّه أتى ليلعب دوراً في المسرحية عند هذا القاضي نفسه، والآن أُضيفَ إلى الهموم الأخرى الموقف المحرج الذي وجد نفسه فيه تجاه «لوليتّا». لقد تجمّعت كل هذه الظروف لتفقده الكلام.

الجرأة التي أبدتها «لوليتّا» كانت في الماضي تثير عنده استياءً قوياً، أمّا اليوم فقد غدا شعوره ذاك غريباً عنه؛ في الواقع لقد اختلطت المفاجأة التي أحسَّ بها جرّاء هذا الهروب بنوع من الإعجاب بالشجاعة التي برهنت عنها «لوليتّا»، بالإضافة إلى ذلك شعر أنّه سعيد لأنّه هو و«لوليتّا» كانا وحدهما من بين كل المجموعة اللذين شعرا بتعاطف حقيقي تجاه الإهانة التي كان «غورا» ضحيتها، أمّا بالنسبة إلى التحدّي الموجّه إلى المجتمع، فإنّ «بينوى»

قد ينجو من أيّة تبعة مزعجة، لكن «لوليتّا» قد تذوق ثماراً مرّة لأيام عديدة. بأيّة نظرة خاطئة وغريبة كان ينظر دائماً إلى هذه الـ«لوليتّا» نفسها على أنّها معادية لـ«غورا»؟ وكلّما زاد تفكيره في الموضوع زاد تقديره لما أبدته من عدم تسامح تجاه الظلم، وللشجاعة التي أظهرتها في قناعاتها دون أن تحسب حساباً للحكمة العاميّة ونصائحها، وكلّما قويت عنده هذه الانفعالات كان يضاعف جهده بصعوبة كبيرة ليحتفظ بسرّية أحاسيسه.

لقد وجد مبرّراً للرأي السلبي الذي كانت «لوليتّا» قد كوّنته عنه سابقاً عندما كانت تعتبر أنّه تنقصه القوّة والمقدرة في آرائه، فهو لم يكن ليستطيع أبداً أن يرمي كل اعتبارات اللوم والمدح من قبل أهله وأقاربه عرض الحائط، ليتّبع ما قد يبدو له مسلكاً مستقيماً. كم من مرّة فشل في أن يكون حقاً هو نفسه خوفاً من إزعاج «غورا» أو خوفاً من أن يُتّهم بالضعف، وكان بعد ذلك يتيقّن ببراهين خدّاعة أنّ أفكار «غورا» كانت أفكاره الخاصة.

ظهر لـ«بينوى» وبوضوح تفوّق «لوليتّا» النفسي، واستقلالية فكرها، وهكذا ازداد احترامه لها وشعر برغبة قويّة في طلب الغفران منها لأنّه في الماضي غالباً ما كان يحكم عليها ظلماً وينتقدها بصمت، لكنّه لم يتجرأ على إيجاد أيّة وسيلة لصياغة هذه الرغبة. لقد شكّل رؤية جديدة عن النساء في ضوء ما لمس من سلوكية «لوليتّا» النبيلة والشجاعة، تلك الرؤية جعلته يشعر أنّ مصيره الخاص قد أصبح أكثر غنىً.

الفصل الثلاثون

حال وصولهما إلى «كالكتّا» أوصل «بينوى» «لوليتّا» إلى منزل «باريش بابو». كان «بينوى» يجهل الطبيعة الحقيقية لمشاعره تجاه «لوليتّا» قبل رحلتهما معاً على متن السفينة البخارية، فقد كان عقله منشغلاً بنزاعاته معها، وكان هدفه الأساسي في كل مرّة يقابلها أن ينجح في التوصل إلى هدنة مع هذه الفتاة الجموح. في الماضي كانت «سوشاريتّا» قد أشرقت في أفق «بينوى» كنجمة المساء، تشعّ منها كل النعومة النقيّة للأنوثة، وكان الفرح الذي جلبه هذا التخيّل الرائع قد أعطى لروح الشاب تفتّحاً حقيقياً. لكن نجوماً أخرى قد أشرقت بدورها ولم يعد يتذكّر بوضوح كيف غابت الأولى خلف الأفق بعد أن بشّرته بعيد النور، ذاك العيد الذي يقدّمه لنا الكون.

حالما وضعت المتمرّدة «لوليتّا» قدميها في السفينة، قال «بينوى» في قرارة نفسه: "أنا و«لوليتّا» سنبقى من الآن فصاعداً وحدنا جنباً إلى جنب، نتحدّى المجتمع كلّه". ولم يستطع أن يُبعد عن عقله فكرة أنّ «لوليتّا» قد تركت كل الآخرين ولحقت به؛ مهما كانت حجّة «لوليتّا» وهدفها، الواضح أنّ «بينوى» لم يعد بالنسبة إليها كائناً بين الآخرين، فلا يوجد غيره إلى جانبها، وفي النهاية لا يوجد غيره لها؛ كل عائلتها كانت بعيدة عنها بينما هو قريب جداً، ولهذه الحميمية معنى أثار قلبه كرعدة سبقت برقاً مداهماً وزعزعت الغيوم المحمّلة بالعاصفة.

عندما انسحبت «لوليتّا» إلى مقصورتها لتقضي الليل، شعر «بينوى» بعجزه عن النوم، خلع حذاءه وأخذ يذرع الجسر جيئة وذهاباً دون أن يُحدِث جلبة، لم يكن هناك من سبب خاص يجعله يقوم بحراسة مقصورة «لوليتّا» خلال الرحلة، لكنه لم يستطع أن يتنازل عن أدنى متعة في تحمّله المسؤولية الجديدة وغير المتوقعة التي حلّت عليه، وهكذا فرض على نفسه هذه السهرة الزائدة.

كان عمق ظلمة الليل فائق الوصف، وكانت السماء النقيّة مليئة بالنجوم، أمّا الأشجار التي تحيط بالضفاف فكأنّها احتشدت لتشكّل قاعدة صلبة وسوداء للقبّة السماوية، وكانت مياه النهر الواسع في الأسفل تسيل سريعة صامتة، وفي وسط هذا الإطار الهائل ترقد «لوليتّا» مستريحة.

لم يطرأ أي شيء آخر، لقد وضعت «لوليتّا» مهمّة حفظ راحتها بين يديّ «بينوى» بكل بساطة دون خوف وبكلّ رضا، أمّا «بينوى» فقد تقبّل هذه الأمانة وكأنّها الهبة الأثمن لديه وعليه إذاً أن يحافظ عليها، فلا يوجد أب ولا أمّ ولا حتى أقارب من أي نوع كان إلى جانبهما، وبفضل هذا الاهتمام لم تتردّد «لوليتّا» بإلقاء جسدها الجميل على سرير الصدفة والنوم دون قلق ودون همّ بحيث يتناغم نفَس صدرها المنتظم مع قصيدة نومها. لم تُحَلّ أيّة خصلة من ضفائر شعرها المجدولة بعناية، أمّا يداها بنعومتهما المعبِّرة عن كل حنان المرأة فهما مرتاحتان على الغطاء في عفويّة الثقة التامّة، وساقاها الرشيقتان الدائمتا الحركة بقيتا دون حراك، وأخيراً كإيقاع النغمة الختامية للموسيقا في حفل قد انتهى للتوّ، هذه هي اللوحة التي تملأ خيال «بينوى». نامت «لوليتّا» مزمّلة بالظلمة الصامتة وقبّة السماء المحمّلة بالنجوم، مثل لؤلؤة محتواة في صَدَفة، لقد بدا هذا النوم بكماله التام بالنسبة إلى «بينوى» في هذه الليلة أهمّ ما في العالم؛ "إني أسهر، إني أسهر" كانت هاتان الكلمتان تصعدان من أعماق صدره إلى شفتيه كنفير بوق منتصر، وتمتزجان مع الرسالة الصامتة الآتية من «الساهر» الأزلي في السماوات.

لكن، «في الليلة الظلماء يفتقد البدر»، فبين الحين والآخر كانت فكرة مختلفة تماماً تعود إلى ذهنه، "في هذا المساء «غورا» يقبع في السجن".

كان «بينوى» قد شارك صديقه كل أفراحه وأتراحه حتى هذا اليوم، وهذه هي المرّة الأولى التي يسير فيها في طريق مختلف؛ كان يعرف تماماً أنَّ السجن بالنسبة إلى رجل من أمثال «غورا» لا يشكِّل محنة حقيقيّة، لكن «بينوى» ومنذ بداية هذه المرحلة المهمّة من حياة «غورا» ، كان قد انفصل عن صديقه ولم يشاركه في هذه القضيّة بشيء أبداً؛ وعندما ستعود تيّارات حياتهما المنقسمة إلى الاتحاد من جديد، هل يمكن لهذا الفراغ الذي حصل جرّاء انفصال قصير الأمد أن يُمحى؟ ألا يشعره حدسه بنهاية صداقتهما النادرة جداً والتي لم تهتزّ أبداً؟ وبينما كان الليل يمرّ تدريجياً كان «بينوى» مستسلماً لأحاسيسه، فريسة الحماسة الخلّاقة والقوة المدمِّرة، يشعر بالكمال والغياب في آنٍ معاً وينعم النظر في الظلمات.

عندما توقّفت العربة في الصباح أمام منزل «باريش بابو» ونزلت «لوليتّا» منها، لاحظ «بينوى» أنَّها كانت ترتجف وأنَّ عليها بذل مجهود كبير لتتمالك نفسها؛ في نهاية الأمر، لم تكن حتى الآن قد قدَّرت فداحة الإهانة التي ارتكبتها ضدّ القوانين الاجتماعية بخوضها هذه المغامرة الخطرة. كانت تعلم جيداً أنَّ أباها لن يوجِّه لها أيّ لوم، لهذا السبب كانت تخشى صمته.

أمّا «بينوى» فقد تردَّد في تحديد أيّ موقف من المواقف سيكون الأفضل في هذه الظروف؛ وكي يتبيّن له إن كانت «لوليتّا» ستغدو أكثر قلقاً في حال بقي إلى جانبها، جازف وقال لها بنبرة المستفهم:

- "أظنُّ أنَّه من الأفضل أن أذهب؟

فقالت «لوليتّا» بسرعة:

- "كلاّ، كلاّ، تعالَ معي لمقابلة أبي".

ابتهج «بينوى» من صميم قلبه من الحماسة التي أبدتها في جوابها، شعر بأنّ واجبه لم يتوقف عند عودة «لوليتّا» إلى أبيها فحسب بل إنّ الحادث الذي طرأ ربط حياته بحياتها برباط خاص جداً، ما جعله يدرك أنّ عليه الآن مساعدتها بحزم أشدّ من ذي قبل.

فكرة أنّ «لوليتّا» كانت تعرف كيف تعتمد عليه أثّرت فيه بعمق وشعر بأنّها تتمسك بيده كي يدعمها؛ إن لام «باريش بابو» «لوليتّا» بسبب سلوكها الطائش والفظّ، عند ذلك – يرى «بينوى» – أنّ عليه تحمّل كل المسؤولية وقبول التوبيخ، كدرع يحميها من الملامة؛ غير أنّه لم يكن يفهم تماماً ما كان يدور في رأس «لوليتّا»، فهي لم تكن تريد أن يحميها «بينوى»، والسبب الذي جعلها ترغب في الاحتفاظ به إلى جانبها كان كرهها الشديد للإخفاء والمواربة ورغبتها بأن يعرف أبوها ما فعلته بدقّة وبأدنى تفاصيله، وكانت مستعدة لتحمّل صدمة الحكم الذي سيصدره أبوها مهما كان ذلك الحكم.

منذ الصباح بدأت تشعر بغضب من «بينوى» وكانت تعلم أنّ هذا الغضب مناف للعقل، ولكن وبطريقة غريبة، إزداد انزعاجها عوضاً عن أن يتناقص، كانت حالتها النفسية على متن السفينة مختلفة.

منذ طفولتها كانت عندها نزوات تدفعها لارتكاب حماقات، لكن الهروب الحالي مختلف، إنّه قضيّة جديّة وخطرة، وفكرة أنّ «بينوى» أصبح جزءاً منها جعلتها أكثر خطورة، مع ذلك امتزج قلق «لوليتّا» بنوع من الابتهاج الخفيّ وكأنّه متعة محرّمة؛ فأن تستند إلى أحدهم وهو غريب نسبياً وأن تعيش هذه الواقعة بالقرب منه دون تدخّل العائلة أو المجتمع، أمور خلقت موقفاً حرجاً دون أدنى شك، بل ومقلقاً إلى أبعد حدّ، غير أنّ سلوك «بينوى» الراقي تلقائيّاً أحاط الحادثة بوشاح من النقاء جعل «لوليتّا» تظلّ حرّة بتقديرها للتواضع العفوي الذي أبداه في هذه الظروف. إنّ «بينوى»، هذا الذي أمامها اليوم يبدو مختلفاً عن «بينوى» الذي شارك بألعابهم ومتعهم، والذي ثرثر

ومازحهم بحريّة تامة وكان دمثاً حتى مع الخدم. لقد كان بإمكانه أن يفرض نفسه عليها بذريعة حمايتها، لكن بما أنّه حافظ على المسافة بينهما بعناية كبيرة فقد أصبح عزيزاً على قلب الفتاة.

أفكارها جعلتها تظلُّ ساهرة خلال تلك الليلة في مقصورتها، وبعد أن تقلّبت بهياج على أريكتها لساعات طويلة ظنّت في النهاية أنَّ الليل قد انجلى وأنَّ الفجر قد بزغ، ففتحت باب مقصورتها قليلاً دون أن تُحدِث صوتاً، وألقت نظرة إلى الخارج، صحيح أنَّ الليل كاد ينتهي لكن ظلامه المحمّل بالندى تأخَّر على جرف حافّة النهر وعلى صفوف الأشجار التي تحيط به؛ هبّت نسمة باردة فتموَّج سطح الماء، بينما أحدثَ مرجل السفينة جلبة تدلّ على بدء العمل اليومي من جديد، وعندما وصلت إلى الجسر، وبينما هي تتقدّم نحو مقدّمة السفينة رأت «بينوى» نائماً على أحد مقاعد الجسر وقد تدثَّر بشاله؛ خفق قلبها عندما أدركت أنّه ربّما سهر على راحتها كلّ الليل بهذا القرب الشديد وهذا البعد الشديد أيضاً.. فانسلّت في الحال باتّجاه المقصورة بخطى مرتجفة ووقفت عند الباب تتأمّل «بينوى» نائماً بين هذه الشواطئ القاتمة والغريبة، لقد أصبح «بينوى» بالنسبة إليها مركز كوكبة النجوم التي تسهر على هذا العالم.

بينما كانت تنظر إليه امتلأ قلبها بعذوبة فائقة الوصف وامتلأت عيناها بالدموع، تهيّأ لها أنَّ «الإله» الذي علَّمها والدها أن تصلّي له قد نزل ليباركها بيديه الممدودتين؛ وفي هذا الوقت الاحتفالي حيث يتمّ أول اتحاد عجائبي للّيل المعتم مع النهار الجديد على جرف حافّة النهر الذي لا يزال نائماً، وبين أوراق الغابات الكثيفة التي تغطّيها، بدأت الموسيقا المؤثرة لبعض الـ«فينا»[1] السماوية تصدر رنينها عبر الفضاء الواسع الذي لا يزال مليئاً بالنجوم، نجوم تملأ الكون وتنيره.

---

(١) "فينا Vina": آلة موسيقية تقليدية تشبه المندولينة الكبيرة، إنّها الآلة التي كانت تعزف عليها "لاكشمي" زوجة "فيشنو".

حرّك «بينوى» ذراعه أثناء نومه فانسلت «لوليتّا» مسرعة إلى مقصورتها وأغلقت الباب وتمدّدت من جديد على السرير؛ كانت يداها وقدماها قد تجمدت كالثلج ولفترة طويلة لم تتمكّن من تهدئة نبضات قلبها.

تبدّد الظلام وتحرك البخار، اعتنت «لوليتّا» بزينتها، ثم خرجت إلى الجسر وذهبت لتستند إلى حاجز السفينة؛ صفّارة الإنذار التي أطلقتها السفينة أيقظت «بينوى» فاتّجهت عيناه نحو الشرق بانتظار أول خيوط الفجر؛ عندما رأى «لوليتّا» بقربه نهض فحيّته بالكلمات التالية:

- "أخشى ألاّ تكون قد نمت كثيراً".

أجابها «بينوى»:

- "آه! لم تكن ليلتي سيئة".

ثم لم يجدا أي شيء يتحدثان به.

برق ضياء ذهبي اللون عند أولى إشعاعات الشمس فإذ هو الندى الذي يغطي باقات الخيزران المحيطة بالضفاف. لم يرَ كلّ من الشابّ والفتاة في حياتهما فجراً مماثلاً، ولم يؤثّر فيهما نور النهار إلى هذا الحدّ من قبل؛ لقد أدركا لأول مرّة أنّ السماء ليست خالية بل هي تشرف على كل تفتّح في الكون بفرح وتعجّب صامتين؛ كانت حساسيتهما نابضة متأثّرة لحدّ أدركا معه الرابط العميق الذي يربطها بضمير الكون الأرفع، وتعطّلت عندهما لغة الكلام...

وصلت السفينة البخارية إلى «كالكتّا»، استأجر «بينوى» عربةً، وركبت «لوليتّا»، أمّا هو فقد جلس إلى جانب الحوذي. من يمكنه تفسير ما يحصل لـ«لوليتّا»؟ فكيف تغيّر مزاجها حتى ثارت واغتاظت بينما كانت العربة تسير عبر طرقات المدينة؟ أن يتواجد «بينوى» إلى جانبها في هذا الموقف الخطر وعلى متن السفينة، ويهتمّ بأمورها بحميمية، ويوصلها الآن إلى منزلها كما لو كان هو حاميها، أحداث أثقلت تفكيرها؛ بالإضافة إلى أنّها

لم تحتمل فكرة أن يكتسب «بينوى» سلطة عليها بحكم الظروف. لماذا تغيّرت أحوالها بهذا الشكل؟ لماذا اختتمت الموسيقا الليلية بنوطة متنافرة النغمة عندما وجدت «لوليتّا» نفسها من جديد في مواجهة حياتها اليومية؟ وعندما وصلا إلى باب منزلها قال «بينوى»: "الآن، سأذهب"، فشعرت بازدياد غضبها، هل يظنّ أنّها تخاف أن تمثل أمام أبيها مع رفيقها؟ فهي على العكس من ذلك أرادت أن تظهر بكلّ وضوح بأنّها ليست خجلة من أفعالها وأنّها جاهزة لتروي لأبيها كل التفاصيل التي حدثت؛ لذلك لم يكن من الممكن لها أن تقبل بذهاب «بينوى» خفية كما لو أنّها مذنبة؛ أرادت أن تعيد العلاقات معه إلى بساطتها السابقة، ورفضت أن يُنتقص من قيمتها أمام هذا الشاب إن هي أبقت على أوهام الليل الفائت وشكوكه ماثلة في وضح النهار.

الفصل الحادي والثلاثون

ما إن لمح «ساتيش» «بينوى» و«لوليتّا» حتى قفز نحوهما وأمسك بيد كل منهما وسأل:

- "أين «سوشاريتّا»؟ ألم تعد؟"

بحث «بينوى» في جيوبه ونظر من حوله وقال متعجّباً:

- "«سوشاريتّا»! هذا صحيح! أين يمكن أن تكون؟ ربما أضعناها".

قال «ساتيش» وهو يدفع «بينوى» إلى الوراء:

- "لا تأتِ بحماقات، «ديدي لوليتا» قولي لي أين هي؟"

أجابت «لوليتّا»:

- "«سوشاريتّا» ستعود غداً".

ثم اتجهت نحو غرفة «باريش بابو»، لكن «ساتيش» حاول أن يجرّهما قائلاً:

- "تعالا معي لتريا من أتى".

لكن «لوليتّا» أزاحت يده وقالت:

- "لا تزعجنا أريد أن أرى أبي".

فردَّ «ساتيش» ليعلمها:

- "أبي خرج ولن يعود إلاّ بعد زمن طويل".

هذه الجملة أراحت «بينوى» و«لوليتّا» على حدٍ سواء وشعرا أنّهما يتنفّسان بحريّة أكبر.

- "لقد قلتَ إنَّ أحدهم قد أتى، من ذا الذي أتى؟"

فأجاب «ساتيش»:

- "لن أقول لكما، هيّا يا «بينوى بابو»! لنرَ إن كنتَ ستحزر من أتانا، إنّي متأكد تماماً بأنَّك لن تستطيع ذلك أبداً".

طرح «بينوى» كل أنواع المستحيلات، من أسماء العباقرة إلى الأمراء والشخصيّات التاريخية كحاكم من حكام الإمبراطورية المغولية في الهند، أو ثريّ من عظماء الأثرياء... ومع كل فرضية كان «ساتيش» يجيب بصوت حادّ "كلاّ" مبرهناً بالحجّة أنَّ ضيوفاً كهؤلاء لن يأتوا إليهم؛ فاعترف «بينوى» بهزيمته بشكل متواضع وقال:

- "أجل، صحيح! لقد نسيتُ أنَّ تلك الشخصيات لن ترتاح في هذا البيت، في جميع الأحوال، دع أختكَ توضح لنا هذا السرّ ثم تناديني بعدها إن كان ذلك ضرورياً".

فأصرَّ «ساتيش» قائلاً:

- "كلاّ، ينبغي أن تأتيا كلاكما".

سألته «لوليتّا»:

- "إلى أين ينبغي علينا أن نذهب؟"

فأجاب «ساتيش»:

- "إلى فوق، في الأعلى".

في أعلى المنزل وفي زاوية من السطح هناك غرفة صغيرة تطلّ واجهتها على شرفة مرصوفة ومغلقة تحميها من الشمس والمطر؛ تبعا «ساتيش» إلى الأعلى طائعين فوجدا امرأة في أواسط العمر جالسة في الشرفة المغلقة على حصيرة مضفورة من قصب، تضع نظّارة بينما هي

منهمكة في قراءة الـ«رامايانا»[1]؛ كانت إحدى ذراعَي نظّارتها مكسورة، وكان الحبل المعوّض عنها يتدلّى فوق أذنها، كانت تبدو في الخامسة والأربعين، شعرها مبعثر فوق جبهتها، لكن بشرتها نضرة ووجهها مستدير كالثمرة الناضجة؛ كان بين حاجبيها وشم ظاهر بوضوح يدلّ على علامة الطبقة، لكنها لم تكن تضع أيّة حلي، بينما يدلّ لباسها على أنّها امرأة أرملة. عندما وقع نظرها على «لوليتّا» سحبت نظّارتها بسرعة وأغلقت كتابها وصارت تنظر إلى الفتاة باهتمام كبير، وعندما رأت «بينوى»، نهضت بسرعة وشدّت ساريها فوق رأسها ثم بادرت بحركة تبين أنّها تريد الدخول إلى الغرفة المجاورة، لكن «ساتيش» أمسكها من يدها وقال:

(١) الرامايانا Râmâyana: تروي الرامايانا قصة ولادة وتربية الأمير الفاضل «راما Râma» الذي هو التناسخ السابع للإله «فيشنو Vishnou»، وتروي زواجه من «Sîtâ»، ثم نفي «راما» واختطاف «سيتا» ثم تحررها وعودة «راما» إلى العرش: عندما أُبعِدَ عن عرش أبيه (بينما هو الوريث الشرعي له) هاجر «راما» برفقة «سيتا» ورفقة أخيه «لاكشمانا Lakshmana». ثم اختطفت «سيتا» من قبل الشيطان «رافانا Râvana» الذي سجنها في «لانكا Lankâ». بعد بحث طويل وشاق حررها «راما» بمساعدة «هانومان Hanuman قائد جيش السعادين. قُتِلَ الشيطان «رافانا» على يد «راما» الذي استعاد بعد ذلك عرشه وحكم مملكته التي ورثها عن أجداده. لكن نهاية الرواية غير سعيدة لأن «راما» أُجبر على الانفصال عن زوجته «سيتا» الحامل (من زوجها) إرضاءً لرغبة الجماهير، ولأن الرأي العام يعتبر أنها فقدت طهارتها الشعائرية عندما أقامت في منزل رجل آخر مع أنها ظلت عفيفة ومخلصة لزوجها طوال فترة أسرها. يعتبر «راما» المثال الأعلى للرجولة الهندية كما تمثل «سيتا» المثال الأعلى الأنثوي للمرأة الهندية. «راما» هو مطيع على الدوام ويحترم أبويه يحب «سيتا» حباً عظيماً ويهتم بشؤونها، وهو عطوف تجاه أهله وأصدقائه وتحترمه الآلهة والكهنة والحكماء، ويسهر على مصالح رعاياه، عادل ورحيم تجاه أعدائه. في نص هجرة «راما» نجد مقاطع رائعة الجمال عندما يصف «راما» موسم الأمطار: "انظر الآن كم غدت الغابات الخضراء أكثر جمالاً تحت المطر المتواصل، مبتهجة برقص الطواويس. الغيوم الهادرة تحت حمل المياه الثقيل، تستريح فوق القمم حيث ترافقها طيور الكركيّ التي تطير أسراباً فتبدو وكأنها إكليل من اللوتس تدفعه الريح. العشب الأخضر والزهور تغطي الأرض الدافئة كسيّدة ملتفة بشال متعدد الألوان".

- "لماذا تهربين يا خالتي؟ هذه أختي «لوليتّا» وهذا «بينوى بابو»، أختي الكبيرة ستأتي غداً".

يبدو أنّها قد اكتفت بهذا التعريف المختصر. كان من الواضح أنّه قد نقل لها مسبقاً تفاصيل عن صديقه، لأن «ساتيش» لم يكن ليختصر شيئاً عندما تتاح له فرصة للتحدّث في موضوعات تهمّه؛ ظلّت «لوليتّا» صامتة، غير قادرة على معرفة من تكون خالة «ساتيش» هذه، لكنها عندما رأت أنّ «بينوى» بادر لتحيّتها منحنياً ليأخذ غبار قدميها، قامت بالحركة نفسها، عندها، جلبت الخالة ضفيرة قصب كبيرة من الغرفة ومدّتها على الأرض وقالت:

- "اجلس يا بني، اجلسي يا أمّي الصغيرة".

وبعد أن جلس الاثنان «بينوى» و«لوليتّا» جلست هي أيضاً، فشدّ «ساتيش» نفسه إلى صدرها، فحضنته بذراعيها وقالت:

- "أنا خالة «ساتيش»، والدته هي أختي".

الكلمات التي قدّمت نفسها بها وعلى الأخصّ تعابير وجهها ونبرة صوتها كانت تدلّ على أنّها تتحدّث عن حياة كلّها آلام وقد تطهّرت بالدموع؛ وعندما قالت: "أنا خالة «ساتيش»، وهي تشدّه إلى صدرها، شعر «بينوى» بحنو عميق تجاهها قبل أن يعرف شيئاً عن قصّتها. فقال لها:

- "ينبغي ألاّ تكوني خالة «ساتيش» فقط، سأغضب منه إن هو استأثر بكِ لنفسه، يكفيني إساءة منه أن يستمرّ بمناداتي «بينوى بابو» عوضاً عن «دادا»، ولن أقبل فوق هذا كلّه أن يحرمني من خالة".

لم يكن «بينوى» بحاجة لوقت طويل لاكتساب مودّة الناس، فهو ذلك الرجل الشابّ ذو الحديث اللطيف، والوجه الفرِح، لقد غدا في لحظات شريكاً في امتلاك قلب الخالة.

فسألته الخالة:

- "وأين هي أختي، والدتكَ يا بنيّ؟"

فقال «بينوى»:

- "لقد فقدتُ والدتي عندما كنتُ طفلاً لكن لا أستطيع القول: ليس لدي أمّ".

واغرورقت عيناه بالدموع لفكرة ما تمثّله «آناندامو ا» بالنسبة إليه.

أخذ الحديث منحىً نشطاً جداً بحيث لا يستطيع أحد الشكّ بأنّ المتحادثين قد تعارفوا للتوّ. كان «ساتيش» يتدخّل من وقت لآخر بثرثرته المتناقضة لكن «لوليتّا» ظلّت صامتة، لقد كانت دوماً متحفّظة تجاه الغرباء ويلزمها مدّة من الزمن للتغلّب على الحاجز القائم لعدم وجود الألفة؛ من جهة أخرى لم تكن «لوليتّا» مرتاحة البال، كما أنّ الملاطفة المتعجّلة التي أبداها «بينوى» تجاه هذه المجهولة لم تعجبها كثيراً، لقد لامته في أعماقها لأنّه استخفّ بالوضع الحرج الذي يحيط بها، فقد كانت عند «بينوى» الفرصة ليذهب أبعد من ذلك في فضائله ببقائه صامتاً وباحتفاظه بوجه حدادي كئيب، ولكنه لو غامر وأظهر على وجهه الحزن لكانت «لوليتّا» جُرِحَت لرؤيته يتحمّل جزءاً من مسؤولية مشكلة يقع وزرها حصرياً على والدها وعليها. الواقع هو أنّ ما بدا لها خلال الليل موسيقا نقيّة بدأ الآن يثير أعصابها، ولهذا السبب فلن يعجبها شيء مما قد يفعله «بينوى» ولن يبدو لها أنّه قد يحسّن الوضع الذي هي فيه. الله وحده يعلم ما هو الأمر الذي قد يفيد في إزالة متاعبها.

كيف يمكن لنا نعت أولئك النسوة بغياب المنطق، بينما مشاعرهنّ هي الحياة ذاتها؟ أيكون ذلك بسبب المسارات الغريبة التي تأخذهن إليها قلوبهنّ؟ لو كان هذا القلب منظّماً أساساً بشكل جيد، فسيعمل عندها بتناغم وانسجام طبيعي إلى أن يصبح كلّ المنطق وكلّ البراهين بلا فائدة. لكن إن كان في أعماق القلب بعض الخلل فسيصبح العقل عاجزاً عن ردّ النظام إلى نصابه، لذلك فمن غير المجدي على الإطلاق البحث عن تفسير، سواء تعلّق الأمر بالجاذبية أم بالنفور، بالضحك أم بالدموع.

الوقت يمرّ و«باريش بابو» لم يعد بعد. وما يدفع «بينوى» للرحيل أصبح أكثر إلحاحاً، ولكنه حرص للسيطرة عليه باستمراره في الحديث مع

خالة «ساتيش» بحيث لم يدع مجالاً لفتور المحادثة ولا لثانية واحدة. في النهاية لم تعد «لوليتّا» قادرة على كبت ضيقها فقاطعته فجأة قائلة:

- "من تنتظر هنا؟ لا أحد يمكن أن يقول متى سيعود أبي، أليس من الأفضل لك أن تذهب لترى والدة «غورمُهان بابو»؟"

ارتجف «بينوى» لهذه النبرة الغاضبة المألوفة لديه، ألقى نظرة على وجه الفتاة وقفز واقفاً على قدميه كما ينتصب القوس عندما ينقطع حبله. من ينتظر هنا؟ إنّه لم يغترّ أبداً ليظنَّ بأنَّ حضوره ضروري في هذه الظروف، فقد كان على وشك الاستئذان عند وصولهما، وكان لا يزال عند بوابة المنزل، ولم يبقَ إلاّ بناءً على رغبتها، وها هي الآن تقول له هذا الكلام!

ذُهِلتْ «لوليتّا» للسرعة العنيفة التي نهض بها «بينوى» من مقعده، ورأت أن ابتسامة وجهه الاعتيادية قد غابت كما يغيب ضياء السراج عندما نطفئه، لم يبدُ لها من قبل مجروحاً إلى هذا الحدّ ولا مضطرباً خائب الأمل، وعندما نظرت إليه شعرت بالندم يصعقها مثل لسعات السياط. قفز «ساتيش» أيضاً وأمسك «بينوى» من ذراعه وقال له راجياً:

- "اجلس ثانية يا «بينوى بابو» ولا تذهب الآن، أرجوكِ يا خالتي ادعي «بينوى بابو» على الغداء، لماذا تدفعينه إلى الذهاب يا «لوليتّا»؟"

فقال «بينوى»:

- لا يا صغيري «ساتيش»، ليس اليوم. إذا تكرَّمتْ خالتك وتذكّرتني فسآتي لأتغدّى معكم في يوم آخر، أمّا اليوم فقد أصبح الوقت متأخراً".

حتى خالة «ساتيش» لاحظت الألم في صوت «بينوى» وتعاطفت معه، وصارت نظراتها تنتقل بين «بينوى» و«لوليتّا» وكأنّها أيقنت أنَّ هناك دراما خفيّة.

أمّا «لوليتّا» فقد تعلّلت بعذر للعودة إلى غرفتها حيث أجهشت في البكاء كما اعتادت أن تبكي غالباً في الماضي بسبب أخطائها.

الفصل الثاني والثلاثون

ذهب «بينوى» مباشرة إلى «آناندامو ا» تعذّبه أحاسيس الإذلال والندم. لماذا لم يأتِ مباشرة إليها؟ أيّ جنون جعله يتخيّل أنّ «لوليتّا» بحاجة لحضوره معها! لقد عاقبه الله لأنّه لم يترك كل شيء عندما وصل إلى «كالكتّا» ليهرع إلى «آناندامو ا»، حتى «لوليتّا» استطاعت أن تسأله: "ألا ينبغي عليكَ أن تذهب إلى أمّ «غورا»؟" هل يمكن التصديق بأنّ التفكير بأمّ «غورا» يهمّ «لوليتّا» للحظة أكثر مما يهمّ «بينوى»؟ فبالنسبة إلى «لوليتّا»، ليست «آناندامو ا» سوى أمّ «غورا»، بينما بالنسبة إلى «بينوى» فهي صورة لجميع الأمّهات.

كانت «آناندامو ا» جالسة وحدها في غرفتها وقد استحمّت للتوّ، مستغرقة بكل وضوح في تأمّلها عندما دخل «بينوى» وانحنى على قدميها وهو ينادي: "أمّاه!" فأجابته وهي تلمس رأسه بيدها: «بينوى»!"

أيّ صوت يمكن أن يشبه صوت أمّ؟ بمجرد أن يسمع «آناندامو ا» تلفظ اسمه ينتشر الهدوء في كل كيانه. وبعد جهد جهيد سيطر على انفعاله وقال بهدوء:

- "لقد استغرقني وقت طويل لآتي إليكِ يا أمّي".

فقالت «آناندامو ا» بحنان ورقّة:

- "أعرفُ كل شيء يا «بينوى»".

ذُهِلَ «بينوى» وقال متعجّباً:

- "تعرفين الخبر!"

علم أنَّ «غورا» قد كتب رسالة وهو في مخفر الشرطة وأرسلها إلى أمّه بوساطة المحامي، لقد أعلَمَ فيها «آناندامو» عن احتمال أن يُحكَمَ عليه بالسجن، وكتب في نهاية الرسالة:

"لا يمكن للسجن أن يؤذي ابنكِ «غورا»، ولكن لن يكون بمقدوره تحمّله إن سبَّب لكِ الحزن، ألمكِ فقط سيكون قصاصه الحقيقي، ولا يمكن للقاضي أن يحكم عليه بأقوى منه. لا تفكِّري يا أمّي بابنكِ فقط، هناك العديد من الأمّهات اللواتي يقبع أبناؤهنّ في السجن دون أن يكونوا مذنبين، سأُعامل مثلهم وسأشاركهم تجاربهم، إن تحقّقت رغبتي هذه المرّة فأرجوكِ ألاّ تحزني.

لقد نسيتِ يا أمّي، دون شكّ، أنّني في عام المجاعة، كنتُ قد تركتُ نقودي على الطاولة المطلّة على الشارع، وعندما عدتُ بعد بضع دقائق وجدتُ أنَّها قد سُرِقَتْ، لقد كانت الخمسون روبيّة من منحتي الجامعية، وكنتُ قد وضعتها جانباً لأشتري بها إناءً من الفضة لغسل قدميكِ. ولمّا أصابني غضب عبثي، ذكّرني الله فجأة بالحكمة والتعقل فقلتُ في قرارة نفسي: هذه النقود هي تقدمة للجائع الذي أخذها، وحالما خطرت ببالي هذه الفكرة تلاشى تحسّري التافه وعاد السلام إلى قلبي.

واليوم أقول في نفسي: إنّي ذاهب إلى السجن طوعاً ودون ندم ولا غضب، كالذاهب إلى ملاذ؛ قد تتضمّن هذه الإقامة بعض الصعوبات بما يتعلّق بالطعام والتفاصيل الأخرى، لكنّي خلال تطوافي قبلتُ ضيافة أشخاص من كلّ الأنواع وكلّ الظروف ولم أكن أجد في بيوتهم دوماً أسباب راحتي ولا حتى احتياجاتي الضرورية؛ إنَّ ما نقبله بحريّة لا يكون امتحاناً، وكوني أكيدة أنّي لم أُسق إلى السجن بالقوّة بل ذهبتُ إليه موافقاً وسعيداً.

الرفاهية التي نتمتّع بها في البيت تمنعنا من تقييم الميزة الهائلة في تذوّق الهواء والضياء دون عقبة؛ إننا ننسى دوماً الجماهير المحكوم عليها بالسجن والشتم بخطأ منها أو بدون خطأ، وننسى المحرومين من هذه الميزة التي هي هبة من الله؛ فنحن لا نفكّر في تلك الجماهير ولا نشعر بأي شيء مشترك بيننا وبينها؛ أمّا الآن فإنّي أشعر برغبة في أن أوصم بوصمات العار نفسها كهؤلاء الناس، ولا أتمنى أن أنقذ طهارتي وأبقى مرتبطاً بشكل حميمي بكلّ الأشخاص الذين يتصنّعون الفضيلة والذين تجعلهم مظاهرهم محترمين.

لقد علمتني الحياة الكثير يا أمّي، بهذه التجربة التي خضتها الآن في هذا العالم؛ فالذين يستمتعون بأن ينصّبوا أنفسهم حكماً على الآخرين هم في غالبيتهم يستحقّون شفقة الذين يذهبون إلى السجن، المعاقَبين بسبب خطايا الذين يدينون الآخرين دون أن يدينوا أنفسهم؛ لا ندري في أيّ مكان وأيّ زمان وبأيّة طريقة سيخضَع للقصاص أولئك الذين يعيشون حياة مرفّهة ومحترمة خارج السجون وقد ارتكبوا الموبقات؛ بالنسبة إليّ أكره هذا الاحترام المليء بالادّعاء وأفضّلُ أن أحمل بشكل واضح ومرئي العلامة التي تُعتبر علامة الفضيحة.

أعطني بركتكِ يا أمّاه، ولا تبكي عليّ. لقد حمل الربّ «كريشنا»[1] طوال سني عمره علامة ركلة كان قد وجّهها له «بهريغو»[2] Bhrigu، ازدياد

(١) "كريشنا": الإله الهندوسي المحبوب الأكثر قرباً إلى قلوب الناس. إحدى تجسدات "فيشنو"، شاب جميل ذو بشرة غامقة يذكر بشكل خاص الشعر الغنائي الملحمي للـ"جيتا غوفندا" ولقصائد "شانديدازا"، موضوع مفضّل في الخيال الشعبي. يجري عرضه على وجه الخصوص في مروج "بريندابان" محاطاً بحلوبات عاشقات يراقصهن على نغمات الشبابة، من بينهن "رادهاني".

(٢) الاسم «بهريغو» Bhrigu وفي بعض المصادر «بهرينغو» يعني «صوت النار» وهو تعبير عن «قدرة المعرفة». كان «ماهاريشي بهريغو» أحد الحكماء السبعة في الهند القديمة، وقد ولد بإرادة روح «براهما». تروي الأسطورة أنّ «بريغو» كانت له عين ثالثة فوق أخمص قدمه؛ ولما قام ذات يوم بزيارة إلى «فيكونتا Vaikunta» المقرّ=

الكبرياء والظلم في العالم يعمّق هذه العلامة أكثر فأكثر في صدر «كريشنا»، وإذا كان «كريشنا» نفسه قد قبل هذا الظلم كزينة، لماذا إذاً تقلقون من أجلي، وأي همٍّ تتحمّلونه بسببي؟"

عندما تلقّت «آناندامويا» هذه الرسالة أرادت إرسال «مُهيم» إلى «غورا»، لكن «مُهيم» قال لها: "لديّ دوام في المكتب، والمسؤول الأوروبي لن يعطيني إجازة بالتأكيد"؛ وأخذ يحتجّ بصخب على «غورا» لطيشه وحماقته، ناهياً حديثه بقوله: "سأفقد وظيفتي في يوم من الأيام لمجرّد أنّه أخي".

في تقديرها للأمور اعتبرت «آناندامويا» أنّه لا جدوى من استشارة زوجها، لأنّها كانت تشعر تجاهه بحساسيّة خاصة في كل ما يتعلّق بـ«غورا»؛ فقد كانت تعرف تماماً أنّه لم يعطِ «غورا» أبداً مكانة الابن في قلبه، بل على العكس من ذلك كان يشعر بنوع من العداء تجاه هذا الشابّ. لقد فرّقهما «غورا» كما لو فعلت ذلك جبال «فيندهيا»[1]، قاسماً حياتهما الزوجية إلى قسمين، من جهة كان «كريشنادايال» بكل تجهيزاته وممارساته التقليدية، ومن جهة أخرى «آناندامويا» وحيدة مع ابنها «غورا» الذي لا يُمسّ؛ لقد غدا

=السماوي لكبير الآلهة، كان فيشنو نائماً. ناداه «بهريغو» عدة مرات لكن الإله استمرّ في نومه، فلطمه «بهريغو» على صدره بقدمه وأيقظه. فضغط «فيشنو» بقدمه على قدم «بهريغو» وسأله إن آلمته وهو يلطمه على صدره، فأتلف العين الثالثة، وعندها أدرك «بهريغو» أنّ هذه العين الثالثة لم تكن سوى «ذاته الخاطئة».

(١) تقع جبال «فيندهيا» في وسط الهند فاصلة شبه القارة الهندية إلى جزأين الهند الشمالية والهند الجنوبية، وفاصلة سهل الغانج عن هضبة «ديكّان Dekkan». وهي جبال قليلة الارتفاع من ٤٦٠ إلى ١١٠٠ متر، وتمتد على مساحة ألف كيلومتر. تقع هضبة فيندهيا في شمال الجزء المركزي من السلسلة وتشرف على سهل الغانج. وفق الأسطورة أجبر الإله الذي يحرّك الجبال سلسلة جبال «فيندهيا» على الركوع أمامه كي يتمكن من المرور إلى الهند الجنوبية حيث نشر البراهمانية.

أيّ شكل من أشكال الحميمية النفسية مستحيلاً بين هذين الكائنين الوحيدين في العالم اللذين يعرفان قصّة «غورا»؛ وهكذا أصبح حبّ «آناندامو ا» لـــ«غورا» كنزها الشخصي، وكانت تجهد بكل الوسائل لتسهيل حياة ابنها في هذه العائلة التي كان أفرادها يتحمّلونه على مضض. كانت «آناندامو ا» قلقة وحريصة باستمرار على تجنّب أن يقول أحدهم يوماً: حصل لنا هذا المكروه بسبب ابنكِ «غورا»، أو اُفتُرِيَ علينا بسبب ابنكِ «غورا»، لقد تعرّضنا لهذا الضرر بسبب ابنكِ «غورا»؛ كلّ العبء الذي كان يمثّله «غورا» كان يُثقل أكتافها وحدها، وهذا أمر لم تكن لتتساه أبداً؛ وشاءت الأقدار أن يكون عناد «غورا» استثنائياً، لذلك لم تكن مهمتها سهلة في أن تحول دون أن يكون حضوره مستفزاً ومزعجاً. لقد توصّلت «آناندامو ا» حتى الآن بفضل سهرها وتيقّظها الذي لا يفتر ليل نهار إلى تربية هذا الصبي المجنون الذي تحبّه على الرغم من كلّ العداء المحيط بها، وفي هذا الوسط العدائي تلقّت الكثير من الإهانات، وقاست الكثير من الهموم دون أن تستطيع الاعتماد على أحد يشاركها فيها.

بعد أن غادر «مُهيم»، ظلّت «آناندامو ا» جالسة بصمت أمام النافذة، فرأت «كريشنادايال» عائداً من غسوله الصباحي حاملاً على جبينه وعلى صدره وعلى ذراعه العلامات الممهورة بآجرّ «الغانج» المقدّس يتمتم عبارات «المانترا» المقدّسة؛ في هذه الحالة من الطهارة لم يكن يسمح لأحد بالاقتراب منه ولا حتّى «آناندامو ا» نفسها؛ إنه محظور، محظور، محظور على الدوام. غادرت النافذة وهي تتنهّد تنهدة عميقة ودخلت إلى غرفة «مُهيم» فوجدته جالساً على الأرض يقرأ الجريدة بينما كان الخادم يدهن له صدره بالزيت استعداداً لغسوله الصباحي. فقالت له «آناندامو ا»:

- "ينبغي يا «مُهيم» أن تجد لي من يصحبني لأنني أريد أن أذهب لأرى «غورا»، إذ يبدو أنّه وافق أن يُحكَمَ بالسجن، لكنّي أعتقد أنّهم سيسمحون لي أن أراه قبل المحاكمة".

تصنّع «مُهيم» الاستعجال فجأة وقال صارخاً: "ملعون هذا الشخص الذي يرسل هذا اللصّ المتسكّع إلى السجن، إنّها فعلاً لأعجوبة أنّهم لم يسجنوه حتى الآن!!". وبما أنّه كان يكِن لــ«غورا» محبّة حقيقية فهو لم يضع دقيقة واحدة في استدعاء رجله الموثوق وتزويده بالمال اللازم وإرساله على الفور ليقوم بالإجراءات اللازمة للعملية القضائية، وقرّر أيضاً أن يلحق به إذا وافق مديره في المكتب على إعطائه إجازة، وإذا سمحت له زوجته.

كانت «آناندامو ا» تعلم أنّ «مُهيم» لن يستطيع أن يظلّ مكتوف الأيدي وقد عرف أنّ «غورا» في وضع صعب، فعندما رأته مستعداً للقيام ببضع خطوات في حدود الممكن، لم تعد ترجو شيئاً آخر، لأنّها - هي سيدة هذا المنزل - لم تكن ترغب في أن يرافقها أيّ عضو من هذه العائلة التقليدية إلى قسم الشرطة حيث كان «غورا» مسجوناً، وحيث ستتعرّض للنظرات الفضولية وملاحظات الناس المتطفّلة، فتراجعت ولم تعد تصرّ على أن يرسلوا معها مرافقة.

عادت إلى غرفتها، شفتاها منقبضتان وفي عينيها ظلال الألم التي كانت تسيطر عليها. وعندما دخلت «لاشمي» وشرعت بالنحيب والنواح بصوت عالٍ، منعتها وأخرجتها من الغرفة. كان من عادتها أن تكتم مخاوفها في داخلها بصمت، في الفرح وفي الهمّ والغمّ على حدٍ سواء، الله وحده كان الشاهد على آلام قلبها.

أمّا «بينوى» فلم يستطع تصوّر وسيلة يتمكن بها من مساعدة «آناندامو ا» وشدّ عزمها، وبعد أن خفّف عنها ببضع كلمات ظلّ جالساً بالقرب منها دون أن يتكلم. إنّ طبع «آناندامو ا» يجعلها غير حسّاسة لكلمات التشجيع بل كانت ترفض المناقشة الفارغة في الآلام التي ليس لها علاج؛ حتى إنّها لم تعد تُلمّح أو تشير إلى قلقهما المشترك، واكتفت بالقول: "أرى يا «بينوى» أنّك لم تستحم بعد، اذهب بسرعة، لقد تأخّر الوقت بالنسبة إلى الغداء".

بعد أن إستحمَّ «بينوى» وجلس إلى المائدة، إنقبض قلب الأمّ لرؤية مكان «غورا» الفارغ بقربه وتصوّرت ابنها دون طعام سوى وجبة طعام السجن غير المتقنة، محروماً مما يوفّره حنان الأمّ؛ من المؤكد أنّ طعامه يصبح أكثر مرارة بسبب التعامل المهين والمذلّ الذي يُمارَس على المسجونين.

إلى هذا الحدّ بدت «آناندامو ا» عاجزة عن التماسك أكثر من ذلك، وبذريعة تافهة غادرت الغرفة.

الفصل الثالث والثلاثون

عندما عاد «باريش بابو» إلى البيت وجد فيه «لوليتّا» التي لم يكن يتوقّع أن يراها. فخمَّن على الفور أنّ ابنته الثانية العنيدة جداً والمستقلّة جداً قد تورّطت في مغامرة غير اعتيادية. وجواباً لنظرته المستفهمة التي وجّهها إليها ردّت قائلة: "لقد عدتُ من هناك يا أبي، وجدتُ أنّه من المستحيل بالنسبة إليّ البقاء هناك، وعندما سألها عمّا حدث أضافت قائلة: "لقد وضع القاضي «غورمُهان بابو» في السجن".

لم يستطع «باريش بابو» في البداية أن يُدرك كيف أضحى «غورا» طرفاً في هذه الأحداث. لكن بعد أن روت له «لوليتّا» بالتفصيل ما حدث ظلّ لفترة غائباً في تأمّل وتفكير صامت. أول قلقه كان على أمّ «غورا»، لأنّ القاضي لن يتردّد أبداً في إدانة «غورا» كما يُدان لصّ مبتذل، وهذه الصرامة نتيجة طبيعية للاستهانة بالعدالة التي اعتاد على ممارستها. إنّ قمع الإنسان للإنسان هو أفظع شرور العالم، وقد غدا هذا القمع أوسع انتشاراً وأقبح تأثيراً بتضافر سلطة المجتمع والحكومة التي تدعمها!

استوعب «باريش بابو» الموقف تماماً وهو يستمع إلى رواية اعتقال «غورا» . ولمّا رأت «لوليتّا» أنّ أباها مستغرق في تفكير صامت سألته:

- "أليس هذا ظلماً رهيباً يا أبتِ؟"

فأجابها بهدوئه الاعتيادي:

- "إنّنا لا نعرف إلى أيّ مدى وصل «غورا» في هذا الأمر، لكن في جميع الأحوال، حتى لو أنّه استرسل وفق قناعاته في تجاوز القوانين الشرعية فلا يمكن لنا الشك بأنّه ارتكب ما يسمّيه الإنكليز جريمة، لكن ما العمل يا بنتي؟ مفهوم العدالة في عصرنا هذا مجرّد من الحكمة والإنصاف، العقوبة نفسها تطبّق على الخطأ الطفيف وعلى الجريمة على حدٍّ سواء. المذنبان عليهما أن يواجها الحالة نفسها وفي السجن نفسه، لا يمكن أن نعتبر أحداً مسؤولاً عمّا يحصل، ينبغي تجريم الخطأ البشريّ الجماعيّ".

ثم غيّر «باريش بابو» الموضوع بشكل مفاجئ وسأل:

- "مع من عدتِ إلى البيت؟"

استجمعت «لوليتّا» قواها لتجيب بنبرة خطابية:

- "مع «بينوى بابو»".

لكن رغم جهودها المبذولة كانَ القلق واضحاً عليها ويشعر به من ينظر إليها، لم تستطع أن تسرد الواقعة ببساطة تامّة، حيث ظهر الاحمرار على وجنتيها إضافة إلى ارتباكها.

كان «باريش بابو» يميل بمحبته إلى هذه الفتاة المتقلّبة الأطوار وغير المنضبطة أكثر مما يميل لبناته الأخريات، وكان كلّما زاد تقديره لصراحتها الشجاعة تسبّب لها بنزاعات مع باقي أفراد العائلة. كانت عيوب «لوليتّا» واضحة جداً، وكان الأب يدرك إلى أيّ حدٍّ تعيق عيوبها تلك تقدير قيمتها الاستثنائية بشكل عادل؛ وكان حريصاً على تجنّب تخريب النبل الطبيعي الذي يميّز شخصيتها في محاولة السيطرة على طباعها الصعبة.

كان جميع الذين ينظرون إلى بناته الأخريات يُعجَبون بهنّ لدقّة قسمات وجوههنّ ولنضارة بشرتهنّ. أمّا «لوليتّا» فعلى العكس من ذلك فقد كانت بشرتها سمراء داكنة وملامحها أكثر قلقاً واضطراباً وإثارة لتساؤلات وأحكام مختلفة جداً؛ وكانت السيدة «بارودا» تقضي دوماً لزوجها عن خشيتها بألاّ تجد

لـ«لوليتّا» عريساً مناسباً. الجمال الذي اكتشفه «باريش بابو» في وجه ابنته المفضّلة ليس جمال القسمات والبشرة بل جمال الروح الذي ينعكس عليه، وليس الإعجاب البسيط لإطار دون عيوب بل علامة الحزم وضياء الشجاعة، هذه الطبائع تجذب بعض الكائنات المختارة وتسبّب رفض الآخرين. كان «باريش بابو» يوليها اهتماماً يشوبه قليل من الألم، وكان يحتفظ بها بقربه لأنّه يشعر أنّها غير ناجحة في هذا العالم لكنها مستقيمة وصادقة على الدوام، فكان متسامحاً مع أخطائها لأنّه يعرف أنّ الآخرين لن يغفروها لها، وما إن علم أنّها كانت وحدها مع «بينوى» حتّى أدرك هذا الصباح ما ستكون عرضة له في الأيام المقبلة، لأنّه يعرف أنّ التهوّر العرَضي الذي جعلها مذنبة سيقابله المجتمع بعقوبة يستحقّها تجاوزٌ أخطر بكثير.

بينما كان يقلّب المسألة في ذهنه أخذت «لوليتّا» تتابع سردها:

- "أعرفُ يا أبي أنّي مخطئة، لكنّي عندما فهمتُ بوضوح من خلال العلاقات بين القاضي وبين مواطنينا أنّ استضافته المتعجرفة التي يتنازل بها لنا لا تشرّفنا، فهل بإمكاني بعد أن فهمتُ ذلك أن أبقى هناك وأقبل بوضع الحماية؟"

كان هناك حرج بالنسبة إلى «باريش بابو» في الإجابة على سؤال كهذا، لذلك وبدون أن يحاول الردّ لامس رأس صغيرته الرعناء برقّة وحنان.

بعد ظهر ذلك اليوم نفسه وبينما كان «باريش بابو» يذرع المسافة أمام بيته طولاً وعرضاً مستغرقاً في أحلامه، وصل «بينوى» وحيّاه باحترام، تحدّث «باريش بابو» معه مطولاً عن اعتقال «غورا» وعن مستوى هذا الاعتقال وماهيته دون أن يقوم بأدنى تنويه عن رحلة السفينة التي قام بها مع «لوليتّا». وعندما أقبل المساء قال له:

- "تعالَ يا «بينوى» لنذهب إلى منزلي".

لكن «بينوى» رفض قائلاً:

- "ينبغي أن أعود الآن إلى البيت".

لم يلحّ «باريش بابو» عليه فذهب "بينوى» ببطء بعد أن ألقى نظرة على شرفة الطابق الثاني؛ ومن الشرفة لمحت «لوليتّا» «بينوى»، وعندما وصل والدها إلى البيت نزلت إلى المكتب ظانّة أنّ «بينوى» سيلحق به، لكن وبما أنّه لم يأتِ، فقد أخذت تعبث بالكتب والأوراق الموضوعة على الطاولة بحجّة ترتيبها، وعندما همّت بالخروج ناداها «باريش بابو» وألقى على وجهها المحبَط نظرة عطوف وسألها:

- "رتّلي لي ترتيلة يا «لوليتّا»، هل تريدين ذلك؟"

وبينما هو يتكلّم أخذ يغيّر موقع القنديل كي يبعد النور عن وجه ابنته.

الفصل الرابع والثلاثون

في اليوم التالي، عادت السيدة «بارودا» مع باقي المجموعة. كان «هاران» حانقاً جداً من سلوك «لوليتّا» وبما أنّه لم يعد قادراً على ضبط نفسه فقد أتى ليقابل «باريش بابو» قبل أن يعود إلى منزله. مرّت «بارودا» أمام «لوليتّا» دون أن تقول كلمة واحدة، لقد بدت ساخطة جداً وناقمة بحيث لم تستطع النظر إليها، فاتجهت مباشرة إلى غرفتها، وكانت «لابونيا» و«ليلا» غاضبتين أيضاً من «لوليتّا» لأنّ ضرورة إلغاء دورهما هي و«بينوى» قد قلّص البرنامج بشكل شعرتا معه أنّهما مُهانتان؛ أمّا «سوشاريتّا» فهي لم تشارك لا بتوبيخات «هاران» ولا بتحسّرات «بارودا» الباكية ولا بتنكيد «لابونيا» و«ليلا» بل ظلّت صامتة، وبشكل آليّ تفرغت لوظائفها الاعتيادية دون أن تقول شيئاً. أمّا «سودهير» فكان خجلاً جداً من الدور الذي لعبه في القضيّة ما جعله لا يتجرّأ على مرافقتهم إلى «باريش بابو»، الأمر الذي أغضب «لابونيا» لعدم اهتمامه، وللبرودة التي قابل بها إلحاحها، فأقسمت ألاّ تتعامل معه بعد اليوم أبداً.

عندما دخل «هاران» مكتب «باريش بابو» صاح متعجّباً: "إنّه أمر لا يُحتمل!" ولمّا سمعته «لوليتّا» من الغرفة المجاورة حضرت على الفور ووقفت خلف أبيها ساندة يديها على ظهر الكرسي الجالس عليه ونظرت إلى «هاران» وجهاً لوجه. فقال «باريش بابو»:

- "أعرف من «لوليتّا» نفسها كل ما جرى، ولا أرى فائدة في مناقشة الأمر".

كان «هاران» يعتبر الهدوء الاعتيادي لـ«باريش بابو» وكأنّه دليل ضعف في طبعه، فردّ بشيء من الاستخفاف:

- "بالتأكيد، ما جرى قد جرى، لكن الخطأ الذي سبّب الحادث لا يزال موجوداً وتبقى المناقشة ضرورية. لم تكن «لوليتّا» لتتصرّف على هذا النحو لو لم تكن أنتَ كأب تبدي تجاهها الكثير من التسامح والتساهل، النتائج السيئة لهذا التساهل ستقيّمها عندما ستسمع هذه القصة المعيبة بكل تفاصيلها".

ولمّا شعر «باريش بابو» بأنّ هناك عاصفة تتهيأ خلف مسند كرسيه، جذب «لوليتّا» إلى جانبه وأمسك بيدها وقال لـ«هاران» وهو يبتسم ابتسامة هادئة:

- "يا «هاران بابو» عندما ستُرزق أطفالاً سترى بدوركَ أنّ الحنان أيضاً هو ضروري لتربيتهم".

انحنت «لوليتّا» نحو أبيها ولفّت ذراعها حول عنقه وهمست في أذنه لتقول له:

- "الماء يبرد يا أبي، اذهب لتستحم".

فأجابها «باريش بابو» منوّهاً لوجود الضيف «هاران»:

- "سأذهب حالاً، الوقت ليس متأخراً".

- "لا تقلق يا أبي، سنهتمّ بـ«هاران بابو» ونجالسه أثناء غيابكَ".

عندما غادر «باريش بابو» الغرفة، جلست «لوليتّا» على كرسيه وعندما استقرّت تماماً ثبتت نظرها على وجه «هاران» وقالت له بصريح العبارة:

- "يبدو أنّك تؤمن بحقّكَ في أن تحكم على الجميع عندنا بكلّ حريّة".

كانتْ «سوشاريتّا» تعرف «لوليتّا» جيداً. في الماضي كانت تخشى التعبير الذي تقرأه على وجه أختها أحياناً، لكنها في هذه المرّة أخذت مقعداً بكل هدوء وجلست بقرب النافذة وبدت مستغرقة في قراءة كتاب. «سوشاريتّا»

تسيطر على عواطفها بفعل الطبيعة والعادة غير أنّ الجراح المتكرِّرة التي فرضتها عليها الأيام الأخيرة جعلتها أكثر صمتاً مما هي عليه عادة، لكن هذا الصمت ولَّد ضغطاً وصل إلى حد الإنقطاع، واستقبلت التحدّي الذي وجهته «لوليتّا» لــ«هاران» بفرح أشبه بالمتنفّس الضروري لعواطفها المكبوتة. تابعت «لوليتّا» حديثها مع «هاران» قائلة:

- "أعتقد أنّك تتخيّل نفسكَ فاهماً واجبات أبينا تجاهنا أفضل منه، إنّك تعتبر نفسك أستاذ مدرسة وكل «البراهمو – ساماج» مجموعة أطفال جاهزين للتوبيخ والتعنيف!"

صعق «هاران» مشدوهاً من الوقاحة التي أبدتها «لوليتّا» بأسلوب كلامها معه وباشر ليكيل لها صدّاً قاسياً لكن «لوليتّا» سبقته منذرة:

- "لقد تحمّلنا تكلّفك وتعاظمك لمدّة طويلة، لكن دعني أقُلْ لك إن كنت تزعم إعطاء دروس لأبي فلا أحد في هذا المنزل سيسمح لك بذلك ولا حتى الخدم".

فتلعثم «هاران» وهو يقول:

- "«لوليتّا»... حقاً...".

لكن «لوليتّا» لم تدع له فرصة للكلام:

- "اسمعني أرجوك، لقد سمعناك طويلاً، ستسمعني لمرّة واحدة، إذا كنتَ لا تريد أن تصدّقني إسأل أختي «سوشي»، أبونا هو أعلى بكثير من المكانة التي تتخيّل نفسك فيها، هذا ما نريد أن تعلمه، والآن إن كان لديك رأي تعبِّر عنه تفضّل أرجوك دون إحراج".

غدا لون «هاران» قرمزياً من شدّة الغضب فنهض عن كرسيه وهو يصيح «سوشاريتّا»! رفعت «سوشاريتّا» عينيها عن كتابها فقال لها:

- " أتسمحين بأن تهينني «لوليتّا» أمامكِ؟"

فقالت «سوشاريتّا» ببطء:

- "هي لم تقصد إهانتكَ، ما أرادته منكَ فقط هو أن تبدي تجاه أبينا الاحترام الذي يستحقه، وأؤكد لك أنّنا لا نرى أحداً يستحقّ احتراماً بقدر ما يستحقّه هو".

لبرهة بدا أنَّ «هاران» مستعدّ للذهاب لكنه لم يفعل، عاد وارتمى على كرسيه متّخذاً مظهراً رسمياً، فهو في كل مناسبة يشعر فيها أنّه يفقد احترام فردٍ من أفراد هذا البيت، يزداد صراعه اليائس للمحافظة على موقعه، ناسياً أنَّ التعلّق بسند واهٍ يؤدّي إلى سقوط أسرع. ولمّا رأت «لوليتّا» أنَّ «هاران» صمت صمتاً كئيباً حرداً، قامت وجلست بالقرب من «سوشاريتّا» وأخذت تتحدّث معها وكأنّ شيئاً مهمّاً لم يحصل؛ عندها دخل «ساتيش» جرياً إلى الغرفة وأمسك «سوشاريتّا» من يدها وأجبرها على الوقوف وقال لها:

- "تعالي، تعالي معي يا «ديدي»".

فسألته «سوشاريتّا»:

- "إلى أين ينبغي أن أذهب؟"

فقال «ساتيش» ملحّاً:

- آه! تعالي، عندي شيء ينبغي أن أريك إياه، وأنتِ يا «لوليتّا» لم تخبريها بشيء أليس كذلك؟"

فقالت «لوليتّا»:

- "لا".

لقد وعدت «ساتيش» بألاّ تخبر «سوشاريتّا» عن سرّ الخالة المجهولة وظلّت عند وعدها.

لكن «سوشاريتّا» لم تستطع أن تترك الضيف وحده فأجابت قائلة:

- "مفهوم يا سيدي الثرثار، سآتي على الفور، لكن لننتظر حتى يخرج أبي من الحمّام".

ثار «ساتيش» وهاج، عندما وصل «هاران» إلى هنا وعمل ما بوسعه كي يتجنّبه، وبما أنّه كان يخشاه كثيراً فلم يتجرّأ على الإلحاح خلال حضوره، أمّا بالنسبة إلى «هاران» فهو لم يكن ليبدي أي اهتمام بـــ«ساتيش» إلاّ في بعض الظروف عندما كان يحاول تربيته وإصلاحه، ومع ذلك ظلّ «ساتيش» ينتظر هنا وما إن عاد «باريش بابو» حتى أخذ معه أختيه.

قال «هاران»:

- "بعد أن طلبتُ منكَ إعلان خطوبتي الرسمية على «سوشاريتّا»، أودُّ ألاّ نؤخّر الموعد أكثر من ذلك، هل بإمكاننا تعيين الأحد القادم كموعد نهائي؟"

فقال «باريش بابو»:

- "شخصياً، ليس لدي أي اعتراض على ذلك، لكن على «سوشاريتّا» أن تقرّر".

- "لكن طالما عبّرت لك عن موافقتها..."

فأجاب «باريش بابو»:

- "حسناً، فليكن".

الفصل الخامس والثلاثون

لم يفكّر «بينوى» بالعودة إلى منزل «باريش بابو» لكنّ الوحدة التي يشعر بها في شقته الخاصة بدت له مضنية جداً و جعلته منذ الصباح الباكر في اليوم التالي يذهب إلى «آناندامو ا» ويقول لها:

- "أودُّ يا أمّي أن أبقى بقربك لبضعة أيام".

فكّر «بينوى» أنّ وجوده سيكون دعماً نفسياً لـ«آناندامو ا» يخفف عنها الألم الحاصل من غياب «غورا» القسري. فهمت غايته وتأثّرت بها، وضعت يدها بحنان على كتف الشابّ لكنها لم تقل شيئاً.

حالما استقرَّ «بينوى» بدأ بالثرثرة وبإحداث جلبة محاولاً طرد الأفكار الحزينة من رأسه ومن رأس «آناندامو ا»، كما صار يمازحها ويتذمّر بمظهر جدّي من كونها لم تعد تهتمّ به كما ينبغي، وكان يلجأ إلى إثارتها أحياناً عندما يصعب عليه السيطرة على عواطفه في حزن المساء حتّى يدفعها إلى ترك كل أعمالها المنزلية ليأخذها إلى المساحة الكائنة تحت الشرفة مقابل الغرفة التي يشغلها، ثم يجبرها على الجلوس فوق الحصيرة المضفورة لتقصَّ عليه أحداثاً حول حياتها وهي طفلة وحول بيت أبيها، وقصصاً عن الفترة التي سبقت زواجها، عندما كانت حفيدة أستاذ كبير وكان الطلاّب يدلّلونها، وكيف سبّبت لوالدتها الأرملة حينها قلقاً مستمرّاً لأنّ كلّ واحد أراد أن يُظهِرَ للحفيدة يتيمة الأب تسامحاً وغفراناً لا ينضب، وفي نهاية هذا السرد صاح «بينوى» قائلاً:

- "لا أستطيع يا أمّي أن أتخيّل لحظة واحدة لم تكوني فيها أمّاً، يبدو لي أنّ تلامذة جدّكِ كانوا يعتبرونكِ أمّهم الصغيرة جداً وأنّكِ في الواقع أنتِ من ربّى جدّكِ".

في مساء اليوم التالي، وبينما كان «بينوى» جالساً على الحصيرة ورأسه على ركبتي «آناندامو ا»، قال لها:

- "أحياناً أتمنّى يا أمّي أن يسحب الله منّي معلوماتي الكتبيّة وألاّ أجد ملاذاً إلاّ ركبتيكِ، وألاّ يكون في العالم سوى أنا وأنتِ، أنتِ ولا أحد سواكِ".

كانت نبرة «بينوى» تدلّ على أنّه واهن العزم، وأنّ قلبه حزين جداً ومثقل بالهموم ما أدهش «آناندامو ا» وأقلقها بشدّة. اقتربت منه وأخذت تلامس رأسه بنعومة، وبعد صمتٍ طويل سألته:

- "هل تسير الأمور كلُّها بشكل جيّد في منزل «باريش بابو»؟"

تفاجأ «بينوى» من هذا السؤال وارتعش، وفكّر في قرارة نفسه: "لا يمكن أن نخفي شيئاً عن أمّي، إنّها تقرأ دواخلنا". فجاوب دون تردّد وبصوت عالٍ:

- "أجل، جميعهم بخير".

فتابعت «آناندامو ا» تقول:

- "أودُّ فعلاً أن أتعرّف ببناته، كان رأي «غورا» بهنّ سلبياً في البداية لكن لا أدري كيف اِستطعن اِكتساب إعجابه لاحقاً، هذا يعني أنّهنّ متميزات جداً".

فقال «بينو ى» بحماسة:

- "أنا أيضاً تمنيّتُ أن تسمح الظروف لتقديمهنّ إليكِ، لكنّي كنت أخشى اِعتراضاً من جهة «غورا»، كما أنّي لم أقترح الفكرة أبداً".

فتابعت «آناندامو ا» تسأل:

- "ما اِسم أكبر البنات؟"

طرحت العديد من هذه الاسئلة التي تبعتها أجوبة، وعندما كانت تقارب اسم «لوليتّا» كان «بينوى» يحاول تجنّب الموضوع بجمل غامضة، غير أنّ «آناندامو ا» - حيال هذا النهج - رفضت الاكتفاء فقالت له بابتسامة:

- "أعرفُ أنَّ «لوليتّا» بنت ذكية جداً".

فأجابها «بينوى»:

- "من قال لكِ ذلك؟"

- "أنتَ طبعاً".

كان «بينوى» في فترة سابقة لا يشعر بأيّ حرج كبير أو خجل في الحديث عن «لوليتّا»، وقد نسي الآن أنّه في تلك الفترة عندما كان عقله حرّاً كان يمتدح ذكاء «لوليتّا» بحماس أمام «آناندامو ا». وكقبطان فَطِن يسيطر بمهارة على سفينته تجاوزت «آناندامو ا» كلّ العثرات في زمن قصير ولم يبقَ أيّ تفصيل مهمّ من سيرة صداقة «لوليتّا» و«بينوى» خافياً عنها؛ وأسرَّ لها «بينوى» كيف أنّ ثورة «لوليتّا» الحادّة عند سماعها خبر التوقيف الفظّ لـ«غورا» دفعتها إلى الهروب بالسفينة البخارية التي أعادتهما كليهما إلى «كالكُتّا». وفي خِضَم الحماس الذي أبداه وهو يتحدّث تلاشت كل آثار التعب والإعياء التي كانت ظاهرة عليه قبل ذلك، فقد وجد سعادة في حرية الوصف لشخصية مذهلة بهذا القدر دون تحفّظ!

وفي النهاية عندما أُعلِن وقت العشاء كان على الحديث أن يتوقف.

أدرك «بينوى» - كما لو أنّه صحا من حلم - أنّه قد اعترف لـ«آناندامو ا» بكلّ شيء، بكلّ ما كان يضغط على عقله؛ لقد استمعتْ إليه وعلّقت على كل حدث وواقعة بأسلوب طبيعي جداً بشكل لم يشعر معه «بينوى» بالتردّد أو بالخجل. إلى هذا اليوم، لم يجتز «بينوى» مغامرة في حياته أجبرته على كتمها عن أمّه بالتبنّي، وقد اعتاد أن يلجأ إليها حتى في اهتماماته الأكثر تفاهة. لكنّه ومنذ أن تعرّف بعائلة «باريش بابو»، صارت

تحفظاته تثقل عليه وكأنّ شيئاً ما قد هزّ نفسه وعقله. أمّا الآن وقد أسرّ بهمومه مرّة أخرى إلى أذنيّ «آناندامو ا» الحنونة والمتفهّمة، فقد شعر بارتياح كبير؛ لقد كان متأكداً أنّ التجربة التي خاضها في الفترة الأخيرة قد يُنتقَصُ من نقاوتها لو لم يتجرّأ ويضعها عند قدميّ أمّه «آناندامو ا» ولظلّت فيها ظلال عار تشوب حبه.

في الليل قلّبت «آناندامو ا» الموضوع في ذهنها مرّات عديدة، فشعرت أنّ الحياة المعقّدة التي سيعيشها «غورا» ستزداد تعقيداً على مدى الأيام، لكن ربّما كان هناك حلّ يبدو متاحاً بالنسبة إليه في منزل عائلة «باريش بابو»؛ في نهاية المطاف قرّرت أن تتعرّف على فتيات تلك العائلة مهما كانت العواقب التي سيجلبها القدر.

الفصل السادس والثلاثون

بدأ «مُهيم» وكل أعضاء عائلته الصغيرة يعتبرون زواج «سازي» من «بينوى» وكأنّه أمر مقرَّر، لكنّ «سازي» قد توقفت عن مقابلته بالخفر الجديد الذي سيطر عليها؛ أمّا بالنسبة إلى أمّها، «لاكشمي»، فنادراً ما كان «بينوى» يصادفها، ليس لأن السيدة «لاكشمي» خجولة بل لأنّ طبعها كان غامضاً بشكل استثنائي وكان باب غرفتها مغلقاً على الدوام؛ كانت تضع كل ممتلكاتها تحت القفل، وتسمح لزوجها وحده بالاطلاع عليها، ولكن لم تكن له الحرية الكاملة التي يتمناها لشدّة النظم الصارمة التي كانت زوجته تخضعه لها، كذلك كانت دائرة علاقاته ومسار تحركاته محدودة أيضاً.

كانت «لاكشمي» تسيطر بشكل حازم على كل عالمها الصغير وكان من الصعب بالنسبة إلى غريب أن يدخل إليه، ومن الأصعب أن يخرج منه مَن فيه، ولم يكن مرحَّباً بـ«غورا» نفسه في القسم الخاص بـ«لاكشمي» من المنزل.

لم تكن مملكتها ممزّقة يوماً بصراع داخلي بين الشرعيّ والتنفيذيّ والقضائيّ، لأنّها كانت تنفّذ القوانين التي تشرّعها بنفسها وتجمع في شخصيتها المحكمة الابتدائية مع محكمة الاستئناف. أمّا «مُهيم» فقد كان يُعرَف عبر علاقاته خارج بيته بأنّه رجل حازم، لكن إرادته لم تكن تجد سبيلاً لتُمارَس في أراضي «لاكشمي» القضائية حتى في أتفه الأمور.

من وراء أسوار عالمها النسائي المنعزل أقامت «لاكشمي» حكمها الخاص على «بينوى» وأعطته ختم موافقتها. أمّا «مُهيم» الذي يعرف «بينوى»

منذ الطفولة فقد اعتاد أن يعتبره صديقاً لـ«غورا». كانت زوجته أول من لفت انتباهه حول احتمال أن يكون «بينوى» عريساً لـ«سازي»، وكانت تلّح على زوجها، أنّ من بين أهمّ المزايا لهذا المرشح المحتمل هو ألاّ يتطلّب مهراً. وفي الوقت الحاضر عندما أتى «بينوى» ليستقرّ عند «آنانداموا»، عانى «مُهيم» كثيراً لعدم قدرته على تبادل الحديث معه في موضوع الزواج بسبب المصاعب الحاصلة من حادثة «غورا» المزعجة. في هذه الأثناء وعندما حلّ يوم الأحد، أخذت ربّة البيت الحانقة المبادرة فقطعت قيلولة زوجها في يوم إجازته وأرسلته مصحوباً بعلبته التي تحتوي على الـ«بان» وبعدّته وعتاده ليذهب إلى «بينوى» المنشغل مع «آناندامو» حيث كان يقرأ لها مقطعاً من آخر عدد لصحيفة أصدرها مؤخراً أحد أصدقائه.

بعد أن قدّم «مُهيم» الـ«بان» إلى «بينوى» استهلّ حديثه بموعظة حول جنون «غورا» الذي لا يُكبَح، وبما أنّ «مُهيم» كان يعدّ الأيام لانتهاء عقوبة «غورا»، فقد قاده الحديث بشكل طبيعي وبمحض الصدفة للتذكير بأنّ منتصف شهر «آغراهازان» قد مرّ، وبذلك تمكّن من التطرق لبيت القصيد:

- "اسمع يا «بينوى»، رأيك بأنّه لا ينبغي إعلان الزواج خلال شهر «آغراهازان»[1] هو رأي عبثيّ، وكما كنت أقول، إذا أضفنا إلى جميع القوانين والنواهي تقويماً فلكياً للمحظورات العائلية، فلن يكون في بلدنا أي مجال للزواج".

---

(١) الأشهر الهندية ومقابلها الأشهر الغريغورية المتعارف عليها في العالم العربي وفي العالم: ١) «شيترا» مدته ٣٠ أو ٣١ يوماً، ويوافق ٢٢ آذار. ٢)«فيزاكها» مدته ٣١ يوماً ويوافق ٢١ نيسان. ٣) «جييشتها» مدته ٣١ يوماً ويوافق ٢٢ أيار. ٤) «أشادها» مدته ٣١ يوماً ويوافق ٢٢ حزيران. ٥) «سرافانا» مدته ٣١ يوماً ويوافق ٢٣ تموز. ٦) «بهادرابادا» مدته ٣١ يوماً ويوافق ٢٣ آب. ٧) «آزفينا» مدته ٣٠ يوماً ويوافق ٢٣ أيلول. ٨) «كارتيكا» مدته ٣٠ يوماً ويوافق ٢٣ تشرين الأول. ٩) «آغراها يانا» مدته ٣٠ يوماً ويوافق ٢٢ تشرين الثاني. ١٠) «بوشا» مدته ٣٠ يوماً ويوافق ٢٢ كانون الأول. ١١) «ماغ» مدته ٣٠ يوماً ويوافق ٢١ كانون الثاني. ١٢) «فالغون» مدته ٣٠ يوماً ويوافق ٢٠ شباط.

ولما رأت «آناندامو ا» «بينوى» مذهولاً فقد أتت لنجدته وتدخّلت بينهما قائلة:

- "لقد عرف «بينوى» «سازي» وهي لا تزال طفلة ولا يستطيع التعوّد على فكرة أن يصبح زوجها، لهذا السبب اِرتأى ذريعة شهر «آغراهازان»".

فردّ «مُهيم» محتجّاً:

- "كان ينبغي أن يقولها بوضوح منذ البداية".

- "أحياناً يلزم الإنسان فترة من الزمن ليكتشف ما في ذهنه، لكن يا «مُهيم» لماذا أنتَ قلق إلى هذا الحدّ؟ لا ينقصنا خطّاب معقولون بالتأكيد، دع الأمور حتى يعود «غورا» فهو يعرف العديد من الشبّان في سن الزواج، سيتمكّن بسهولة أن يدبّر زواجاً لائقاً مع أحدهم".

تمتم «مُهيم» واِستطال وجهه وقال:

- "هم هم! لو لم تضعي العصيّ في الدواليب يا أمّي، ما كان لـ«بينوى» أن يعترض".

كان «بينوى» المنفعل جداً على وشك الاِحتجاج لكنّ «آناندامو ا» سبقته قائلة:

- "أنتَ لستَ مخطئاً تماماً يا «مُهيم»، أنا لم أشجّع «بينوى» على هذا المشروع، فهو لا يزال شاباً وقد يكون تنازله في الماضي بدافع عابر، لكن الأمور لم تكن لتسير في الاِتجاه الصحيح".

وبذلك حمت «آناندامو ا» «بينوى» من هجوم «مُهيم» بجذب الصاعقة على نفسها الأمر الذي أيقظ عند «بينوى» شعوراً بالخجل بسبب الضعف الذي أبداه.

غير أنّ «مُهيم» لم ينتظر «بينوى» ليحسم أموره ويعبّر بنفسه عن أسباب تراجعه فقال محدّثاً نفسه وهو يغادر الغرفة مغتاظاً مجروحاً:

- "زوجة الأب لا تحبّ أبداً مثل الوالدة الحقيقية"

لم يغب عن بال «آناندامو» أنّ «مُهيم» يوجّه لها لوماً صامتاً، كانت تعرف أنّ كل مشاكل العائلة يمكن أن تعزى بسهولة إلى زوجة الأب وفق قانون المجتمع، لكنها لم تكن معتادة أن تدع آراء الآخرين تؤثّر على سلوكها؛ بدءاً من اليوم الذي حضنت فيه «غورا» بين ذراعيها قاطعت التقليد والعادة بالكامل وتبنّت مساراً جلب لها الانتقاد باستمرار، لكن الندم الدائم الذي سبّبته لها الكذبة المكبوتة لديها جعلها غير حسّاسة تجاه ملاحظات الآخرين الجارحة. عندما كان الناس يتّهمونها بأنّها مسيحية كانت تفكّر وهي تشدّ «غورا» إلى صدرها: "الله يعرف أنْ لا ضرر من معاملتي كمسيحية" وقد اتخذتْ شيئاً فشيئاً عادة تجاهل النظم المفروضة في بيئتها واكتفتْ بإطاعة ضميرها فقط، لذلك فلا يمكن لأيّ لوم يصدر عن «مُهيم» سواء أكان مضمراً أم مقصوداً أن يدفعها لاتخاذ سلوكيّة لا تعتبرها صحيحة وعادلة. فقالت فجأة:

- "لقد مرَّ زمن طويل لم تذهب فيه إلى عائلة «باريش بابو»، أليس كذلك؟"

- لا يمكننا أن نقول زمناً طويلاً يا أمّي".

- "إن تصدقني ذاكرتي، إنّك بالتأكيد لم تذهب إليهم منذ اليوم التالي لعودتك بالباخرة".

في واقع الأمر، لم تكن الفترة الزمنية طويلة، لكن «بينوى» كان يعرف أنَّ زياراته إلى عائلة «باريش بابو» كانت قبل تلك الحادثة كثيرة لدرجة أنْ «آناندامو» كانت لا تكاد تراه خلالها، لذلك بدا لها غيابه عن ذلك البيت طويلاً. أخذ «بينوى» يُنسّل طرف وشاحه ملتزماً الصمت. في هذه الأثناء دخل الخادم ليعلن عن زيارة سيدتين، فنهض «بينوى» بسرعة كي لا يزعج الزائرتين، لكنه وبينما كان يتساءل و«آناندامو» من يمكن أن تكون الزائرتان، دخلت «سوشاريتّا» و«لوليتّا» وأصبح من المستحيل على «بينوى» أن يختفي؛ ظلَّ إذاً مرتبكاً وصامتاً!

مسحت الصبيتان الغبار من على أقدام «آناندامو ا»، يبدو أنّ «لوليتّا» لم تلمح «بينوى» لكن «سوشاريتّا» إنحنت وحيّته بعبارة: "كيف حالكَ؟" ثم توجّهت نحو «آناندامو ا» وقدّمت نفسها على أنّها من قِبَل «باريش بابو».

إستقبلتهما «آناندامو ا» بحرارة وهي تحتجّ:

- "لستما بحاجة لأن تعرّفا بنفسيكما يا عزيزتيّ، صحيح أنّي لم أركما في حياتي قبل اليوم لكنّي أشعر أنّكما من عائلتي".

بهذه الكلمات أراحتهما على الفور، أمّا «سوشاريتّا» فقد وجّهت ملاحظة لـــ«بينوى» في محاولة منها لتُشركَه في المحادثة حيث كان يجلس في إحدى الزوايا:

- "لقد مرّت فترة طويلة لم تعد تزورنا فيها".

بعد أن ألقى نظرة باتجاه «لوليتّا» أجاب قائلاً:

- "خشيتُ أن أفقد صداقتكم جميعاً إن أنا أزعجتكم كثيراً".

ابتسمت «سوشاريتّا» وقالت:

- "أنتَ إذاً لا تعرف أنّنا نحبّ أن يزعجنا أصدقاؤنا ما أمكنهم ذلك".

فقالت «آناندامو ا» مازحة:

- "إن كان لا يعرف ذلك! حسناً، ماذا لو رويتُ لكما كيف يمضي يومه في إعطائي أوامر! ومع كل نزواته لا يترك لي دقيقة راحة".

ثم نظرت إلى «بينوى» نظرة كلّها عطف وحنان.

بعد ذلك ردّ «بينوى» قائلاً:

- "يستخدمني الله ليختبر صبركم الذي وهبكم إيّاه".

بعد هذه الجملة، لكزت «سوشاريتّا» «لوليتّا» بكوعها وقالت لها:

- "هل تسمعين يا «لوليتّا»؟ ألم يتمّ إختبارنا وتبيّنَ أنّنا خفيفات جداً؟ أخشى ذلك".

عندما رأت «آناندامو ا» أنّ «لوليتّا» لم تعر أيّ انتباه لهذا السؤال قالت وهي تضحك:

- "في هذه المرّة، صبر «بينوى» هو في موقع الاختبار، أنتنّ الصبايا، تجهلن ما تمثّلن بالنسبة إليه، أصدقكما القول أنّه في المساء لا يحدّثني إلاّ عنكم جميعاً، ومجرّد ذكر اسم «باريش بابو» يكفي ليجعله في حالة وجد ونشوة".

خلال حديثها رمقت «آناندامو ا» «لوليتا» بنظرة، فالصبيّة لم تستطع أن تمنع وجنتيها من الاحمرار رغم جهودها لتظهر بشكل طبيعي، وتابعت «آناندامو ا» حديثها قائلة:

- "لا يمكنكما التخيّل كم قطع «بينوى» صلته بأشخاص دعماً لـ«باريش بابو»؛ كلّ أصدقائه يضايقونه ويعاملونه على أنّه «براهمو»، وبعضهم أراد أن ينزع عنه الطبقة. لا تحزن يا عزيزي «بينوى» ليس هناك ما يُخجل، ما قولك يا أمّي الصغيرة؟"

أخيراً رفعت «لوليتّا» عينيها ثم خفضتهما عندما استدارت «آناندامو ا» إلى ناحيتها فأجابت عنها «سوشاريتّا»:

- "تكرّم «بينوى بابو» بلطفه ومنحنا صداقته، ليس لأنّنا نستحقّها بل لأنّه من أهل الودّ والأنس".

فقالت «آناندامو ا» وهي تبتسم:

- "هنا، لا أتفق معكِ، لقد عرفتُ «بينوى» وهو طفل ولم يكن له صديق إلاّ «غورا» ، فهو لا يرتبط بأيّة علاقة مع رجال بيئته، ولكنه منذ أن تعرّف بكم غاب عنا، كنتُ مستعدّة لتعنيفكم في هذا الموضوع، أمّا الآن فأرى أنّني قد خضعتُ للسحر نفسه الذي وقع فيه، أنتما لا تُقاوَمان يا عزيزتيّ".

ولامست «آناندامو ا» الفتاتين بلطف بمسّ ذقنيهما بأصابعها التي قبّلتها بعد ذلك.

بدا «بينوى» منزعجاً بشكلٍ أثار شفقة «سوشاريتّا» التي سارعت لتجد له مخرجاً بقولها:

- "يا «بينوى بابو» لقد أتى أبي معنا، وهو في الطابق السفلي يتحدّث مع «كريشنادايال بابو»".

هذا ما سمح لـــ«بينوى» بالهروب تاركاً السيدات مع بعضهن.

عندها أخبرت «آناندامو ا» الصبيّتين عن الصداقة الفائقة التي تربط «بينوى» و«غورا» ، ولم يطل بها الأمر حتى اكتشفت الاهتمام الشديد الذي أثارته عند المستمعتين لها. لا يوجد إنسان في العالم أعزّ على قلب «آناندامو ا» من هذين الصبيين، فهي تغدق عليهما حبّها الأمومي منذ طفولتهما، وفي الواقع لقد كوّنت صورة شخصيتهما بيديها كما تفعل النساء الشابّات بصور «سيفا» كي تعبدها، وكرّست لهما كل تفانيها وإخلاصها. ومع سماع قصة معبودَيْها التي ترويها بنعومة فائقة وبزوئق ووضوح شعرت «سوشاريتّا» و«لوليتّا» أنّهما لا تريدانها أن تتوقّف عن الحديث، لقد كانتا بالتأكيد تشعران بتعاطف شديد مع «بينوى» ومع «غورا»، غير أنّهما بدأتا تنظران إلى الصديقين بمنظار آخر، نظرة متجدّدة بفعل نور جديد كشفه لهما الضياء السحري لهذا الحبّ الأمومي.

والآن وبعد أن تعرّفت بـــ«آناندامو ا» عاد غضب «لوليتّا» ضدّ القاضي إلى الثورة من جديد، لكنّ ملاحظاتها الجارحة جعلت «آناندامو ا» تبتسم وتقول:

- "يا حبيبتي، الله وحده يعلم ما فعل بي إرسال «غورا» إلى السجن، لكنّي لا أستطيع أن أسخط على الأوروبي، إنّي أعرف «غورا»، فهو غير قادر على تحمّل فكرة أنّ قوانين ذات منشأ إنساني تتعارض مع ما يعتبره عدلاً. لقد قام «غورا» بواجبه، والسلطات قامت بواجبها، إن كان هناك ألم، فسيتألم من قدّرُه الألم. لو تقرأين فقط رسالة ابني «غورا» يا أمّي الصغيرة ستدركين أنّه لم يهرب من الألم ، وأنّه لا يحمل غضباً صبيانياً تافهاً ضدّ أي شخص كان، لقد وزن وقدّر كل عواقب سلوكه".

أخرجت رسالة «غورا» من العلبة التي وضعتها فيها بعناية وسلّمتها لـــ«سوشاريتّا» وقالت لها:

- "هلاّ سمحتِ بقراءتها بصوت عالٍ يا صغيرتي؟ سأكون سعيدة لسماعها مرّة أخرى".

بعد قراءة الرسالة، صمتت السيدات الثلاث لفترة من الزمن، مسحت «آناندامو ا» بعض الدموع التي لم تهيّج الألم وحده بل الفرح والاِفتخار الأموميين أيضاً؛ يا له من رجل «غوراها» ذاك! لا شيء من الجبن عنده يتطلّب شفقة أو عفو القاضي، ألم يقبل كامل المسؤولية عن أعماله بمعرفة الوقائع دون جهل قساوة حياة السجين؟ هو لا يتّهم أحداً، وإذا كان بإمكانه أن يرضخ بلا اعتراض، فحريّ بأمّه أن يكون بإمكانها أيضاً أن تتحمّل ثقل هذه التجربة.

نظرت «لوليتّا» إلى «آناندامو ا» بإعجاب كبير؛ ولمّا كانت كل أحكام مجتمع «البراهمو» السلفيّة متجذّرة فيها بشكل ثابت، فهي لم تشعر في حياتها بالاِحترام الكبير تجاه النساء اللواتي تعتبرهنّ ممثلثات زهواً بالخرافات التقليدية؛ كانت على مدى سني طفولتها تسمع السيدة «بارودا» وهي تندّد بخطيئةٍ ما اِرتكبتها «لوليتّا» وبأنّها خطيئةٌ لا ترتكبها إلاّ فتاة هندوسية، وفي كل مرّة كانت «لوليتّا» تشعر أنّها مُهانة شرعاً إلى أبعد حدّ، أمّا في هذا اليوم بالذات فقد أوحت لها كلمات «آناندامو ا» بإعجاب راسخ، يا لقوّتها الهادئة، ويا لحكمتها، ويا لبصيرتها وفطنتها! شعرت «لوليتّا» أنّها صغيرة جداً أمام هذه الاِمرأة، ووعت عدم سيطرتها على اِنفعالاتها، كيف منعها عدم تروّيها من التحدّث إلى «بينوى» ولا بإلقاء نظرة باِتجاهه! أمّا الآن، فالتعاطف الهادئ الذي يُقرأ على وجه «آناندامو ا» هدّأ من هيجان ذهنها المضطرب وأضفى على علاقاتها مع من يحيط بها شكلاً من البساطة والطبيعية. فقالت مندهشة:

- "الآن، وبعدما رأيتكِ، أدركتُ من أين يستمدّ «غورمُهان بابو» قوّته الروحية".

فقالت «آناندامو ا» وهي تبتسم:

- "أخشى ألاّ يكون إدراككِ لهذا الموضوع صحيحاً تماماً، لو أنّ «غورا» لم يكن بالنسبة إليّ إلاّ اِبناً كباقي الأبناء، فمن أين لي أن أنهل هذه القوة؟ هل كنتُ سأتحمّل المصيبة التي ألمّت به؟"

الفصل السابع والثلاثون

زيارة «آناندامو» سبّبت لـ«لوليتّا» اِضطراباً خاصّاً من نوعه ولتفسير ذلك ينبغي أن نعود قليلاً إلى الماضي:

قبل هذه الزيارة كان أول ما تفكّر فيه «لوليتّا» كل صباح: "«بينوى بابو» لن يأتي اليوم"، ومع ذلك لم تكن لتستطيع أن تفقد الأمل بمجيئه المحتمل طيلة النهار؛ كانت تقنع نفسها من حين إلى آخر بأنّه ربّما كان موجوداً هنا لكنه لم يصعد إلى الصالة بل ظلَّ في الطابق السفلي مع «باريش بابو»، وعندما كانت هذه الفكرة تستحوذ على عقلها، كانت تهيم من غرفة إلى غرفة عاجزة عن البقاء في مكان واحد. وأخيراً وعندما يحين موعد النوم في نهاية النهار كانت تبذل جهداً للتخلّص من الأفكار التي تحاصرها، وأحياناً يصل الأمر بها إلى البكاء إذ لم تكن لتستطيع أن تمسك دموعها، ثمَّ تشعر بالغضب بعد دقيقة؛ وبدون شكّ لم تكن لتعرف ممن أو ضدّ من تغضب، فكانت تتعجّب في قرارة نفسها: "ماذا يحدث؟ ماذا يحصل لي؟ لا أرى مخرجاً، إلى متى ينبغي لي أن أبقى في هذا المأزق؟"

كانت «لوليتّا» تعرف أنَّ «بينوى» ينتمي إلى المجتمع التقليدي وأنَّ الزواج منه غير مطروح، ومع ذلك كانت غير قادرة على السيطرة على قلبها. إنّها خجلة من ضعفها ومرتاعة من نفسها! وقد لاحظت تماماً أنَّ «بينوى» لم يكن ينفر منها وهو الأمر الذي جعل مقاومة عواطفها أصعب بكثير. وعندما كانت تنتظر مجيئه بحماس كان الخوف يضنيها من أن يكون

قد أتى فعلاً! وفي صباح أحد الأيام وبعد أن كابدت هذا الصراع لأيام عديدة شعرت بأنّها قد فقدت قوتها، فقرّرت أن ترى «بينوى» فلربّما يخفّف ذلك من اضطرابها بما أنّ غيابه هو الذي يشغل بالها إلى هذا الحدّ؛ فنادت «ساتيش» إلى غرفتها وقالت له:

- "أرى أنّكَ قد تشاجرتَ مع «بينوى بابو».

اغتاظ «ساتيش» واستنكر الاتهام ودحضه، ولو أنّه كان قد نسي قليلاً صداقته مع «بينوى» منذ قدوم الخالة الجديدة . تابعت «لوليتّا» تقول:

- "إنّه حقاً صديق عجيب، فأنتَ لا تتوقّف عن الحديث عنه طوال الوقت، بقولكَ «بينوى بابو» هنا و«بينوى بابو» هناك، وهو لا يزعج نفسه حتى ليراك".

فصاح «ساتيش» قائلاً:

- "هيّا! ماذا تعرفين أنتِ عن الموضوع؟ هو بالتأكيد يفعل ذلك".

كان «ساتيش» عموماً يعتمد بشكل أساسي على التأكيد التفخيمي ليحقّق الاحترام الواجب تجاه هذا العضو الثاني في العائلة، لكنه أدرك في هذه الحالة أنّ برهاناً ملموساً يبقى ضرورياً، فذهب على الفور إلى شقة «بينوى» وعاد سريعاً مع الخبر:

- "لم يعد يسكن في بيته، لهذا السبب لم يأتِ".

فأصرّت «لوليتّا» قائلة:

- "لكن لماذا لم يأتِ قبل ذلك؟"

- "لأنّه لم يعد يسكن هناك منذ مدة طويلة".

عندها ذهبت «لوليتّا» إلى «سوشاريتّا» قائلة:

- "«ديدي» حبيبتي، ألا ترين أنّ علينا أن نقوم بزيارة أمّ «غورمُهان بابو»؟

اِعترضت «سوشاريتّا» قائلة:

- "لكنّنا لا نعرفها".

فقالت «لوليتّا» متعجّبة:

- "هيّا! أليس أبو «غورمُهان بابو» صديقاً قديماً لأبي؟"

تذكّرت «سوشاريتّا» الموضوع واِعترفت وقالت:

- "أجل، هذا صحيح".

وتحمّست للمشروع وطلبت من «لوليتّا» قائلة:

- "اِذهبي واُطلبي هذه الزيارة من أبي يا حبيبتي".

لكن «لوليتّا» رفضت أن تقوم بالمهمة واِضطرت «سوشاريتّا» أن تذهب بنفسها إلى أبيها الذي قال لها على الفور:

- " سنزورها بالتأكيد، كان ينبغي علينا أن نفكّر بذلك منذ الحادثة".

وقرّروا الذهاب أواخر الصباح، لكن ما إن اتُّخِذَ القرار حتى غيّرت «لوليتّا» رأيها ربّما بسبب التردّد والكبرياء المجروحة، فقالت لـ«سوشاريتّا»:

- "سترافقين أبي وحدك، لأنّي لن أذهب معكما".

فصاحت «سوشاريتّا» تقول:

- "مستحيل، لا يمكن أن أذهب وحدي مع أبي، لطفاً، تعالي أرجوكِ، لا تكوني عنيدة وتعطّلي مشروعنا".

اِقتنعت «لوليتّا» في نهاية الأمر. لكن أليس معنى ذلك أنّ «بينوى» قد هزمها؟ كان من السهل عليه ألاّ يعود أبداً وها هي تجري خلفه.... خجلها من هذا الضعف جعلها حانقة ضد «بينوى»؛ أرادت أن تقنع نفسها أنّ فكرة الذهاب لزيارة «آنانداموا» بقصد مصادفة «بينوى» عندها لم تخطر ببالها أبداً، ولدعم هذا الموقف تمنّعت عن إلقاء التحيّة على «بينوى» وحتّى عن النظر إليه.

أمّا «بينوى»، فمن جهته، خلُصَ إلى أنّ موقف «لوليتّا» ظهر وحُسِمَ عندما -اكتشفت عواطفها الخفيّة التي ترفض قبولها. أن تحبّه «لوليتّا»، ليس ذلك سوى فرضية يمنعه تواضعه من تخيّلها.

بينما كانت الفتاتان غارقتين في الحديث مع «آناندامو ا» ظهر «بينوى» ظهوراً خجولاً عند باب غرفة «آناندامو ا» وقال إنّ «باريش بابو» يُعلِم الفتيات بأنّه جاهز للعودة إلى المنزل. بعد ذلك اختبأ خلف مصراع الباب بشكل لا تستطيع «لوليتّا» معه أن تراه. فصاحت «آناندامو ا» متعجّبة:

- "كيف ذلك! هل يظنّ بأنّي سأدعه يرحل دون أن أقدّمَ له واجب الضيافة؟ سأقوم بذلك بسرعة، اُدخل يا «بينوى» واجلس بينما أهيئ بنفسي كل شيء، لماذا أنتَ باقٍ قرب الباب؟"

دخل «بينوى» وجلس في مكان بحيث يكون أبعد ما يمكن عن «لوليتّا»، لكن «لوليتّا» استعادت هدوءها ودون أن تُظهِرَ أي أثر لانزعاج سابق قالت له:

- "هل تعلم يا «بينوى بابو» أنّ صديقكَ «ساتيش» ذهب إلى منزلك هذا الصباح ليعرف إن كنتَ قد نسيته تماماً أم لا؟"

ارتعش «بينوى» من المفاجأة كما لو أنّه سمع صوتاً سماوياً، ثم خجلَ لأنّه لم يتمكن من إخفاء انفعاله، رغم أنّه موهوب بتلقائيّته وجوابه الحاضر أبداً، لكن هذه الميزة خذلته تماماً هذه المرّة، فكرّرَ القول وقد احمرّ وجهه حتى أذنيه:

- "آه! «ساتيش» قد أتى إليّ، لكنّي لستُ في البيت هذه الأيام".

هذه الكلمات القليلة من «لوليتّا» أثارت عنده فرحاً هائلاً، وفي لحظة واحدة زالت الشكوك التي كانت تطبق على العالم أجمع ككابوس رهيب بالنسبة إليه، شعر أنّ آخر رغبة طالما تمنّاها في الكون أجمع قد تحقّقت. فصار قلبه يصرخ "لقد أُنقِذتُ، «لوليتّا» ليست غاضبة مني، «لوليتّا» لا تحقد عليّ".

وبسرعة كبيرة سقطت كل الحواجز التي كانت تفصلهم، فقالت «سوشاريتّا» وهي تضحك:

- "يبدو أنَّ «بينوى بابو» قد ظنَّ في البدء أننا تتينين مجهزين بمخالب ودفاعات وبقرون، أو ربّما اعتقدَ أنّنا نصعد على درب الحرب مسلّحتين مستعدّتين للهجوم".

فقال «بينوى»:

- "الصامتون هم دوماً على خطأ، في هذا العالم من يشتكي أولاً يكسب القضية، لكن لم أكن لأصدّقَ يا «ديدي» بأنّك تحكمين بهذه الطريقة، تنعزلين جانباً وبعد ذلك تتّهمين الآخرين بأنّهم قساة متشامخون".

كانت تلك المرّة الأولى التي يتوجّه بها «بينوى» إلى «سوشاريتّا» بمناداتها «ديدي»، دالاً بذلك على العلاقة الأخويّة، وقد رنّت التسمية بلطف في أذني الفتاة لأنّها شعرت أنَّ الحميمية التي قرّبتهما منذ لقائهما الأول ثبتت بأسلوب رائع؛ في هذه الأثناء عادت «آناندامو ا» وانشغلت بضيافة زائرتيها وأرسلت «بينوى» إلى الطابق السفلي ليعتني بتقديم وجبة طعام خفيفة لـــ«باريش بابو».

كان الوقت قد تأخّر كثيراً عندما رحل «باريش بابو» وبنتاه أخيراً، فقال «بينوى» لـــ«آناندامو ا»:

- "لن أدعكِ تعملين أكثر من ذلك اليوم يا أمّي، تعالي لنصعد إلى الشرفة".

لقد تمالك نفسه بصعوبة، وصعدا كلاهما، وما أن وصلا حتى مدَّ الحصيرة بيديه وأجلسها عليها. فسألته «آناندامو ا»:

- "حسناً، ماذا في الأمر يا «بينوى»؟ ماذا تريد أن تقول لي؟"

- "لا شيء البتّة، أريد أن تكوني أنتِ من يتكلّم".

الواقع هو أنّ «بينوى» يتلهّف شوقاً لمعرفة رأي «آناندامو» ببنات «باريش بابو».

فصرخت «آناندامو» قائلة:

- "عجباً! ألهذا السبب تنتزعني من أشغالي؟ ظننتُ أنّ لديك شأناً مهماً تريد أن تسرّه لي".

- "لو لم أجلبكِ إلى هنا لما رأيتِ غياب الشمس الرائع".

في الواقع، تغيب شمس تشرين الثاني على أسطح «كالكُتّا» في جوٍّ غائم، ليس هناك ما يميّز لون السماء، روعته المذهّبة كانت محصورة بحجاب من الدخان يغطّي الأفق، أمّا في هذا المساء بالذات فقد شعَّ هذا المغيب الكئيب والقاتم نوراً في عيني «بينوى»، بدا له أنّ العالم برمته يضمّه إلى حضنه وأنّ السماء نزلت إليه لتلاطفه بلمساتها. فقالت «آناندامو» على سبيل الملاحظة:

- "هؤلاء الفتيات فاتنات حقاً".

لم تكن هذه الملاحظة كافية لمزاج «بينوى» فتدبَّر حديثه ليحفظ الموضوع على بساط البحث مضيفاً لمسات صغيرة، راوياً تفاصيل عن علاقته بعائلة «باريش بابو».

لم تكن تلك التفاصيل ذات أهمية كبيرة، لكن الإهتمام الحماسي الذي أضفاه عليها «بينوى» ولطافة «آناندامو» وودّها الحاضر دوماً والوحدة التي تجمعهما على الشرفة تحت ظلال ذاك المساء التشريني، كل هذه الأمور اتّحدت لتضفي على هذا الظرف الأكثر حميمية معنى غنيّاً وعميقاً. تنهدت «آناندامو» فجأة وقالت:

- "ياه! كم أحبّ أن يتزوّج «غورا» من «سوشاريتّا»".

نهض «بينوى» ليجيب:

- "تحديداً، هذا يا أمّي ما فكّرتُ فيه غالباً، «سوشاريتّا» تناسب «غورا» بشكل رائع".

فسألت «آناندامو ا» وهي حالمة:

- "هل يمكن لهذا الأمر أن يتحقّق؟"

فأجاب «بينوى» متعجّباً:

- "لمَ لا؟ عندي إحساس كبير بأن «غورا» قد افتتن بـــ«سوشاريتّا»".

لم يفت «آناندامو ا» أنّ «غورا» كان قد خضع لتأثير ما قد جذبه، وقد فهمتْ من بعض الملاحظات المصادفة من «بينوى» أنّ الجاذبية تنبعث تحديداً من «سوشاريتّا». وبعد دقيقة صمت قالت:

- "ما أشكّ فيه هو إن كانت «سوشاريتّا» ستوافق على الزواج من عائلة تقليدية".

فقال «بينوى»:

- "تبدو لي المسألة على الأرجح في معرفة إن كان يُسمَحُ لـــ«غورا» بالزواج من عائلة «براهمو»، أليس لديكِ اعتراض؟

فقالت «آناندامو ا»:

- "أؤكّد لك أنّه ليس لدي أي اعتراض".

فصاح «بينوى» قائلاً:

- "حقاً، ليس لديكِ أيّ اعتراض؟".

فكرّرت «آناندامو ا» كلامها قائلة:

- "بالتأكيد يا «بينوى»، لماذا أعترض؟ ينبغي أن يكون الزواج مؤسّساً على تآلف القلوب واتحادها، إن وُجدتْ هذه الوحدة فما الذي يهمّنا بعد ذلك من تلاوة نصوص «المانترا»؟ يكفي أن يُقام الاحتفال باسم الله".

شعر «بينوى» أنَّ ثقلاً كبيراً قد انزاح عن صدره وتوقَّف عن الضغط على تفكيره فقال بحماس:

- "إنني يا أمّي مذهول ومتعجّب لسماعك تتحدّثين بهذا الأسلوب، كيف استطعتِ أن تحرّري فكركِ بهذه الطريقة؟"

فقالت «آناندامو ا» وهي تضحك:

- "كيف؟ عن طريق «غورا»".

- "لكن «غورا» يؤكّد العكس تماماً".

- "لا يهمّ ما يؤكد، ما أعرفه لا يأتي منه فقط، بل من الحقيقة الموجودة في الإنسان وعبثيّة الموضوعات التي يتناقش فيها البشر ويتشاجرون من أجلها؛ يا ولدي، ما هو في الواقع الفرق الحقيقي بين البراهمو والهندوسي التقليدي؟ إنَّ التجزئة الطائفية لا تطال قلب الإنسان، في هذا الموضوع لا يجزّئ الله الناس بل يقرّبهم من بعضهم بعضاً، هنا، الله نفسه يتّحد معهم، فهل يكون من المقبول أن نبعده ونعتمد الطقوس والآراء لنربط بين الناس؟

فقال «بينوى»:

- "كلماتكِ يا أمّي هي عسل بالنسبة إليّ، في الحقيقة كان هذا النهار نهاراً خصباً ومثمراً بقربكِ".

ثم انحنى ليزيل الغبار من على قدميها.

الفصل الثامن والثلاثون

إنَّ قدوم خالة «سوشاريتّا» التي تدعى «هاريموهيني» بلبل مناخ بيت «باريش بابو» بشكل كبير، وقبل أن نصف هذا الإضطراب من المفيد بمكان أن نعرّف بـــ«هاريموهيني» بما أخبرته هي نفسها لـــ«سوشاريتّا»:

"لقد أحاطنا والدانا بتلك العناية الحنونة دونما حدود، كنتُ أزيد والدتك بسنتين، في الواقع لم يكن في البيت أطفال آخرون غيرنا، وكان أعمامنا يحبّوننا كثيراً ويعتنون بنا ولم يدعونا نسير على الأرض. عندما بلغتُ الثامنة من عمري، زوّجتُ من عائلة معروفة جداً عائلة «روي شودهوري»، عائلة أصيلة وغنيّة في الوقت نفسه، لكن كان قدَري ألاّ أعيش سعيدة؛ لقد نشب خلاف بين أبي وبين والد زوجي في موضوع المهر، ولم تسامح عائلة زوجي أبي أبداً عما إعتبرته بخلاً من طرفه، فإعتادوا على مضايقتي بتهديدات منكّدة قائلين: "وإذا اتخذ ابننا إمرأة أخرى؟ سنرى كيف سيكون وضع إبنتهم". عندما رأى والدي الحال البائسة التي أمسيتُ عليها، أقسَمَ بألاّ يزوّج إبنته الثانية لعائلة غنيّة، لهذا السبب كان زواج والدتكِ متواضعاً.

في منزل زوجي، كانت العائلة كبيرة وما إن بلغتُ التاسعة من عمري حتى كان عليّ أن أساعد في إعداد الطعام لخمسين أو ستين شخصاً. لم يكن من حقّي أن أتناول الطعام طالما بقي هناك شخص واحد ينبغي خدمته، وعندها لم يكونوا يعطونني إلاّ البقايا، وأحياناً أخرى رزاً فقط أو رزاً وعدساً (دال)؛ بشكل عام كنت أظلّ بلا طعام حتى الساعة الثانية أو أكثر أحياناً.

وحالما أنتهي كان ينبغي عليّ أن أبدأ بتهيئة وجبة المساء للآخرين، أمّا فرصة العشاء فلم تكن لتتاح لي قبل الساعة الحادية عشرة أو في منتصف الليل. لم يخصّصوا لي سريراً، فكنتُ أنام بكل بساطة بجانب من يوجد في سريره مكان كاف لي، وأحياناً كثيرة كنت أنام دون فراش، الإهمال الذي خضعتُ له عمداً أثّر على سلوك زوجي تجاهي فقد ابتعد عني لفترة طويلة.

عندما بلغت السابعة عشرة من عمري رزقتُ بابنتي «مانوراما»، فازداد وضعي سوءاً لأنّني لم أُرزق إلاّ ببنت! غير أنَّ طفلتي كانت بالنسبة إليّ فرحاً عظيماً ودعماً نفسياً كبيراً وسط الكثير من الإهانات، وبما أنّها كانت محرومة من كل عطف خارج عطفي أنا وحتى محرومة من عطف أبيها أو أيّ شخص آخر في البيت، فقد غدت محطّ عنايتي الفائقة وأصبحتْ أعزّ عليّ من حياتي. بعد ثلاث سنوات رُزقتُ بابن، فتحسّن وضعي وحصلتُ أخيراً على المكانة التي هي من حقّي كسيدة للمنزل؛ أمّا حماتي فأنا لم أعرفها ومات حموي بعد ثلاث سنين من ولادة «مانوراما»؛ وبعد موته، تقاسم زوجي وإخوته الأصغر منه الميراث عن طريق القضاء، وبعد أن خسرنا أموالاً طائلة بسبب مصاريف القضيّة، انفصل الإخوة عن بعضهم بعضاً؛ وعندما أصبحتْ «مانوراما» في سنّ الزواج، خشيتُ أن أفقدها فوافقتُ على تزويجها في بلدة تبعد عشرة أميال عن بلدتنا. كان الخطيب شابّاً فائق الجمال، «كارتيك»[1] حقيقي، قسمات وجهه دقيقة وبشرته فاتحة اللون وكانت عائلته تتمتّع بثروة طائلة. قبل أن يثقّل القدر عليّ، منحتني «العناية الربّانية» فترة قصيرة من السعادة بدت وكأنّها تعويض عن كل سنيّ الإهمال والبؤس التي تكبّدتها من قبل، كسبتُ أخيراً حبّ زوجي واحترامه لي، ولم يكن يتخذ أيّ قرار مهم دون مشورتي.

---

(١) كارتيك: إله الحرب، ابن "شيفا"، ولهذا هو شاب جميل.

كلّ ذلك كان جميلاً جداً...لكن أجمل من أن يستمرّ...لأنّه كان كجمال الورود... فقد اجتاح وباء الكوليرا المنطقة بأكملها فمات به زوجي وابني بفارق أربعة أيام بينهما؛ أبقاني الله على قيد الحياة ليبرهن لي أنّ الإنسان يستطيع تحمّل الألم الفظيع الذي لا يمكن تصوّره.

شيئاً فشيئاً توصلتُ إلى معرفة طباع صهري، من كان يفكّر أن حيّة سامّة استطاعت أن تختبئ خلف هذا المظهر الفاتن؟ لم تخبرني ابنتي أنّ زوجها قد تعوّد السكر برفقة المجتمع الفاسد الذي يحيط به وعندما كان يأتي ليبتزّ المال مني بذرائع مختلفة، كنت أشعر بالرضا لأنّه ليس لديّ أحد آخر في هذا العالم كي أدّخر له المال. غير أنّ ابنتي حظرت عليّ بعد فترة أن أعطيه كل ما يطلبه مني وحذّرتني من ذلك قائلة: "إنك تفسدينه عندما ترضخين لطلباته، فنحن لا نعرف أين يبذّر النقود التي يتلقّاها منكِ"؛ ظننتُ أنّ «مانوراما» كانت تخشى فقط أن تزدريه عائلته لأنّه يقبل هذه العطاءات الكثيرة من قِبلي، وقد قادني جنوني إلى إعطائه المبالغ التي يطلبها في السرّ وهذا ما أودى به إلى الهاوية؛ عندما علمتْ ابنتي بالأمر أتت إليّ ودموعها ملء عينيها وروت لي كل شيء؛ أعتقد أنّكِ تفهمين أيّ ندم وأيّ يأس اجتاحني عندما اكتشفتُ أنّ أصغر إخوة زوجي هو من ساق صهري إلى هذا الفسق بتشجيعه، وبالمثال الذي كان يقدّمه له.

أمّا هو فقد كان يشكّ بتدخّل ابنتي عندما كنت أتوقّف عن تلبية طلباته، ولم يعد يحفظ ماء وجهه بل بدأ يسيء معاملة «مانوراما» ويتصرّف معها بقساوة، وصار يهينها أمام الغرباء حتى أُجبرتُ على إعطائه المال بالسرّ رغم أنّي كنت أعلم بأنّني أساعده في التقدّم على طريق جهنم. لكن كيف لي أن أتصرّف بشكل آخر؟ لم أستطع تقبّل فكرة أنّه يعذّب ابنتي «مانوراما».

إلى أن أتى يوم... على ما أذكر! وكان في نهاية شهر شباط.

كان الحرُّ قد بدأ مبكراً بشكل إستثنائي، حيث شاهدنا شجر المنغا في آخر الحديقة وقد أزهر. في فترة الظهر، توقّف هودج عند باب منزلي ونزلت منه «مانوراما» واقتربت مني وهي تبتسم ومسحت الغبار من على قدميّ، فصرختُ قائلة:

- "أنتِ يا «مانو»! ماذا جرى؟"

فأجابتني وهي مبتسمة باستمرار:

- "ألا أستطيع أن آتي لزيارة أمّي دون أن يكون هناك أخبار لأنقلها؟"

لم تكن حماة ابنتي شرّيرة فقد أرسلت لي هذه الرسالة:

"«مانوراما» تنتظر مولوداً وأرى أنّه من الأفضل لها أن تظلّ عند أمّها إلى حين الولادة".

صدّقتُ هذه الرسالة إذ من أين لي أن أحزر بأن زوج ابنتي عاد إلى ضربها من جديد رغم الحالة التي هي فيها، وأنّ حماتها أرسلتها إليّ خوفاً من العواقب؟ تآمرت «مانوراما» مع حماتها لتكتما عني الحقيقة. وعندما كنتُ أريد دهن جسدها بالزيت أو مساعدتها في الإستحمام كانت تجد الأعذار على الدوام كي ترفض إذ لم تكن تريد أن أرى آثار لطمات زوجها.

لقد زارني صهري مرّات عديدة وكان يختلق مشاحنات عائلية ليُجبر زوجته على العودة معه لأنّه يعرف تماماً أنّه سيكون من الصعب عليه ابتزاز المال مني طالما هي عندي. بعد فترة قصيرة لم يعد وجود زوجته نفسها يشكّل له عائقاً، ولم يعد يخجل من مضايقتي والإلحاح عليّ أمامها. ظلّت «مانوراما» حازمة ومنعتني من الإستماع إليه وتلبية طلباته، لكن خوفي من أن يتجاوز غضبه الحدود تجاه ابنتي كان يجعلني أضعف تجاهه؛ وفي النهاية قالت لي «مانوراما»: "أعطني صندوق مالك يا أمّي لأحفظه معي"، وأخذته مع مفاتيحي.

عندما أدرك صهري أنّه لن يستطيع أن يحصل على مال مني وأنّ «مانوراما» حازمة وقرارها لا يُقهَر، أصرّ أكثر من قبل على عودتها إلى المنزل، حاولتُ أن أُقنِعَ «مانوراما» بقولي لها: "أتركيه يأخذ ما يريد يا حبيبتي، فنتخلّص منه على الأقلّ وإلاّ من يدري ما يمكن أن يفعله؟"

لكن «مانورامتي» بقدر ما كانت صارمة في بعض المجالات كانت متساهلة في أخرى فقالت: "أبداً يا أمّي، مستحيل".

أتانا زوجها ذات يوم وعيناه محتقنتان بالدم وقال: "سأرسل بعد ظهر الغد هودجاً ليقلّ زوجتي إلى بيتها، إذا لم تدعيها تذهب سأجعلكِ تدفعين الثمن غالياً، أعدك بذلك".

في مساء اليوم التالي وعندما وصل الهودج قلتُ لـ«مانوراما»:"يا حبيبتي، إنّه من الخطورة بمكان أن نجعله يعود الآن، اذهبي وسأبعث بطلبك الأسبوع القادم". لكن «مانوراما» رجتني قائلة: "دعيني أبقى قليلاً عندكِ يا أمّي لست متلهّفة لأن أعود هذا المساء، قولي لهم أن يعودوا بعد بضعة أيام". فأجبتها: "يا حبيبتي، ألا نجازف بإثارة جنون ذلك الهائج الذي هو زوجك إن رددنا الهودج على أعقابه؟ حقاً يا «مونو» أعتقد أنّه من المستحسن أن تعودي الآن". فكرّرت «مانوراما» الرفض قائلة: "كلاّ يا أمّي، ليس اليوم، سيعود حموي في منتصف الشهر القادم، عندها أعود إلى بيتي".

مع ذلك ألححتُ عليها خشية من خطورة الرفض، في نهاية المطاف هيأت «مانوراما» أمتعتها بينما رحتُ أُعدُّ بعض الأطعمة لحملة الهودج، لقد انشغلتُ تماماً في تهيئة الطعام لدرجة، ولم أقم باللمسات الأخيرة لتبرّج «مانوراما»، ولم أحمّلها الحلوى المفضلة لديها، وتبادلنا الحديث ببضع كلمات فقط قبل رحيلها. وقبل أن تصعد إلى الهودج انحنت «مانوراما» لتزيل الغبار من على قدميّ وقالت:

"الوداع يا أمّاه".

لم يخطر ببالي حينها أنّه كان الوداع الأخير، ولا يزال قلبي مكسوراً إلى اليوم عندما أفكّر أنّها لم تكن تريد الذهاب وأنا من أجبرها على ذلك. لن يشفى جرحي في هذا العالم أبداً، لقد ماتت «مانوراما» في الليلة نفسها التي غادرتني فيها بعد أن أجهضت، وقبل أن يصلني خبر وفاتها أُحرقت جثتها سرّاً وبسرعة كبيرة. كيف يمكنكِ أن تفهمي يا حبيبتي عذاب ألمٍ لا شيء يمكن أن يخففه ولا أن يزيله ولا حتى دموع حياة بأكملها؟

لكن مصائبي لم تنتهِ بموت كل من كنتُ أُحبّ، فبعد موت زوجي وابني، طمع إخوته الأصغر منه سناً بممتلكاتي، رغم أنّهم كانوا يعلمون أنّهم سيرثون كل شيء بعد مماتي لكنهم لم يتحلّوا بالصبر لينتظروا موتي، هل ألومهم على ذلك؟ أليست جريمة بالنسبة إلى بائسة مثلي أن تستمرّ في العيش؟ كيف يمكن أن يتسامح أشخاص مفعمون بالرغبات الجامحة مع مَنْ لم يعد عنده رغبات مثلهم لكنه يمنعهم من تنفيذ رغباتهم؟ طالما كانت «مانوراما» على قيد الحياة كنتُ قد حزمتُ أمري وقرّرت أن أُدافع عن حقوقي وألاّ أرضخ لأي ضغط لأنّني أردتُ أن أُوصي بمدخراتي لها. لم يتحمّل إخوة زوجي فكرة أن أقتصد في المصروف من أجل ابنتي، فبدا لهم ذلك وكأني أسرق المال من جيوبهم.

خادم عجوز ومخلص لزوجي يدعى «نيلكانتا» كان يدعمني، لم يقبل بفكرة أن أقترح تسوية فقال لي: "سنرى، من سيستطيع أن يحرمنا من حقوقنا العادلة".

في وسط هذا الجدل ماتت «مانوراما»، وفي اليوم التالي لوفاتها أتى سلفي ليراني ولينصحني بالتنازل عن أموالي وباعتناق حياة التقشّف والزهد، قائلاً لي: "يا أُختاه، من الواضح أنّ الله لم يخلقكِ للحياة في هذا العالم، لماذا لا تذهبين لتقيمي في مكان مقدّس مكرّسة أوقاتكِ لأعمال التُقى والعبادة في الأيام الباقية لكِ في هذه الحياة؟ ونحن سنوفّر لكِ مصروفكِ".

استدعيتُ مرشدي الروحي وسألته: "يا معلّم، كيف أتخلّص من الألم المبرح الذي يتملّكني؟ إنّني مضناة أهلكُ بنار تلتهمني ولا أرى أيّة وسيلة للتخلّص من هذا العذاب كيفما اتجهتُ ومهما فكّرتُ".

قادني مرشدي الروحي «الغورو»[1] إلى المعبد ودلّني على صورة «كريشنا» وقال لي: "هذا هو زوجكِ وابنكِ وابنتكِ، هو كل شيء بالنسبة إليكِ، كرّسي نفسك لخدمته وعبادته، ستكون أمانيكِ محقّقة وسيكون فراغ قلبكِ ممتلئاً". بعدها بدأتُ بتمضية أيّامي في المعبد وحاولتُ أن أوجّه عقلي نحو الله، لكن كيف أهبُ نفسي «له» إلاّ إذا أخذني هو إليه؟ وا أسفاه! «إنّه» لم يأخذني بعد.

استدعيتُ «نيلكانتا» وقلتُ له:«نيل – دادا» قرّرتُ التنازل عن حقّ الانتفاع في ممتلكات إخوة زوجي والاكتفاء بنفقة شهرية صغيرة". فأجابني: "كلاّ، هذا مستحيل، أنتِ امرأة فلا تنشغلي بهذه القضايا".

"لكن هل أنا بحاجة لهذه الممتلكات من الآن فصاعداً؟" فأجاب متعجّباً: "يا لها من فكرة! تتنازلين عن حقوقكِ الشرعية! لا تفكّري ولا تضعي في تصورّكِ مثل هذا الجنون".

لا يضع «نيلكانتا» شيئاً فوق الحقوق الشرعية، غير أنيّ كنتُ أعيش ظروفاً قاسية ما أدّى بي إلى الزهد والنفور من الإهتمامات الدنيوية، لكن كيف سأخذل «نيلكانتا» الصديق الوحيد المخلص لي في هذا العالم؟ في النهاية، ودون أن أُنذره، وقّعتُ ذات يوم على ورقة لم أفهم معنى محتواها تماماً، لكن بما أنّي لا أنوي الاحتفاظ بشيء البتّة لم أخشَ أن أُخدَعَ، فقد فكّرت أنّه من الطبيعي أن تعود ممتلكات عائلة زوجي إلى أولادها، وبعد أن سُجّلت الوثيقة رسمياً استدعيتُ «نيلكانتا» وقلتُ له: "يا «نيل – دادا» لا تغضب أرجوك، لقد تنازلتُ عن الملكية بعقد رسمي، فأنا لم أعد بحاجة إليها". فصاح «نيلكانتا» قائلاً:"ماذا! وماذا ستفعلين بعد ذلك؟"

---

(١) غورو GURU: مرشد الحياة الروحية، وهو محاط بالإجلال والتقديس.

عندما قرأ محتوى العقد ورأى بأنني قد تنازلتُ فعلاً عن كل حقوقي، ثار وأصبح سخطه بلا حدود، فهو منذ وفاة سيّده كان هدفه الوحيد الحفاظ على هذه الممتلكات التي ورثتُها عن زوجي؛ لقد كرَّس هذا الخادم كل فكره وكل جهوده لهذه المهمّة، وغدا دأبه الوحيد التوسل لدى المتنفذين من رجال القانون للبحث عن الحقائق الجليّة وعن الأحكام الشرعية ونصوصها، فلم يعد يجد الوقت الكافي لتصريف مصالحه الخاصة. وعندما رأى أنَّ الحقوق التي ناضل للحفاظ عليها انهارت بجرّة قلم من امرأة حمقاء لم يستطع تحمّل ذلك، فقال: "حسن جداً لقد انتهيتُ من قضايا هذه الممتلكات، فأنا ذاهب".

التجأتُ إلى المعبد العائلي، لكن إخوة زوجي كانوا يأتون لمضايقتي قائلين: "اذهبي لتعيشي في حرم مقدّس" وكنتُ أُجيب: "قدسُ أقداسي هو بيت جدود زوجي، أمّا هيكل عبادة مقدّساتنا العائلية فسيكون ملاذي". غير أنَّ الأمر بدا لهم غير محتمل فمن المزعج لهم أن أشغل أيّة زاوية من المسكن، لقد جلبوا أثاث بيوتهم وتقاسموا الشقق، وقالوا في النهاية: "بإمكانكِ إن أردتِ أن تأخذي معكِ التمثال المقدّس الذي تعبدينه، فنحن لن نمانع في ذلك". وعندما ترددتُ، سألوني: "ماذا ستفعلين لتؤمّني مصاريفكِ؟ فأجبتهم: "النفقة التي حددتموها لمعيشتي ستكفيني"، فتظاهروا بأنَّهم لم يفهموا وقالوا: "عمَّ تتحدثين؟ لم يُطرَح موضوع النفقة أبداً".

وهكذا، بعد خمسة وثلاثين عاماً من زواجي غادرتُ بيت زوجي حاملة معي صورة معبوده. والتحقتُ بمجموعة من الحجّاج ذاهبين من مدينتنا إلى «بيناريس»، للتكفير عن خطاياي ورغم ذلك لم أستطع أن أحصل على السلام النفسي. كنتُ أصلّي لربّي كل يوم قائلة: "اجملني يا رب بواقع زوجي وأولادي"، غير أنَّه لم يسمع صلواتي، ولم يعرف قلبي السلوان ولم تهدأ شجوني، أمّا عيناي فقد ظلّتا مملوءتين ألماً، ما أقساها حياة الإنسان!

منذ اليوم الذي ساقوني فيه وأنا بعمر ثماني سنوات لأعيش عند زوجي، لم أعد حتّى لمرّة واحدة إلى بيت أبي. لقد بذلت جهدي كي يسمحوا لي بحضور عرس أمك، «رادهاني»، لكن دون جدوى؛ علمتُ لاحقاً بولادتك ثم بموت أختي، وحتّى الآن لم يسمح لي الله أن أقبّلكما يا ولديّ، أنتما اللذان فقدتما والدتكما.

عندما أدركتُ أنّ قلبي ظلّ متعلقاً بهذا العالم ظامئاً للحنان والعواطف رغم الكثير من رحلات الحج، بدأتُ أستعلم عن أخباركما، فأُخبِرتُ أنّ أباكما قد ترك الديانة والمجتمع التقليدي، هذا لا يهمّ، ألم تكن والدتكما أختي؟ اكتشفتُ أخيراً المكان الذي تعيشان فيه فأتيتُ من «بيناريس» إلى هنا مع صديق. أعرفُ أنّ «باريش بابو» لا يكرّم آلهتنا، لكن يكفي النظر إلى وجهه لندرك أنّ الآلهة تكرّمه. ينبغي علينا أن نكثرَ من القرابين لنرضيَ الألوهة، هذا لا أجهله وأودُّ أن أعرف كيف استطاع «باريش بابو» اكتساب كلّ هذه الفضائل «منها». ومهما يكن من أمر يا بنتي العزيزة، لم تحن ساعة انسحابي من هذا العالم بعد، ولستُ قادرة على تحمّل الوحدة، سيكون بإمكاني ذلك عندما تسمح إرادته اللطيفة، خلال ذلك الوقت لن أستطيع تحمّل فكرة مغادرتكما يا ولديّ وقد وجدتكما أخيراً.

الفصل التاسع والثلاثون

رحَّب «باريش بابو» بـــ«هاريموهيني» في بيته أثناء غياب السيدة «بارودا» وخصَّص لها غرفة شاغرة في الطابق العلوي من المنزل بحيث يصبح بإمكانها أن تعيش كما يحلو لها وأن تمارس نظم مذهبها دون معوّقات؛ لكن، عندما عادت «بارودا» ووجدت نظامها المنزلي قد تعقَّد بقدوم «هاريموهيني» غير المنتظر، غضبت وحذَّرت «باريش بابو» بتعابير واضحة جداً بألاّ ينتظر منها أن تكون بمثل هذا التسامح. فقال لها «باريش بابو»:

- "إنّكِ تتحملين كل عبء بيتنا، وبإمكانكِ بالتأكيد أن تقبلي أيضاً هذه الأرملة البائسة".

كانت السيدة «بارودا» تعتبر «باريش بابو» مجرّداً من كلّ حسٍّ عمليّ ومن كل معرفة بالعالم. وبما أنَّه ليس لديه أيّة فكرة عن تدبير المنزل، فقد كانت واثقة بأنَّ كلّ قرار يتّخذه سيكون بالنسبة إليها ناقصاً، لكنها كانت تعرف أيضاً أنَّه عندما يتّخذ قراراً ما، فالمناقشة والغضب وحتى الدموع تبقيه حاسماً ثابتاً كالتمثال، ما العمل مع رجل كهذا؟ أيّة امرأة يمكنها أن تتكيّف مع زوج يكون الشجار الضروري معه مستحيلاً؟ شعرت بأنَّ عليها أن تقبل الهزيمة.

«سوشاريتّا» و«مانورامـا» هما في السن نفسه تقريباً ومتشابهتان في الشكل وفق رأي «هاريموهيني»، كما أنَّ طباعهما متشابهة في الهدوء والحيوية. أحياناً كان قلب العجوز يكاد يقفز من مكانه عندما تلمح «سوشاريتّا» من الخلف. ذات مساء، وبينما كانت «هاريموهيني» جالسة وحدها في الظلام،

تبكي دون جلبة، اقتربت منها «سوشاريتّا» فضمّتها الخالة بشدّة إلى صدرها وهي تتمتم وعيناها مغمضتان:

"لقد عادت، عادت إلى ذراعيّ، لم تكن تريد الرحيل، لكني أرسلتها، هل يمكن أن أعاقب تماماً على هذه الخطيئة؟ ربما قد تألّمتُ بما يكفي فعادت لي، ها هي ذي والابتسامة نفسها على وجهها؛ آه يا أمّي الصغيرة يا كنزي، يا جوهرتي".

ولامست بنعومة وجه «سوشاريتّا» وقبّلتها من خلال طوفان من الدموع. أجهشت «سوشاريتّا» بالبكاء وقالت بصوت متقطّع:

- "يا خالتي، أنا أيضاً لم أذق طعم حبّ أمّي منذ زمن بعيد، أمّا الآن فقد عادت إليّ تلك الأمّ التي فقدتها، كم من مرّة ناديتُ أمّي وناجيتها في حزني عندما كانت روحي تقسو دون حنان ولم يكن لديّ القوة للتوجّه نحو الله، لقد سمعتُ الآن أمّي دعائي وها هي هنا.

- " لا تكلّميني بهذه الطريقة يا بنتي، فأنا عندما أسمعكِ أغدو سعيدة لدرجة يتملّكني فيها الخوف. يا الله، لا تحرمني من هذه السعادة مرّة أخرى، لقد حاولتُ أن أتخلّص من كل ارتباط، وأن أصنع لنفسي قلباً من حجر، لكني لم أفلح، لأني ضعيفة، ترأف بي يا إلهي، ولا تعاقبني من جديد. يا «رادهاني» يا حبيبتي، ابتعدي عني، ولا تتعلّقي بي".

فقالت «سوشاريتّا»:

- "مهما تقولين يا خالتي، لا يمكنكِ أن تبعديني عنكِ لن أتركك أبداً وسأبقى بقربك على الدوام".

وشدّت نفسها إلى «هاريموهيني» وتمدّدت على ركبتيها كالطفلة، وخلال بضعة أيام نشأت بين «سوشاريتّا» وبين خالتها عاطفة عميقة جداً لا يمكن قياسها مع مدة التعارف، وهذا ما زاد من ضيق السيدة «بارودا» التي صارت تقول مستغربة: "انظروا إلى هذه الصغيرة! كما لو أنّها لم تتلقَّ منّا عناية أو حناناً، أين كانت خالتها طيلة تلك السنين؟ أودُّ أن أعرف ذلك، لقد أخذنا على عاتقنا تربيتها منذ طفولتها، والآن لا يوجد لديها سوى خالتي!

وخالتي! ألم أقل لزوجي دوماً إنّ «سوشاريتّا» التي لا نكلُّ أبداً من مدحها والتي تتخذ هيئة قدّيسة صغيرة، لها قلب غير حنون وهي لا تعترف بالجميل، وكلّ ما فعلناه لها قد ذهب أدراج الرياح".

كانت «بارودا» تعرف جيداً أنَّها لن تحصل على تأييد ولا على تعاطف من قبل «باريش بابو» في إعتراضاتها، لا بل قد تفقد شيئاً من إحترامه لها إن هي أبدت انزعاجها من «هاريموهيني». ليفكِّر زوجها كما يريد، لكنها بقدر ما كانت غاضبة كانت مصمِّمة على برهنة أنَّ كلّ الأشخاص الأذكياء يؤيدون وجهة نظرها؛ وأخذت تناقش قضية «هاريموهيني» مع كل أعضاء «البراهمو – ساماج»، من المهمّين أو غير المهمّين، لإقناعهم بوجهة نظرها؛ ولم تتوقّف عن التحسّر من الخطر الذي قد يطال الأولاد إن ظلَّ في العائلة أمثال تلك الإمرأة المتطيّرة والوثنية.

لم يكن مزاج السيدة «بارودا» يظهر في الخارج فقط بل في داخل البيت حيث حولّت حياة «هاريموهيني» إلى جحيم. الخادم ذو الطبقة العالية الذي كُلِّفَ بنقل مياه الطبخ لـــ«هاريموهيني» كان يُستخدمُ في مكان آخر عندما تكون «هاريموهيني» بحاجة لخدماته الضرورية؛ وعندما يُشار إلى هذا الموضوع أمامها كانت «بارودا» تقول: "هذا غير مهمّ، «رامدين» موجود هنا"، وهي تعلم تماماً أنَّ «هاريموهيني» لا تستطيع أن تشرب الماء الذي ينقله لها خادم من طبقة دنيا أي «رامدين»؛ وعندما كانوا يلفتون نظرها لهذا الموضوع كانت «بارودا» تردّ قائلة: "إن كانت هي من طبقة عالية بهذا القدر لماذا أتت إلى منزل «براهمو»؟ هنا، لا نستطيع الاهتمام بهذه الغباوات، وأنا من حيث المبدأ ما كنتُ لأسمح بذلك".

وفي مثل هذه المناسبات، كان إحساسها بالواجب يصل إلى حد العنف: "«البراهمو – ساماج» في طريقه إلى التهاون في المجال الإجتماعي، لهذا السبب يساهم في التقدّم أقلّ بكثير من السابق"؛ وتتابع حديثها مبدية بوضوح أنها من جهتها لن تساهم في هذا التراخي ولا بحال من الأحوال طالما

احتفظت بقواها، فإذا لم يفهموها، فهذا مؤسف، ولو قامت عائلتها ضدها، فهي مستعدّة لتحمّلها. وفي ختام كلمتها لم يغب عن بالها تذكير مستمعيها أنّ كبار القدّيسين والأشخاص المتميّزين تحمّلوا المعاكسة والإهانة.

ومع ذلك يبدو أنّ أيّة مضايقة من هذه المضايقات لم تكن لتُثقل على «هاريموهيني»، بل كان يبدو على الأغلب أنّها تُسرُّ وترضى بها لترتفع إلى أعلى مراتب التوبة. كانت الإماتات (التضحيات) كأعمال التقوى والتقشف التي فرضتها على نفسها تتوافق وحدها مع الألم الذي يمزّقها. يشعر المرء بأنّها تزرع الألم وتقطفه، وبقبول التجارب تحقّق مزيداً من الانتصار عليها. عندما تبيّن لها أنّ هناك صعوبات منزلية خدميّة لتوفير الماء الطاهر لطهي طعامها، امتنعت عن الطعام المطهوّ وتغذّت بالفاكهة والحليب فقط، أيّ القرابين التي كانت تقدّمها لمعبودها. قلقت «سوشاريتّا» كثيراً من هذه المسألة، لكنّ خالتها أكدّت لها من أجل تهدئتها قائلة:

- " هذا ممتاز بالنسبة إليّ يا حبيبتي، هذا النظام الجيّد يعطيني الفرح وليس الحزن".

فردّت «سوشاريتّا» قائلة:

- "يا خالتي، إذا توقفتِ عن قبول الماء أو الطعام من أيادي أشخاص من طبقة دنيا، هل تسمحين لي أن أقوم بخدمتكِ؟"

- "أنتِ يا حبيبتي، ينبغي عليكِ أن تتصرّفي كما علّموكِ أن تفعلي وليس أن تتّخذي طريقة جديدة بسببي؛ أنتِ بقربي وبين ذراعيّ، وهذه السعادة تكفيني، لقد كان «باريش بابو» بالنسبة إليكِ أباً ومرشداً روحياً، فينبغي عليكِ أن تحترمي تعليمه، والله سيباركك لهذا البرّ".

تعاطت «هاريموهيني» مع المضايقات الصغيرة التي كانت تسبّبها لها «بارودا» ببساطة كبيرة إلى حدّ ظهرت معه وكأنّها لم تلحظها أبداً، وعندما كان «باريش بابو» يأتي كل صباح ليراها ويسألها:

- "كيف تسير الأمور؟ أرجو أن يكون كلّ شيء مناسباً لكِ".

كانت تجيب قائلة:

- "أجل، شكراً، كلّ شيء يسير على ما يرام".

مع أنَّ هذه الإهانات كانت تعذِّبُ «سوشاريتّا» وترهقها، فهي لم تكن تلك الفتاة التي تعبِّر عن شكواها، وكانت حذرة على الدوام بألاّ يصدر عنها أي لوم على الأخصّ ضد «بارودا» بحضور «باريش بابو»؛ ولكن، بالرغم من أنّها تحمّلت كل ذلك بصمت دون أيّة إشارة لغيظ أو ضغينة، غير أنَّ مفعول هذه الإهانات قرَّبها أكثر فأكثر من خالتها، وشيئاً فشيئاً أخذت على عاتقها القيام بكل الخدمات الضرورية لها رغم احتجاجات الخالة المستمرّة؛ عندما رأت «هاريموهيني» العذاب الذي سبّبته لابنة أختها، قرَّرت أن تعود ثانية إلى تهيئة طعامها بنفسها، عندها قالت لها «سوشاريتّا»:

- "يا خالتي، أريد ان أكيّفَ سلوكيتي وفق ما ترغبينه مني، وفي جميع الأحوال اسمحي لي أن أنقل لكِ المياه التي تحتاجين إليها، ولا أقبل الرفض مطلقاً".

- "يا حبيبتي، لا تغتاظي أبداً أرجوكِ، فهذه المياه ينبغي أن تُقدَّم إلى معبودي".

احتجّت «سوشاريتّا» قائلة:

- " يا خالتي، هل معبودكِ هو جزء من المجتمع التقليدي وعليه الإلتزام بالطبقة؟ هل يطاله الدنس؟"

اعترفت «هاريموهيني» في النهاية أنّها هُزِمَتْ أمام تفاني «سوشاريتّا» وقبلت دون تحفّظ خدمات ابنة أختها. أمّا «ساتيش»، فهو أيضاً رغب في مشاركة خالته الطعام كي يقلِّد أخته وبذلك تمَّ التوصّل إلى نتيجة شكَّل معها هؤلاء الثلاثة عائلة صغيرة مستقلّة في زاوية من منزل «باريش بابو». كانت «لوليتّا» الرابط الوحيد بين المجموعتين، لأنَّ السيدة «بارودا» عملت ما في وسعها كي لا تقترب بناتها الأخريات من الزاوية التي تشغلها «هاريموهيني»، ولو تجرّأت «لوليتّا» لحاولت منعها أيضاً من الاقتراب.

الفصل الأربعون

في كثير من الأحيان، كانت السيدة «بارودا» تدعو صديقاتها «البراهمو» لزيارتها فيجتمعن في الشرفة أمام غرفة «هاريموهيني». وفي هذه المناسبات، كانت «هاريموهيني» ببساطة قلبها تفعل ما بوسعها للترحيب بهنّ، لكن هؤلاء السيدات من جهتهنّ كنّ يخفين ازدراءهن لها بصعوبة، وكانت الأمور تصل بهنّ إلى الإشارة إليها بالإصبع بينما تطلق «بارودا» ملاحظات جارحة حول سلوك وعادات التقليديين، وكانت بعض الزائرات يوافقن على هذه الانتقادات.

ولمّا كانت «سوشاريتّا» تمضي وقتها مع خالتها، كان عليها تحمّل هذه الانتقادات اللاذعة بصمت، كل ما كان باستطاعتها فعله هو أن تُظهِرَ بأفعالها أنَّ هذه الملاحظات تطالها أيضاً بما أنّها تبنّت تقاليد خالتها. عندما كانوا يقدّمون المرطبات، كانت «سوشاريتّا» تمتنع عن أخذها قائلة: "لا، شكراً، لا آخذ منها"، ما يجعل «بارودا» تنفجر وتردّ: "ماذا، أتريدين القول بأنّك لا تستطعين أن تأكلي معنا؟" وعندما تجيب «سوشاريتّا» بأنّها تفضّل ألاّ تفعل، كانت «بارودا» تتهكّم ساخرة وهي تقول للأخريات: "هل تعلمن أنّ صديقتنا الشابّة أصبحت هندوسية تقليدية جداً؟ ملامستنا تدنّسها". وفي إحدى المناسبات علّقت واحدة من الزائرات بقولها: "كيف! «سوشاريتّا» تحولت إلى الصراطية (التقليدية)! ماذا سنرى بعد ذلك!؟

اضطربت «هاريموهيني» وقالت لها: "لا يا «رادهاني، هذا ليس ممكناً، اذهبي وتناولي الطعام معهنّ". لقد كان وضعاً قاسياً بالنسبة إلى

«هاريموهيني» أن تتحمّل ابنة أختها كل تلك التهكّمات، لكن «سوشاريتّا» ظلّت هادئة الأعصاب.

ذات يوم قامت إحدى الفتيات الزائرات من «البراهمو» وقد أخذها الفضول وهمّت بالدخول إلى غرفة «هاريموهيني» دون أن تنزع حذاءها، عندها تدخلت «سوشاريتّا» قائلة:

- "لا تدخلي إلى هذه الغرفة، أرجوكِ".

- "لماذا؟"

- "يوجد في داخلها معبود خالتي".

- "آه! صنم! أتعبد الأصنام؟"

فقالت «هاريموهيني»:

- "أجل يا أمّي الصغيرة، طبعاً".

- "وهل تعبدين حقاً هذا الصنم؟"

- عبادة! تُقى! أنا بائسة مسكينة! لو كنتُ تقيّة حقاً لما أصبحتُ بهذا البؤس!"

في هذه الحادثة كانت «لوليتّا» موجودة وقد أصبح لونها قرمزياً (أرجوانياً) وعندها التفتت نحو الزائرة وسألتها:

- "وهل أنتِ ذاتكِ تعبدين «الذي» هو مقصد تأمّلاتكِ؟"

- "يا للسؤال الغريب! كيف يكون الأمر غير ذلك؟"

هزّت «لوليتّا» رأسها بازدراء لتقول:

- "أنتِ لستِ غير تقيّة وحسب بل تجهلين بأنّك كذلك؟"

أصبحت «سوشاريتّا» إذاً بمعزل تام عن العائلة رغم جهود «هاريموهيني» لتمنعها من القيام بأي تصرّف قد يظهر مستفزّاً لــ«بارودا» بشكل خاص.

«بارودا» و«هاران» لم يكونا على وفاق تام في الماضي، أمّا الآن فقد أصبح لديهما قاسم مشترك ضد الآخرين، وكان يروق للسيدة «بارودا» أن تُظهِرَ أنَّ الرجل الذي يحاول أن يحفظ نقاوة عقيدة «البراهمو – ساماج» هو «هاران بابو» مهما يمكن أن يُقال؛ وكان «هاران» يعلن لكل الناس أنَّ السيدة «بارودا» تقدّم المثل الساطع لما ينبغي أن تكون عليه ربّة منزل «براهمو»، فهي تجهد بضمير وإخلاص للحفاظ على سمعة «البراهمو – ساماج» من أي تلوّث كان، وفي المديح الذي كان يقوم به كان يمرِّر بوضوح تلميحاً مبطناً ضد «باريش بابو»؛ وذات يوم، وبحضور «باريش بابو» قال «هاران» لـــ«سوشاريتّا»:

- "يبدو أنّك لم تعودي تأكلين الآن سوى الأطعمة المنذورة كقربان للأوثان، أصحيح ذلك؟"

احمرّت «سوشاريتّا» لكنها حاولتْ أن تتصرّف كما لو أنَّها لم تسمع شيئاً وأخذت ترتِّب الريش والمحبرة على المكتب، بينما كان «باريش بابو» ينظر إليها بحنان وهو يجيب:

- "يا «هاران بابو»، الأطعمة التي نتناولها هي مقــدّسة على الدوام بنعمة الله".

- "لكن «سوشاريتّا» تبدو وكأنَّها مستعدّة تماماً لتترك ربّنا".

- "حتّى لو كان ذلك صحيحاً، هل إزعاجها في هذه الموضوع هو الوسيلة لإرجاعها؟"

- "عندما نرى شخصاً قد انجرف في تيار نهر ما، ألا ينبغي علينا محاولة ردّه إلى الضفّة؟

- "أن ترمي عليه حصى ليس الوسيلة الناجعة لإيصاله إلى الضفة، لكن يا «هاران بابو» لاتقلق، إنّي أعرف «سوشاريتّا» منذ أن كانت طفلة صغيرة،

فلو سقطَتْ في الماء، لكنتُ علمتُ ذلك قبل أي واحد منكم، ولم أكن لأظلّ لامبالياً حيال ذلك".

فردَّ «هاران» قائلاً:

- "«سوشاريتّا» حاضرة هنا لتجيب بنفسها، يزعمون أنّها بدأت ترفض تناول الوجبات مع الجميع، إسألها إن كان ذلك صحيحاً".

توقفت «سوشاريتّا» عن إبداء اهتمام بالمحبرة، اهتمام لا طائل منه وقالت:

- "أبي يعلم أنّي توقّفتُ عن تناول أطعمة قد لمسها كل أجناس البشر، فإن أراد أن يسمح لي بذلك فهذا يكفيني، فإن كانت سلوكيتي لا تعجب أحدكم، فهو حرّ بأن يسمّيني بكلّ الأسماء التي يريدها، لكن لِمَ إزعاج أبي بهذا الموضوع؟ ألا تعرف رأفته الهائلة بكلّ واحد منا؟ أهذا هو أسلوبكَ في مكافأته؟"

كاد «هاران» أن يختنق مذهولاً من بساطة هذا التصريح، وفكّر في قرارة نفسه وهو مندهش: "لقد تعلّمت «سوشاريتّا» أيضاً أن تتحدّث عن نفسها".

كان «باريش بابو» يحبّ السلام ولا يستحسن الجدل والمناقشة إن كانت تخصّه أو تخصّ الآخرين؛ لقد عاش في الهدوء ولا يبحثُ عن منصب مهمّ في «البراهمو – ساماج». أمّا «هاران» فقد ترجم عدم الاهتمام هذا على أنّه نقص في الحماسة للقضيّة حتّى إنّه وجّه – بهذا الصدد – لوماً لـ«باريش بابو» الذي كان قد اكتفى بالقول لشرح وجهة نظره:

- "لقد خلق الله طبقتين من الكائنات، بعضهم متحركون والآخرون سكونيون، وأنا من هؤلاء الآخرين؛ إنَّ الله يستخدم البشر أمثالي لإتمام المهمّة التي تناسبنا، لا نستفيد شيئاً إن نحن هجنا وثرنا لتحقيق مهمّة لسنا جديرين بها، لقد أصبحتُ عجوزاً، وقد ثبتت قدراتي وعجزي منذ زمن بعيد، لذلك لن تحصل على شيء صالح إن أردتَ أن تسوقني بخشونة".

كان «هاران» يفتخر بأنّه قادر على بعث الحياة والحماس حتى في القلوب الباردة، وكان يظنّ بأنّه يمتلك قوة لا تقاوَم ليدفع بالبليدين إلى العمل وبالمذنبين إلى التوبة، لقد كان متيقناً أنْ لا شيء يمكنه أن يقاوِم قدرته على التركيز؛ وخلُصَ إلى نتيجة مفادها أنَّ كلَّ النتائج الإيجابية التي تمَّ الحصول عليها بين أعضاء «البراهمو – ساماج» كانت عموماً بفضله هو، ولا يشكّ أبداً في أنَّ تأثيره هو الذي كان يتجلّى باستمرار بين الكواليس. إنْ مدح أحدهم «سوشاريتّا» بحضوره كان يشعّ رضاً عن نفسه، فهو يتباهى بمثاله ومجتمعه اللذين شكّلا وكيّفا شخصية «سوشاريتّا»، وكان يأملُ مزهواً بأن تكون حياة «سوشاريتّا» نفسها إحدى الإنجازات المجيدة التي توضع في حسابه، وحتى الآن لم يهتزّ غروره من هذا الوقوع المؤسف في الخطأ من جديد، لأنّه كان يُسقِط اللوم كلّه على أكتاف «باريش بابو».

لم يكن «هاران» لينضمّ أبداً من أعماق روحه إلى المجموعة التي كانت تتغنّى بتمجيد «باريش بابو»، والآن تراه يتبجّح متيقّناً بأنَّ الجميع سيفهمون عاجلاً أم آجلاً كيف أنَّ صمته الذكي كان صائباً أكثر من مديحهم. كان «هاران» يستطيع أن يتسامح كثيراً مع الذين يودّ أن يقودهم نحو الخير لكنه لا يريد أن يراهم يسلكون مساراً مستقلاً تمليه عليهم محاكمتهم الشخصية، كان – على وجه التقريب – عاجزاً عن ترك ضحاياه يفلتون منه دون السعي إلى الاحتفاظ بهم، وكلّما بدا أنَّ هناك تناقصاً في فعاليّة تأثيره زاد إصراره، وكالآلة المعبّأة والتي لم تصل إلى نهاية الشوط، لم يكن يستطيع التوقف بل يستمرّ باجترار النغمة نفسها للآذان الجامحة دون أن يُدرِكَ هزيمته. كان هذا الجانب في طباعه يزعج «سوشاريتّا» كثيراً وبشكل دائم، ليس من أجلها بل من أجل «باريش بابو»، لقد غدا «باريش بابو» موضوع جدل في كل «البراهمو – ساماج»، ومن ذا الذي كان سيمنعه؟

من جهة أخرى ومع مرور الوقت، بدأت «هاريموهيني» تعي أنّها كلّما رغبت في البقاء في الظلّ أثارت نزاعات في المحيط العائلي، فالإهانات التي كانت تتعرّض لها كلّ يوم كانت تفاقم من حزن «سوشاريتّا» التي لم تكن تجد مخرجاً لهذه الصعوبات.

وفوق هذا كلّه، بدأت السيدة «بارودا» تلحّ على «باريش بابو» ليسرّع في زواج «سوشاريتّا» قائلة له بإصرار: "لا يمكننا أن نظلّ مسؤولين عن «سوشاريتّا» أكثر من ذلك خصوصاً أنّها لا تتبع الآن سوى هواها، وإذا تأخّر زواجها أكثر من ذلك فسيترتّب عليّ أن أنقل بناتي الأخريات إلى مكانٍ آخر لأن المثال الذي تقدّمه لهنّ هو مثال مفسد، سوف تندم على تساهلكَ معها إني أحذّرك من ذلك، انظر إلى «لوليتّا» فهي لم تكن سابقاً عنيدة إلى هذا الحدّ أبداً، من تظن أنّه السبب في سلوكيتها غير المحتملة عندما لا تسمع أحداً وتزعج الجميع؟ حادثة ذاك اليوم كادت تميتني خجلاً؛ ألا تعتقد أنّ «سوشاريتّا» لم تكن وراءها؟ أنا لم أتذمّر حتى اليوم لأنّك تحبّ «سوشاريتّا» أكثر من بناتك اللاتي من صلبك لكني مصرّة الآن على أن أقول لك بصراحة إنّ هذا الوضع لا يمكن له أن يستمرّ بهذا الشكل".

اضطرب «باريش بابو» بعمق ليس من تصرّف «سوشاريتّا» بل من البلبلة التي ألمّت بالحياة العائلية. لم يكن ليشكّ أبداً بأنّ السيدة «بارودا» عندما تتخذ قراراً ما، تحرّك السماء والأرض لتصل إلى غايتها، وإذا باءت جهودها بالفشل كانت تضاعفها. شعر أنّ زواج «سوشاريتّا»، إذا كان ممكناً في هذه الظروف فسيساهم بتوفير سلام النفس لابنته الحبيبة، فجاوب «بارودا» قائلاً: " إن حصل «هاران بابو» على جواب من «سوشاريتّا» في تعيين موعد الزواج، فلن أمانع في ذلك"؛ عندها صرخت السيدة «بارودا» قائلة:

- "كم من مرّة طلبنا موافقتها؟ أودُّ أن أعرف، إنّك تذهلني، لماذا ننتظر مزاجها؟ هل باستطاعتكَ أن تقول لي أين يمكنها أن تجد عريساً مثله؟ سواء

غضبتَ أم لم تغضب، كما يحلو لكَ، لكن الحقّ يقال، «سوشاريتّا» ليست جديرة بــ«هاران بابو»".

فقال «باريش بابو»:

- "لم أتوصل بعد إلى تمييز مشاعر «سوشاريتّا» تجاه «هاران بابو» بوضوح، وإذا لم يحسما الأمر فيما بينهما، فأنا لا أريد التدخّل".

فصاحت «بارودا» متعجّبة:

- "آه! إنّك لم تتوصّل! لقد اعترفت بذلك أخيراً! إنَّه ليس من السهل معرفة ما تفكِّر فيه، أؤكِّد لك ذلك، وخذ هذه المعلومة مني، فهي في الباطن مختلفة جداً عمّا تحاول أن تبدو عليه في ظاهرها".

الفصل الحادي والأربعون

ظهر مقال في الصحيفة حول ضعف الحماس في قلب «البراهمو – ساماج»، ولمّا كان هذا المقال يحتوي على معلومات دقيقة جداً عن عائلة «باريش بابو» فالقارئ يُدركُ بسهولة من هو المقصود دون ذكر أيّ اسم من أفراد العائلة، كما أنّ أسلوب الكتابة يسمح أيضاً للقارىء أن يحزر اسم الكاتب. مع ذلك تمكنت «سوشاريتّا» من قراءة المقال إلى نهايته وأخذت تمزّق الورق وتحوّله إلى فتات، ويبدو أنْ لا شيء قد يعيدها إلى هدوئها حتى تعيد الصحيفة إلى ذرّاتها البدائية.

في هذه الأثناء دخل «هاران» الغرفة وسحب كرسياً وجلس بقربها. لكن «سوشاريتّا» لم ترفع حتّى ناظريها نحوه لشدّة انشغالها بالمهمّة التي تنفّذها، فقال «هاران»:

- "يا «سوشاريتّا»، إنني بحاجة للتحدّث إليكِ في موضوع مهمّ جداً، وينبغي عليكِ أن تعيريني اهتمامك".

تابعت «سوشاريتّا» تمزيق الصحيفة وعندما أصبح من غير الممكن تمزيقها بالأصابع أخذت مقصاً وصارت تقصّ الأجزاء إلى جزيئات أصغر فأصغر. وقبل أن تنتهي ظهرت «لوليتّا»، فقال «هاران»:

- "يا «لوليتّا»، عليّ أن أتحدّث مع «سوشاريتّا» في موضوعٍ خاص".

وعندما همّت «لوليتّا» بالخروج أمسكت بها «سوشاريتّا» من ثيابها، لكن «لوليتّا» احتجّت قائلة:

- "«هاران بابو» يريد أن يكلّمك وحدكِ".

غير أنّ «سوشاريتّا» لم تعر إنتباهاً لهذه الملاحظة وأجبرت «لوليتّا» على الجلوس بجانبها قسراً، أمّا «هاران» العاجز عن فهم أي شيء بالتلميح فقد دخل في موضوعه دون تكلّف قائلاً:

- "لا أعتقد أنّه من المستحسن تأجيل زواجنا أكثر من ذلك، لقد تحدثتُ مع «باريش بابو» بهذا الشأن وقبِلَ تحديد الموعد بموافقتكِ. لذلك قرّرتُ أنّه يوم الأحد في ثمانية ..."

لم تدع له «سوشاريتّا» المجال ليكمل جملته، وقالت له بكلّ بساطة: "كلاّ". تحيّر «هاران» وذُهل من هذا النفي الوجيز والمحدّد، لقد كان على الدوام يرى في «سوشاريتّا» نموذجاً للطاعة، ولم يتخيّل أبداً أن يكون باستطاعتها يوماً أن ترفض إقتراحه دون أن تترك له الوقت للتعبير عنه، فكرّرَ ما قالته بغضب:

- "كلاّ؟ ما معنى هذه الـ«كلاّ» التي قلتِها؟ هل تريدين تأجيل الموعد؟"

فكرَّرت «سوشاريتّا» بكلّ بساطة: "كلاّ". فاضطرب «هاران» وقال متلعثماً:

- "ماذا تعني هذه الـ«كلاّ»؟

فردّت «سوشاريتّا» وقد حنت رأسها:

- "لا أوافق على الزواج".

فردّد «هاران» كالأبله:

- "لستِ موافقة!"

فتدخّلت «لوليتّا» متهكّمة:

- "يبدو يا «هاران بابو» أنّك لم تعد تفهم لغتك الأمّ".

نظر «هاران» إلى «لوليتّا» نظرة حادّة وقال:

- "إنَّه من السهل الاعتراف بأنّي لم أعد أفهم لغتي الأمّ، لكن ما هو أقل سهولة أن أقبل بأنني قد فهمتُ فهماً خاطئاً الأقوال التي ردّدها باستمرار ولمرّات عديدة مَن لا أبدي له سوى الاحترام".

فقالت «لوليتّا»:

- "يلزمنا مدّة من الزمن لفهم الناس تماماً، وهذا ينطبق عليكَ أيضاً".

فأجاب «هاران»:

- "من البداية إلى النهاية لم يحصل أيّ تناقض بين أقوالي وأفعالي، وأستطيع أن أُعلِنَ إيجابياً بأنّني من جهتي لم أبدِ ما يدفعُ للتردّد، فلتقل «سوشاريتّا» بنفسها إن كان ما أؤكّده صحيحاً أم لا".

كانت «لوليتّا» على وشك الردّ عندما أوقفتها «سوشاريتّا» قائلة:

- "ما تقوله يا «هاران بابو» صحيح، فأنا لم ألقِ اللّوم عليك في أيّة مرّة".

فصاح «هاران» متعجّباً:

- "فإذا كنتِ لا تلومينني لماذا تعاملينني بهذه الطريقة المخزية؟"

فأجابت «سوشاريتّا» بحزم:

- "لك الحقّ أن تجدها مخزية، لكن ينبغي عليّ أن أقبل هذا الخزي، لأنّه من المستحيل عليّ...".

سُمِعَ صوتٌ من ناحية الباب: «ديدي»، هل يمكن لي أن أدخلَ؟".

فنادت «سوشاريتّا» وقد بدا على وجهها ارتياح كبير:

- "هذا أنتَ يا «بينوى بابو» أليس كذلك؟ اُدخل إذاً".

فقال «بينوى» وهو يدخل:

- "لقد أخطأتِ يا «ديدي» هذا ليس «بينوى بابو»، هذا «بينوى» فقط، لا تغمريني بكثير من التبجيل والتفخيم".

وعندما شاهد «هاران» ورأى تعبير وجهه، أضاف على سبيل المزاح:

- "آه! أرى أنّكم غضبتم منّي لأنّ عدّة أيام انقضت دون أن آتي إليكم".

بذل «هاران» مجهوداً ليدخل في اللعبة فبدأ يقول:

- "في الواقع، إنّه سبب قوي كي نغضب".

ثم أنهى كلامه بسرعة قائلاً:

- "غير أنّي أخشى أن تكون قد أتيتَ في وقتٍ غير مناسب، فقد كنتُ أناقشُ مع «سوشاريتّا» موضوعاً مهمّاً".

فقال «بينوى» وهو ينهض بسرعة:

- "يا له من حظ، حظي أنا، لا نعرف متى هو الوقت المناسب لنأتي فيه، لذلك نكاد نخاطر بأنفسنا".

ولمّا همَّ بمغادرة الغرفة تدخلت «سوشاريتّا» قائلة:

- "لا تذهب «بينوى بابو» لقد أنهينا حديثنا، اجلس".

أدرك «بينوى» أنَّ قدومه قد أنقذ «سوشاريتّا» من موقف حرج، وبسرور أخذ مقعداً وقال:

- "أنا لا أرفضُ أبداً عرضاً لطيفاً فإذا عُرِضَ عليّ كرسي أقبله على الفور، هذا هو طبعي، لذلك انتبهي يا «ديدي» إياكِ أن تقولي لي شيئاً لا تفكّرين فيه فقد تندمين عليه".

أُجبِر «هاران» على الصمت، لكن مظهره الذي غدا حاسماً أكثر فأكثر أوحى للجميع بأنّه ليس الرجل الذي سيغادر الغرفة دون أن يكون قد عبَّر عن كل ما في قلبه.

ما إن سمعت «لوليتّا» صوت «بينوى» من خلف الباب، حتّى تدفّق الدم عبر أوردتها بالرغم من أنّها بذلت جهوداً لتبدو طبيعية، ولكن دون جدوى، وعندما دخل «بينوى» لم تكن قادرة على التكلّم معه كالتحدّث إلى صديق في

الحالة العادية، فركّزت كل انتباهها لتقرّرَ أيّ موقف تتّخذ وكيف تحرّك يديها، كادت أن تخرج لكن «سوشاريتّا» ظلّت ممسكة بطرف ساريها. أمّا «بينوى» من جهته، فقد وجّه حديثه لـ«سوشاريتّا»، ولم يتجرّأ رغم سرعة خاطره أن يتوجّه مباشرة إلى «لوليتّا»، لقد كان يحاول إخفاء حرجه خلف ذلاقة لسان مصطنعة.

بيد أنّ هذا الخجل الجديد بين «لوليتّا» و«بينوى» لم يخفَ على «هاران»، الذي غضب لرؤية «لوليتّا» متواضعة بهذا القدر أمام «بينوى» وهي التي اتخذت حياله استقلالية مستفزّة، فازداد غضبه ضدّ «باريش بابو» أمام واقع الشرور التي أدخلها إلى عائلته بتساهله في العلاقات التي تقيمها بناته مع أشخاص من خارج «البراهمو – ساماج»، وتسلّطت على مشاعره فكرة تعادل قوّة المصيبة بأنّ «باريش بابو» ينبغي عليه أن يكفّرَ عن الجنون الذي ارتكبه.

عندما أصبح جلياً بأن «هاران» ليس في نيته الذهاب، قالت «سوشاريتّا» لـ «بينوى»:

- "إنّك لم ترَ خالتي منذ زمن طويل، وهي تسألني عن أخبارك في كثير من الأحيان، ألا تريد أن تصعد لتراها؟"

فقال «بينوى» وهو ينهض ليتبعها:

- "صدقاً إنّي أذكر خالتك، وكنتُ أفكّر بها قبل أن تدعيني لرؤيتها".

خرجت «سوشاريتّا» مع «بينوى»، ونهضت «لوليتّا» بدورها وقالت:

- "لا أعتقد يا «هاران بابو» أنّ لديك شيئاً خاصاً تقوله لي".

فأجاب «هاران»:

- "كلاّ، وبما أنّي أفترض بأنّ لديكِ ما تفعلينه في مكان آخر، لذلك لن أستبقيكِ هنا".

فهمت «لوليتّا» الإشارة وانتصبت لتظهر بأنّها لا تخشى هذا التلميح، وقالت:

- "لقد مرَّ زمن طويل لم يأتِ فيه «بينوى بابو» إلى هنا لذلك عليَّ أن أذهب لأثرثر معه قليلاً، تستطيع خلال هذا الوقت أن تقرأ نثرك الخاص إن رغبتَ... لكني نسيت، قبل قليل فقط مزّقت أختي الصحيفة وحولّتها إلى فتات، وإذا كنتَ تتحمّل نثر غيرك فبإمكانك أن تتصفّح هذه المقالات".

أخذت من على الطاولة الموضوعة في زاوية من زوايا الغرفة بضع مقالات لـ«غورا» كانت مرتّبة بعناية، ووضعتها أمام «هاران»، ثم صعدت الدرج.

ابتهجت «هاريموهيني» من زيارة «بينوى» ليس فقط لأنّها تودّه بل لأنَّه يختلف كثيراً عن الزائرين الآخرين الذين لم يخفوا اعتبارهم لها حالةً غريبة أو نادرة، لقد كانوا من كلّ سكان «كالكتّا» ومن ذوي الثقافة الإنكليزية والثقافة البنغالية الأعلى من ثقافتها، إذ أدّت بها عجرفتهم إلى الانطواء على نفسها شيئاً فشيئاً. أمّا مع «بينوى» فقد شعرت «هاريموهيني» بأنّه دعمٌ لها، هو أيضاً كان من «كالكتّا» وعلمت أنَّ ثقافته لا يستهان بها ومع ذلك لم يبدِ تجاهها أدنى قدر من الازدراء، بل على العكس من ذلك كان يبدي حبّاً واحتراماً كبيرين، كذلك استطاع «بينوى» خلال بضعة أيام أن يجد لنفسه مكاناً في قلب المرأة العجوز كما لو أنّه أحد أقاربها المقرّبين.

أمّا بالنسبة إلى «لوليتّا»، فلولا الكلام المبطّن الساخر الذي وجّهه «هاران» إلى كبريائها لما استطاعت أن تتبع «بينوى» بهذه السرعة إلى غرفة «هاريموهيني». فهذا التهكّم لم يجبرها فقط على الصعود بل دفعها أيضاً إلى التوجّه لـ«بينوى» بالكلام بحريّة كبيرة؛ في الواقع، وصلت قهقهات ضحكهم إلى الطابق السفلي فأزعجت أعصاب «هاران» الذي تُرِكَ لوحدته، وسرعان ما ضجر من رفقته لنفسه وفكّر بأنَّ محادثة مع السيدة «بارودا» قد تلطّف حروق الجراح التي تلقاها، وعندما وجدها أعلمها برفض «سوشاريتّا» فأبدت «بارودا» استنكاراً يتجاوز الحدود وقالت له وهي تنصحه وتحضّه في الوقت نفسه:

- "يا «هاران بابو»، ليس لك الحق بأن تدع الأمور تجري وفق رغبتها، لقد أعطت موافقتها، وقد صرّحت عنها لمرّات عديدة و«البراهمو – ساماج» بكامله يعتبر الزواج مقرّراً منذ زمن بعيد، فأنتَ لن تقبل أن يفشل المشروع لأنّها بكل بساطة تقول اليوم "كلاّ"، لا تتراجع بهذه السهولة، كن حازماً وسنرى ما بإمكانها فعله".

أن تُحرّضَ «بارودا» «هاران» على الصرامة والثبات أمرٌ زائدٌ عن حدّه في الحقيقة ولا طائل تحته، فهو لم يتوقّف عن التكرار بإصرار: " القضيّة قضيّة مبدأ لذلك ينبغي عليّ أن أصمد، ربما لا يهمني مطلقاً أن أتخلّى عن «سوشاريتّا»، لكن كرامة «البراهمو – ساماج» هي التي على المحك".

أمّا «بينوى»، فلكي يخلق نوعاً من الألفة الحقيقية في علاقاته مع «هاريموهيني»، ترجّاها أن تقدّم له طعاماً خفيفاً، فتأثّرت العجوز من هذا الرجاء، وانهمكت في وضع الفاكهة والسكاكر والحبوب المشويّة في طبق نحاسي ووضعته أمام «بينوى» مع كوب من الحليب، عندها ضحك «بينوى» وقـال:

- "ظننتُ أنّي أحرجتُ خالتنا عندما قلتُ لها إني جائع في مثل هذه الساعة غير المناسبة، لكني أرى بأنّني قد أخطأت".

ولما بدأ يتناول الحلويات[1] مبدياً شهية كبيرة ظهرت السيّدة «بارودا» بشكل مفاجئ؛ وعند دخولها انحنى «بينوى» بأكبر قدر ممكن إلى الأسفل ومن فوق طبقه قال:

- "لم أرك في الطابق السفلي، وأنا هنا منذ مدة طويلة".

---

(١) الحلويات: في كل زيارة حميمة، تقدّم النساء الهندوسيات حلويات أكثرها انتشاراً "السانديش"، وحبوب الخشخاش، واليانسون أو القرفة، والفطائر بيضاء وبخارية مثل الغيوم، لكنها تحمل النار واللهب لأنّها مليئة بخليط من التوابل طيبة المذاق واللاهبة (الكاوية).

لكن «بارودا» لم يبدُ عليها أنَّها لاحظت تحيته أو سمعت أعذاره إنما أخذت تصرخ وهي تنظر إلى «سوشاريتّا» قائلة:

- "آه! الشخصية الشابّة هنا، لقد حزرتُ ذلك، إنَّها تتسلّى بينما المسكين «هاران بابو» يمضي صبحيته في انتظارها كطالب متوسّل، لقد ربيّت كل هؤلاء البنات منذ الطفولة لكنّي لم أرَ في حياتي شيئاً مماثلاً، من يدفعها إذاً للتصرّف على هذا النحو؟ لا أعرف، تخيّلوا أنَّ هناك من يتصرّف بهذه الطريقة في عائلتنا! كيف سنتجرّأ ونظهر بعد ذلك أمام «البراهمو – ساماج؟"

تأثّرت «هاريموهيني» كثيراً من هذه الفورة وهذا التوبيخ وقالت لـ«سوشاريتّا»:

- "أنا لم أكن أعلم أنَّ أحداً ينتظركِ في الطابق السفلي، كم يزعجني أن أُبقيكِ هنا، اذهبي يا حبيبتي اذهبي بسرعة، كان ينبغي عليّ أن أتوقّع ذلك".

بدأت «لوليتّا» بالاحتجاج لتقول: إنَّ الخطأ ليس خطأ «هاريموهيني». لكن «سوشاريتّا» ضغطت على يدها بشدة لتسكتها، ودون أيّة كلمة نزلت إلى الأسفل من جديد.

روينا كيف أنَّ "بينوى» منذ البدايات قد كسب رضا «بارودا»، لقد كانت مقتنعة بأنَّ تأثير عائلتهم سيؤدّي به سريعاً ليصبح عضواً في «البراهمو – ساماج» وكانت تشعر بالفخر أنَّها تلعب دوراً حاسماً في حياة هذا الشاب؛ في الواقع كانت قد تبجّحت في مناسبات عديدة أمام أصدقاء من «البراهمو – ساماج» بهذا العمل الباهر، لكنها في الوقت نفسه غضبت لرؤية «بينوى» قد استقرَّ في جهة الأعداء ومع ابنتها التي من صلبها «لوليتّا» كمتواطئة ضالعة في التمرّد، فسألتها بنبرة حازمة:

- "«لوليتّا»، هل لديك شيء مهمّ تفعلينه هنا؟

- "أجل، لقد صعد «بينوى بابو»، لذلك..."

- "اُتركي «بينوى بابو» يتمّ زيارته عند الذين أتى خصيصاً ليراهم، أمّا أنتِ فانزلي إلى الطابق السفلي".

فكّرت «لوليتّا» بحدسها المباشر أنّ «هاران» قد قرن اسمها باسم «بينوى» وهذا الفعل ليس من حقّه، فتصلّب موقفها وما بدأت به بتردّد أكملته بمغالاة غير مفيدة:

- "لقد أتى إلينا «بينوى بابو» بعد غياب طويل، أريد أولاً أن أثرثر معه بعض الوقت وبعدها سأنزل".

أدركت «بارودا» من نبرة «لوليتّا» أنّها ترفض أن يحرجها أحد أو يجعلها تخجل، وبما أنّها لا تريد أن تظهر هزيمتها أمام «هاريموهيني»، فقد غادرت الغرفة دون أن تنظر إلى «بينوى»؛ بعد ذهاب «بارودا»، لم يبــقَ من رغبة «لوليتّا» في الثرثرة مع «بينوى» شيء؛ ظلّ الثلاثة جالسين في صمت محرج لفترة من الزمن، ثم نهضت «لوليتّا» وذهبت إلى غرفتها وأقفلت على نفسها.

فهم «بينوى» بوضوح تام وضع «هاريموهيني» في هذا البيت، فوجّه الحديث بالاتجاه المطلوب، وروت له «هاريموهيني» قصة حياتها كلّها. وبعد أن أنهت الرواية أضافت قائلة:

- "يا بني، العالم لا يناسب امرأة منكودة الحظّ مثلي، كان من الأفضل لي أن أنسحب إلى مكان مقدّس وأن أجبر نفسي على خدمة الله، ما زال معي قليل من المال كان باستطاعتي أن أعيش به لبعض الوقت، وحتى إذا عشت أكثر سأتدبّر أمري للاستمرار عن طريق العمل كطاهية عند إحدى العائلات، يوجد في «بيناريس» عدد من الأشخاص يعيشون بهذه الطريقة، إلاّ أنّ روحي مليئة بالخطايا لذلك لم أفكّر بالتنفيذ، يبدو أنّ آلامي تضغط عليّ ما إن أصبح وحيدة، وتمنعني حتّى من أن أفكّر بالله، وأخاف أحياناً أن أصبح مجنونة. «رادهاني» و«ساتيش» هما بالنسبة إليّ كخشبة خلاص بالنسبة إلى إنسان

يغرق، أشعر بالاختناق بمجرّد التفكير بأنّي سأغادرهما، كما أنّ خوفاً شديداً يلازمني ليل نهار إن أنا أُجبرت على التخلّي عنهما، كيف وأنا التي فقدت الجميع في هذا العالم وتعلّقتُ بهما بهذه القوّة وفي هذا الوقت القصير؟ أنا لا أخجل عندما أفتح لك قلبي يا بني، أعترف لك أنّي منذ أن وجدتُ هذين الطفلين أصبح بإمكاني أن أعبد الله بكل روحي من جديد، لكن إن كان قدري أن أفقدهما، فلن يكون ربّي بالنسبة إليّ إلاّ حجراً ثقيلاً". وأخذت تمسح الدموع التي كانت تسيل من عينيها وهي تتحدّث.

الفصل الثاني والأربعون

نزلت «سوشاريتّا» إلى الطابق السفلي ووقفت أمام «هاران» وسألته:

- "ماذا تريد أن تقول لي؟"

فقال لها:

- "اجلسي".

لكن «سوشاريتّا» ظلّت واقفة، فتابع «هاران» حديثه قائلاً:

- "لقد وجّهت لي إهانة يا «سوشاريتّا».

- وأنتَ أيضاً وجّهت لي إهانة".

- "الكلمة التي ربطتكِ بها تبقى سارية المفعول..."

أراد «هاران» أن يتابع حديثه لكن «سوشاريتّا» قاطعته قائلة:

- "هل نُهين بعضنا بعضاً بالكلمات فقط؟ تنوي إجباري على التصرّف ضد رغبتي بسبب كلمة؟ أليس للحقيقة قيمة أكبر من الجمل المنمّقة؟ ولأني كرّرت غلطي لمرّات عديدة فهل ينبغي أن يصبح هذا الغلط واقعاً؟ الآن وقد فهمتُ الغلط الذي ارتكبته، لا يمكنني أن أبقى على موافقتي الماضية، هنا سيصبح الغلط حقيقياً".

كان «هاران» عاجزاً عن إدراك كيف استطاعت «سوشاريتّا» أن تتغيّر إلى هذا الحدّ، كان ينقصه الحدس والتواضع الضروريان كي يدرك أنَّ إصراره دون تبصّر ولا رويّة قد أجبر الفتاة على الخروج عن رصانتها وعن هدوئها الطبيعي، كما أنّه ألقى اللوم على الأصدقاء الجدد الذين وجدتهم، وسألها:

- "أيّ غلط تزعمين أنّك اكتشفته؟"

- "لماذا تسأل عنه؟ ألا يكفي التكرار بأنّي أسحب موافقتي؟"

لكن «هاران» أصرَّ قائلاً:

- "مع ذلك ينبغي أن نقدّمَ تفسيراً للــ«براهمو – ساماج»، ماذا ستقولين وماذا سأقول لأعضاء «البراهمو»؟"

- "بالنسبة إليّ، سأصمت، فإذا كان عليكَ أن تقدّم تفسيراً، فقل لهم إنَّ «سوشاريتّا» لا تزال صغيرة جداً، أو مجنونة جداً، أو متقلّبة جداً، أو كما يحلو لكَ أن تقول، لكن فيما بيننا لم يعد هناك من تفسير أقدّمه".

فصرخ «هاران» قائلاً:

- "لا يمكن للأمور أن تنتهي بهذا الشكل، إذا «باريش بابو»...!"

في هذه الأثناء دخل «باريش بابو» وقال:

- "حسن، هل ترغب في التحدّث إليّ يا «هاران بابو»؟"

همّت «سوشاريتّا» بالخروج لكن «هاران» ناداها وقال لها:

- "كلاّ يا «سوشاريتّا» ينبغي أن تبقي هنا، سنتناقش بحضور «باريش بابو»".

عادت «سوشاريتّا» وظلّت جامدة دون حركة بينما تابع «هاران» كلامه:

- "يا «باريش بابو»، بعد فترة طويلة تزعم «سوشاريتّا» رفض موافقتها على زواجنا؛ أن تعالج ابنتكَ موضوعاً بهذه الأهميّة بخفّة كبيرة، هل هو أمر مقبول؟ ألستَ مسؤولاً جزئياً عن هذه القصة البشعة؟"

لامس «باريش بابو» شعر «سوشاريتّا» وقال بهدوء:

- "لستِ مضطرة للبقاء هنا يا حبيبتي، بإمكانك الذهاب".

بهذه الكلمات البسيطة التي تُعرب عن تفهّم عميق وعن ودٍّ كبير، اغرورقت عينا «سوشاريتّا» بالدموع وهربت. فتابع «باريش بابو» يقول:

- "لأنني كنتُ أخشى أن تكون «سوشاريتّا» قد أعطت موافقتها دون أن تعرف حقيقة ما في أعماق نفسها وأحلامها، لذلك تردّدتُ بالنزول عند إلحاحك في إعلان خطوبة رسمية".

- "ألا تعتقد أنها كانت تعلم جيداً ما في أعماق نفسها عندما أعطتني موافقتها وأنَّ رفضها ناجم عن أنها لم تفهم نفسها تماماً؟"

- "الفرضيتان ممكنتان، لكن أمام تشككٍ بهذه الخطورة يكون الحل الأكثر حكمة هو التراجع عن الزواج".

- "ألا تعطي نصيحة لــ«سوشاريتّا» من أجل مصلحتها الشخصية؟"

- "ينبغي عليكَ يا بنيّ أن تعلم بأنني أستطيع تقديم النصيحة لها لمصلحتها الشخصية فقط".

فانفجر «هاران» قائلاً:

- "لو كان الموضوع على هذا الشكل لما وصلتْ "سوشاريتّا» إلى هذا الطريق المسدود، كلّ ما يحدث الآن ضمن عائلتكَ سببه أخطاؤكَ، أقولها لك في وجهكَ، بسبب نقص المحاكمة الذي برهنت عليه".

ابتسمَ «باريش بابو» ابتسامة خفيفة ليجيبه:

- "هنا أنتَ على حق تماماً؛ فإذا أنا لم أتحمّل مسؤولية ما يحدث في عائلتي، من هو إذاً الذي سيتحملها؟"

خلص «هاران» إلى القول:

- "حسن، أستطيع أن أؤكّد لك بأنه سيأتي يوم تندم فيه على ذلك".

- "الندم هبة من النعمة الإلهية، أخشى أن أتصرّف بشكل خاطئ ولا أخشى الندم".

في أثناء ذلك، دخلت «سوشاريتّا» وأمسكت «باريش بابو» من يده وقالت له:

- "حان وقت عبادة المساء يا أبي".

فقال «باريش بابو»:

- "هل تسمح بالانتظار لفترة يا «هاران بابو»؟"

لكن في نهاية الأمر، ومع "لا" عنيفة، غادر «هاران».

الفصل الثالث والأربعون

ذُهلت «سوشاريتّا» من فكرة الصراع الذي تورّطت فيه سواء كان ضدّها أم ضدّ محيطها، ودون أن تدري لم تتوقّف مشاعرها نحو «غورا» عن الرسوخ، وعندما ظهرت لها بوضوح شديد وبقوّة مهيمنة لا يمكنها مقاومتها، لم تستطع أن تتخيّل أيّ مخرج، كما لم تُتح لها الفرصة أبداً لتجلس وحدها بحيث يتسنّى لنفسها إيجاد تسوية لحلّ الصراع الذي كان يثيرها.

في الواقع لقد تدبّر «هاران» أمره لتأليب أعضاء «البراهمو – ساماج» الغاضبين الذين كانوا يحيطون بالقصّة بغوغائهم، وقد أصبح من المتوقّع بأنّه يتهيأ لقرع ناقوس الخطر في الصحف، وفوق هذا كلّه كان على «سوشاريتا» أن تحلّ مسألة خالتها التي وصلت حدّتها إلى الذروة وأمست تتطلّب حلاً سريعاً جداً وإلاّ ستؤدي إلى كارثة لا مفرّ منها.

أدركت «سوشاريتّا» تماماً أنّ مجرى حياتها قد وصل إلى حدّ الأزمة، لقد شعرت أنّ الأيام الماضية التي كانت تتّبع فيها الصراط المعتاد بكل هدوء وطمأنينة وتفكّر وفق الطرق الممهدة، قد ولّت إلى غير رجعة.

سندها الوحيد والفريد في هذه الفترة العصيبة كان «باريش بابو»، ليس لأنّها تلتمس منه رأياً أو نصيحة، بل لأنّ الكثير من أفكارها تجاه أبيها بالتبنّي كانت توحي لها بالشكوك وبنوع من الخجل يمنعها من التعبير عنها أمامه. لكن مجرّد حضور «باريش بابو» ورفقته، وبدون أن يتكلّم، كان بالنسبة إليها ملاذاً تجد فيه سند الأب الحامي وإخلاص الأمّ الحنون.

في هذه الأمسيات الخريفية كان من عادة «باريش بابو» ألاّ ينزل إلى الحديقة في أوقات عبادته بل يجلس ليصلّي في غرفة صغيرة مطلّة على واجهة البيت. من النافذة المفتوحة، كانت آخر إشعاعات الشمس تلمع على شعره الأبيض ووجهه الصافي، وفي هذه الأوقات كانت «سوشاريتا» تأتي دون جلبة لتَجلس إلى جانبه وهو يمارس تأمّلاته فتشعر بأنّ قلبها القلق والمعذّب يجد السلام في الصمت المليء بالروحانية، وعندما كان يفتح عينيه يرى تلك الفتاة العزيزة جداً على قلبه جاثمة بجانبه، تلميذة صامتة دون حراك، فيشعر بالرقّة واللطافة فائقة الوصف التي تستغرقها فيباركها من أعماق قلبه، لكن دون كلمات.

الاتحاد الدائم مع «الكائن الأعلى» الذي تتجه نحوه كل حياة «باريش بابو» كان يقود تفكيره على الدوام باتجاه الخير والحقيقة؛ لم تكن الأمور الماديّة تهمّه أبداً، حريّة المحاكمة التي وصل إليها كانت تمنعه دوماً من البحث عن معاداة الآخر في السلوك أو في الإيمان، لقد كانت عنده ثقة طبيعية بطيبة الإنسان وكان يملك صبراً عظيماً تجاه أخطائه ما جلب على نفسه انتقاد المتحمّسين، لكن هذه الانتقادات لم تكن لتؤثّر على اعتدال طباعه وإن كانت تجرحه أحياناً.

كانت «سوشاريتّا» تبذل قصارى جهدها لتأتي إلى «باريش بابو» تحت أيّة ذريعة كي تتلقّى انعكاساً من هذا الصفاء الحميمي. وعندما كان الصراع يحتدّ، ذلك الصراع الذي يثير قلبها والذي يمتدّ من حولها مؤدّياً إلى إنهاك هذه الفتاة الشابّة القلقة، كانت تشعر بحاجتها إلى إسناد رأسها على أقدام أبيها كي تستردّ الصفاء الذي يلزمها. في البداية كانت هذه الصبية تأملُ أن تجد الطاقة للانتظار بصبر لعلّ القوى التي تتنازع في داخلها ستنتهي وتنهزم؛ لكن هذا الأمل قد كُتِبَ له ألا يتحقّق وقد أُجبِرَت على المغامرة في دروب مجهولـــة.

عندما أدركت السيّدة «بارودا» بأنَّ الملامات لن تنجح في تغيير المسار الذي التزمت «سوشاريتّا» به، وأنَّه لا توجد أيّة فرصة للحصول على دعم من «باريش بابو»، انصبَّ جام غضبها على «هاريموهيني»؛ فمجرّد التفكير بأنَّ هذه المرأة تسكن في بيتها كان يخرجها عن طورها.

بمناسبة الذكرى السنوية لموت أبيها، دعت «بارودا» «بينوى»، وكان على العائلة والأصدقاء أن يجتمعوا في المساء ليحضروا الاحتفال الديني، وعملت «بارودا» بنشاط وسرعة على زخرفة الصالة من أجل هذه المناسبة بمساعدة «سوشاريتّا» وبناتها.

وبينما كانت منهمكة في هذا العمل لمحت «بينوى» يصعد لزيارة «هاريموهيني»، وبما أنَّ أدنى تفصيل يأخذ أهميّة كبرى عندما نكون متوترين، فقد منعها هذا المنظر غير المحتمل من متابعة عملها وأجبرها على اللحاق بـ«بينوى» وصولاً إلى الغرفة العلوية، فوجدته قد جلس على حصيرة القصب مستغرقاً في حديث ودّي بلا تكلّف مع «هاريموهيني»، فقالت لها":

- "اسمعي، إنّي أقبل أن تظلّي في هذا البيت بقدر ما تريدين ونحن مستعدّون أن نرعاك بكل طيبة خاطر، لكن دعيني أقلْ لكِ وللمرّة الأخيرة، بأنّنا لا نقبل وجود صنمكِ في بيتنا".

لقد أمضت «هاريموهيني» كل حياتها في الريف وكانت قد كوَّنت فكرة عن «البراهمو» بأنَّهم مجرّد مذهب مسيحي، فكان تساؤلها الوحيد الذي وضعته نصب عينيها والمتعلّق بعلاقاتها معهم إلى أيّ مدى يمكنها العيش بجوارهم دون مجازفة أو خطورة، بالإضافة إلى أنَّه قد يكون لديهم أيضاً بعض النفور من مجاورتها، هذا الواقع فرض نفسه شيئاً فشيئاً عليها ودفعها في المدّة الأخيرة إلى التفكير في السلوك الذي ينبغي عليها اتخاذه؛ الخطاب غير الملتبس للسيدة «بارودا» أظهر بوضوح أنَّه لم يعد الأمر مناسباً للتأخّر في التفكير، ومن الضروري إيجاد تصوّر فوري لقرار معيّن. فكّرت بادئ

ذي بدء أن تستقرّ في «كالكتّا» في شقة أخرى، وبذلك يُتاح لها فرصة مقابلة «سوشاريتّا» و«ساتيش» من وقت لآخر، لكنها خشيت ألاّ تسمح لها حالتها المادية الضعيفة أن تسكن في المدينة.

بعد أن أتت السيدة «بارودا» وذهبت كالعاصفة الهوجاء، ظلّ «بينوى» جامداً لفترة من الزمن ورأسه منحنٍ، قطعت «هاريموهيني» الصمت وقالت:

- "سأذهب في رحلة حج، ألا يستطيع أحدكم أن يرافقني يا ولدي؟"

فقال «بينوى»:

- "سأكون سعيداً أن أرافقكِ، لكن تلزمني بضعة أيام لإجراء التحضيرات، ألا ترغبين في تمضية هذا الوقت عند أمّي؟"

- "ألا تدرك يا بُنيّ بأنني عبء ثقيل، وقد وضع الله على أكتافي حملاً ثقيلاً فلا يمكن لأحد تحمّل وجودي، كان ينبغي عليّ أن أتصوّر ذلك وأدركه عندما رأيتُ بأنّي أمسيتُ ثقلاً غير محتمل حتى في منزل زوجي، لكنّ هذه الفطنة تأتيني بصعوبة، ومنذ ذلك الحين سافرتُ في محاولة لملء فراغ قلبي، وأينما ذهبتُ كنتُ أحمل شقائي معي، هذا يكفي يا بني، اتركوني، لماذا أفرض نفسي من جديد في بيت غريب؟ اتركوني في النهاية لأجد ملجأ عند أقدام «الذي» يحمل ثقل الكون بأكمله، لم يعد بإمكاني الكفاح".

كانت «هاريموهيني» تمسح دموعها المنهمرة خلال حديثها. فقال لها «بينوى»:

- "لا، لا يا خالتي، لا أسمح لكِ بالتحدّث بهذه الطريقة، ينبغي عليكِ ألاّ تقارني أمّي مع أيّة شخصية أخرى، إذا عرف أحدهم أن يقدّم لله كل آلام العالم فإنّه لن يجد أيّ حمل ثقيل في مساعدة الآخر الواقع تحت وطأة الألم، هذه هي أمّي! وهذا هو «باريش بابو»! لا، لن أصغي لكِ، دعيني أوصلك إلى مقصد حجّتي أنا، ثم أرافقكِ في رحلة حجّكِ أنتِ".

فقالت «هاريموهيني»:

- "لكن ينبغي أن نعلمها على الأقلّ..."

- "قدومنا إليها يكفي لإعلامها".

- "إذاً، غداً صباحاً".

لكن «بينوى» قاطعها من جديد قائلاً:

- "لماذا غداً؟ يستحسن اليوم، هذا المساء".

في هذه الأثناء وصلت «سوشاريتّا» وقالت:

- "أرسلتني أمّي لأقول لكَ أنَّه قد حان وقت الاحتفال الديني".

- "آسف، فأنا لا أستطيع أن أحضره، لدي قضيّة مع خالتكِ ينبغي عليّ أن أحلّها".

في الواقع، وبعد الذي حصل لم يعد «بينوى» مستعداً لتلبية دعوة «بارودا»، لأنَّه رأى فيها نوعاً من التفاهة، بينما قلقت «هاريموهيني» وأخذت تضغط عليه كي ينزل:

- "انزل وبعد ذلك تأتي لتكلّمني، احضر الاحتفال أولاً ثم اصعد بعده لتراني".

فقالت «سوشاريتّا"»:

- "أعتقد أنَّه من الأفضل لك أن تأتي".

أدركَ «بينوى» أنَّه إذا امتنع عن حضور الاحتفال الديني، فإنَّه سيسرِّع في الثورة التي بدأت في هذا البيت، فدخل إلى الصالة المهيّأة للاحتفال، غير أنَّ إرادته لم تلقَ النتيجة المنتظَرة، وبما أنَّهم يقدّمون بعد الاحتفال مرطبات، فقد اعتذر «بينوى» قائلاً:

- "شكراً، لستُ جائعاً".

فردّت «بارودا» ساخرة:

- "كيف سيكون عندك شهية وأنت قد تناولتَ للتوّ حلويات في الطابق العلوي".

تلقّى «بينوى» اللوم وهو يضحك وقال:

- "هذا ما يحصل للنهمين، يخرّبون المستقبل بضعفهم أمام الإغراءات الفورية".

وعندما استعدّ للرحيل سألته «بارودا»:

- "ستصعد إلى الطابق العلوي على ما أفترضُ؟"

أجاب «بينوى» بموافقة سريعة وغادر الغرفة لكن ليس قبل أن يهمس لـ«سوشاريتّا» بعد أن اقترب منها:

- "اصعدي إلى خالتكِ يا «ديدي» فهي بحاجة إليكِ".

كانت «لوليتّا» منشغلة في خدمة الآخرين، ولما مرّت من أمام «هاران»، علّقَ بغتة قائلاً:

- "«بينوى»بابو» ليس هنا لقد صعد إلى الطابق العلوي".

توقّفت «لوليتّا» أمامه ونظرت إلى وجهه وقالت بنبرة حادّة:

- "أعرف ذلك، لكنه لن يغادر قبل أن يودّعني، فضلاً عن ذلك سأصعد أنا أيضاً عندما أنتهي مما عليّ فعله هنا".

لم يخفَ عن «هاران» أنَّ «بينوى» قد همس لـ«سوشاريتّا» ببضع كلمات وأنّها لحقته خارج الغرفة على الفور، لقد قام هو نفسه بعدّة محاولات يائسة ليجرَّ «سوشاريتّا» إلى حديث أمام أعضاء «البراهمو» المجتمعين لكنها تجنّبت هذه النقاشات بطريقة واضحة شعر من خلالها أنّه قد أُهين صراحة. غدت المشاعر التي تسيطر عليه أكثر مرارة عندما فشل في مجهوده ليوحي إلى «لوليتّا» بما هو مطلوب وما يعني أنَّ هناك ذنباً يُرتكب.

عندما وصلت «سوشاريتّا» إلى الطابق العلوي، وجدت خالتها «هاريموهيني» جالسة وسط أمتعتها المهيأة كلّها مستعدّة للرحيل بشكل واضح

ودون أدنى شك، فسألت عما يجري لكن «هاريموهيني» كانت عاجزة عن الإجابة بل أجهشت بالبكاء وسألت: "أين «ساتيش»؟" هل تسمحين يا أمّي الصغيرة أن تترجّيه كي يأتي ليراني؟"

نظرت «سوشاريتّا» إلى «بينوى» وبدت عليها الحيرة والارتباك فشرح لها قائلاً:

- "إذا لم تذهب خالتك من هنا فإنّ وجودها سيسبّب متاعب لذلك سأذهب بها إلى أمّي".

فأضافت «هاريموهيني» قائلة:

- "أنوي الذهاب في رحلة حج، مخلوقة مثلي لا ينبغي لها أن تسكن في بيت مخلوق آخر، لماذا ينبغي أن يتحمّل أحدهم مسؤولية عيشي على الدوام؟"

لقد فكّرت «سوشاريتّا» في المسألة تماماً وتوصّلت لنتيجة أنّ البقاء عند «بارودا» لن يجلب لخالتها سوى الإهانات، لكنها كانت غير قادرة على الردّ. ودون أي كلام جلست بالقرب من «هاريموهيني».

كان الغسق قد أقبل لكن القناديل لم تكن قد أُشعلت بعد، وبما أنّ النجوم كانت تلمع بشكل خفيف في سماء الخريف الحزينة، فلم يكن ممكناً وسط الظلمة أن نعرف من الذي كان يبكي وسط تلك الظلمة.

فجأة سمع على الدرج صوت «ساتيش» الحادّ يصرخ قائلاً:"خالتي! خالتي!"

نهضت «هاريموهيني» بسرعة، فقالت لها «سوشاريتّا»:

- "لا يمكنكِ أن ترحلي هذا المساء يا خالتي، غداً صباحاً سنقرّر ما سنفعله، كيف تهربين هكذا دون أن تستأذني كما ينبغي؟ سيحزن أبي كثيراً بسبب ذلك".

في خضم الهياج الذي سبّبته الإهانة الموجهة إلى «هاريموهيني» من قبل السيدة «بارودا» نسي «بينوى» تماماً «باريش بابو»، لقد شعر بشكل حادّ

أنَّ إقامة «هاريموهيني» تحت هذا السقف قد أضحت مستحيلة حتى لليلة واحدة، وأراد أن يبرهن لـ«بارودا» بأنّها قد أخطأت عندما ظنّت أنَّ «هاريموهيني» غدت مجبرة على تلقّي الإهانة تلو الأخرى لعدم وجود مأوى لها في مكان آخر؛ فصار اهتمامه الوحيد أخذها من هنا بأقصى سرعة ممكنة، لكن أقوال «سوشاريتّا» ذكّرته أنَّ علاقات «هاريموهيني» مع ربّة المنزل لم تكن العلاقات الوحيدة التي تؤخذ في الحسبان هنا وأنّه من غير اللائق أن نعطي أهميّة للإهانات الموجهة إليها أكثر من الضيافة الكريمة جداً والمحبّة التي قُدّمت إليها. فاعترف أخيراً:

- "هذا صحيح جداً، لا يمكنكِ أن تغادري دون أن تودّعي «باريش بابو».

عندها دخل «ساتيش» وهو يصرخ قائلاً:

- "خالتي، هل تعلمين أنَّ الروس سيجتاحون الهند؟ سيكون الأمر مسلّياً كثيراً أليس كذلك؟"

فسأله «بينوى»:

- "وأنتَ مع من ستكون؟"

- – "مع الروس، بكل تأكيد".

فقال «بينوى» وهو يضحك:

- – "آه! في هذه الحالة، عليهم ألاّ يقلقوا !"

ما إن رأت أنَّ الأزمة قد مرّت وأنَّ «بينوى» قد عاد إلى هدوئه، غادرتهم «سوشاريتّا» ونزلت إلى الطابق السفلي دون أن تحدث جلبة.

الفصل الرابع والأربعون

قبل أن يذهب «باريش بابو» ليستريح جلس وحده في غرفته الصغيرة قرب القنديل المضاء، يقرأ كتاباً لـ«إيمرسن»[1] وإذ بـ«سوشاريتّا» تدخل بهدوء ودون جلبة وتأخذ كرسياً وتجلس إلى جانبه. وضع «باريش بابو» كتابه على الطاولة ونظر إليها، لكن «سوشاريتّا» خانتها جرأتها في تناول الموضوع الذي أتى بها إليه، وقدّرت أنّه من المستحيل إظهار اهتماماتها الدنيوية، فقالت بكل بساطة:

- "هل تقرأ لي يا أبي لو سمحت؟"

قرأ لها «باريش بابو» مع الشرح حتى الساعة العاشرة، لكنها بعد ذلك وبما أنّها لم تكن مستعدّة لطرح مادة حسّاسة قد تعكّر راحة أبيها، فقد أخذت تهيّئ نفسها للعودة إلى غرفتها ولكن أباها ناداها قائلاً:

- "كنتِ تريدين أن تحدّثيني عن خالتكِ أليس كذلك؟"

فوجئت «سوشاريتّا» كيف أنّه حزر ما في ذهنها، فأجابته قائلة:

- "أجل يا أبي، لكن لا تهتمّ بذلك هذا المساء، سنتحدّث عنها غداً".

غير أنّ «باريش بابو» أجبرها على الجلوس ثانية وقال:

- "لم يفتني أنّ خالتكِ لا تشعر بالارتياح هنا، أولاً لم أفهم إلى أيّ مدى تصطدم معتقداتها وتقاليدها بعادات وأفكار أمّكِ، أرى الآن مدى انزعاج أمّكِ، وأنا متأكّد أنّ خالتكِ غير مرتاحة وتشعر بالضيق هنا".

---

(1) Emerson

- "لقد هيأت خالتي أمتعتها واستعدّت للرحيل".

- حدثتني قلبي بأنّها تودّ أن ترحل، لكن بما أنّنا أقرباؤها الوحيدون أعتقد بأنّه لا يمكن لنا أن نتركها دون مأوى، فقد فكّرتُ في هذه المسألة منذ بضعة أيام".

لم تلاحظ «سوشاريتّا» أنَّ «باريش بابو» قد اكتشف وضع خالتها الأليم وبأنّه مهتمّ في إيجاد الحلّ. لقد كانت تتصرّف دائماً بحذر وتيقظ لتجنّب إمكانية حدوث بلبلة عامة قد تزعجه، وعندما سمعته يتحدّث بهذا الشكل، اغرورقت عيناها بالدموع من فيض عرفانها بجميله. فقال لها «باريش بابو»:

- "لقد فكّرتُ في بيت وفي رأيي أنّه يناسبها تماماً".

فتمتمت «سوشاريتّا» لتقول:

- "لكني أخشى أن ...".

- "أتريدين أن تقولي بأنّها لن تستطيع دفع الإيجار، لكن لماذا تدفع إيجاراً؟ فأنتِ لن تطالبيها بالأجرة".

نظرت إليه «سوشاريتّا» بذهول صامت فأضاف وهو يضحك:

- "فإذا كانت ستعيش في بيت هو ملك لكِ، فليس عليها أن تدفع أجرة".

ما كان لهذا الكلام الأخير إلاّ أن يزيد الغموض عند «سوشاريتّا»، لكن «باريش بابو» أخذ يشرح الموضوع بالتفصيل:

- "ألا تعلمين أنّكما تمتلكان بيتين في «كالكتّا»؟ بيت لكِ والآخر لـ«ساتيش»؛ عندما توفي والدك ترك لكما مبلغاً بسيطاً من المال قمت باستثماره من أجلكما، وجعلته يتضاعف وعندما أصبح الرصيد يسمح بالتوظيف اشتريتُ منزلين في المدينة، لقد أجّرتهما في السنوات الماضية ووضعت مبلغ الإيجار جانباً، أحد المستأجرين قد ترك البيت فأصبح خالياً وبذلك لا شيء سيزعج خالتكِ".

- "لكن هل يمكن لها أن تعيش وحدها؟"

- "طالما أنتِ أهلها الأقربون، لماذا ستبقى وحيدة؟"

فأخذت «سوشاريتّا» تشرح له قائلة:

- "هذا تحديداً الموضوع الذي جئتُ لأحدّثك فيه هذا المساء، لقد قرَّرتْ خالتي أن ترحل من هنا وصرتُ أتساءل ما إذا كان بالإمكان أن أدعها ترحل وحدها، أردتُ أخذ رأيكَ وسأتّبعه حرفياً".

- أترين الزقاق الممتدّ إلى جانب بيتنا؟ حسن، بيتكِ يقعُ في أسفل هذا الزقاق على بعد ثلاثة أبواب من بيتنا، يمكننا أن نراه من شرفتنا، إذا سكنتِ هناك فلن تشعري بأنّكِ معزولة عنا لأنّه يمكننا أن نرى بعضنا بشكل مستمر كما لو أنّنا نسكن في البيت نفسه".

فاض قلب «سوشاريتّا» بما لا يُقال وغابت الكلمات وأحسّت بأنَّ ثقلاً قد انزاح عن صدرها، لأنَّ فكرة الانفصال عن «باريش بابو» لا يمكنها تحمّلها، غير أنّها أدركت أنَّ واجبها سيجبرها على ذلك عاجلاً أم آجلاً، وظلّت جالسة بقربه بينما بقي أبوها مستغرقاً في أفكاره.

لقد كانت «سوشاريتّا» ربيبته وابنته وصديقته، وجزءاً من حياته نفسها، بدونها ستصبح عبادته للألوهة ناقصة؛ في الأيام التي كانت فيها «سوشاريتّا» تأتي إليه لتتأمل معه، كان تُقاه يبدو له أكثر خصوبة، وعندما كان يجهد بكل حنان ليرفع نحو الله أفكار الفتاة الشابّة ، كان يشعر بأنّه قد ارتفع هو نفسه إلى مستويات أعلى.

لم تكن بناته الأخريات يأتين إليه بالاحترام والتواضع التلقائي اللذين تتحلّى بهما «سوشاريتّا»؛ لقد كان كل كيانها يتّجه نحوه ويتفتّح كالوردة المتّجهة نحو الشمس؛ تلك اللهفة لا يمكن إلاّ أن تُقابل بما يماثلها، كانت تستدعي الحنان الذي ينحني لينشر هباته كغيم محمّل بمطر خيّر؛ أيّة فرصة رائعة أُتيحت له كي يعطي في كل يوم أفضل وأعمق ما عنده إلى روح عظيمة متفتّحة للتلقّي! هذا الاتفاق في مشاعرهما هو الذي جعل حميميتهما بهذه الشدّة.

أمّا الآن فقد حان الوقت لقطعَ الرباط الظاهر، لقد أنضجت الشجرة ثمرتها من نسغها الأنقى وينبغي الآن أن تدعها تسقط على الأرض. كرّس «باريش بابو» الألم الخفي في قلبه إلى «الذي» يملأ هذا القلب، فقد رأى منذ فترة أنّ «سوشاريتّا» مدعوّة لتعيش حياتها الخاصّة، وكان يعلم أنّها تحمل معها في رحلة حجّ الحياة كنزاً ثميناً، ستنهل منه في مسيرتها على درب العالم الكبير وستكتسب خلالها معارف جديدة في الفرح وفي الحزن، في التجارب التي ستخضع لها وفي الجهود التي ستحقّقها، فصار يناجيها في قرارة نفسه:

"اذهبي يا بنتي، ينبغي عليكِ أن تخرجي من الظلّ الذي تربطكِ فيه نصائحي وحتى عناياتي القلقة، سيحرّركِ الله مني ويقودكِ من خلال الاختبارات والانعطافات نحو قدركِ النهائي، وليقدّر الله أن تجد حياتكِ كمالها فيه. وهكذا كرّس الله لـ«باريش بابو» تلك الـ«سوشاريتّا» قرباناً مقدّساً، ليسهر عليها منذ الطفولة بكل عطفه وحنانه.

لم يسمح «باريش بابو» لنفسه بأدنى طيف من الانتقاد تجاه السيّدة «بارودا»، ولا بأدنى حالة غضب أمام النزاعات العائلية، إذ لم يغب عنه أنّه عندما يجتاح الفيضان مجرى النهر القديم والضيق، تحصل دوّامات، والعلاج الوحيد هو ترك المياه تنتشر بحرية في الحقول الواسعة.

كان يرى أنّ دعائم العادة والتقليد في عائلته تتفكّك تحت تأثير الصدمة الناجمة عن الأحداث غير المتوقعة التي كانت «سوشاريتّا» محورها، ولن يعود الهدوء إلاّ عندما نتركها لتجد بنفسها مكانتها في العالم، فلذلك تهيأ بصفاء لتحريرها، ليتيح لها في الاستقلالية فرصة خلق حياة متوازنة ومنسجمة.

ظلّ الاثنان صامتين وجامدين دون حراك إلى أن دقّت الساعة الحادية عشرة، عندها نهض «باريش بابو» وأمسك يد «سوشاريتّا» بيده وأخذها إلى الشرفة.

تألّقت النجوم في سماء غدت الآن صافية، صلّى «باريش بابو» في سلام الليل و«سوشاريتّا» إلى جانبه: "نجنا يا الله من كل زيف واسمح للحقيقة أن تنشر النور بيننا".

الفصل الخامس والأربعون

في صبيحة اليوم التالي ذهبت «هاريموهيني» لتستأذن من «باريش بابو» وتقدّم له التحيّة الواجبة تجاه الكبير، بسرعة سحب أقدامه التي لامستها باحترام، وصاح متعجّباً ومنزعجاً جداً:

- "لا، لا، أرجوكِ".

فقالت «هاريموهيني» والدموع في عينيها:

- "لا في هذه الحياة ولا في حياةٍ أخرى أستطيع أن أفيكَ حقكَ الواجب عليّ، لقد قدَّمتَ لي مأوى، لي أنا الإنسانة منكودة الحظ، ما كان لأحدٍ آخر أن يستطيع فعل ذلك حتّى لو أراد ، لكن الله يحبّك ولهذا السبب سمح لكَ بنجدة إنسانة بائسة".

بدا «باريش بابو» مرتبكاً جداً فتمتم قائلاً:

- "لم أفعل سوى ما هو طبيعي أن يُفعَل، إنّها «سوشاريتّا»...".

لكن «هاريموهيني» لم تدعه يُكمل ما يريد أن يقوله، وتابعت تقول:

- "أعرف، أعرفُ، لكن «رادهاني» نفسها هي لكَ، كلّ ما تفعله هي هو صنيعكَ أنتَ، عندما توفيت والدتها، وفقدت والدها أيضاً، اعتقدتُ أنّ البؤس قد كُتب لها، كيف لي أن أعرف بأنّ الله باركها في هذه المحنة؟ وبعد أن همتُ على وجهي عبر العالم، ووصلتُ أخيراً إلى هنا وعرفتكَ، أدركتُ أنّ الله يمكن أن يشفق حتّى عليّ أنا".

في هذه الأثناء دخل «بينوى» معلناً:

- "إن أمّي أتت لتأخذكِ يا خالتي".

فصاحت «سوشاريتّا» فرحة ونهضت من شدّة التأثّر:"أين هي؟"، فأجابها «بينوى»:

- "في الطابق السفلي مع أمّكِ".

أسرعت «سوشاريتّا» في النزول إليها. أمّا «باريش بابو» فقال لـــ«هاريموهيني»:

- "دعيني أسبقكِ لأرى إن كان كل شيء جاهزاً في بيتكِ الجديد".

بعد أن ذهب «باريش بابو» قال «بينوى» مذهولاً تماماً:

- "لم أكن أعلم أنكِ تملكين بيتاً يا خالتي".

- "وأنا أيضاً لم أسمع أحداً يتحدّث عنه حتى هذا اليوم يا بني، «باريش بابو» فقط هو الذي كان يعلمه وأظن أنَّ البيت ملك لـــ«رادهاني»".

عندما سمع «بينوى» حكايتها قال:

- "لقد تخيلتُ أنَّ «بينوى» سيكون أخيراً مفيداً لأحدهم، لكني أرى أنّني لن أحصل على هذه المتعة، لم أفعل شيئاً لأحد في حياتي حتى الوقت الراهن، حتى لأمّي، إنّها هي التي تقدّم لي كلّ شيء على الدوام، ويبدو أنني لم أستطع أن أفعل شيئاً نافعاً لخالتي أيضاً، ينبغي عليّ أن أكتفي بتلقّي حنانها، لقد تيقّنتُ الآن أنَّ قدَري هو الأخذ وليس العطاء".

وصلت «آنانداموا» ترافقها «لوليتّا» و«سوشاريتّا»"، تقدّمت «هاريموهيني» لتحيّتها قائلة:

- "عندما ينعم الله بهباته يمنحها دون بخل، يا «ديدي» أنتِ أيضاً اليوم لي".

بهذه الكلمات أمسكت بيد «آنانداموا» وأجلستها إلى جانبها وتابعت تقول لها:

- "لا يُحسِن «بينوى» التحدّث إلاّ عنكِ يا «ديدي»".

فقالت «آناندامو ا» مع ابتسامة:

- "لقد اعتاد منذ طفولته أن يتحدّث باستمرار عن موضوع يحظى باهتمامه، أؤكّد لكِ أنّ خالته ستصبح موضوع حديثه في وقت قريب".

فصاح «بينوى» بإعجاب:

- "هذا صحيح تماماً، فقد أنذرتِ إذاً سلفاً، فأنا لم أحصل على خالتي إلاّ في وقت متأخّر جداً وأنا الذي وهبتها لنفسي، ولما كنتُ محروماً منها لسنين عديدة، ينبغي أن أستغلّ وجودها قدر المستطاع".

نظرت «آناندامو ا» إلى «لوليتّا» بابتسامة ذات مغزى:

- "صحيح أنّ ابننا «بينوى» يعرف كيف يحصل على ما يريد، غير أنّه فوق ذلك يمتلك فن الاحتفاظ بما اكتسبه، لا أستطيع تقدير ما إذا كانت القيمة التي يوليها لمعرفتكنّ أشبه بقيمة سعادة تتجاوز كل التوقّعات؟ لا يمكنني أن أعبّر عما في نفسي، أيّ فرح عظيم أشعر به لأنّه تعرف بكنّ، لقد تغيّر... وهو يعرف ذلك".

أرادت «لوليتّا» أن تجيب لكنها لم تجد كلماتها وكان ارتباكها شديداً ما دفع «سوشاريتّا» إلى نجدتها قائلة:

- "يعرف «بينوى» أن يميّز ما هو الأفضل في كلّ واحد منا، لذلك له الحق أن يستفيد من أفضل الصفات التي يتمتّع بها أصدقاؤه، وهذا ما يميّزه أساساً".

تدخّل «بينوى» قائلاً:

- "يا أمّي، نظر العالم ليس شاخصاً إلى «بينواك» وكأنّه مخلوق مهمّ يستحق أن تمدحوه على الدوام، لقد أردتُ في كثير من الأحيان أن أشرح لكِ ذلك، لكن الغرور منعني، وفي النهاية أشعر بأنّي لا أستطيع التراجع أمام هذا البوح الملاطِف قليلاً، فلنتحدّث إذاً بأمور أخرى يا أمّي".

في أثناء ذلك قَدِم «ساتيش» حاملاً بين ذراعيه كلباً صغيراً، وهو من أواخر مشترياته، عندما رأت «هاريموهيني» ما يحمله تراجعت إلى الخلف فزعاً وكرهاً وترجَّته قائلة:

- "أرجوكَ يا حبيبي «ساتيش» أبعد هذا الكلب من هنا، كن لطيفاً ونفِّذ ما أطلبه منكَ".

فردَّ «ساتيش» قائلاً:

- "لكن يا خالتي لن يعضكِ، حتى إنَّه لن يتنزّه في غرفتكِ سيبقى عاقلاً جداً حالما تلاطفينه وتلامسينه قليلاً".

ابتعدت «هاريموهيني» أكثر فأكثر من الحيوان النجس وهي تتوسّل:

- "بحق السماء خذه من هنا يا حبيبي".

عندها سحبت «آناندامويا» «ساتيش» وكلبه نحوها وأخذت الحيوان الصغير ووضعته فوق ركبتيها وقالت:

- "أنتَ إذاً «ساتيش» صديق «بينوانا»؟"

لم يرَ «ساتيش» في أن يناديه أحد بصديق «بينوى» أمراً غير عادي فأجاب بنعم دون أدنى تردّد، ثم نظر إلى «آناندامويا» بتأمّل وهي تشرح له بأنَّها أم «بينوى». فذكّرته «سوشاريتّا» بأنَّ عليه أن يقوم ليحيّي «آناندامويا» بطريقة الـ«برونام»[1] فنفَّذ «ساتيش» محاولة الانحناء وقد بدا عليه الانزعاج.

في هذه الأثناء دخلت السيدة «باروادا» إلى المشهد وقدّمت لـ«آناندامويا» مرطّبات دون أن تعير «هاريموهيني» أيّ انتباه. فقالت «آناندامويا»:

- "ما كنت لأتردّد أبداً في قبولها، أشكركِ على ضيافتكِ، لكنّي لن آخذها، عندما يعود «غورا» حينذاك سنتشرّف بضيافتكِ.. إذا كان ذلك ممكناً".

---

(١) البرونام: التحية الاكثر عمقاً والاكثر احتراماً وتتضمن أخذ غبار القدمين.

كانت «آناندامو ا» تمتنع عن القيام بأيّ فعل في غياب «غورا» قد لا يعجبه أو يغيظه. عندها نظرت «بارودا» إلى «بينوى» وقالت له:

- "آه! «بينوى بابو» أنتَ أيضاً هنا، لم أكن أعرف بأنكَ أتيتَ".

فأجاب «بينوى»:

- "كنتُ سأقوم حالاً لأخبرك بأنّي هنا".

- "لقد تركتنا البارحة مع أنّك كنتَ مدعواً، ما قولكَ الآن أن تأتي للغداء مع أنّكَ غير مدعو؟"

- "هذا يجعل الدعوة أكثر إغراءً لأنّها مرتجلة، هبة مجانية أكثر متعة من راتب مستحَق".

ذُهلت «هاريموهيني» من هذا الحديث، من الواضح أنّ «بينوى» كان يتناول وجباته في هذا البيت بطريقة مألوفة، وفوق كل ذلك يبدو أنّ «آناندامو ا» ليس لديها أي تدقيق أو تشكّك يتعلّق بأمور الطبقة، لكن «هاريموهيني» لم تغتبط بهذا المشهد أبداً، وعندما غادرت «بارودا» الغرفة، خاطرت وسألت بصوت متردّد:

- "«ديدي»، زوجكِ أليس..."

فأجابت «آناندامو ا»:

- "زوجي هندوسي ومتشدّد جداً".

تحيّرت «هاريموهيني» جداً وارتبكت وظهر ذلك عليها بوضوح ما دفع بــ«آناندامو ا» إلى الشرح:

- "يا أختي، احترمتُ النظم الاجتماعية طالما كانت تبدو لي أهمّ ما في العالم، لكن عندما أتى يوم وألهمني الله فيه بألاّ أعتبرها حقيقة، وبما أنّه «هو» نفسه قد أزال عني طبقتي فلم أعد أخشى ما يمكن أن يفكّر فيه الآخرون عنّي".

فسألتها «هاريموهيني» دون أن تفهم:

- "وزوجكِ؟"

- "هذا لايُعجِبُ زوجي".

- "وأولادكِ؟"

-وهذا لايُعجِبُ أولادي أيضاً، لكن هل خُلِقتُ في هذا العالم لأعجِبَ زوجي وأولادي فقط؟ يا أختي، هذا موضوع لا يمكن شرحه للآخرين، الله وحده الذي يفهم ويعرف كل شيء في العالم".

وجمعت «آناندامو ا» يديها لتصلّي صلاة صامتة.

اِعتقدت «هاريموهيني» دون شكّ أنّ إحدى النساء المبشّرات قد جذبت «آناندامو ا» باتّجاه الطوائف المسيحية فولدت لديها شكوك تجاهها.

الفصل السادس والأربعون

الأخوات الثلاث «لابونيا» و«لوليتّا» و«ليلا» لم يفارقن «سوشاريتّا» ولا للحظة واحدة، ومع أنّهنّ أخذن يساعدنها بعرض حماسي كبير في التجهيزات لسكنها في بيتها الجديد، لكن هذا الحماس لم ينفع إلاّ في إخفاء دموعهنّ.

في السنوات الأخيرة، كانت «سوشاريتّا» تقوم كل يوم ببعض الخدمات الصغيرة لـــ«باريش بابو» بذرائع مختلفة، فكانت تضع الزهور على مكتبه وترتب كتبه وأوراقه، وتقوم بتهوية ملابسه بنفسها، وعندما يكون حمّامه قد جُهز كانت تأتي لتعلمهُ بذلك؛ لم يكن يبدو أنَّ الاثنين كانا قد توقّفا يوماً عند تفاصيل كهذه، لكن بما أنّ الساعة قد اقتربت لتصل فيها هذه العادات إلى نهاياتها، وبالرغم من أنَّ هذه الخدمات الصغيرة نفسها لم تكن ضرورية ويمكن أن يقوم بها شخص آخر، ففكرة الامتناع عنها جعلت الاثنين يتألمان. لمّا الآن فعندما تدخل «سوشاريتّا» إلى غرفة «باريش بابو» فإنّ أقلَّ تصرّف منها أصبح يأخذ مكانة كبيرة لديه؛ وهكذا فقد انتزع انقباض قلبه منه تنهيدة طويلة في لحظة كاد فيها الألم يخنق «سوشاريتّا» وجعل الدموع تنهمر من عينيها.

وفي اليوم الذي ينبغي فيه على «سوشاريتّا» أن تستقرّ في منزلها الجديد بعد الغداء، وبعد أن دخل «باريش بابو» إلى مكتبه من أجل تأملاته الصباحية، وجد الزهور قد رُتِّبتْ ووضِعتْ على طاولته و«سوشاريتّا» بانتظاره، لقد فكّرت «لابونيا» و«ليلا» بأنّه من الممكن أن يصلّوا جمعاً هذا الصباح، لكن «لوليتّا» أثنتهما عن ذلك لأنّها كانت تعرف جيّداً كم تحبّ «سوشاريتّا» أن تشارك في

عبادة أبيهنّ، وكم تتمنّى في هذا اليوم بالذات أن تتلقّى تبريكاته، لم تشأ «لوليتّا» أن يزعج حضور أيّ شخص كان حميمية الاتصال بين الأب والبنت.

ولما سالت دموع «سوشاريتّا» بغزارة في نهاية صلاتهما، قال لها «باريش بابو»:

- "لا تنظري إلى الخلف يا بنتي، ولا تخشي شيئاً وواجهي بشجاعة ما يخبّئه لك القدر، سيري بجرأة واجمعي قِواكِ لتميّزي «الخير» في كل ما يجلبه لكِ القدَر، سلّمي نفسك لله بالكامل وليكن سندك الوحيد، وعندها ستتبعين الصراط المستقيم حتّى في خضمّ البؤس والخطأ؛ فلتكن مساعدة الله لكِ كافية ووافية لتغنيكِ عن المساعدة الزهيدة التي تجدينها بقربنا".

عندما خرجا من الغرفة بعد الصلاة، وجدا «هاران» بانتظارهما، فاستقبلته «سوشاريتّا» استقبالاً ودوداً لأنّها كانت راغبة في إبعاد كل مشاعر الحقد في هذا اليوم، لكن «هاران» اتّخذ على الفور موقفاً قتالياً وأعلن بصوتٍ رسمي:

- "«سوشاريتّا»، اليوم الذي تقعين فيه في الخطيئة من جديد بعد أن كنتِ قد جاهرتِ بموقفك وبحقيقة إيمانكِ لزمن طويل، هو يوم حزن".

هزّت هذه النغمة النشاز الانسجام والتوافق اللذين ملأا عقل «سوشاريتّا»، لكنها لم تردّ، فبادر «باريش بابو» إلى التدخّل بملاحظته قائلاً:

- "الضمير الفردي وحده يمكن أن يدلّنا إن كنا نتقدّم أو نسقط من جديد، إنّنا نقلق غالباً ونتزعج بسبب أمور وهميّة، عندما نحكم خطأً على المظاهر".

لكن «هاران» تشبث برأيه وقال:

- "هل كان حدثاً خيالياً أن تعود ابنتكَ «لوليتّا» وحدها في السفينة مع «بينوى بابو»؟"

احمرَّ وجه «سوشاريتّا» بشدّة وأجابه «باريش بابو» قائلاً:

- "أعتقد يا «هاران بابو» بأنّكَ تعاني من أزمة هياج وليس من الإنصاف بمكان أن نتناقش معكَ وأنتَ بهذه الحالة النفسية".

رفع «هاران» رأسه بشكل متعالٍ وقال:

- "أنا لا أناقش أبداً في حالة الهيجان، وعندي على الدوام الحسّ المطلوب لمسؤوليتي؛ ما أقوله، لا أقوله لحسابي الشخصي، إني اتحدّث باسم «البراهمو – ساماج»، لأنّي أكون قد أخطات لو التزمتُ الصمت؛ لقد رأينا الواقعة وأنّ «لوليتّا» قد سافرت مع «بينوى بابو» – إلاّ إذا كنا عمياناً – وأنّ عائلتكَ في طريقها إلى الانحراف بعيداً عن الميناء الآمن الذي ارتبطت به سابقاً، لن تندم فقط لكن ما هو أخطر أنّه سينتج عن ذلك فقدان الثقة في «البراهمو – ساماج»".

فردّ «باريش بابو» بنبرة تدلّ على نفاد صبره:

- "أخشى ألاّ تكون وجهات نظرنا متماثلة يا «هاران بابو»".

- "يمكنكَ أن ترفض رؤية ذلك، لكنّني أرجو «سوشاريتّا» أن تشهد، ولتقل لنا إن كانت علاقات «لوليتّا» مع «بينوى» عرضيّة أم لا، كلاّ يا «سوشاريتّا» ينبغي ألاّ تخرجي، أجيبني أولاً، المسألة مهمّة جداً".

فردّت «سوشاريتّا» بخشونة قائلة:

- "مهما كانت مهمّة فهذا لا يعنيكَ".

- "لو كان الأمر على هذه الصورة لما أوليته تفكيري ولا حتّى ألححتُ على التحدّث فيه، قد لا يعنيك «الساماج» لكن طالما أنتِ جزء منه، فلا يستطيع أن يعفي نفسه من محاكمتكِ".

دخلت «لوليتّا» فجأة كالإعصار، آتية لا نعرف من أين وصرخت تقول:

- "إذا كنتَ أنتَ من عيّنه «البراهمو – ساماج» كقاضٍ فالأفضل لنا أن ننفصل عنه".

فقال «هاران» وهو ينهض عن كرسيه:

- "«لوليتّا»، إنّي سعيد لوجودكِ هنا، إذ ليس أصحّ من أن تكوني حاضرة عندما نناقش التهمة الموجّهة ضدّكِ".

في هذه المرّة بدت «سوشاريتّا» ساخطة حقاً والتمعت عيناها عندما صرخت قائلة:

- "أقِم العدل في منزلك الخاص يا «هاران بابو»، لو سمحت، فنحن لن نخضع لادّعائك وغرورك بأن تأتي كما تفعل الآن لتهين الناس في بيوتهم، تعالي يا «لوليتّا»، لنذهب من هنا".

ظلّت «لوليتّا» ثابتة لا تتزعزع وقالت:

- "لا يا «ديدي»، ما أنا بهاربة، بل مستعدّة لسماع كل ما يريد أن يقوله «هاران بابو»، تفضّل يا سيّدي، تكلّم".

بينما كان «هاران بابو» يفكّر في كيفية مباشرة حديثه دخل «باريش بابو» وقال:

- "حبيبتي «لوليتّا»، اليوم، ستفارقنا «سوشاريتّا»، دعونا لا نفسد صبحيّتنا في الشجار، اعذرنا اليوم يا «هاران بابو» رغم أخطائنا".

صمت «هاران» صمتاً معبّراً. في هذه الأثناء ذهبت «سوشاريتّا» إلى خالتها لتخبرها قائلة:

- "اليوم، يا خالتي، سأتناول وجباتي مع كلّ العائلة، فلا تنزعجي".

تلقّت «هاريموهيني» هذا الإخطار دون أن تنبس ببنت شفة، لقد ظنّت بأنّ «سوشاريتّا» قد اهتدت كلّياً إلى المذهب الصراطي التقليدي، وخصوصاً أنّها قد أصبحت الآن مستقلّة وستسكن في منزل تملكه، فبدأت الخالة تأمل أنّ ابنة أختها ستعيش من الآن فصاعداً وفق العادات الهندوسية، هذا التبدّل الفجائي لم يعجبها أبداً، لذلك لم تجب. أدركت «سوشاريتّا» ما يدور في خلد «هاريموهيني»، فقالت لها:

- "أؤكّد لك يا خالتي أنّ إلهكِ سيكون راضياً بتصرّفي هذا، الربّ الذي يملك قلبي أمرني بأن أتناول طعامي اليوم معهم، فإذا لم أطِع أمره، سيغضب منّي وأنا أخشى غضبه أكثر مما أخشى غضبكِ".

لم تفهم «هاريموهيني» شيئاً، لقد شاركتها «سوشاريتّا» في التقليدية الهندوسية وشاركتها في الإهانات التي طالما وجهتها لها «بارودا»، لكن الآن وقد أشرق يوم الخلاص، فلماذا لا تقفز «سوشاريتّا» لتنتهز هذه الفرصة؟

الشيء الأكيد هو أنّ «هاريموهيني» لم تسبر عمق تفكير ابنة أختها، ربّما لأنّها غير قادرة على ذلك، ودون أن تطلق تحريماً أو حظراً شعرت بأنّها مستاءة، فصارت تتمتم وحدها وتقول: "من أين اكتسبت هذه الصغيرة هذا الميل المثير لطعام غير طاهر؟ وهي التي ولدت في بيت براهماني!". بعد صمت قصير قالت بصوت مرتفع:

- "مع ذلك سأقول كلمة واحدة يا حبيبتي، تناولي طعامك معهم إن أردتِ لكن على الأقلّ لا تشربي الماء المنقول بيد هذا الخادم".

- هيّا يا خالتي، أليس هو نفسه «رامدين» الذي يحلب بقرته من أجلكِ ليجلب لكِ الحليب كل صباح؟"

توسّعت عينا «هاريموهيني» من المفاجأة وهي تردّ قائلة:

- "إنّكِ تخنقينني يا حبيبتي، تقارنين الماء بالحليب! كما لو أنّ النظم هي نفسها لكليهما".

فقالت «سوشاريتّا» وهي تضحك:

- "حسن جداً يا خالتي، لن أشرب اليوم من الماء الذي ينقله «رامدين»، لكن اسمحي لي أن أنصحكِ بألاّ تمنعي «ساتيش» عن ذلك لأنّه لن يعمل له أيّ حساب".

فقالت «هاريموهيني»:

- "آه! بالنسبة إلى «ساتيش» الأمر مختلف".

أليسَ للجنس القوي امتياز خرق النظم والتملّص من النظام حتى عندما تفرضها الصراطية الهندوسية؟

الفصل السابع والأربعون

لقد مرَّ أسبوعان منذ اليوم الذي عادت فيه «لوليتّا» مع «بينوى» على متن السفينة، وكان «هاران» وبعض الأشخاص قد سمعوا من يتحدّث عن هذه الرحلة، وربّما علِم آخرون عنها في «كالكُتّا» في السياق الطبيعي للزمن، لكن الخبريّة انتشرت بشكل فجائي وبسرعة رهيبة خلال يومين كسرعة النار في الهشيم، ذلك أنَّ «هاران» كان قد أمسى على أهبة الاستعداد للحرب – بل قد بدأ معركته – شارحاً لكثير من الأشخاص مدى أهميّة إسقاط هذا النوع من الفسق الفردي لمصلحة المستوى العالي الذي ينبغي الحفاظ عليه في الحياة العائلية عند «البراهمو – ساماج».

لم تبدُ المهمّة صعبة لأنّه من السهل دوماً أن نطيع أوامر الواجب والحقيقة عندما تدفعنا إلى إدانة ومعاقبة مخالفات الآخر، والغالبية العظمى من أعضاء «البراهمو – ساماج» لم يردعهم تواضعهم الكاذب عن مشاركة «هاران» بالحماسة المطلوبة لتنفيذ هذه المهمّة الشاقّة؛ أمّا أعمدة الطائفة فلم يأبهوا حتّى بالتكاليف المدفوعة للعربات التي تنقلهم من بيت إلى بيت لإعلان الخطر الذي قد يهدّد «البراهمو – ساماج» إذا تمَّ التسامح مع مثل هذه السلوكيات، وفوق ذلك كان الخبر ينتشر بأنَّ «سوشاريتّا» قد تحولت إلى العقيدة التقليدية، بالإضافة إلى أنّها قد لجأت إلى منزل خالة هندوسية وتمضي وقتها في عبادة الأصنام وفي ممارسة الإماتات وأعمال التقوى مكرّسة نفسها للتقشّف والخرافات!..

خلال ذلك الوقت وبعد ذهاب «سوشاريتّا» نشب صراع حادّ في ذهن «لوليتّا» فكانت في كلّ ليلة وعندما تأوي إلى فراشها لتنام تقسم بألاّ تقرّ بهزيمتها أبداً، وكانت تجدّد القسم كلّ صباح، إذ إنّ التفكير بـــ«بينوى» كان قد استولى عليها بالكامل، فإذا سمعتْ صوت الشاب في الصالة في الطابق السفلي يبدأ قلبها بالخفقان بشكل أسرع، وإذا تغيّب لمدة يومين أو ثلاثة كانت كبرياؤها المُهانة تعذّبها، فتلجأ عندها إلى تدبّر أمرها لإرسال «ساتيش» إلى شقة صديقه تحت ذرائع مختلفة، وعند عودته كانت تتفنّن لسحب كل التفاصيل عمّا فعل «بينوى» أو عمّا قال، وكلّما زاد استحواذ هذا الشعور عليها وأصبح لا يُقاوَم زاد إحساسها الخانق بالخوف من السقوط؛ وكانت أحياناً تغضب من أبيها لأنّه لم يُعارض حميميتهم مع «بينوى» و«غورا». على أيّة حال، لقد حسمت أمرها الآن على النضال إلى النهاية مفضّلة الموت على قبول الهزيمة، فأخذت تبتدع طرقاً مختلفة لحياتها، حتى إنّها فكّرت في منافسة السيدات الأوروبيات اللواتي كرّسن أيامهنّ للإحسان ومحبّة البشر بجدارة بعد اطّلاعهنّ على صفحات التاريخ. ذات صباح ذهبت إلى أبيها وقالت له:

- "ألا أستطيع التعليم في مدرسة بنات يا أبي؟"

نظر «باريش بابو» بتمعّن إلى وجه «لوليتّا» وقرأ في عينيها رجاءً يدعوه لإنقاذها من رغبة قلبها، فأجابها بلطف:

- "لماذا يا حبيبتي؟ لكن، هل يوجد مدرسة جيّدة للبنات؟"

في تلك الحقبة لم تكن هناك مدارس ملائمة للبنات رغم وجود مؤسسة أو مؤسستين خاصتين بهنّ، لأنّ نساء الطبقة العليا لم يكنّ قد بدأن بممارسة مهنة التعليم بعد. فسألته «لوليتّا» بنبرة حزينة:

- "أحقاً لا توجد مدارس للبنات؟"

أقرّ «باريش بابو» قائلاً:

- "لا أعرف أيّة مدرسة".

- "إذاً، هل يمكننا يا أبي أن نؤسس مدرسة؟"
- "أخشى أن يلزمنا الكثير من المال والكثير من الناس أيضاً لمساعدتكِ".

لقد كانت «لوليتّا» تتخيّل دوماً أنّ الصعوبة تكمن فقط في تحريض الرغبة على صنع الخير، لكنها لم تفكّر أبداً بالمعوقات الماديّة التي قد تواجه تحقيق هذه الرغبة. بعد فترة صمت وجيزة نهضت وغادرت الغرفة تاركة «باريش بابو» يبحث عن سبب الحزن الذي يُثقِل صدر ابنته المفضّلة، تذكّر فجأة التنويه الذي جرى قبل بضعة أيام ضد «بينوى»، فأطلق تنهيدة وسأل نفسه: "هل أنا حقاً على خطأ؟"

لو كان الأمر يتعلّق بإحدى بناته الأخريات لما أخذت المسألة هذه الأهميّة بالنسبة إليه، لكن «لوليتّا» تعطي نفسها من كل قلبها وبكلّ صدق، لم تكن تقبل بأنصاف الحلول، ولم تكن أفراحها وأتراحها موزّعة بين الحقيقة والوهم.

بعد ظهر ذلك اليوم ذهبت «لوليتّا» إلى بيت «سوشاريتّا»، فوجدته مفروشاً بشكل بسيط جداً، سجّادة بطراز ريفي «دورّي»[1] تغطّي أرض الغرفة الرئيسية، وعند أحد الجدران يستند فراش «سوشاريتّا» وفي مقابله فراش «هاريموهيني».

وبما أنّ خالتها لا تستخدم سريراً حقيقياً، فقد حذت «سوشاريتّا» حذوها ووضعت فراشها على الأرض، وفي الغرفة نفسها عُلّق رسم لــ«باريش بابو» على الحائط، وأمّا في الغرفة المجاورة فيوجد سرير لــ«ساتيش» وطاولة قد بعثرت عليها كتبه ودفاتره وريشه ومحبرته بشكل فوضويّ. كان «ساتيش» في المدرسة، والهدوء يسود المنزل، وكانت «هاريموهيني» تتهيّأ لقيلولتها بعد الغداء، لمّا «سوشاريتّا» بشعرها المتناثر على أكتافها فقد كانت جالسة على سريرها واضعة مخدّة على ركبتيها ومستغرقة في قراءة الكتاب

(١) Durry- دورّي: سجادة بطراز ريفي مقلّمة ومصنوعة من القطن.

الذي فوقها، ومن حولها كتب أخرى، وعندما رأت «لوليتّا» داخلة فجأة إلى غرفتها، أغلقت أولاً الكتاب بانزعاج لكنها عادت وفتحته بسرعة إلى الصفحة التي كانت تقرؤها وكأنها خجلة من فضيحة ما، لقد كان عملاً مكتوباً بقلم «غورا» .

جلست «هاريموهيني» وصاحت:

- "ادخلي، ادخلي، يا أمّي الصغيرة، أعرف تماماً أنّ قلب «سوشاريتّا» يتوق إلى رؤياك. إنّها تقرأ دون توقّف عندما تكون حزينة. يا للمصادفة السعيدة، كنت أفكّر للتوّ وأنا راقدة هنا كم سيكون لطيفاً أن تأتي إحداكنّ إلينا وإذا بكِ تأتين، لقد أقبل حظّكِ يا عزيزتي".

عرضت «لوليتّا» الموضوع الذي يشغل عقلها مباشرة، وما إن جلست حتى تقدّمت باقتراحها:

- "ما رأيكِ يا "سوشي – ديدي» إن افتتحنا مدرسة لبنات الجوار؟"

عندها صرخت «هاريموهيني» ذاهلة:

- "ماذا تنفع المدرسة؟"

فسألت «سوشاريتّا» قائلة:

- "كيف بإمكاننا أن نفتتح مدرسة يا عزيزتي؟ من سيساعدنا؟ وهل حدّثتِ أبي عنها؟"

فأخذت «لوليتّا» تشرح قائلة:

- "كِلانا قادرتان تماماً على التعليم، وربّما قد تساعدنا «لابونيا» في ذلك".

- "المشكلة ليست في التعليم فقط، هناك نظم وقرارات لإدارة مدرسة، ينبغي أن تكون لدينا صالة مناسبة، وإيجاد تلاميذ وجمع المال اللازم، هل تعتقدين أنّ فتيات شابّات مثلنا يستطعن أن يقمن بكل ذلك؟"

تابعت «لوليتّا» من جديد:

- "يا «ديدي» لا تتكلّمي بهذه الطريقة، ألأنّنا خُلقنا بنات ينبغي علينا أن نفنى بين جدران البيت الأربعة؟ ألا نستطيع أن نقدّم بعض الخدمات للعالم؟ هناك العديد من البنات الصغيرات في الجوار، ولن يكون أهاليهنّ إلاّ سعداء جداً إن نحن اقترحنا تعليمهنّ مجّاناً، أمّا بالنسبة للصالة فإنّه من السهل علينا إيجاد مكان ضروري هنا لبضع تلاميذ سيأتون في البداية، فمسألة المال إذاً محلولة".

الألم الظاهر في هذه الأقوال وجد له صدىً في قلب «سوشاريتّا» فأخذت تفكّر بشكل جدّي في الموضوع.

شعرت «هاريموهيني» جدّياً بالخوف من فكرة أنّ بناتاً صغيرات غريبات من الجوار قد يجتحن المنزل ليأتين إلى الدرس في الصف، لقد كانت كل جهودها كلّها تهدف إلى احترام قوانين الهندوسية في سلوكيتها وإلى إقامة الشعائر الدينية وفق وصايا الكتب المقدّسة مزيلة بدقّة كل خطر للنجاسة. لقد دفعها القلق إلى الاحتجاج بحدّة أمام خطر احتمال خرق اعتكافها وخلوتها. فقالت لها «سوشاريتّا»:

- "لا تقلقي يا خالتي، إن أتانا تلامذة في يوم من الأيام سنتدبّر الأمر ليكون الصفّ في الطبقة الأرضية من البيت، ولن نترك الأطفال يصعدون إلى الأعلى ويُزعجونك، إذاً يا «لوليتّا»: إن كان بإمكاننا فقط أن نجد تلاميذ فأنا مستعدّة للعمل معك".

- "في جميع الأحوال ليس هناك من ضرر في التجربة".

استمرّت «هاريموهيني» في التذمر والدمدمة بين أسنانها:

- "لماذا تتصرّفن دوماً كالمسيحيين يا أمهاتي الصغيرات؟ لم أسمع على الإطلاق أحداً يتحدّث عن سيدات هندوسيّات يردن فتح مدرسة، لم أسمع عن ذلك في حياتي أبداً".

كانت هناك علاقات منتظمة قد أُقيمت على شرفة منزل «باريش بابو» مع فتيات من الشرفات المجاورة، غير أنّه كانت هناك عقبة تعيق الحميمية الكاملة ألا وهي الإستغراب الذي لم تكن الأخريات يترددن في التعبير عنه والأسئلة التي ترافق هذا الإستغراب المتعلّق بواقع أنَّ بنات «باريش بابو» لم يتزوّجن إلى الآن بالرغم من أنّهنَّ أصبحن كبيرات، لهذا السبب كانت «لوليتّا» تتجنّب الحديث من شرفة إلى شرفة بشكل عام، أمّا «لابونيا» فعلى العكس من ذلك كانت العضو الأكثر حماساً لهذه الاجتماعات لأنَّ فضولها اللامحدود كان يستهدف قصص الجوار العائلية، وكانت إستقبالاتها بعد الظهر تحت السماء وهي تمسك بيدها مشطاً كي تسرّح شعرها على الشرفة، قد لاقت إعجاباً كبيراً وكانت كلّ أنواع الخبريات تنتقل بالخطوط الجوية! لذلك عهدت «لوليتّا» إلى «لابونيا» بمهمّة إيجاد تلميذات لمدرسة المستقبل، وعندما أُعلِنَ عن المشروع على الأسطحة، أثار اهتماماً كبيراً لدى الكثير من الفتيات. في هذه الأثناء، أخذت «لوليتّا» تهيّئ الصالة في الطبقة الأرضية من منزل «سوشاريتّا»، تكنسها، وتطهّرها وتزخرفها بحماس عظيم، غير أنَّ صالة المدرسة ظلّت خاوية إذ إنَّ آباء العائلات المجاورة بدوا غاضبين من هذه المحاولة في جذب بناتهم إلى مركز «براهمو» بذريعة تعليمهنّ، حتى إنّهم إعتبروا أنَّ من واجبهم منع بناتهم من كلّ إتصال مع بنات «باريش بابو»، الأمر الذي كانت نتيجته أنّهنَّ حُرمن ليس فقط من أمسياتهنّ في الهواء الطلق على الشرفات، بل أصبحن يسمعن مجموعة كبيرة من الإنتقادات السلبيّة حول صديقاتهنّ، وعندما كانت المسكينة «لابونيا» تصعد إلى الشرفة ومشطها بيدها، صارت تجد الشرفات المجاورة مزدحمة بالجيل الهرم ولم يكن هناك أيّ وجود لجيل فتي، فتراجعت وإمتنعت عن الإستقبال اللطيف الذي إعتادت عليه. مع ذلك لم تهبط عزيمة «لوليتّا» وقالت في قرارة نفسها، "هناك العديد من الفتيات «البراهمو» فقيرات جداً ولا يستطعن دفع تكاليف دروس مدرسة

«بيتون»[1]، فإذا تحمّلنا مسؤولية تعليمهنّ نكون قد قدّمنا لهنّ خدمة". أخذت «لوليتّا» تبحث عن مثل هؤلاء التلميذات وطلبت من «سودهير» أن يدعمها في إيجاد فتيات. كانت شهرة مواهب ومعارف بنات «باريش بابو» منتشرة بشكل واسع، وما كان يُنشَر عنهنَّ كان يتجاوز الواقع. سُرَّ العديد من الأهالي عندما علموا بأنَّ هؤلاء الصبايا عازمات على التعليم مجّاناً، وفي بضعة أيام كان لمدرسة «لوليتّا» بداية ممتازة مع ست تلميذات، واستغرقت «لوليتّا» بالمناقشة مع أبيها حول القوانين والترتيبات لمدرستها، وهكذا لم يعد لديها دقيقة واحدة تمضيها في مخاوفها الشخصية.

لقد نشب بينها وبين «لابونيا» صراع حقيقي حول نوع الجوائز التي ينبغي توزيعها بعد امتحانات نهاية العام الدراسي وحول من سيترأس هذه الامتحانات. لم تكن العلاقة قد فسدت بين «لابونيا» و«هاران»، فقد ظلّت «لابونيا» تحت تأثير المعرفة الثقافية الكبيرة المتعلقة بـــ«هاران»، ولم تكن تشكّ أبداً بأنّه إذا ساهم في العمل المدرسي بصفة أستاذ أو فاحص، فإنَّ حضوره سيزيد من هيبة المدرسة، لكن «لوليتّا» لم ترد سماع ذكر اسمه أو أي حديث عنه، فهي لم تحتمل فكرة أن يتمكن «هاران» من التدخّل بأيّ شكل من الأشكال في المشروع الذي تبنّته.

إلاّ أنَّ عدد التلميذات بدأ يتضاءل بعد فترة قصيرة من البداية المشجّعة إلى حدّ غدت فيه المدرسة ذات يوم خاوية تماماً. جلست «لوليتّا» في غرفة الصف وكانت تنتفض عند كل صوت خطوة آملة بأن تعود تلميذة ما إلى المدرسة في النهاية، لكن أحداً لم يأتِ؛ في الساعة الثانية ، تيقنت «لوليتّا» أنَّ حادثاً ما قد طرأ، فذهبت إلى منزل إحدى فتيات الجوار فوجدتها منفعلة تبكي وتصرخ قائلة: "لقد منعتني أمّي من الذهاب إلى المدرسة". فقالت الأمّ شارحة

---

(١) مدرسة «بيتون» : Bethune

حجّتها: "هذا يجعل البيت في حالة ثورة". دون أن تحدّد ما يمكن أن يكون ثورياً إلى هذا الحدّ.

كانت «لوليتّا» حسّاسة جداً وعاجزة عن أن تضغط على من يبدي نيّة سيئة، حتى إنّها كانت غير قادرة على السؤال عن السبب، اكتفت بالقول "إن كان ذلك يزعجكم، فلننسَ الموضوع برمّته".

وفي منزل آخر ذهبت إليه، سمعت قصة أخرى فاضحة لقد أصبحت «سوشاريتّا» على المذهب التقليدي فهي تتبع الطبقة وتعبد أصناماً محفوظة في الصمت. "إن كان ذلك يصدمكم، باستطاعتنا أن ننقل الصف إلى بيتنا نحن"، لكن هذا العرض لم يبدّد الاعتراض، عندها تيقّنت «لوليتّا» أنّ هناك سبباً آخر، فتوقّفت عن متابعة جولتها وعادت إلى البيت واستدعت «سودهير» وسألته:

- "قل لي يا «سودهير" ماذا يحصل؟"

- إنّه «هاران بابو» فقد أعلن الحرب على مدرستكنّ".

- "لماذا، لأنّ الأصنام تعبد في منزل «ديدي»؟"

- "ليس بسبب ذلك فقط"، وصمت «سودهير» فجأة.

- "هل الموضوع بسبب تهوّري أنا؟"

ولما ظلّ «سودهير» صامتاً، احمرّت «لوليتّا» غضباً وصاحت تقول وهي مذهولة:

- "أرى أنّهم يعاقبونني بسبب حادثة السفينة، من المؤكد أنّه ليس هناك من سبيل للتكفير عن طيش بنظر «ساماجنا» أليس كذلك؟ إذاً، من الآن فصاعداً محظور عليّ أن أكون مفيدة في طائفتنا، أهذا هو الأسلوب الذي نتبناه من أجل تقدمي النفسي والأخلاقي وكذلك من أجل تقدّم «الساماج»؟".

أراد "سودهير» أن يلطّف التهمة فقال:

- "ليس تماماً، ما يخشاه «الساماج» في النهاية هو أنّ «بينوى بابو» وصديقه سيتدخلان في مشروع المدرسة".

- "يخشى؟ عجباً! لو حصل ذلك ستكون فرصة حقيقية لنا، هل يظنّ «الساماج» أنّ باستطاعته أن يوفّر لنا معاونين بهذه الكفاءة؟"

أمّا «سودهير» وقد انزعج من هياج «لوليتّا»، فقد تمتم قائلاً:

- "أجل، هذا صحيح، لكن، إليكِ «بينوى بابو» فهو ليس...

فقاطعته «لوليتّا» قائلة:

- "... ليس «براهمو»، أعرف، فهو إذاً محظور في نظر «الساماج»! فأنا لا أرى أنّه بإمكاننا بحال من الأحوال أن نفتخر بانتمائنا إلى «ساماج» مماثل".

كانت «سوشاريتّا» قد حزرت على الفور السبب الحقيقي لمقاطعة المدرسة من قبل التلميذات، ودون أن تقول كلمة واحدة خرجت من غرفة الصفّ وصعدت إلى غرفة «ساتيش» لتساعده في التحضير لامتحانه القادم، ولكنّ «لوليتّا» جاءت إليها بعد محادثتها مع «سودهير»، وسألتها:

- "هل سمعتِ بما جرى؟

- "لم أسمع شيئاً لكني فهمتُ طبعاً".

- "وهل علينا أن نقبل دون أن نقول شيئاً؟"

أمسكت «سوشاريتّا» «لوليتّا» من يدها وقالت لها:

- "فلنقبل ما يصيبنا دون أن نقول كلمة واحدة، ألا تعلمين بأيّ صفاء يتقبّل أبونا كل شيء؟"

- "مع ذلك يا «سوشي ديدي»، يبدو لي أنّنا في أغلب الأحيان نشجّع الشرّ عندما نخضع له دون اعتراض، العلاج الوحيد ضد الشرّ هو في محاربته".

- "لكن يا عزيزتي، كيف تقترحين محاربته؟"

- "لم أفكّر في ذلك بعد، حتى إنّني لا أعلم ما أفعله الآن، لكن ينبغي بالتأكيد أن أفعل شيئاً ما، الذين لا يخجلون من محاربة بنات بسيطات مثلنا بهذه الأساليب غير المباشرة، هم جبناء مهما كان رأيهم في أنفسهم جيداً، أؤكّد لكِ أنّي لن أستسلم لمحاولتهم تعنيفي وإرهاقي وعلينا أن نقاومهم مهما استطاعوا أن يسبّبوا لنا من مضايقات".

وصارت تركل بقدمها. أمّا «سوشاريتّا»، ودون أن تجيبها في البدء فقد راحت تلامس يدها بلطف ثم قالت:

- "عزيزتي «لوليتّا»، لنرَ أولاً ما يقوله أبي عن كل ذلك".

فقالت «لوليتّا» وهي تنهض:

- "كنتُ ذاهبة إليه تحديداً".

عندما اقتربت «لوليتّا» من باب البيت الأبوي رأت «بينوى» يخرج منه وشكله مذهول وكأنّه مغلوب على أمره، وعندما لمحته توقّف للحظة واحدة كما لو كان متردّداً في توجيه الكلام لها أو بالذهاب دون أن يحدّثها، لكنه سيطر على نفسه وحيّاها بخفّة ثمّ ذهب دون أن يرفع ناظريه إلى وجهها.

شعرت «لوليتّا» وكأن سهاماً نارية قد اخترقت قلبها، وعندما دخلت البيت بسرعة ذهبت على الفور إلى غرفة أمّها، فوجدت السيدة «بارودا» جالسة خلف مكتبها، ويبدو عليها ظاهرياً أنّها مستغرقة جداً في دفتر حساباتها المفتوح أمامها، قلقت «بارودا» من التعبير الذي قرأته على وجه «لوليتّا» لكنها عادت إلى حساباتها التي تتابع دراستها بجهد كبير لأنَّ رصيد العائلة كان يبدو متعلّقاً بشكل أساسي بدقتها؛ سحبت «لوليتّا» كرسياً إلى جانب الطاولة وجلست، ومع ذلك لم ترفع أمّها عينيها ولا لثانية واحدة، في النهاية نادت «لوليتّا»: "أمّي". فتأوهت «بارودا» قائلة: "انتظري قليلاً يا بنتي، ألا ترين بأنّني ...". وانكبّت من جديد على حساباتها. فقالت «لوليتّا»: لن أزعجكِ طويلاً أودُّ فقط أن أعرف إن جاء «بينوى بابو» إلى هنا"، ودون أن ترفع نظرها عن دفتر الحسابات، ردّت «بارودا» قائلة: "أجل".

- "وماذا قلتِ له؟"

- آه! إنّها قصّة طويلة يلزمها وقت لأحكيها".

- "أودُّ فقط أن أعرف إن كنتم قد تكلّمتم عني".

ولمّا لم تجد «بارودا» مخرجاً رمت ريشتها ونظرت إلى ابنتها وقالت:

- "أجل يا بنتي، لقد تحدثنا عنك، ألم أرَ أنّ الأمور قد ذهبت بعيداً جداً، حتى أبعد مما ينبغي؟ كل مجموعة «الساماج» تتحدّث عنها، وقد نبّهتُ «بينوى» لهذا الخطر".

امتلأ وجه «لوليتّا» احمراراً من الخجل وسألتها:

- "هل منع أبي «بينوى بابو» من المجيء إلى هنا؟"

صاحت «بارودا» مستغربة:

- "هل تظنين أنّه يهتمّ بذلك؟، لو اهتمّ من قبل لما حدث شيء من هذا القبيل".

- "وهل سيستمرّ «هاران بابو» بالمجيء إلينا كما كان يفعل في السابق؟"

عندها صرختْ «بارودا» بأعلى صوتها تقول:

- "يا لهذا السؤال! لماذا لن يأتيَ أبداً؟"

- "إذاً، لماذا لن يأتي «بينوى بابو»؟"

- "«لوليتّا»، لن أجادلك أكثر من ذلك، لا تزعجيني، لديّ الكثير من الأعمال لأنجزها".

أخذت السيدة «بارودا» دفتر حساباتها من جديد وعادت إلى عملها. لقد انتهزت فرصة غياب «لوليتّا» في المدرسة أثناء النهار واستدعت «بينوى» وتكلّمت معه بصراحة تامّة، ظانّة أنّ «لوليتّا» لن تعرف شيئاً عن ذلك، غير أنّها اضطربت عندما رأت حيلتها قد انكشفت، فأدركت بأنّ الحل السلمي الذي أرادت الوصول إليه أمر مستحيل وأنّه على العكس من ذلك ينبغي توقّع مصاعب جديدة، فصبّت جام غضبها على زوجها العاجز. أيّ حمل لامرأة تدير عائلة مع شخص مثله!

أمّا في قلب «لوليتّا» فقد هبّت عاصفة ويا لها من عاصفة!

كان «باريش بابو» في الطابق السفلي جالساً في مكتبه يكتب، ودون مقدّمات سألته «لوليتّا» بغتة: " يا أبي، هل «بينوى بابو» لا يستحق أن يصادقنا؟"

من النظرة الأولى أدرك «باريش بابو» الموقف الراهن، فهو لم يكن غافلاً عن الحركة المعادية التي قامت ضدّه في قلب «الساماج»، وفكّر فيها بشكل جديّ، فهو لم يكن ليعير أدنى اِهتمام للثرثرات الغريبة لو لم يكن قد خطر بباله عمق مشاعر «لوليتّا» تجاه «بينوى»، لكن، إذا كان حبّ «بينوى» قد سكن في قلب «لوليتّا» فسيتساءل عندها باِستمرار عمّا ينبغي أن يكون واجبه تجاهما؟

إنّها المرّة الأولى التي تحصل فيها أزمة داخل العائلة منذ أن اِنفصل رسمياً عن المذهب التقليدي ليعتنق البراهموية. وبينما كانت الأمور المقلقة والمخاوف المتنوعة تلاحقه، كان ضميره في حالة تيقظ يلهمه باليقين، فطالما أنّه لم يخضع إلاّ لفكر الله وحده عندما اِنفصل عن ديانته التي كان يعتنقها منذ الولادة، فينبغي عليه إذاً من جديد، في ساعة الاِمتحان هذه، أن يضع الحقيقة فوق كل اعتبارات مراعاة المجتمع، فهو عندما يتصرّف على هذا النحو لن يخطئ أبداً، وجواباً على سؤال «لوليتّا» صرّح لها قائلاً: "أرى أنّ «بينوى بابو» رجل متميّز، طبعه جميل وهو مثقّف بقدر ما هو ذكي في الوقت نفسه. بعد صمت قصير قالت «لوليتّا»:

- "لقد جاءت أم «غورمّان بابو» لزيارتنا مرّتين في الأيام الأخيرة، ففكّرتُ أن أذهب و«سوشي ديدي» لنردّ لها الزيارة".

لم يستطع «باريش بابو» أن يعطي موافقة فورية على هذا الاِقتراح لأنّه كان يعلم أنّه في مثل هذه الأوقات، وعندما تكون كل حركة من تحرّكاتهم مراقبة وتدور حولها المناقشات، فقد تُفاقِم هذه الزيارة الفضيحة التي تحيط بهم، مع ذلك، وبما أنّه لا يرى أيّ ضرر في هذه الخطوة، فقد شعر باِستحالة منعها، فأجاب:

- "حسن جداً، اِذهبا كلاكما، وإذا لم يكن لديّ الكثير من الأعمال، قد أذهب معكما".

الفصل الثامن والأربعون

لم يكن «بينوى» قد فكَّر أبداً بأنَّ زياراته التي كان يقوم بها إلى عائلة «باريش بابو» بسلامة نيّة قد تسبَّب في المجتمع البراهموي ثوراناً بركانياً. عندما زارهم في المرّات الأولى كان يشعر بشيء من الخجل، وبما أنَّه كان يجهل الحريّة المتاحة في هذا الوسط، فقد كان يتصرّف بحذر. وتدريجياً، وبمجرّد أن خفَّ خجله، زالت فكرة الخوف من أي خطر كان، والآن عندما علم أنَّ سلوكه قد أثار فضيحة تطال «لوليتّا» في «البراهمو – ساماج»، فقد صُعِقَ لهذا الخبر، وأمّا ما آلمه بعمق فهو يقينه بأنَّ شعوره تجاه «لوليتّا» يتجاوز الصداقة البسيطة بكثير، وعندما أدركَ هوّة العادات الاجتماعية التي تفصلهما فقد بدأ ينظر إلى المحافظة على مثل هذا الشعور كجريمة بحدِّ ذاتها. غالباً ما كان يتصوّر الصعوبة في تحديد موقف صحيح بصفته ضيفاً لهذه العائلة، ضيفاً يعامل بقدر كبير من الثقة؛ كان يشعر أحياناً بأنَّه مخادع ويظنّ بأنَّه سيتجلّل بالعار إن هو باح بما في قلبه.

في وضعه هذا، تلقّى ذات يوم بطاقة من «بارودا» ترجوه فيها المجيء لمقابلتها في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً. وعندما وصل سألته:

-"أنتَ هندوسي أليس كذلك يا «بينوى بابو»؟"

وعندما أجاب بنعم، طرحت عليه سؤالاً آخر:

-"ألست مستعداً للانفصال عن المجتمع الهندوسي؟

فردَّ بأنَّه غير مستعدّ لذلك. عندها قالت «بارودا»:

-"في هذه الحال، لماذا...؟"

بعد هذا السؤال غير المكتمل، بدا «بينوى» عاجزاً عن إيجاد جواب محدّد؛ وارتسمت على وجهه علامات الحيرة كما لو أنَّ خدعته قد انكشفت، فالسرُّ الذي كان يريد أن يخفيه عن الشمس ذاتها وعن القمر وعن الهواء، عُرف الآن من كل الناس هنا، وكان باستطاعته أن يسأل نفسه فقط، ما رأي «باريش بابو» في هذا الموضوع؟ وماذا تفكِّر «لوليتّا»؟ وما رأي «سوشاريتّا»؟

لقد وجد له مكاناً في هذا الفردوس لفترة قصيرة بخطيئة ملاك، والآن يُطرَدُ منه بعد أن تمَّ قبوله. ابتعدَ ورأسه محني من الخجل. وعندما لمح «لوليتّا» وهو يغادر منزل «باريش بابو»، فكَّر للحظة بأن يعترف لها بخطيئته وبأن يقطع كل رابط لصداقتهما في ساعة هذا الانفصال النهائي، لكنه عجز عن تصوّر التعابير الملائمة لاعترافه فاكتفى بانحناءة رأس خفيفة باتجاه «لوليتّا» حتّى دون أن ينظر إليها، ومضى في طريقه.

بالنسبة إلى عائلة «باريش بابو»، لم يكن «بينوى» إلاّ غريباً في الماضي والآن عاد ثانية ليكون غريباً، لكن ما الفرق بالنسبة إليه! لماذا يشعر اليوم بهذا الفراغ الكبير؟ سابقاً لم يكن يشعر أنَّ شيئاً ما ينقص في حياته، كان لديه «غوراه» و«آناندموياه». أمّا في الوقت الراهن فهو يشعر وكأنَّه سمكة خارج الماء وكيفما ناور وقلَّب الأمور لا يجد علاجاً للوضع.

في وسط هذا الشارع المزدحم من المدينة النشطة، كان يرى من حوله الصورة الشاحبة والكئيبة للانهيار الذي يهدِّد وجوده؛ انذهل بنفسه من العدم الكلّي الذي يغمره وسأل السماء الصامتة قاسية القلب ليعرف سبب تعاسته وشقائه. وفجأة سمع من يناديه: «بينوى بابو! بينوى بابو»! وعندما ألقى نظرة إلى الجوار رأى «ساتيش» يجري خلفه، أخذه بين ذراعيه وصاح مذهولاً:

- "حسن يا أخي الصغير؟ ماذا يجري يا صديقي الصغير؟"

كان صوته مليئاً بالدموع، لم يكن قد أحسَّ – في الماضي – برقّة الحنان التي يجدها في علاقاته مع هذا الطفل من منزل «باريش بابو» كما يحسّها الآن. فسأله «سانيش»:

-"لماذا لا تأتي لزيارتنا؟ غداً ستأتي «لابونيا» و«لوليتّا ديدي» للغداء عندنا، لقد أرسلتني خالتي لأدعوكَ أنتَ أيضاً".

استنتج «بينوى» أنَّ «هاريموهيني» لم تصلها بعد الأخبار الجديدة، فردَّ قائلاً:

-"يا «سانيش بابو» أوصل تحياتي واحترامي لخالتكَ لكن قل لها بأنّني لن أستطيع تلبية الدعوة".

-أمسك «سانيش» بيد «بينوى» وترجّاه قائلاً:

-"لماذا لا تستطيع المجيء؟ ينبغي أن تأتي، سنرغمك على ذلك قسراً حتى لو كنتَ مرتبطاً في مكان آخر".

لـــ«سانيش» أسبابه الخاصة التي تدفعه للإلحاح على «بينوى»، لقد أعطوه في المدرسة وظيفة هي موضوع إنشاء عن الرأفة تجاه الحيوانات ونال عليه علامة ٤٢ /٥٠، وشعر برغبة كبيرة في عرضه على «بينوى» كي يقرأه، فقد كان يعرف أنَّ صديقه شخصية مثقفة وحكيمة جداً، فقرّرَ بينه وبين نفسه بأنْ رجلاً لائقاً وواثقاً كـــ«بينوى» هو القادر حقاً على تقييم عمله وتقديره، وإذا أعلن «بينوى» عن امتياز موضوعه وجودته عندها يصبح باستطاعته إبداء ازدرائه للامبالاة «ليلا» إذا حاولت إظهار قلّة احترام لعبقريته. في الواقع كان هو من طلب من خالته دعوته لأنّه أراد أن يعبّر هذا الصديق المثقف عن رأيه بموضوع الإنشاء بحضور أخواته، فعندما رفض قبول الدعوة، حزن «سانيش» حزناً شديداً.

وضع «بينوى» ذراعه حول عنقه وقال له: "تعال يا «سانيش» معي إلى بيتي". وبما أنَّ «سانيش» يحمل وظيفته في جيبه لم يستطع الرفض رغم هدر

الوقت الثمين مع اقتراب موعد الامتحان، فقد توهّم أنّ هذا الشاب ذا الشهرة الأدبية الكبيرة قد ينقل إلى صديقه المفضّل «غورا» أنباء تفوّقه في الإنشاء.

لم يتمكن «بينوى» من ترك الطفل يذهب وأبدى إعجابه بموضوع الإنشاء بشكل ليس فيه روح النقد ولا المحاكمة السليمة، بالإضافة إلى ذلك، أرسل خادمه إلى السوق لشراء حلويات غمر بها «ساتيش»، ثم رافق هذا الولد الصغير لإيصاله إلى أقرب نقطة من منزل «سوشاريتا»، وعندما فارقه قال بتأثر ملفت:

-"حسن يا «ساتيش» سأذهب الآن".

لكن «ساتيش» أمسك بيده وحاول شدّه وهو يقول له:

-"لا،لا، ينبغي أن تدخل إلى البيت".

غير أنّ إلحاحه في هذه المرّة ذهب سدىً.

مشى «بينوى» إلى منزل «آناندامو١» وكأنّه في حلم. كانت منشغلة، فدخل إلى الغرفة المنعزلة المطلّة على الشرفة حيث كان من عادة «غورا» أن ينام.

كم من الليالي والأيام السعيدة أمضياها معاً في هذه الغرفة خلال سنيّ صداقة الطفولة! كم من الثرثرات الفرحة وكم من القرارات والمناقشات الجدّية! وكم من الشجارات الودّية وأيّة نتيجة محبّبة لها!

لقد أراد «بينوى» أن ينغمس في ذكريات الأيام القديمة وينسى الحاضر، لكن الصداقات التي عقدها مؤخراً شكّلت عثرة في دربه ومنعته من الولوج إليها.

لم يكن «بينوى» يدرك حتى الآن متى تحوّل مركز حياته ومتى تغيّر الاتجاه، أمّا حالياً وقد أدرك أنّ ذلك حقيقة، فقد ارتاع منه.

كانت «آناندامويا» قد نشرت غسيلها على سطح البيت كي يجفّ، ثم أتت إليه ظهراً فاندهشت عندما رأته في غرفة «غورا»، فهرعت باتجاهه ووضعت يدها على كتفه وسألته:

-"ماذا في الأمر يا «بينوى»؟ لماذا أنت شاحب إلى هذا الحدّ؟

جلس «بينوى» وقال:

-"يا أمّي، عندما بدأتُ بالتردّد إلى بيت «باريش بابو» غضب «غورا» من ذلك، وفي ذلك الوقت كنت أجد أنّه لم يكن على حق في غضبه، لمّا اليوم فأجد أنّه لم يكن على خطأ بل أنا من كان على خطأ وكنتُ أتصرّف كالأحمق".

ضحكت «آناندامو ا» ضحكة خفيفة وأجابته:

-"أنا لا أزعم أنّك شاب ذكي ذكاءً ملفتاً، لكنّي أودُّ أن أعرف في أي أمرٍ لم تتصرّف بذكاء في هذه المناسبة الخاصّة؟"

-"لم أفكّر يا أمّي أبداً ولا للحظة واحدة في التناقض المطلق الموجود في عاداتنا الخاصّة، لقد كنتُ فقط أميل للمتعة وللفائدة التي أكتسبها منهم كمثل أعلى ومن صداقتهم، وهذا ما دفعني إليهم، لم يخطر ببالي أبداً أن يكون هناك سبب للقلق".

فقالت «آناندامو ا»:

-"وفق ما كنت تحدّثني عنهم أنا أيضاً لم يكن ليخطر ببالي أي نوع من الخوف".

-"لو تعلمين يا أمّي بأنّي قد أثرتُ عاصفة حقيقية ضدّهم في أوساطهم، لقد صنع الناس فضيحة كبيرة من هذا الموضوع ما يجعلني أبداً..."

فقاطعته «آناندامو ا» قائلة:

-"يعبّر «غورا» عن فكرة كانت تبدو لي صحيحة على الدوام، فهو يؤكّد أنْ لا شيء أسوأ من السلام الظاهري عندما تسود الفوضى في الأعماق، فإذا هبّت عاصفة في «ساماجهم» فأنا لا أرى ضرورة للندم والتأسّف عليها، سترى لاحقاً أنّ الخير سيبرز منها، الأمر الأساسي والجوهري هو أنّ سلوكك كان صادقاً ومستقيماً".

ها هي الصعوبة التي كان «بينوى» يشعر بها تماماً، إذ لم يكن ليستطيع تحديد ما إذا كان سلوكه سليماً لا مأخذ عليه، وبما أنّ «لوليتّا» تنتمي إلى وسط مختلف كلياً عن وسطه وبالتالي الزواج منها أمر محال، فقد أصبح «بينوى» يرى في حبّه لها خطيئة خفيّة يعذّبه التفكير فيها وأنّ الوقت قد حان للعقوبة التي لا مفرّ منها، وهنا صاح بعنف:

-"كان الأفضل لي يا أمّي لو تمَّ مشروع الزواج من "سوشي – موكهي"[1]، إنني بحاجة لأن أتمسّك بعلاقة متينة في مكان أنتمي إليه، أشعر أنّني بحاجة لأن أرتبط بعلاقة لن أتمكن من الإفلات منها".

أجابت «آناندامو ا» متهكّمة:

-"بتعبير آخر، عوضاً من أن تجعل من «سوشي» زوجتكَ، أنتَ تريد أن تجعل منها قيدكَ، فأيّ نصيب هذا لـ«سازي»!"

في هذه الأثناء أعلن الخادم عن قدوم بنات «باريش بابو» لزيارتها. أخذ قلب «بينوى» يخفق بشدّة لسماع هذا الخبر لأنّه متيقن بأنّهنّ آتيات للتشكّي منه عند «آناندامو ا»، وليطلبن منها أن تنصحه وترجوه التروّي. نهض بسرعة وقال: "أنا ذاهب يا أمّي"، لكن «آناندامو ا» أمسكت به قائلة:

- "لا تذهب يا «بينوى»، اِنتظر قليلاً في الطابق السفلي".

نزل إلى الأسفل وهو يكرّر بينه وبين نفسه:

"لا فائدة من مساعيهن، ما حصل لا يمكن أن يُمحى، لكن من الآن فصاعداً، الموت أهون عليّ من العودة إليهنّ. عندما تكاد عقوبة الخطيئة تفنيكَ كالنار المحرقة، فهذه النار لا تنطفئ حتى بعد أن يكون الخاطئ قد شارف على التحوّل إلى رماد".

---

(١) "سوشي – موكهي" هي سازي ابنة "مُهيم"

وبينما كان يدخل إلى صالة الطابق الأرضي حيث كان من عادة «غورا» الجلوس، إذ بـــ«مُهيم» يعود من مكتبه، وأزرار قفطانه («شابكانه»)(١) مفتوحة لإراحة بطنه، هتف فرحاً وقال:

-"آه! آه! ها هو «بينوى» وهو يمسكه من يده، صدّقني كنتُ أريد أن أراكَ".

اصطحبه إلى غرفته وقدّم له أوراق التنبول التي تناولها من علبته الخاصة، ثم نادى الخادم صارخاً: "اجلب التنباك"، ودخل على الفور في الموضوع الذي يشغل باله:

-"تلك القضيّة كانت عملياً محسومة أليس كذلك؟ إذاً..."

لاحظ «مُهيم» بأن «بينوى» لم يعد صعب الانقياد كالسابق، ليس لأنّه يبدي حماساً بل لأنّه لا يبدي ميلاً لتجنّب السؤال، وعندما أبدى «مُهيم» رغبته في تحديد موعد الزواج ردَّ «بينوى» قائلاً: "نقرِّر ذلك عندما يعود «غورا» إلينا"؛ فأكّد له «مُهيم» بنبرة واثقة : "هذا لن يطول أكثر من بضعة أيام"، ثم أضاف قائلاً: "هل ترغب في مرطب يا «بينوى»؟ وجهك شاحب، أرجو ألاّ يخفي هذا الشحوب مرضاً".

عندما رفض «بينوى» الضيافة ، دلف «مُهيم» إلى داخل المنزل ليُهدّئ من توترات جوعه بينما أخذ «بينوى» يقلّب صفحات أول كتاب التقطه على طاولة «غورا»؛ ثم رمى الكتاب وبدأ يذرع الغرفة بخطى واسعة إلى أن ظهر خادم جاء ليعلمه أنَّ هناك من ينتظرهُ في الطابق العلوي. فسأله: "من هو المنتظَر في الطابق العلوي؟ أنا!"

-"أنتَ".

-"هل يوجد ناس فوق؟"

-"أجل".

---

(١) شابكان: CHAPKAN: لباس للرجل، شبيه بالقفطان، رداء مزخرف كالعباءة يُلبَس فوق الثياب.

تبع «بينوى» الخادم كما يتبع الطالب حاجب الكلية الذي يقوده إلى صالة الامتحان، ووقف عند الباب متردّداً، لكن «سوشاريتّا» نادته كعادتها بصوتها الصريح والودود: "ادخل يا «بينوى بابو». وعند سماعها تتكلّم بهذه الطريقة أحسّ «بينوى» وكأنّه تلقى – فجأة – هدية لا تُقدّر بثمن.

عندما دخل فوجئت «لوليتّا» كما «سوشاريتّا» بشحوب وجهه الذي لا يزال متأثّراً من الصدمة التي سببتّها الحادث المؤلم وغير المتوقع الذي تعرّض له البارحة، فبدا وجهه مدمّراً، هذا الوجه الذي تعوّد أن يبدو فرحاً ومشرقاً؛ تأثّرت «لوليتّا» لهذا المنظر وشعرت بالألم، ومع ذلك لم تستطع أن تخفي بعضاً من فرحها؛ في ظرف آخر قد تجد صعوبة في بدء الحديث مع «بينوى» لكنها – في هذا اليوم بالذات – ما إن رأته حتى هتفت فرحاً قائلة:

-"آه، يا «بينوى بابو» نحن بحاجة لنصيحة من قِبلكَ".

غمرت هذه الكلمات «بينوى» بالفرح، فارتعش سروراً وأشرق وجهه الشاحب والحزين في لحظات. وتابعت «لوليتّا» تقول:

-"نحن، الأخوات الثلاث نودُّ أن نؤسس مدرسة صغيرة للبنات".

فصاح «بينوى» بحماس:

-"حقاً، منذ زمن بعيد يراودني هذا الحلم بفتح مدرسة للبنات".

فقالت له «لوليتّا"»:

-"ينبغي أن تساعدنا".

-"يمكنك الاعتماد عليّ وأعدكِ بأنّني لن أتأخّر عن القيام بكلّ ما هو ضمن إمكانياتي، لكن قولي لي ماذا تريدين مني أن أفعل؟".

أخذت «لوليتّا» تشرح له:

-"إن آباء العائلات الهندوسية لا يثقون بنا لأننا براهمو، فلذلك يلزمنا دعم في هذا المجال".

فقال «بينوى» بنبرة قوية:

-"آه، من هذه الناحية لا تقلقي سأتدبّر الأمر تماماً كي أقنعهم".

أضافت «آناندامواِ»:

-"أؤكد بأنّه سيفعل ذلك، ليس لـ«بينوى» مثيل في اِستمالة الناس بقوّة أقواله المقنعة وبسحرها".

ثم تابعت «لوليتّا» طلباتها:

-"ستساعدنا في كتابة مجموعة الأنظمة الأساسية للمدرسة، ووضع البرنامج الزمني واِختيار المواد التعليمية وتقرير عدد الصفوف، إلخ..".

غير أنّ «بينوى» شعر بالإحراج، حتّى لو كان باِستطاعته أن يحلّ كل هذه المسائل بسهولة.

هل تعرف «لوليتّا» أنّ «بارودا» قد حظّرت عليه أيّة علاقة مع العائلة؟ ألا تعلم أنّ هناك تحريضاً ممنهجاً قد تمّ تنظيمه ضدّهم في «الساماج»؟ فلم يستطع حسم أمره ليقرّر، وأخذ يتساءل هل أنا على خطأ؟ هل سأسبّب الأذى لـ«لوليتّا» إن أنا قبلتُ اِقتراحها؟ من جهة أخرى، هل ستكون لديّ القوة النفسية لرفض مساعدتها، وهي مساعدة بهدف الإحسان؟

أمّا «سوشاريتّا» من جهتها فلم تكن أقل دهشة، إذ لم تكن تتخيّل أبداً أنّه بإمكان «لوليتّا» أن تطلب من «بينوى» طلباً كهذا الطلب، فقد وصلت علاقاتهم به إلى وضع معقّد، وها هي «لوليتّا» تزيدها تعقيداً أكثر فأكثر، فأن تقوم «لوليتّا» بنفسها باِقتراح من هذا النوع – وهي المحذّرة من قبَل أمّها – أمر أرعب «سوشاريتّا»، ولكن سرعان ما تبيّن لها أنّ «لوليتّا» أمست في حالة ثورة مفتوحة، ولكن هل كان من الضروري أن تجرّ معها «بينوى» التعس في ثورتها؟ شعرت «سوشاريتّا» بشيء من القلق واِقترحت:

-"ينبغي علينا أولاً أن نناقش هذه القضيّة مع أبينا، لذلك تريّث يا «بينوى بابو» ولاتتباهى كثيراً بأنّك عُيِّنتَ مفتشاً لمدارس البنات".

هذه الملاحظة جعلت «بينوى» يُدرك أنَّ «سوشاريتّا» تحاول دون صخب أن تسقط طلب «لوليتّا»، فزاد في تحفظه؛ لقد رأى بوضوح بأنَّ «سوشاريتّا» على علم بالصعوبات التي ينبغي على العائلة مواجهتها، فقدّر حينها أنَّه من غير المعقول أن تجهلها «لوليتّا»، لكن لماذا...؟ كل ذلك بدا بالنسبة إليه كالأحجية.

وافقت «لوليتّا» قائلة:

-"بكل تأكيد، ينبغي علينا أن نستشير أبي، وطالما أنَّ «بينوى بابو» قد وافق، سنعلمه بذلك، وإنني واثقة تماماً أنَّه لن يعترض، سنرجوه أيضاً أن يساعدنا في إدارة المدرسة، وأنتِ أيضاً لن تكوني منسية قالت ذلك وهي تنظر إلى «آناندامو ا».

فقالت «آناندامو ا» وهي تضحك:

-"بالتأكيد يمكنني على الدوام أن أكنس الصف، فلا أرى أنّي قادرة على القيام بأيّ شيء آخر".

صادق «بينوى» على ذلك قائلاً:

-"سيكون ذلك كافياً يا أمّي، على الأقل ستكون مدرستنا نظيفة حتماً".

بعد مغادرة «لوليتّا» و«سوشاريتّا»، سار «بينوى» باتجاه «جنات عدن»، عندها أتى «مُهيم» ليرى «آناندامو ا» وقال لها:

-"أرى أنَّ «بينوى» قد أصبح أكثر تساهلاً، وينبغي انتهاز هذه الفرصة لحسم القضيّة فوراً، فقد يغيّر رأيه من جديد".

فهتفتْ «آناندامو ا» متفاجئة:

-"كيف! منذ متى رضيَ «بينوى» مرّة أخرى بهذا الزواج؟ فهو لم يخبرني عنه أبداً".

فردَّ «مُهيم» قائلاً:

-"لقد حدَّثني عنه اليوم بالذات، وقال: إنّ الموعد يمكن أن يُحدَّد عند عودة «غورا» ".

هزّت «آناندامو ا» رأسها قائلة:

-"كلاّ يا «مُهيم» لقد فهمتَ الموضوع خطأ، أؤكّد لك ذلك، صدقني".

-"مهما كنتُ غبياً، فأنا بسنٍّ يخولني أن أفهم ما يُقال لي بتعابير واضحة، وأنا واثق مما أقوله".

-"يا بني، أعرف أنّك ستحقد عليّ، لكنني متيقّنة من أنّك بإصرارك هذا ستثير مصاعب كبيرة".

-"إذا كنتِ تريدين أنتِ بنفسك خلق المصاعب، فمن الطبيعي أنّنا سنتكدّر".

قال «مُهيم» ذلك بوجه مقطّب كئيب، فقالت «آناندامو ا»:

-"باستطاعتي أن أحتمل كل انتقاداتكَ يا «مُهيم»، لكنّني لا أستطيع قبول ما يوشك أن يهدّد حياة العائلة، أنذرك لصالح الجميع".

فردَّ «مُهيم» بنبرة فظّة:

-"لو تسمحين لنا فقط أن نقرِّرَ بأنفسنا ما هو الصالح لنا لما كنا وجّهنا لكِ انتقادات، وربّما سيكون كل شيء لصالح الجميع على المدى البعيد لو أنّكِ فقط تتركين مسألة معرفة ما هو الأفضل لنا معلّقة إلى ما بعد زواج «سازي»؟"

-لم تجب «آناندامو ا» على هذه النصيحة، بل اكتفت بتنهيدة بينما أخرج «مُهيم» من جيبه علبة الـ«بان» وذهب وهو يمضغ أوراق التنبول التي لا يمكنه التخلّص منها.

الفصل التاسع والأربعون

ذهبت «لوليتّا» إلى أبيها «باريش بابو» وقالت له:

-"لا تريد البنات الهندوسيات الالتحاق بمدرستنا لأنّنا من طائفة «البراهمو»، لذلك فكّرتُ بأنّه سيكون لصالح مؤسستنا أن يكون فيها هندوسيّ ليساعدنا، ما رأيكَ يا أبي؟"

-"أين يمكنكِ أن تجدي متعاوناً بين الهندوسيين؟"

عندما كانت في طريقها إلى مكتب أبيها استعدّت «لوليتّا» للمهمّة الصعبة في ذكر اسم «بينوى» لكن عندما وجب أن تقولها شعرت بخجل شديد، غير أنّها - وبمجهود كبير - تلفظت باسمه:

-"لماذا سيكون صعباً؟ العديد من الأشخاص قادرون على القيام بذلك، كـ«بينوى بابو» على سبيل المثال، أو ...".

استخدام كلمة «أو» كان عديم الفائدة تماماً، حتى إنّ الكلمة كانت زائدة وظلّت الجملة معلّقة. لكن «باريش بابو» صاح متسائلاً:

-"«بينوى»! لماذا سيقبل «بينوى»؟"

وجّهت هذه الملاحظة طعنة إلى كبرياء «لوليتّا»، قد يرفض «بينوى»؟ ألا يعلم أبوها أنّها تملك المقدرة على أن تجعله يقبل؟ لكنها اكتفت بالتأكيد على ما قالته:

-"لا يوجد سبب كي يرفض".

بعد صمتٍ قصير قال «باريش بابو»:

-"عندما سيتفحص القضيّة من كل جوانبها سوف يرفض!".

طفح وجه «لوليتّا» بالاحمرار، وأخذت تحرك رزمة المفاتيح المعلّقة بساريها، شعر «باريش بابو» بالحزن لرؤية وجه ابنته وقد تكدّر، لكنه لم يقل أية كلمة ترضية، بعد برهة من الزمن رفعت «لوليتّا» عينيها ببطء وسألت:

-"إذاً مشروع مدرستنا لن يتحقّق يا أبي؟"

-"حالياً أرى أمامنا كل أنواع المعوقات، لكن إذا تشبثتِ برأيكِ فستكونين قد نجحتِ فقط بإثارة الانتقادات المتنوعة وكلّها مؤلمة".

أكثر ما تبغضه «لوليتّا» هو قبول هذا الفشل دون احتجاج، زد على ذلك رؤية «هاران» ينتصر؛ لم تكن أبداً لتستسلم وتقبل أن يعطي أحد غير أبيها أمراً بالتراجع، فهي نفسها لم تكن تخشى أيّة صعوبة فكيف ستخضع للظلم؟ نهضت وخرجت دون أن تقول كلمة واحدة.

عندما وصلت إلى غرفتها وجدت رسالة تنتظرها، عرفت من أسلوب الكتابة أنَّ الرسالة آتية من صديقة قديمة من أيام المدرسة وهي الآن متزوجة وتسكن في الريف، فقرأت هذه الجملة:

"لقد اضطربتُ جرّاء الشائعات التي تنالكِ والتي تصلني من كل حدب وصوب، كنت أريد ان أكتب إليكِ بهذا الصدد لكن لم يتسنَ لي وقت فراغ، غير أنّي تلقيتُ أول أمس رسالة من أحدهم - لن أذكر اسمه - تحمل لي أخباراً مذهلة، في الواقع ما كنت لأصدّق لو أنَّ المراسل لا يوحي لي بالثقة التامّة، هل يمكن أن تكوني عازمة على الزواج من شاب هندوسي؟ إن كان ذلك صحيحاً...إلخ".

سخطت «لوليتّا» لحدّ الغليان ودون أن تنتظر دقيقة واحدة جلست لتكتب الرسالة التالية:

"إنّي مندهشة من كتابتكِ لتسأليني إن كانت الخبرية صحيحة أم لا، هل إيمانك متزعزع ضعيف لهذه الدرجة ليدفعكِ إلى الشكّ في حقيقة أكّدها لكِ عضو

في «البراهمو – ساماج»؟ وفوق ذلك تعبّرين لي عن الذعر الذي أصابك لفكرة ان أكون مستعدّة للزواج من شاب هندوسي؛ أؤكد لكِ أنّ هناك شبّاناً أتقياء ومرموقين من «البراهمو – ساماج»، ولكنّ مجرد التطلع إلى الزواج بواحد منهم يملؤني تخوفاً وخشية، وعلى العكس من ذلك، فأنا أعرف شاباً أو شابين هندوسيين الزواج من أحدهما يمكن أن يملأ أيّة فتاة شابّة من «البراهمو» بالافتخار والكرامة، لا يوجد لديّ شيء آخر أرغب في كتابته لكِ بشكل خاص".

أمّا بالنسبة إلى «باريش بابو»، فقد أهمل عمله في هذا اليوم وظلّ مستغرقاً في أفكاره لمدة طويلة؛ خرج في النهاية قاصداً منزل «سوشاريتّا» التي ذُعِرت لرؤية هيئة وجهه القلقة، وكانت تعلم سبب هذا القلق لأنّها هي نفسها تبحث عن حلٍّ لهذه المسألة منذ بضعة أيام. دخل «باريش بابو» مع «سوشاريتّا» إلى الغرفة التي كانت فيها لوحدها وجلس، ثم بدأ الحديث:

-"يا أمّي الصغيرة، لقد حان الوقت لنفكّر جدياً بـ«لوليتّا»".

أجابته «سوشاريتّا» بنظرة ملؤها الحنان:

-"أعرف ذلك".

-"أنا لا أهتمّ بالفضيحة التي حصلت في محيطنا، إنّي أبحث إن كانت «لوليتّا»..."

لمّا رأت حيرة «باريش بابو» حاولت «سوشاريتّا» أن تعبّر بوضوح عن فكرتها الخاصة:

-"لقد كانت «لوليتّا» على الدوام تسرّ لي بحرية كبيرة بكلّ ما تفكّر به، لكني لاحظتُ مؤخراً أنّها لم تعد تفتح لي قلبها بالطريقة نفسها، إنّي مدركة أنّ..."

قاطعَها «باريش بابو» قائلاً:

-"تحمل «لوليتّا» في قلبها همّاً ثقيلاً ذا طبيعة تجعلها لا تجرؤ حتى على مواجهته عندما تكون وحدها، إنّي مرتبك لاختيار ما هو الأفضل، ما رأيكِ؟ هل تسبّبتُ لها بالضرر عندما سمحتُ لـ«بينوى» أن يزورنا بحريّة؟"

-"إنّك تعرف يا أبي أنّ أخلاق «بينوى بابو» نبيلة، في الواقع نادراً ما أُصادف بين الشبان المثقفين في محيطنا الخاص، طبيعة بهذا الكرم".

صاح «باريش بابو» إعجاباً وفرحاً وبحماس كما لو أنّه قد اكتشف للتوّ حقيقةً جديدة:

-"أنتِ على حق يا «رادها»، أنتِ على حق، ينبغي علينا أن نفكّر مليّاً بهذه الأخلاق الكريمة، إنّ هذه الناحية فقط هي التي تؤخذ - في عيون الله - بعين الاعتبار، و«بينوى» هذا، هو رجل طيّب وينبغي علينا أن نشكر الله لأنّنا لم نخطئ في هذه الناحية".

تنفّسَ «باريش بابو» الصعداء بحريّة تامّة وشعر كأنّه قد أفلت من فخ، فهو لم يكن في حياته جاحداً بنعمة ربّه، بالنسبة إليه، الميزان الذي يزن الله به البشر هو ميزان الحقيقة الأزلية، وبما أنّه لم يستخدم الموازين المفبركة في محيطه، فهو لم يشعر بأيّ ندم، لكنه بدا متفاجئاً لأنّه تألم عوضاً عن الاعتراف بهذا الواقع وبهذا الوضوح. وضع يده على رأس «سوشاريتّا» وقال لها:

-"اليوم، أنتِ من جعلني أميّز الحقيقة، يا أمّي".

انحنت «سوشاريتّا» بسرعة لتلمس قدمَي أبيها وقالت:

-"لا، لا، يا أبي ماذا تقول هنا".

-"ينسى الأشخاص الطائفيون تماماً واقعاً بسيطاً وهو أنّ الإنسان هو إنسان قبل كل شيء. تخلق المذهبية نوعاً من فساد المحاكمة حيث الاختلاف الذي يقيمه المجتمع بين البراهموية وبين الهندوسية يأخذ أهميّة تفوق أهميّة الحقيقة الأزلية؛ خلال كل هذه الأوقات كانت محاكمتي فاسدة ومنحرفة وكنتُ ضالاً على غير هدى في متاهة الزيف والتشويه".

وبعد صمت قصير تابع «باريش بابو» يقول:

-"لا تريد «لوليتّا» أن تتراجع عن مشروعها في فتح مدرسة للبنات، إنّها تريد أن تترجّى «بينوى بابو» ليساعدها في هذه المهمّة وتطلب مني أن أسمح بذلك".

عندها صرخت «سوشاريتّا» قائلة:

-"كلاّ، كلاّ يا أبي، ينبغي أولاً أن نفكّر".

حضرت صورة «لوليتّا» أمام عيني «باريش بابو» عندما غادرته وتعبير التعاسة الذي ظهر على محياها عندما نصحها بعدم طلب مساعدة «بينوى»، هذه الصورة أحزنته. إنّه يفهم تماماً ألم ابنته، إنّها نشيطة ومندفعة، طبعها حادّ كالعاصفة، لا يهمّها لوم المجتمع بقدر ما يهمّها منعها من محاربة هذا اللوم، وزاد ألمها أكثر فأكثر أنّ أباها هو من يمنعها عن هذا الكفاح، فهو يتمنى الآن وبعمق أن يغيّر موقفه في هذا الموضوع فسألها:

-"لماذا يا «رادها»، لماذا ينبغي علينا أن ننتظر؟"

-"لأننا سنسيء إلى أمّي".

رأى «باريش بابو» أنّها على حق، لكن قبل أن يتكلّم دخل «ساتيش» وهمس ببضع كلمات في أذن «سوشاريتّا»، فقالت له:

-"كلاّ، ليس الآن، بل غداً".

تأفّف «ساتيش» وارتبك:

-"لكن غداً سأذهب إلى المدرسة".

فسأله «باريش بابو» مع ابتسامة حنونة:

-"ماذا في الأمر يا «ساتيش»؟ ماذا تريد؟"

فبدأت «سوشاريتّا» تقول:

-"آه! إنّ «ساتيش» يريد فقط..."

لكنّ «ساتيش» وضع يده على فمها ليمنعها من متابعة كلامها ورجاها قائلاً:

-"لا تقوليها، لا تقوليها".

-"إن كان ذلك سرّاً فأنتَ تعرف تماماً بأنْ «سوشاريتّا» لن تبوح به".

-"لكن يا أبي، لديه حقاً رغبة كبيرة بأن تعرف أنتَ هذا السرّ".

-"أبداً" صرخها «ساتيش» وهو يركض هارباً.

في الواقع، لقد أثنى «بينوى» على وظيفته كثيراً ووعده بأن يُري موضوع الإنشاء لــ«سوشاريتّا»، لا مبرّر لنضيف بأن «سوشاريتّا» فهمتْ الحجّة التي دفعته لهذا الطلب بحضور «باريش بابو».

المسكين «ساتيش» لم يكن يعرف أنَّ الدافع لأكثر الأفكار سريّة في هذا العالم يمكن أن ينكشف بسهولة.

الفصل الخمسون

بعد أربعة أيام جاء «هاران» لزيارة «بارودا» وبيده رسالة، فهو قد يئس من إمكانية إقناع «باريش بابو»، مدَّ يده ليسلمها تلك الرسالة وقال لها:

-"أردتُ أولاً أن أُحذِّركِ لتحتاطي. عندما قمتُ بهذه الفعلة عرّضتُ نفسي لسخطكِ، لكنّ هذه الرسالة ستُظهِر لكِ الآن إلى أيّ مدى وصلت الأمور بين الكواليس".

الرسالة التي قدّمها هي جواب «لوليتّا» إلى صديقتها في الريف، وعندما اِنتهت «بارودا» من قراءتها صاحت متعجِّبة:

-"كيف كان يمكنني أن أتوقع ذلك أو أتحسّب له؟ لم أكن لأتخيّل جنوناً كهذا، لكن اِسمح لي أن أُعلمكَ بأنّني لستُ أنا المُلامة، لقد ساهمتم جميعاً في زيادة غرور «سوشاريتّا» بجوقة المديح التي أقمتموها حول فضائلها، لم تكن هناك في كل «البراهمو – ساماج» فتاة يمكن مقارنتها بها، والآن ينبغي عليكم إيقاف تأثير نموذج الشابّة البراهمو، إنّه زوجي هو الذي أتى بـ«بينوى» و«غور بابو» إلينا، ولقد عملتُ ما بوسعي كي أجذب «بينوى» وأجعله يفكِّر مثلنا، لكن عندما بدأت قصة تلك الخالة التي لا يعلم إلاّ الله من أين أتتنا، وبدأت معها عبادة الأصنام في منزلنا، وأُفسِدَ «بينوى» وصار يتهرّب ويتحاشى الاِقتراب مني، فقد كانت «سوشاريتّا» تقف وراء كلّ هذه المشاكل. لقد كنتُ أعرف دوماً أي نوع من البنات هي في حقيقتها لكنّي كنتُ أصمت، لقد ربيّتها بكثير من العناية ولم يكن أحد يحزر بأنّها لم تكن اِبنتي الحقيقيّة،

والآن ها هي المكافأة التي أتلقّاها منها، لا يفيد في شيء أنّكَ أريتني هذه الرسالة، ينبغي أن تعمل وفق تقديرك للأمور وبما تراه الأفضل".

عبّر «هاران» عن أسفه بكثير من المجاملة وصرَّح ببراءة أنّه لم يكن يعرف حقيقة السيدة «بارودا» في بعض الأوقات، وفي النهاية استدعيا «باريش بابو».

صاحت «بارودا» وهي ترمي بالرسالة أمامه على الطاولة: "اقرأ هذا". وبعد أن قرأ الرسالة بعناية وأعاد قراءتها لأكثر من مرّة، نظر إليها وسأل:

- "طيب، ماذا؟"

فكرَّرت «بارودا» ماقاله وهي غاضبة:

-"طيب؟ أحقاً تقولها، ماذا يلزم أكثر من ذلك لتتحرك؟ كلّ الادلّة لديك هنا، لقد سمحتَ بعبادة الأوثان ومراعاة الطبقة والتقيّد بها، بكلّ شيء إجمالاً، لا ينقصنا بعد ذلك سوى أن تزوّج إحدى بناتك لشابٍّ من عائلة هندوسية، وأفترض بعد ذلك بأنّك ستتوب وتدخل بنفسك بين الهندوس، لكن دعني أحذِّركَ..."

-"لستِ بحاجة لأن تحذّريني من شيء؟ لم يأتِ وقت التحذير بعد، السؤال الوحيد هو في معرفة ما الذي جعلكِ تتخيّلين أنّ «لوليتّا» تنوي الزواج من هندوسي؟ لا يوجد شيء في هذه الرسالة يسمح لكِ بالظنّ في ذلك، لا شيء على أيّة حال حسبما أرى".

فقالت «بارودا» وقد نفد صبرها:

-"لم أستطع حتى هذه الساعة أن أكتشف ما هي الوسيلة التي تفتح عينيك، لو لم تكن أعمى منذ البداية لم يكن ليحصل شيء مما حصل، عجبي! الرسالة واضحة وضوح الشمس".

فتدخّل «هاران» وقال:

-"ربّما ينبغي علينا أن نرجو «لوليتّا» كي تفسِّرَ لنا بنفسها معناها، بإمكاني أن أستجوبها إن سمحتم لي بذلك".

قبل أن تُضاف كلمة واحدة دخلت «لوليتّا» إلى الغرفة كالإعصار وقالت:

-"انظر يا أبي، يصلنا رسائل مغفلة من جماعتنا في «البراهمو – ساماج»."

قرأ «باريش بابو» الرسالة التي ناولته إياها ابنته ووجد فيها مجموعة شتائم وبأشكال متنوّعة، يعتبر الكاتب فيها أنَّ زواجها من «بينوى» أمر مؤكَّد، ويرى أنَّه من الأفضل توجيه هذه الإهانة لـ«لوليتّا» لمعاقبتها، بالإضافة إلى ذلك، فقد نعتَ كاتب الرسالة «بينوى» بصفات منحطّة وبشَّرهم بأنَّه سيملّ سريعاً من زوجته البراهمو وسيهجرها ليتزوّج من أخرى هندوسية.

أخذ «هاران» الرسالة من بين يدي «باريش بابو» وبعد أن قرأها، توجَّه إلى «لوليتّا»:

-"هذه الرسالة تغضبكِ يا «لوليتّا»، لكن أليس الخطأ خطأكِ إن تمكّنوا من توجيهها إليكِ؟ كيف استطعتِ أن تكتبي أنتِ بنفسكِ رسالة كهذه والواضح فيها أنَّها بخط يدكِ أنتِ؟"

وأظهر لها الرسالة التي أرسلتها جواباً إلى صديقتها، فعلّقت «لوليتّا» بعد دقيقة من المفاجأة:

-"آه! هذا أنتَ من تراسله «شيلا» بصدد موضوعي أنا".

تجنَّب «هاران» الردّ المباشر لكنه قال:

-"لقد تذكَّرَتْ واجبها تجاه «البراهمو – ساماج»، فكانت مجبرة على أن تبعث لي رسالتكِ".

ردّت «لوليتّا» بشجاعة وهي واقفة أمامه:

-"قل لي كل شيء تماماً كما هو، ماذا يريد «الساماج» مني أن أقول".

-"الشائعة التي تنتشر في «الساماج» والتي تخصّ علاقاتكِ مع «بينوى بابو»، والتي من جهتي لن أضيف إليها أي شيء، أودُّ أن أسمع تكذيبها من فمكِ أنت".

أمسكت «لوليتّا» بيديها المرتعشتين مسند كرسي والشرر يتطاير من عينيها، وأجابت:

-"ولماذا، أرجوك، لماذا لا تضيف أي تأكيد على هذا الصخب؟"

عندها قال لها «باريش بابو» وهو يلامس كتفها:

-" الآن يا «لوليتّا» أنتِ ثائرة الأعصاب جداً ولا يصحّ أن تناقشي في هذا الموضوع، يستحسن أن تحدّثيني عنه فيما بعد، لنقفل هذا الموضوع حالياً".

فاستدرك «هاران» قائلاً:

-"لا تحاول يا «باريش بابو» أن تخمد القضيّة الآن وقد بدأنا نتصدّى لها".

هذه الجملة الأخيرة زادت من هياج «لوليتّا»:

-"أبي يكتم قضيّة! أبي ليس مثلكم فهو لا يخاف من الحقيقة، إنّه يعرف وأؤكّد لك ذلك أنّ الحقيقة أكبر بكثير من «براهمو – ساماجكم»، وأنا لا أرى أيّة فضيحة، ولا أرى أنّه أمر مستحيل أن أتزوّج «بينوى».

فسأل «هاران»:

-"هل قرَّرَ إذاً أن يتعلّم الديانة البراهموية؟

فقالت «لوليتّا»:

-"لم يقرِّر شيئاً، وما هي الضرورة كي يتلقّن البراهموية؟"

أمّا «بارودا» فقد لزمت الصمت حتى هذه اللحظة، ولو أنّها كانت تتمنّى انتصار «هاران بابو» في هذا اليوم وإجبار «باريش بابو» على الاعتراف بغلطه وإظهار الرجوع عنه، غير أنّها إثر هذه الأقوال لم يعد بإمكانها أن تتمالك نفسها فدخلت في المناقشة بقولها:

-"هل جُننتِ يا «لوليتّا»؟ ما هذا الذي تقولينه؟"

-"كلاً يا أمّاه أنا لست مجنونة، وعندما أقول شيئاً أقوله بعد تفكير ناضج، وأرفض أن أكون مقيّدة من كلّ الجوانب، لقد قرّرتُ أن أتحرّر من هذه المجموعة المؤلفة من «هاران بابو» وزمرته".

فقال «هاران» بتهكّم:

-"إنّكِ تصرّين على طلب رخصة مطلقة العنان".

أجابت «لوليتّا»:

-"كلاّ، أن أكون حرّة تعني بالنسبة إليّ الانعتاق من عبودية الزيف هذه ومن تلك الانتقادات الحقيرة، فلماذا يسمح «البراهمو - ساماج» لنفسه بالتدخّل ووضع المعوقات في دربي في المكان الذي لا أجد فيه شيئاً باطلاً أو مناقضاً لديانتي؟"

التفت «هاران» نحو «باريش بابو» وقال له بفظاظة:

-"أترى أخيراً يا «باريش بابو»، لقد كنتُ أعرف دوماً أنّكَ في النهاية ستصل إلى موقف من هذا النوع، لقد عَمِلتُ ما بوسعي لتحذيرك لكن دون جدوى".

فقالت «لوليتّا»:

-"اسمع يا «هاران بابو» أنا أيضاً أُحذِّركَ، توقّف عن تقديم نصائحكَ بوقاحة إلى الذين يفوقونك بكثير في جميع الميادين".

بعد هذه الأقوال خرجت من الغرفة. فصرخت «بارودا» قائلة:

-"انظروا لهذه المتغطرسة. لنبحث الآن عمّا ينبغي فعله".

فقال «باريش بابو»:

-"سنقوم بواجبنا، لكننا لن نستطيع تمييز واجبنا في جوّ مضطرب بهذا القدر، اعذراني لكن ليس بإمكاني أن أناقش في الوقت الحاضر، إنّي بحاجة لأن أكون وحدي لفترة من الزمن".

الفصل الحادي والخمسون

عندما علمت «سوشاريتّا» بما حصل أدركت مدى البلبلة الجميلة التي سببتها «لوليتّا». بعد بضع دقائق صمت قالت وهي تلفّ ذراعها حول رقبة أختها:

- "إنّني خائفة يا عزيزتي".

- "ممَّ أنتِ خائفة؟"

-"«البراهمو - ساماج» يصنع فضيحة كبيرة! وإذا لم يوافق «بينوى بابو» بعد ذلك؟

فخفضت «لوليتّا» جبهتها وقالت بثقة كبيرة:

-"سيوافق".

فتابعت «سوشاريتّا» تقول:

-"هل تعلمين أنَّ «هاران بابو» قد شجَّع أمّي على أمل أنَّ «بينوى بابو» لن يقبل بهذا الزواج إن كان يشترط الانفصال عن بيئته الخاصة، لماذا لم تفكّري بكل هذه المصاعب قبل أن تعاملي «هاران بابو» بهذه الطريقة كما فعلتِ؟"

فصرخت «لوليتّا» قائلة:

-"لا تتخيّلي أبداً أنّني نادمة لأنّني تكلمتُ بهذا الأسلوب؛ إذا ظنَّ «هاران بابو» وحزبه أنَّ حصاري على ضفة الماء كحيوان مطارد ستمكّنهم

من أسري فسيرون سريعاً أنَّهم قد أخطؤوا. إنّه يجهل أنّني لا أخاف من القفز في البحر، بل أفضّل القفز على الوقوع في براثن جماعته المتكالبة ضدّي والتي ليست مؤلفة إلاّ من كلاب تنبح".

فاقترحت «سوشاريتّا»:

-"لنستشر أبي".

-"أؤكّد لكِ أنَّ أبي لن ينضمَّ إلى المدّعين، فأبي لم يحاول أبداً أن يضيّق على فكرنا وتحرّكنا، هل شاهدناه يغضب مرّة في حياته عندما كنّا نؤيّد رأياً مختلفاً عن رأيه؟ أو هل حاول مرّة أن يقيّد حريتنا بحجّة «البراهمو - ساماج»؟ كم من مرّة غضبتْ منه أمّي بسبب هذا الموقف! كان أبي يخشى فقط أن نفقد ميزة التفكير وحدنا مستقلّين عن أي تأثير، فبعد أن أنشأنا بهذه الطريقة هل تتصوّرين أنّه سيسلّمنا إلى سجّان في «البراهمو - ساماج» كـ«هاران بابو»؟"

فقالت «سوشاريتّا»:

-"فليكن، لنفرض أنَّ أبي لن يعترض، ماذا بنيّتكِ أن تفعلي الآن؟"

-"إذا كان أحدكم لا يريد أن يتحرك، عندها، أنا نفسي سوف..."

لكن «سوشاريتّا» قاطعتها بقلق قائلة:

-"كلاّ، كلاّ يا حبيبتي، لا تقومي بأيّة مبادرة، عندي فكرة".

في هذه الفترة كان من عادة «باريش بابو» في المساء أن يمشي وحده ذارعاً الحديقة طولاً وعرضاً حانياً رأسه مستغرقاً في أفكاره، إذ كان يبدو له أنَّ كل الصعوبات التي خلّفتها رضوض العمل اليومي تزول من رأسه في الظلمة، وبذلك يستعدّ للنوم الليلي بعد أن يملأ صدره بشهيق عميق يستنشقه من الجوّ الهادئ. في هذه الأمسية بالذات وبينما كانت «سوشاريتّا» تستعدّ للذهاب إليه إذ به يأتي إليها بنفسه. وعندما دخل إلى غرفتها بوجهه

المضطرب، بعد أن ضحّى بتأمّله الفردي، شعرت «سوشاريتّا» نحوه بالحنو كالأمّ التي تشعر بالألم عندما تشاهد ولدها مريضاً وصامتاً في سريره يتكبّد الألم عوضاً من أن يلعب بفرح.

-"أعتقد أنّكِ على علم بما جرى يا «رادها»؟"

-"أجل يا أبي أعرف، لكن لماذا أنتَ متخوّف إلى هذا الحدّ؟"

-"أمر واحد يقلقني فقط، هل ستكون «لوليتّا» قادرة على تحمّل عنف الهجوم الذي أثارته؟ في سَوْرة الغضب والهيجان، الكبرياء العمياء تحجب العقل، لكن عندما تنضج ثمار أفعالنا واحدة تلو الأخرى تنهار أحياناً القوّة التي تدعم التبعات المنطقية لهذه الأفعال، هل فكّرتْ «لوليتّا» بعواقب سلوكها قبل أن تقرّر ما هو الأفضل لها؟ هل تعرف الآن كيف ينبغي لها أن تتصرّف؟"

-"في جميع الأحوال أؤكّدُ لكَ أنّ «لوليتّا» لن تُهان ولن تُقهَر من العقوبة التي يرى المجتمع أنّه من المفيد توجيهها لها".

-"أودُّ أن أكون على يقين بأنّ «لوليتّا» لم تبدِ هذا الاندفاع للثورة في ساعة غضب".

فقالت «سوشاريتّا» وقد خفضت عينيها:

-لا يا أبي، لو كانت على هذه الصورة لما أصغيتُ إليها، فهي على العكس من ذلك، تلك الفكرة عميقة وقديمة عندها ولكنها ظهرت عندما تلقّت هذه الطعنة المباغتة، فتاة كـ«لوليتّا" لا أحد يرهبها، ثمّ يا أبي، «بينوى بابو» شاب طيّب وكريم".

-"لكن هل هو مستعدّ ليصبح عضواً في «البراهمو – ساماج»؟"

-أنا غير متأكّدة من ذلك، ما رأيك في أن أذهب لزيارة أم «غور بابو»؟

-"كنتُ أفكّر في ذلك تحديداً وسيكون أمراً جيداً أن تذهبي إليها".

الفصل الثاني والخمسون

اعتاد «بينوى» كل صباح أن يغادر منزل «آناندامو ا» حيث يقيم وينام في هــذه الفترة ليمرَّ بمنزله، وذات يوم وجد في غرفته رســالة تنتظره، رسالة من مجهول تحتوي كلّ أنواع الحجج ضد زواجه من «لوليتّا»؛ يحذّرونه فيها بأنَّ هذا الزواج سيتعسه وسيجلب الكارثة على «لوليتّا»، وينصحونه بألاّ يستمرَّ في مشروعه، وأن يأخذ بعين الاعتبار كلّ هذه التحذيرات وأن يفكّر مليّاً لأن «لوليتّا» رئتاها ضعيفتان والأطباء يشكّون حتى بأنّها مصابة بداء السلّ.

أُسقط بيد «بينوى» بعد هذه القراءة، لم يتخيّل أبداً أنَّ باستطاعتهم تلفيق هذا القدر من الأكاذيب الواضحة للعيان؛ استحالة زواجه من «لوليتّا» أمر بدهي برأي الجميع نظراً لتعارض العادات الاجتماعية، هذا السبب يفسّر شعوره القديم بأن حبّه آثم، في حين أنَّ كتابة رسالة من هذا النوع إليه تعني دون أدنى شك بأنَّ أوساط «البراهمو – ساماج» تعتبر الزواج وكأنّه أمر مؤكّد؟ فتألّم بشدة وهو يتصوّر كيف يُقدِم أعضاء «البراهمو – ساماج » على إهانة «لوليتّا» ولومها متذرعين بحجج من هذا القبيل، وأن يُقرَن اسم «لوليتّا» باسمه بتهوّر شديد بشكلٍ يعرّضها للانتقادات العامة؛ هذا الفعل لم يبدُ له مزعجاً فقط بل معيباً ومخجلاً، وبعد ذلك قاده تفكيره طبعاً إلى الافتراض بأنَّ «لوليتّا» تلوم نفسها الآن لأنّها أبدت له نوعاً من الصداقة، وبأنّها نادمة على اليوم الذي قابلته فيه، وربّما لم تعد تتحمّل رؤيته اليوم.

يا لضعف القلب البشري! بين هذه الملامات الشديدة الموجّهة إلى «بينوى»، تسرّب إلى نفسه فرح غامر وعميق أثار مشاعره وألغى وجود الإهانة والعار، ولكي لا يطير به ذلك الفرح أخذ يذرع الشرفة بخطوات سريعة، بينما انبعثت له من ضياء الفجر نشوة جعلت صراخ البائعين الجوّالين في الطريق يوقظ فيه حرارة داخلية، هذا السيل من الشتائم الذي يطال «لوليتّا» ألا يدفعه باتجاه الملاذ الآمن الذي يوفّره حنانها؟ لم يستطع أن يبعد صورتها عن مخيّلته منتزَعة بهذا الدفق من محيطها ومحمولة إليه، فصرخ من أعماق روحه، «لوليتّا» لي، ولي فقط!".

لم يتجرّأ حتى الآن على تلفّظ هذه الكلمات وبهذه الثقة، لكنه اليوم لم يعد يتمالك نفسه أبداً وهو يسمع صدى تطلعه العميق آتياً من الخارج.

بينما كان يذرع الشرفة جيئة وذهاباً بخطى هائجة، وإذ به يلمح «هاران» فجأة متجهاً نحو منزله، فأدرك على الفور من هو كاتب الرسالة المغفلة.

بعد أن قدّم كرسياً لــ«هاران» انتظر «بينوى» دون أن يبدي أريحيته الاعتيادية، وأخيراً بدأ «هاران» الكلام:

- "أنتَ هندوسي، أليس كذلك يا «بينوى بابو»؟"

- "بالتأكيد".

فرجاه «هاران» قائلاً:

- "لا تنزعج من سؤالي، نحن نعمى غالباً عن رؤية الأمور عندما لا ننظر إلى مسألة إلاّ من وجهة نظر واحدة، وخصوصاً عندما يوشك سلوكنا أن يزعزع المجتمع، كما ينبغي علينا أن نستقبل بودّ أي شخص يسأل بصراحة عمّا نكونه وما هي حدودنا، وأيّة نتيجة يمكن لسلوكنا أن يُحدِث".

فقال «بينوى» وهو يحاول أن يضحك:

- "لا فائدة من هذه الديباجة، لستُ ذاك الرجل الذي يجنُّ أمام مسائل معقّدة، أو يمارس العنف ضد من يستجوبه، اسألني دون خوف عمّا تريد معرفته، وما هو الموضوع بالضبط".

اعتذر «هاران» قائلاً:

- "ليس في نيتي أن أتهمكَ بغلطة لا إرادية، ولستُ بحاجة لأقول لكَ بأنْ ثمار عدم التحفّظ هي غالباً مفسدة".

فصاح «بينوى» متعجّباً وقد نفد صبره:

- "الأمر الذي لست بحاجة لتقوله لي، لا تتحدّث حوله على الإطلاق، قل ما تريد أن تقوله فعلاً".

- "هل من الاستقامة بمكان بالنسبة إليكَ أنتَ الهندوسي – وستبقى طبيعياً مرتبطاً بمجتمعك الهندوسي – أن تقوم بزيارات متعدّدة إلى منزل «باريش بابو» حتى أصبح تكرارها يثير همسات وانتقادات تمسّ سمعة بناته؟"

فاحتجَّ «بينوى» قائلاً:

- "اسمع يا «هاران بابو»، لا يمكنني أن أشعر بالمسؤولية عمّا يتخيّله أناس من مجموعة ما بخصوص ظروف ما، الملاحظات تتعلّق بأخلاق الناس بنسبة كبيرة، فإذا كان أعضاء من «براهمو – ساماجكَ» قادرين على الثرثرة في موضوع بنات «باريش بابو» وعلى خلق فضيحة بهذا الخصوص، فحريّ بهؤلاء الأشخاص أن يكونوا محرَجين وخجلين".

فصاح «هاران» يقول:

- "أخيراً، إذا تركتْ صبيةٌ ما حماية والدتها وذهبت تتنزّه وحدها مع شابٍّ غريب على متن سفينة، ألا يقع هذا الظرف تحت رقابة المجتمع؟"

- "هذا صحيح إذا وضعنا على الصعيد نفسه حادثاً عرَضياً وغلطةً ذات صفة أخلاقية، لماذا اعتبرتَ انفصالكَ عن المجتمع الهندوسي – يوماً ما – كي تصبح «براهمو»، ضرورياً؟ في جميع الأحوال يا «هاران بابو» لا أرى فائدة من المناقشة، عليّ أن أقرّرَ بنفسي أين هو واجبي وأنتَ لن تساعدني في ذلك بأيّ حال من الأحوال".

فقال «هاران»:

- "لن آخذَ من وقتكَ أكثر من ذلك، لكن كلمة أخيرة أقولها لكَ، من الآن فصاعداً ينبغي عليكَ أن تبتعد عنهم، فإذا لم تفعل ستكون مذنباً حقاً، بمعاشرتك لعائلة «باريش بابو» قد تسبَّبتَ بكثير من الأذى، ولا أحد يعرف بعد أيّ ضرر قد تسبَّبت به لهم جميعاً".

بعد أن غادر «هاران»، أخذت ظنون «بينوى» تعذّبه، فـ«باريش بابو»، الرجل النبيل والبريء، قد استقبلهما في بيته هو و«غورا» بالترحاب وبكل ودّ وكياسة! ربّما قد تجاوز «بينوى» حدود الأدب، لكنه لم يقصّر أبداً في واجب الاحترام والمحبّة؛ في هذا المنزل «البراهموي» وجد ملاذاً لم يصادف مثله في مكان آخر، كما أنَّ مناخ هذا البيت لاءم طبيعته تماماً وكذلك فعلاقاته مع كل سكّانه قد أغنت وجوده، وفي هذه العائلة التي وفّرت له استقبالاً كهذا وجد الكثير من الصداقة والسعادة، فهل يترك بين أفرادها ذكرى مُرَّة!؟ هل لطّخ سمعة بنات «باريش بابو» وجلب لهنَّ اللوم بخطأ منه!؟ لقد تسبَّب في حادثة مهينة ستؤثّر سلباً على كلّ مستقبل «لوليتّا»، كيف يُصلِح الضرر الذي سبَّبه؟ وا أسفاه! يا للعثرة الرهيبة التي يسبّبها من يسمّى بالمجتمع على درب الحقيقة! لا توجد أيّة حجّة ذات قيمة يمكن أن تمنع زواج «لوليتّا» و«بينوى»، الربّ الحقيقي لقلبيهما يعرف أنَّ «بينوى» جاهز للتضحية بكل حياته من أجل سعادة «لوليتّا». أليس هو الربّ الذي جذب «بينوى» إليها بطريقة لا تُردّ؟ فمراسيمه لا تعارِض اتحادهما، هل الله الذي يعبده أشخاص كـ«باريش بابو» في «البراهمو- ساماج» مختلف عن الله الذي يعبده «بينوى»؟ تحريم مريع، كلّ المخالب انتصبت لتهدّد ولتفصل القلوب. هل يكون الخضوع لأنظمة المجتمع وليس لأوامر «سيّد» القلوب خطيئة؟ والأمر المؤسف هو أنَّ هذه الأنظمة بالضبط هي التي ترغم «لوليتّا» وتلزمها، من جهة أخرى ربّما لا تشعر «لوليتّا» تجاهه بـ .... ليس هناك من حدود للشكوك التي تلاحقه وترهقه.

الفصل الثالث والخمسون

بينما كان «هاران بابو» في زيارة «بينوى» أتى «آبيناش» لزيارة «آناندامو ا» ليخبرها بأنَّ زواج «بينوى» من «لوليتّا» قد تقرَّرَ. فقالت «آناندامو ا»:

- "هذا ليس صحيحاً".

فاحتجَّ «آبيناش» قائلاً:

- "لماذا لا يكون صحيحاً؟ هل تعتقدين أنّه مستحيل على «بينوى» أن يُقدِم على مثل هذا الزواج؟"

- "لا أدري، لكني متأكّدة بأنّه لن يخفي عني قراراً بهذه الأهميّة أبداً".

أصرَّ «آبيناش» على رأيه بقوله أنّه قد اِستقى الخبر من شخصيات مهمّة في «البراهمو – ساماج» يؤكّدون دقتها، وأضاف أنّه كان يتوقّع لـ«بينوى» ومنذ زمن بعيد نهاية محزنة وتدعو للرثاء بهذا الشكل، حتى إنه قد ناقشها مع «غورا» . وبعد أن نقل الخبر إلى «آناندامو ا» نزل إلى «مُهيم» ونقل له القصّة بالتفصيل وهو يتلذّذ بها.

عندما عاد «بينوى» هذا الصباح إليها، رأتْ «آناندامو ا» على وجهه آثاراً لاضطراب عميق، وبعد أن قدّمت له الفطور اِستدعته إلى غرفتها وسألته:

- "حسن يا «بينوى»، ماذا جرى؟"

- أرجوكِ يا أمّاه اِقرأي هذه الرسالة".

ثمَّ تابع «بينوى» قائلاً:

- "أتى لزيارتي هذا الصباح «هاران بابو» وزجرني بقسوة وحسب الأصول".

- "في أيِّ موضوع؟"

- " يقول أنَّ سلوكي قد أثار فضيحة في «البراهمو - ساماج» تطال بنات «باريش بابو».

- "يتحدّث الناس عن زواجك من «لوليتّا» وبأنّه قد تقرَّرَ، أنا لا أرى هنا سبباً للفضيحة".

- "لو كان الزواج ممكناً لما كان هناك سبب للفضيحة، لكن يا للدناءة في نشر مثل هذه الإشاعة عندما يكون الزواج مستحيلاً! ويكون الجبن أكبر عندما يتعلّق الموضوع بـ«لوليتّا»".

- "بقوّة عزمكَ يمكنكَ أن تنقذها بسهولة من مثل هذه الانتقادات اللاّذعة".

فسأل «بينوى» متعجّباً:

- "قولي لي كيف؟"

- "كيف؟ بأن تتزوّجها".

فسألها «بينوى» وهو مرتبك خجِل:

- "آه يا أمّاه! ماذا تقولين هنا؟ لا أفهم ماذا تتخيّلين عندما يتعلّق الموضوع بـ«بينواك»، هل تعتقدين أنّه يكفي لي أن أقول، أريد أن أتزوّجها؟ وعندها سيرضخ العالم وينحني؟ وهل ينتظر العالم بكلِّ بساطة تحركاً من ناحيتي؟"

- "لا أرى دافعاً لكلِّ هذه الثرثرات، كلّ شيء سيكون على ما يرام إن قمتَ بكل بساطة بما تستطيع أن تقوم به، في جميع الأحوال بإمكانك أن تعلن بأنّك جاهز للزواج منها".

- "عرض أخرق، ألا يشكّل إهانة لـ«لوليتّا»؟"